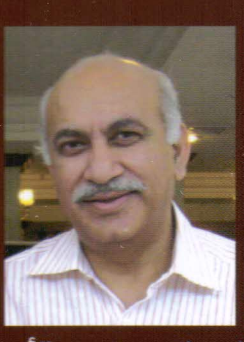

تحت ظلال السيوف
بين الإسلام والمسيحية
مبشر جاويد أكبر
ترجمة:
عميد الزمان الكيرانوي
راشد علي

نبذة عن المؤلف:



ولد الكاتب والصحافي مبشر جواد أكبر في العام ١٩٥١. درس في "بريزيدنسي كوليج" بكالكوتا حيث حصل على ليسانس في الأدب الإنجليزي. في العام ١٩٧١ انضم إلى صحيفة "تايمز أوف إنديا" ثم انتقل ككاتب ومحرر إلى "أسبوعية الهند المصوّرة". عمل في عام ١٩٧٦ محرراً لمجلة "صانداي" التي تعدّ أول أسبوعية سياسية هندية. وفي ١٩٨٢ أطلق ما يعتبره كثيرون أول صحيفة هندية عصرية وهي "ذي تلغراف" التي كان لها أبعد الأثر على صناعة الثقافة في الهند. عمل لفترة قصيرة في نهاية الثمانينيات في السياسة ليعود بعدها إلى الصحافة التي ما زالت تعتبر نشاطه الأساسي، وقد أطلق في ٢٠٠٨ مجلة "كوفرت" السياسية والموقع الإلكتروني الذي يحمل الاسم نفسه.

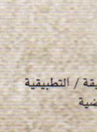
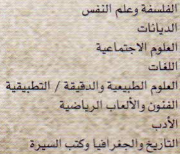
نبذة عن المترجمين:

عميد الزمان الكيرانوي خرّيج الجامعة الإسلامية لدار العلوم-ديوبند. حاصل على شهادة البكالوريوس والماجستير في اللغة العربية وآدابها من جامعة دلهي، وهو الرئيس التنفيذي لمنظمة علماء دار العلوم بديوبند، كما أنه عضو تأسيسي في هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين في الهند، وأمين عام المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند.

راشد علي خرّيج الجامعة الإسلامية لدار العلوم، وحائز على شهادة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية. يدرّس اللغة العربية منذ ست سنوات في الهند، وله مقالات عدة باللغة العربية.

تحت ظلال السيوف

ينطلق كتاب "تحت ظلال السيوف" مما يعتبره نقطة تحوّل كبيرة، لها علاقة بجنوب آسيا (باكستان وأفغانستان) حيث انطلقت حرب ضدّ "الغرب الكافر" يقودها أناس (إسلاميون) مدفوعون بقيمة الشهادة والجهاد، وبالتالي يسعى المؤلف على امتداد الكتاب وفصوله إلى رصد هذا التحوّل، وكيف انتقل الفكر الجهادي ووجد أساساً قوياً في تلك المنطقة من العالم، ليذهب من هناك إلى نقاش فكرة الجهاد نفسها، على نحو ما يشير عنوان أحد فصوله التي يعالج فيها مفهوم "الجهاد" والموت بدافع الجهاد بوصفه "صفقة مع الله". يبدأ المؤلف من بدايات الإسلام ولا سيّما "غزوة بدر"، التي برز فيها هذا المفهوم، أي الجهاد، بأوضح صوره، من خلال فكرة دحر العدو وإلحاق الهزيمة به عبر الشهادة، وإن كان هذا العدو أكثر عدداً وأقوى عدة وعتاداً. ويتلمس المؤلف في النص القرآني كما في الأحاديث النبوية، ما يحضّ على الجهاد ويدعو إليه، وكيف ارتبط دائماً بفكرة نيل الجنة، ذلك أن الجنة بحسب الحديث النبوي "تحت ظلال السيوف".






ISBN 978-9948-01-310-5

تحت ظلال السيوف

تحت ظلال السيوف

بين الإسلام والمسيحية

تأليف:

مبشر جاويد أكبر

ترجمة:

عميد الزمان الكيرانوي

راشد علي

مراجعة:

عمر الأيوبي

و

أنس أبوهلال





© هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

BP182.A43612 2009
Akbar, M.J.
تحت ظلال السيوف: بين الاسلام والمسيحية / تأليف مبشر جاويد أكبر؛ ترجمة عميد الزمان الكيرانوي، راشد علي. ـ ط.1ـ أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
344 ص: 17 x 24 سم.
ترجمة كتاب: The Shade of Swords
تدمك:978-9948-01-310-5
1 ـ الجهاد-تاريخ 2 ـ الاسلام-تاريخ. 3 ـ الصراع الاجتماعي-تاريخ
4 ـ الاسلام والمسيحية-تاريخ أ. الكيرانوي، عميد الزمان. ب. علي، راشد.
تحت ظلال السيوف
هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي
M. J. Akbar, The Shade of Swords: Between Islam and Christianity, 2002,
ISBN: 81-7436-208-8





الطبعة العربية الأولى 1430 هـ 2009 م

أبوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380، هاتف: 6314468 2 971+، فاكس: 6314462 2 971+
info@kalima.ae
www.kalima.ae

المحتويات

شكر

يكره المؤلفون الاعتراف بأن المخاض يأتيهم أحياناً، وهم يحملون تصوراً واضحاً، وأحياناً يحملون تصوراً يعوزه الوضوح، والزمن وحده كفيل بالحكم على الاختلاف بين الأمرين. مرّ إعداد هذا الكتاب وتكوُّنه بمراحل صعبة على وجه غير عادي، وبناء عليه فإن قائمة من أدين لهم في إنجازه طويلة حقاً، وأطول كثيراً من الأسماء القليلة التي ستلي.

جاءت إحدى المقالات الأولى التي تناولت فيها العالم الإسلامي في أطواره المتقلِّبة نتاج رحلة قمت بها في الثمانينيات من القرن الماضي بين أنقاض الاتحاد السوفييتي المنهار. تعرضت في تلك المقالة أيضاً لاندفاع الإسلام المفاجىء الذي شهده عدد من أعرق البلدان الإسلامية في العالم، لاسيما في منطقة آسيا الوسطى. فملأ الدين الفراغ الذي خلّفته الشيوعية المتراجعة.

جاءت زيارتي الأولى للمنطقة في السنة نفسها التي اختبرت فيها مارجريت تاتشر بزوغ فجر جديد بقيادة ميخائيل جورباتشوف بإنارة شمعة في كنيسة في موسكو. فما كان مني إلا أن حذوت حذوها. أبلغت دليلي في جولة سياحية منظمة في دوشامبي أنني أريد أن أصلي في أحد المساجد يوم الجمعة المقبل، وألححت في السؤال لأنني علمت أن «الرفيق ميخائيل» قد حرَّر الدين من أغلال الماركسية. والله وحده يعلم كم من الرسائل تبادلها دليلي مع رؤسائه في موسكو عبر التلكس. (هل تذكرون "التلكس"؟ بُدِءَ العمل على تأليف هذا الكتاب في عصر ما قبل البريد الإلكتروني. وأنتهز هذه الفرصة لأسجل اعترافاً بأن هذا الكتاب لم يكن ليصل إلى مرحلة الاكتمال في موعده من دون البريد الإلكتروني

بـارك الله فـيه؛ فالـشكر لبيل جيتس أو لكل من يستحقه). ولما جاء يوم الجمعة راحـوا يقـودون الـسيارة وسـط ريف جميل مدة ساعتين حتى وصلنا إلى مسجد بجوار ضريح مرشد صوفي؛ إذ إنهم لم يجدوا لي مسجداً أقرب منه.

اسـتقبلني رجـال الـدين، الـذين أخذتهم الدهشة برؤيتي، استقبالاً صامتاً شابته ريب وشكوك، لقد أثارت فكرة إحضار موسكو الشيوعية مؤمناً إلى عتبتهم مخـاوفهم جميعهم، وبادروا إلى وضع أطيب أنواع البطيخ والرمان والفواكه بين يـدَي، آملـين بـأن أنـصرف بعـد أن أتـناول شيئاً منها. ولم يكن من الميسور أن نـتجاذب أطـراف الحديث لأنهم كانوا يعرفون من اللغة الإنكليزية بقدر ما أعرفه مـن لغـتهم الأزبكـية. بعـبارة أخرى لم يكن هؤلاء يفهمون شيئاً من لغتي ولا أنا أفهم من لغتهم شيئاً. في آخر الأمر اشتدت بي الرغبة في قول شيء ما، فطرحت سـؤالاً تافهاً: ما اسم هذا المسجد؟. "مسجد لينين"! أجاب هؤلاء. هززت كتفي علامـة على الشك؛ لأنني كنت متأكداً من أن سؤالي ضاع في تيه اللغة. طرحت الـسؤال نفـسه مرة أخرى: مسجد لينين؟ هنا تسارعت في رأسي الأفكار. فكّرت أن الله سـيغفر في يـوم الحـساب سـلوك مـتجوّل عـاصٍ مثلـي. إنّ الله رحـيم، والمـسلمون مـن أمـثالي هم أحوج ما يكونون لرحمته. لست من المصلِّين الذين يداومون على صلواتهم؛ لكنني شعرت بأن الله مهما كان لطيفاً بعباده لن يغفر لي إن لم أخرَّ ساجداً له في مسجد سمّيَ باسم لينين. فانضممت في تلك الظهيرة إلى ستة مصلين آخرين واقفين خلف الإمام.

أثـناء آخـر زيـارة لي إلى آسيا الوسطى وجدت المساجد والمدارس تتكاثر في جمـيع المـدن الإسـلامية كطشقند وسمرقند وبخارى. كان الإسلام قد نفض عـنه قـرناً ونصف القرن من الهزيمة والخضوع والإهانة، وأعاد تأكيد وجوده من خلال المآذن المنتشرة في سماء آسيا الوسطى.

يشغل العالم الإسلامي - بما فيه إسبانيا والبرتغال (أجزاؤه المفقودة) - مساحة جغرافية رائعة تضم الجبال والصحراء الشاسعة وأراضي النيل الخصبة، وتصل إلى قلب أفريقيا جنوباً، ثم عبر البحر الأحمر إلى منطقة الصراعات بين الأمم السامية والمدينتين المقدّستين في شبه الجزيرة العربية، فالقدس التي تطالب بها الديانات الكبرى الثلاث، ويجد كل منها ما يكفي من الأسباب للقتال من أجلها. وتشكل الحضارات القديمة الأربع: التركية والفارسية والعربية (العراقية) والجنوب آسيوية قوساً، في حين يشكّل الخط الممتدّ من ألبانيا مروراً بالقوقاز، وعلى طول آسيا الوسطى الحدود الشمالية للإسلام. ثم هناك الهند بجمالها الأخّاذ التي تفتح طرقاً للوصول إلى جنوب شرق آسيا الحارّ والرطب: مئات الأعراق البشرية تنتشر عبر القارات والدول وتشكّل مزيجاً مشوّشاً من الثقافات المختلفة، ومع ذلك فإن عقيدة واحدة وموحِّدة قد تجنّبت الارتياب المرادف للدين في العصور الحديثة.

الإسلام دين رؤية عالمية، وهذا ما يثير حيرة لدى العالم في بعض الأحيان. فوحدة الاستجابة للقضايا الأساسية، من مسجد في باكو إلى آخر في جزيرة بالي تُدهش العالم، لأنه يفضل أن تكون تلك الاستجابة مقسمة على حسب التكتلات الوطنية. لقد أصبح هذا الكتاب حكاية مطوّلة لرحلات بين تلك الأوطان، أو بالأحرى جاءت الرحلات قبل تأليف الكتاب، ثم إن إعداد الكتاب نفسه تطلّب القيام برحلات أخرى. وثمة سلسلة من الأصدقاء تربط سنوات البحث هذه بعضها إلى بعض. وأرجو أن يعذرني القارئ لأنني لم أذكر أسماء هؤلاء إلا قلة منهم.

من أين أبدأ؟ سأبدأ من الوسط حيث أصبحت التجربة والدراسة مدفوعة نحو فكرة، ثم سلكت الفكرة مسيرتها بنفسها. وفي مرحلة التنقل هذه وجدت عدداً كبيراً من أصدقائي المتميزين وزملائي المهنيين يقدمون لي عوناً، وفي

مقدّمتهم باتريك رايت الذي ساعدني في إضفاء وجهة نظر مستدامة على تلك الفكرة. وآمل أن أجد نفسي في يوم من الأيام قادراً على رد الجميل؛ لكن لا يمكنني أن أتصور ذلك الآن.

كانت هناك مجموعة - استخدمت هذه الكلمة عن قصد - من السفراء الهنود الذين عاملوني بكرم ولطف في دول لم يكن لي فيها أصدقاء ولا أعرف لغاتها، والمهمة استدعت معرفة الكثير. ويقفز اسم حامد أنصاري إلى ذهني تلقائياً؛ إنه رجل خفيف الحركة نشيط ونزيه، مرّ بأكثر من خطأ مرور الكرام، ورعاني طيلة إقامتي في إيران فترة أسبوعين أحسن رعاية. في هذا البلد أتيح لي أن أجري مناقشات قيِّمة في مدرسة قم مع الطلاب والعلماء، وكذلك مع المسؤولين والأكاديميين الملمين بنظرية الفكر الإسلامي وتطبيقها. لقد قمت باثنتي عشرة زيارة على الأقل إلى ما بين الشرق الأوسط وإسبانيا، ووجدت أن التاريخ في هذه المناطق أبعد ما يكون عن الموت. أو ربما أن من ماتوا ليسوا بعيدين عن التاريخ. في آخر هذه الزيارات أدَّيت مناسك العمرة في مكة، عندئذ كان صديقي تلميذ أحمد سفيراً للهند لدى المملكة العربية السعودية، وقد وفر لي مساعدة تامة وإعالة خفيفة. وفي إسبانيا وجدت دليب وشوفانا لاهيري على ما هو مألوف عنهما من كرم. أما هرديب بوري فإنه كثير الحركة بالنسبة إلى دبلوماسي، أم أن هاتين اللفظتين متناقضتان؟ وقد ساعدني في أي مكان وصلت إليه، وكثيراً ما وجدته يصنع الخوارق بطرائقه الغامضة. بدأت رحلاتي إلى باكستان في السبعينيات: وقد ساعد مانجووس. ك. سينجح في جعل إسلام أباد مدينة ألطف مما هي عليه لأي هندي زائر آخر. ودعني أضيف إلى ذلك أنه لو تعاملت الحكومتان الهندية والباكستانية معاً معاملة الهنود والباكستانيين في لقاءاتهم الشخصية فإن هذه المنطقة ستغدو منطقة فرح من دون دموع. في الحقيقة أنني لا أجد كلمات للتعبير عن مدى ما شعرت به من قيمة للصداقة مع حميد هارون حينما كنت في باكستان وما زلت أشعر بذلك حتى الآن. فقد

اسكتشفنا معاً بلده، باكستان، عبر ريفه ومدنه، ومن خلال الكتب والمناقشة. إن قائمة أصدقائي الهنود الذين ساندوني بمحبّتهم، بل بتسامحهم، لن تكون كاملة عند دفع الكتاب إلى الطبع . ربما يجدر بي أن أدعو فاطمة ورفيق زكريا بالموجّهين؛ فقد ساعدتني فاطمة في العام 1972 في الحصول على أول وظيفة لدى المجلة الأسبوعية الغالية "إلّستريتد ويكلي أوف إنديا" (Illustrated Weekly of India)، التي رأس تحريرها خوشوانت سينج. أشعر الآن أنني بمنزلة ابن لفاطمة ورفيق زكريا، وهذه المشاعر تمنحني البهجة.

كان هذا العقد الأخير عقداً صعباً بالنسبة لي لأكثر من سبب، لكن ثمة صديقاً وقف إلى جانبي طيلة هذه المرحلة الممتلئة بالمتاعب المرهقة، وهو تي. فينكت رام ردّي. التقيت برام وسط ضجيج الإعلام المألوف، حيث لا تقف الروابط الشخصية أمام الحاجات المتبادلة. لكنني حظيت بحبه ودعمه على مدى هذه السنين. وأهم ما في الأمر أننا زميلان في جريدة " ذا آسيان إيج" (The Asian Age) اليومية التي أصدرناها سنة 1994م. يتولى رام رئاسة الشركة التي أتاحت لي العمل ضمن مجموعة من أكثر المجموعات الآسيوية تسامحاً ومرونة؛ وذلك يقودني إلى مجموعتنا التي لا تزال تعمل في "آسيان إيج"، ومن أعضائها سيما مصطفى، وكوشيك ميتير، وسونيل سينها، وروبا ساركار، وتيكلي باسو، وسارجو كوك، وآديتي كانا، وفينكاتش كيسري، ونازرين بورا، وراشنا جروفير. أشكر زملائي في "آسيان إيج" جميعهم على ما تحملوه برفق وسهولة حيث جعلني هذا الكتاب منعزلاً أشد الانعزال.

وأود أن أشكر على وجه الخصوص ريتكا سيدارثا على المساعدة التي قدمتها إليّ في المرحلة الأخيرة التي آلمت الأعصاب والعضلات. وعندما بدأت المسودة تتخذ صورة كتاب كان من حسن الطالع أن وجدت صديقي براMود كبور وزوجته كيران اللذين يديران دار "رولي بوكس" بهمة ونشاط. وبفضل هذين

الصديقين استطعت أن أصل إلى كريستوفر تشيشر في دار راوتليج الذي ساعدني مساعدة لا تقدر بثمن، لاسيما بنصائحه البارعة. ومن المكافآت التي حصلت عليها أثناء وضع هذا الكتاب أننا أصبحنا صديقين. ثم إذا شئت أن يستبد بك أحد ويغالبك فإنني أنصحك أن تختار هاريندر باويجا (في رولي بوكس) الذي يزاوج بين المهنية الحديدية والابتسامة الخلابة مزاوجة طاغية. فيستسلم المؤلفون المتواضعون وينجزون. إنني على أي حال أشكركم، أشكركم جميعكم.

ليس هناك من رعاية أكبر من محبة الأصدقاء والأسرة. وهذان الاثنان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، فعندما تجد بين أصدقائك أناساً من أمثال سونيل وجيتا غجرال، وبرابين وأرونا وأنيل لال، وفي أسرتك شقيقة مثل شقيقتي غزالة، وزوجها لوكيش شارما، وشمع ومادو جون. لقد تطوّرت ابنتي موخوليكا وابني براياج بصورة ملحوظة منذ غادرا البيت، وربما ينطوي ذلك على سبب ومسبّب. وهما الآن على وشك الانطلاق في حياتهما المستقلة؛ لكن الحقيقة أنني أجد في أفكارهما وحبهما واهتمامهما متعة كبيرة بالفعل. وما أسعد من أن تتاح للمرء فرصة الاحتفال بالأسرة! بيد أن الحياة ستفقد أي معنى من دون زوجتي ملكة التي هي بمنزلة القلب النابض لأسرتي، والمحور الهادئ الذي ندور حوله جميعاً، وأغلى وأثمن مقوّم من مقوّمات حياة الأسرة، وحبها كلمة الشكر الأولى والأخيرة.

تقديـــم

تُـصدر جـريدة "الإيكونومـست" في نهايـة شهر ديسمبر من كل سنة عدداً تقلـيدياً بعـنوان "النظـر وإعـادة النظـر". وقد ختمت عددها للعام المفزع 2001م برســم كاريكاتوري يظهر زمناً والداً محاصراً وهو يسلّم العالم إلى زمن وليد أقل بهجـة. وكانـت الـنيران مـشتعلة في قـسمين من العالم: الشرق الأوسط وجنوب آسيا، حيث مركز الحريق الكبير الموجود في القسم الثاني من المنطقة المتجاورة التي تتكوّن من أفغانستان وباكستان وكشمير في الهند.

إن الحرب بين إسرائيل وجيرانها العرب موضوع تناولته الكتب والصحافة، وحـتى القصص والروايات؛ لكن التوترات التي تشهدها منطقة جنوب آسيا تبقى مهملـة وغير مفهومة إلى حد كبير. مع ذلك ففي باكستان وأفغانستان نزل الجنود الأمـريكيون والأوروبـيون لـيحاربوا الجهـاد الـذي شـنّ علـى الغرب المسيحي والـولايات المـتحدة الـتي كانت هدفه الرئيسي. هذا الوضع ليس وليد مصادفة؛ وإنمـا جـاء تـتويجاً لعمل طويل. سيبقى الجنود الأمريكيون في هذه المنطقة مدة أطول مما يتوقعون. فلطالما سقطت كابول مـن دون مقاومـة في الأعوام 1838م، 1879وم، 1978و، و2001م، ولطالمـا كـان الدخول إلى كابول أيسر من الخروج منها.

كـيف تحـولت باكـستان إلى تـربة خـصبة، علـى حد تعبير الجنرال حميد جول، مؤسس فكرة "إنشاء أول لواء دولي إسلامي في العصر الحديث"؟ وكيف عمّـت ثقافة الكلاشنكوف والجهاد باكستان، وفق التعبير الذي استخدمه في بث إذاعـي وطـني رجـل يسعى لتغيير ذلك الوضع هو الرئيس برويز مشرّف؟ وكيف وجـد أسـامة بن لادن ملاذاً وفرصة له في هذه الثقافة؟ تكمن الإجابات عن هذه

الأسئلة كلها في مصادر الغضب، ذلك أن رحى هذه الحرب تدور في الرؤوس بقدر ما تدور في أي ساحة أخرى من الساحات.

إننا نميل إلى تعريف الحرب من خلال الأمم والمصالح والجيوش النظامية. وهذا الجهاد حرب بالوكالة أيضاً تحارب باستراتيجيات مقتضبة وبجيوش غير نظامية. إلا أن تحديد معنى هذا الجانب الوحيد من جوانب الاستجابة الإسلامية للهيمنة الأمريكية المتصورة على العالم أمر شائك ومعقّد. فثمة استجابات أخرى مضمرة أيضاً، لكن الجهاد يبرز من خلال قدرته على تغيير مسارات التاريخ في يوم كيوم 11 سبتمبر 2001م.

يسعى هذا الكتاب إلى إيضاح طبيعة كل من المعركة وساحات المعركة وجذورها. فتاريخ الإسلام وتاريخ المنطقة يشكّلان هذه الحرب الفريدة التي جلبت الجنود الأمريكيين والأوروبيين إلى جنوب آسيا. الفصول الثمانية الأولى من هذا الكتاب توضح الأصول العقائدية والتاريخية للصراع بين الإسلام والمسيحية (ما من ديانتين أكثر ارتباطاً إحداهما بالأخرى رغم أنهما منفصلتان علناً): الحروب التي بدأت في عهد النبي ﷺ بهدف فرض السيطرة السياسية على العالم المعلوم حينذاك، والكراهية التي تسربت إلى الآداب والخطابات، مخلّفة جروحاً تدوم أكثر من مصائر المعارك.

بعد مرور سنتين على سقوط القسطنطينية، ذلك الرمز العظيم من رموز القوة المسيحية، في أيدي المسلمين عام 1453م، صدر مرسوم بابوي يمنح البرتغال الكاثوليكية سلطة شن حرب صليبية مقدسة على الشرق، والبحث في الهند عن ثروات وحلفاء ضد المسلمين العثمانيين الذين أحيوا الإسلام من جديد.

لكن البرتغال اكتشفت أن المسلمين الذين صاروا يحكمون أجزاء واسعة من جنوب آسيا في القرن الثاني عشر ما زالوا محتفظين بمكامن قوتهم، بل إن

سلالة أخرى من المغول الأتراك قد أسست أعظم إمبراطورية في الهند بعد أن تمكن البرتغاليون من كسب موطئ قدم لهم في جاوا بمدة وجيزة. وترك لبريطانيا المعادية للكاثوليك أمر إزاحة الإمبراطورية المغولية تدريجياً، ثم الحلول محلها. لقد آثرت بريطانيا عامة لغة التجارة على الحروب الصليبية؛ لكن استجابة المسلمين في الحرب وفي المجادلات الكلامية معاً استلهمت فكرة الجهاد دائمة الحضور.

ترشد الفصول الأخيرة القارئ عبر المواجهات في الشرق بجميع ما يرافقها من تنوعات باهرة؛ من القوقاز وأفغانستان إلى المعارك السياسية في الهند التي نجم عنها ما لم يكن يتصوره أحد: وطن جديد للمسلمين، أي باكستان. أنشأ باكستان قائد ليبرالي معتدل، لكن سرعان ما انزلقت خارج الحدود الفكرية لمؤسسها، وتحولت إلى وطن للأصوليين الذين يشكلّون تهديداً كبيراً لأنفسهم وللشعوب والأمم التي يسعون لإخضاعها.

المحور كبير وجانبي، ويتأرجح داخل الزمان والذاكرة والدين، والنصر والهزيمة، والتاريخ والجغرافيا. "تحت ظلال السيوف" يتتبّع خطاً يبدأ من صحراء شبه الجزيرة العربية، ويتدفّق عبر قوام حياة ساحة المعركة المصيرية في الحرب على الإرهاب، أي أفغانستان وباكستان.

المقدّمة

تحت ظلال السيوف ليس دعوةً للقتل؛ بل دعوة إلى الموت. كلما نطق المسلمون باسم نبيهم محمد أتبعوه بعبارة عليه الصلاة والسلام. السلام هو الهدف المعلن للإسلام، لأن كلمة الإسلام معناها الإذعان والتسليم. والسلام اسم من أسماء الله عز وجلّ أيضاً. لكن الدين الإسلامي يطالب أتباعه من حين إلى آخر، في الحروب المقدسة التي تحدّدها ظروف خاصة، أن يضحوا بدمائهم وأرواحهم دفاعاً عن دينهم. هذا هو الجهاد.

يغدو الإنسان مسلماً إذا قال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. والذين يُقتلوَن في سبيل الله يسمون شهداء، والشهيد يتلقى الموت وهو يبتسم، والموت يفتح له أبواب الجنة. من آمن بالله لا يطيع أحداً سواه، ولو اضطر حيناً للرضوخ فإن ذلك لا يكون سوى وقفة على طريق الانبعاث الجديد. المؤمنون لا يخضعون لهزيمة لأنها هزيمة، فهم يصبرون ويصابرون ويرابطون، ثم يجاهدون حتى يأتيهم النصر الذي وعدهم الله به، وذكره في القرآن بجلاء ووضوح تام.

لقد أقر الإسلام الحرب، وجعلها حقيقة من حقائق الشؤون الإنسانية، ورسم لها حدوداً سياسية وأخلاقية؛ بيد أن تلك الحدود مفتوحة لإساءة الاستعمال مثلما هي مفتوحة للاستعمال. ومن خلال هذا الكتاب حاولنا تفحّص الاختلاف عن طريق البحث في النص والتاريخ. إن إغراء إعادة تفسير النصوص والتاريخ تفسيراً يستجيب للمتطلبات المعاصرة "الصحيحة سياسياً" هو الشَّرَك الأول الذي يجب تفاديه. فهناك على سبيل المثال مسلمون يفسِّرون الجهاد بأنه

حمّام مقدّس وليس حرباً مقدسة، كأنه عمل تطهيري يقصد به تزكية الذات من داخلها.

نبّه النبي ﷺ إلى أن الجهاد الأكبر هو الجهاد الذي يصقل النفس ويصفيها من الكدر، لكن ذلك لا ينفي أن الجهاد الأصغر هو الذي بثّ الروح التي جعلت من جيوش الإسلام جيوشاً منتصرة قاهرة، ومكّنت المسلمين من حماية أماكنهم المقدسة، ولأجلها عاشت الأمة المسلمة في معظمها آمنة داخل حصن القوة الإسلامية، وعلى الرغم من خطورة تحديات التحالفات المسيحية في حرب عالمية انطلقت في الواقع مع مولد الإسلام. خرجت الجيوش الإسلامية ظافرة من خضم الحروب في الغرب والشرق، وعلى الرغم من الظروف المعاكسة تكررت انتصاراتها تكراراً خلق لدى الناس ظنوناً بكونها خوارق. لقد جاء كل نصر يقوّي الإيمان بالله ونصرته، لاسيما في الحروب مع جحافل المسيحية التي زحفت مراراً وتكراراً لا لتدمير الدولة الإسلامية فحسب، بل لتدمير الإسلام نفسه الذي عده المسيحيون هرطقة ضد المسيح.

إن الجهاد هو النغمة المميّزة التي تسبق كل عصر من عصور التاريخ الإسلامي، وإذا كان الحكام المسلمون يترددون في العزف على ذلك النغم اليوم، لأنهم يخشون في الغالب عواقب الإخفاق. وكما هو معتاد في التجارة، فإن هناك جانبين دائماً. وقد وعد الله المسلمين بالنصر ولكن بشرط أن يكونوا مؤمنين به مخلصين للدين. ولأن تبعة الهزيمة تلقى على الحاكم، لذا فإنها لا تخلو من عنصر المخاطرة، لاسيما لأن لدى المسلمين تراثاً طويلاً من تحميل المسؤولية للحكّام، بل إنهم مأمورون بذلك.

ينظر اليوم إلى معظم حكومات البلدان الإسلامية على أنها غير تمثيلية وغير ديمقراطية، وتتهرّب من مطالب الأمة واحتياجاتها. لقد غابت سياسة الحكم الإسلامية بمعناها التقليدي عن الساحة، وحلّت محلها نخبة من الأعيان

الـذين لا يملكـون ثقـة نابعة من الإرادة الشعبية، ولا نجاحاً يؤهلهم للاستمرار. ولهـذا السبب نرى أن الحركات من خارج السلطة الرسمية تحتل الساحة الفارغة للكفاح.

تـتجه الحـركات الأصـولية في الإسـلام إلى الماضي للاستلهام متخذة من الإيمـان سـنداً لـبقائها. أمـا الملـوك والمستبدون بأنظمة الحكم في أرجاء العالم الإسـلامي فـإنهم ليـسوا مستاءين من هذه الظاهرة بالضرورة. إذ إن المجموعات الأصـولية تـستطيع أن تـصرف الأنظـار عـن جوانب إخفاقهم، وتسترعي اهتمام العامـة نحـو قـضايا دولـية موسعة "بطولية". ومثل هذه الازدواجية شائعة عامة، وتـستمر علـى حالهـا مـا لم تفتضح أو ترتد فتضرب الأنظمة نفسها. ومن المفيد أيضاً ترك أمر الجهاد إلى منظمة يمكن التضحية فيها إذا أخفقت، واستغلالها إذا نجحت.

بعـد انهيار الخلافة عام 1922م وإلغائها من قبل مصطفى كمال أتاتورك عام 1924م لم تـتمكن الـبلدان الإسـلامية مـن إيجـاد اصـطلاح حديث لإدارة دفّات الحكـم. فالخلافـة مؤسـسة لافتة استمرت قائمة نحو ثلاثة عشر قرناً، وأصبحت مـرادفة لـتاريخ الإسلام. فقد تولى الخليفة الأول أبو بكـر الصدّيق مقاليد شؤون الأمـة بعـد وفـاة الـنبي ﷺ. ولمـا اتـسعت الأمـة الإسلامية وتنامت بسرعة غير متصورة من ذي قبل، غدا من المستحيل على خليفة واحد أن يبقى رئيساً تنفيذياً لكـل مسلم. فتطوّر مزيج من المسؤولية الدنيوية والدينية، وآل أمره إلى ما يمكن أن ندعوه أبرز سلطة في العالم الإسلامي.

في أول الأمر اتخذت تلك السلطة من المدينة المنورة مركزاً لها، وانتقلت بعدئـذ إلى دمـشق وبغـداد، ثم إلى القـسطنطينية، وكـان العثمانيون يمثلون آخر حلقـة مـن حلقـات الخلافـة. إلا أن الخلـيفة بجميع ما استأثر به من قوة حقيقية ورمـزية لم يكـن أبـداً حاكمـا ذا قدرات كاملة. وبعد أن ذوت الخلافة وخرجت

مهزومة في جهادها الأخير (الحرب العالمية الأولى) لم تستطع الشعوب المسلمة أن ترسم لنفسها نظام حكم تمثيلياً قابلاً للبقاء.

كانت الإمبراطوريتان العثمانية والمغولية في الهند أكبر إمبراطوريات المسلمين وآخرها، وتمكنت الاثنتان من إعادة تنظيم نفسيهما باسم القومية، لكن لم يكن لدى أي دولة مسلمة من دول الإمبراطوريات القديمة نظام حكم ديمقراطي دائم وحقيقي. وعندما نجده قائماً ومتبعاً بأمانة، كما في بنغلاديش، نرى أنه يفتقر إلى الديمومة. فالبدلات العسكرية تلوح بوضوح في أجواء دولة ليبرالية مثل تركيا. ومن المفارقات الغريبة أن الجيش التركي اتخذ من نفسه حامياً للدولة العلمانية كأن حق التصويت وحده لا يصلح أن يعتمد عليه في هذا الخصوص.

انزلقت الدول العربية نحو النظم غير الديمقراطية برعاية بريطانية في البداية، وتعززت الآن لأن الغرب يغض الطرف عنها حرصاً على حماية إمداداته النفطية بأي ثمن. وضمن ازدهار النخب وحصول المواطنين في بعضها على أسباب الراحة واستقرار هذه الأنظمة. لكن يرى بعض المنتقدين أن هذه الأنظمة لا تتوافر فيها الحريات السياسية ولا حرية التعبير.

إن الجهاد مباح ضد الكفرة وواجب ضد المرتدِّين. وثمة فئة آذت النبي ﷺ وأزعجته، وهي فئة المنافقين (المنافق hypocrite كلمة استخدمتها الكنيسة المسيحية في الحبشة من قبل) من أهل المدينة، دخلت في الإسلام في أول الأمر، ثم انقلبت إلى مجموعة من الغادرين والمحرِّضين. وقد ورد ذكرهم في القرآن عشرين مرة على الأقل، وفي كل مرة كانوا ينعتون بنعوت أخس من سابقتها؛ منها أنهم: مخادعون ومفسدون، سفهاء ومستهزئون، صم بكم عمي، مستكبرون ويحذرون الموت، كاذبون ومتخلفون. والقرآن ينذرهم بالخوف والظلام والدرك الأسفل من النار، ومن يرتد عن دينه بعد أن جاءه الهدى هو

الآخر مثل المنافق؛ فالمرتدون: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: 23].

قدرهم محتوم: ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ۞ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: 61-62]. من هنا فإن الجهاد واجب ديني ضد أي دولة مسلمة إن ارتدت عن الدين، وهناك جماعات تطبق الحكم نفسه على الحكومة المسلمة التي تصفها بأنها عميلة للعدو. فقد أفادت "الإيكونومست" في عددها الصادر يوم 13 أكتوبر 2001م أن السلطات السعودية استدعت الفقيه الضرير البالغ من العمر 80 سنة الشيخ حمود بن عقلة الشعيبي الذي كان مستشاراً لقاضي قضاة الدولة سابقاً، وذلك للاستفسار عما نُسب إليه من فتاوى. فأجاب الشيخ حمود الذي يقضي آخر أيام حياته في البريدة، أحد معاقل الوهابيين في نجد، قائلاً: "من يوالي كافراً ضد مسلم ويناصره يكون كافراً". وقصد الشيخ حمود بـ"الكافر" "أمريكا المسيحية".

المفارقة في هذه الحال كبيرة لأن الدولة وفرت مراراً وتكراراً دعماً ضمنياً للمجموعات الأصولية واكتشفت فيما بعد أن اليد التي تطعم ستتلقى هي الأخرى اللدغات. لقد وضع أسامة بن لادن نفسه في موضع إمام جديد وهو يحارب المسيحيين الكفرة وعملاءهم المارقين عن الإسلام في العالم العربي معاً. وهناك رجال دين يتهمون القادة الباكستانيين الذين ساندوا الولايات المتحدة ضد طالبان والقاعدة بالارتداد.

إن لتجربة باكستان أهمية كبيرة، لاسيما في سياق الإسلام الحديث وشدّ الحبل المتواصل مع العالم المسيحي. وإذا كانت القسطنطينية مركزاً سياسياً للإسلام قرابة خمسمئة عام، فإن مركزه الديمغرافي قد انتقل إلى جنوب آسيا، أو إلى الهند كما كانت المنطقة كلها تعرف قبل عام 1947م. لقد جعلت نزوات التاريخ التي سأتناولها بالبحث في هذا الكتاب من الإمبراطورية البريطانية أكبر

مـوطن للمـسلمين في العـالم، وهكـذا اكتـسبت العلاقـات بـين المـسلمين والمـسيحيين بعـدين. أحـدهما المـسعى العثمانـي الهـادف إلـى الاحـتفاظ بالإمبراطورية في وجه التقلبات المتسارعة التي شهدتها السياسة الأوروبية خلال القـرن التاسـع عـشر، إذ أصـبح الغـرب في نهـضته الحديـثة يحلـم بإعادة فتح القـسطنطينية المسيحية من الذين أعادوا تسميتها (إسطنبول). والبعد الثاني تجربة المسلمين بوصـفهم رعايا الإمبراطورية البريطانية. وقد أضيف إلى هذه المعادلة المعقدة عنصر آخر عندما ثار المثقفون والمهنيون من الطبقات الهندوسية الناشئة غضباً على حكم المسلمين في الهند خلال القرن التاسع عشر، لاسيما في كلكتا التي كانت عاصمة الحكم البريطاني حينذاك.

في القـرن التاسـع عشر نفسه أعلن المسلمون الجهاد على البريطانيين أكثر من مرة، ما دفع الإنكليز للبحث بدقة في عقلية المسلمين، وطرح أسئلة عما إذا كـان التمـرد واجباً في الإسلام. صان البريطانيون إمبراطوريتهـم ـ ولا يمكـن أن ينكـر علـيهم أحـد ذلـك الـحـق ـ بتألـيـب المـسلميـن المتألّمـيـن علـى الهـندوس الغاضـبين. لقـد كانوا على قدر كبير من الحذق والنجاح، والهند هي الـتي دفعـت الثمن. ونتيجة السياسة التحريضية التي لجأ إليها قائد يتمتع بصلابة الإرادة، هـو محمـد علـي جـناح، تحـولت الانقـسامات في التفكير إلى انقسام الـوطن علـى نفـسه. فنشأت باكستان إلى جانب الهند عام 1947م. ولكونها دولة حديثة لا تلاحقها أثقال الملكية المتوارثة من العصور السالفة، ولا العقد الناشئة عـن الهـزيمة ومشاعر الكآبة؛ كان يجدر أن تصبح باكستان دولة إسلامية عصرية مثالية.

إلا أنـه لم يتيـسر لهـذه الدولـة المـسلمة، خـلاف المأمول، الاتفاق على دستور، فانزلقت إلى فوضى مدنية على أعلى المستويات لتتيح المجال للأحكام العـرفية الـتي تبددت في فوضى عسكرية، وأدت إلى التقسيم مرة ثانية. بعد عام

1971م جربت باكستان الديمقراطية مدة وجيزة ؛ إلا أنها سرعان ما بلغت من الاستبداد ما بلغته، ورحبت الجماهير العامة بعودة الجيش إلى الحكم. ثم تكررت التأرجحات خلال التسعينيات، وعاد الجيش إلى سدة الحكم وهو يتولى زمامه الآن.

إذن من يمثل الجنرالات إن لم يكونوا يمثلون الشعب؟ تكتسب البدلة العسكرية الوطنية بسهولة. وللوطنية في سبيل قضية ما دور إيجابي وتساعد الأوطان في الازدهار. لكن التاريخ أثبت مراراً أنه إذا ما أفلت الحكم من القيود بسبب غياب النظام المستقرّ والخاضع للمساءلة يصبح من المستحيل أن يزدهر في ظله أي شيء يمكن وصفه بالإيجابية. الحاكم المرتاب في أمره يفتقر إلى سند ودعم، ويجد في مؤازرة الأصولية الدينية، لاسيما في وجه التهديدات الخارجية، أسلم وسيلة لذلك وأفضلها.

أنشئت باكستان للذود عن الإسلام، واتجهت بسرعة إلى تسييس الجهاد، وتحويله إلى آلية لحماية النخبة المغتصبة للسلطة، ووجدت في جوارها الهند "الكافرة". من المعلوم أن العواطف يمكن إثارتها دائماً، لاسيما إذا تذكرنا المرارة التي صاحبت التقسيم، إذ لقي الملايين مصرعهم في أبشع مجازر في تاريخ جنوب آسيا، وقتل الناس بعضهم بعضاً ووقفت الجيوش متفرجة على ذلك عاجزة عن تقديم أي مساعدة في بعض الأحيان. وجاءت سياسة نفث السموم تطالب بمستحقاتها. وفي جو كهذا أصبح من شبه المحتوم أن تجد العناصر الأصولية ملاذاً آمناً وتزدهر في مثل هذه البيئة. وفي الوقت نفسه فإن العناصر العلمانية في الهند هي الأخرى ذبلت وانهارت؛ إما لأسباب الوهن أو لقبول المساومات، الأمر الذي شجع على تنامي الأصولية الهندوسية. فالتطرف من جانب يغذي التطرف من جانب آخر.

أضفى تدخل الاتحاد السوفييتي في أفغانستان صفة الشرعية القانونية على

الجهـاد مـدة وجيـزة لـدى الغـرب، واسـتخدمته الـسياسة الخارجـية الأمريكية لأغـراض سياسـية مـع أنهـا لم تكـن على معرفة تامة بمفهومـــه. بعد 11 سبتمبر 2001م أخذت الولايات المتحدة تدرك مفهوم الجهاد إدراكاً أفضل من ذي قبل؛ إلا أنها ما زالت تفتقر إلى فكرة شاملة وواقعية عن السياق التاريخي الذي ظهرت فيه الأصولية الإسلامية. وما ينقذ الموقف في كل من الهند وباكستان هو الحرص على العلمانية والديمقراطية الناشئ عن تقاليد جنوب آسيا وثقافتها. وإذا ما وجد ذلـك انعكاساً في التوازن السياسي في البلدين فإنه سيعيد الأمل في عودة الحس السليم. ولكن هل يكون الأمل بهذا النوع من الحس السليم غير واقعي في منطقة الجهـاد ضد إسرائيل؟ يرى كثيرون أن الحجة لقيام دولة فلسطين واضحة جداً لا تحتاج إلى تكرار وإعادة. والوقوف منها وقفات الإهمال والتسويف جعل الصراع يـتخذ أبعـاداً سـرطانية. إلا أن هـناك عـدة دول عـربية غـير ديمقـراطية تستخدم فلـسطين قـضية لتركيـز الاهتمامات الشعبية عليها، وصرف الانتقاد عن أنظمتها وحكوماتها.

ربمـا أصـبح الغـرب مـتهاوناً جداً وعلى يقين بأن الحكومات العربية التي تـدين في بقائهـا للرعاية الغربية أنهت آخر جهادها ضد إسرائيل في عام 1973م. لكـنها لا تقـدِّر المـسلم وحرصـه على الاستشهاد حق التقدير. ولا تدرك حقيقة الطفل الذي يمشي بهدوء تام تحت ظلال السيوف.

- 1 -
الباب والآية

روى عبد الله بن أبي أوفى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف". (صحيح البخاري، "كتاب الجهاد والسير").

في البدء كانت معجزة، والمعجزة كانت كلمة: "اقرأ". قال المَلَك جبريل اقرأ، وبدأ محمد الأمي ﷺ يتلو على العالم ما يوحي به الله من بيان بليغ جُمع فيما بعد وصار يعرف بالقرآن الكريم.

ولد الإسلام مرتين. فمن المعلوم أن التقويم المسيحي يبدأ من ميلاد عيسى، لكن التقويم الإسلامي لا يبدأ من يوم ولادة الرسول ﷺ، ولا من يوم نزول الوحي، بل من الحدث الذي كفل بقاء الإسلام، وهو هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة برفقة الصحابي الوفي أبي بكر الصديق، الذي أصبح حما النبي ﷺ بعد زواجه من ابنته عائشة رضي الله عنها.

تعرّض النبيّ لاضطهاد قريش، قبيلته، عندما أعلن عن الوحي. وعندما سعى للّجوء إلى يثرب، التي صارت تعرف باسم المدينة فيما بعد، همّ أهل قبيلته أن يقتلوه؛ لأنه تعهّد بتدمير الأوثان وتطهير الكعبة من عَبَدتها، وبالتالي عَرَّضَ مكاسبهم الطائلة في موسم الحج للخطر. فبعثت قريش بجيش قوامه تسعمئة مقاتل أو ألف بقيادة وجهائها وأشرافها ليدمر من وصفه أبو جهل، ألد أعداء الإسلام والمسلمين، بأنه "أقطعُنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه فأحنه الغداة(*)".

(*) أحنه الغداة أي اجعل هلاكه اليوم ـ المترجم.

"كان المسلمون ثلاثمئة ونيفاً فنزلوا قريباً من بئر بدر، وسدوا طريق قريش إلى الماء، وفي اليوم السابع عشر من رمضان دارت رحى الحرب، وقد بلغت الهموم من الرسول ﷺ يومئذ مبلغاً تتلمسه في دعائه وهو يتضرع إلى ربه: (اللهم إن تُهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد). ثم أغفى بعده إغفاءة، ولما أفاق منها رأى جبريل آخذاً بعنان فرسه يقوده وعلى ثناياه النقع". ("سيرة رسول الله ﷺ"، لابن إسحاق). وبعد النصر أكّد عدد من المقاتلين المسلمين بأن الله أيدهم بملائكة في عمائم بيضاء تنصرهم في حرب فاقهم فيها الجيش المكي عدداً وعتاداً. والمؤمنون حتى اليوم على قناعة بأن الله سينصرهم في حروبهم ومعاركهم. ولا تزال الروايات التي تتناول بدراً تشكّل جزءاً من الإلهام الإسلامي.

دخلت روح الجهاد الإسلام في بدر. إنها الروح التي تضفي على المؤمنين بطولة يستعصي على العقل تفسيرها. كما أنها تلقي الرعب في قلوب الذين لا يؤمنون بالله. كلمة الجهاد مشتقة من الجذر جهد الذي يعني سعى وكافح. ويستمد الجهاد روحه ودويه من طبيعة هذا المعنى: الجهاد حرب مقدسة، حرب الحق على الباطل، والكفاح في وجه قوى الظلم. أنه ولعٍ لا تثنيه العواقب التي تؤدي إليها المعارك؛ ذلك أن المجاهد يخرج منتصراً منها على الأمد البعيد والقصير معاً، على الأمد البعيد لأن الحرب ستنتهي بانتصار الحق، وعلى الأمد القصير لأن الموت في الجهاد شهادة وجزاؤه الجنة. وفي الوقت نفسه فإن هذا الجهاد تزكية للنفس؛ فالشهادة لا يمكن نيلها مادامت الأهواء تخالط النفس. والجهاد نوعان، وأكبرهما، الجهاد الأكبر، هو حرب على عدو في باطن المرء، على مكامن الضعف والضلال. أما الجهاد الأصغر فإنه الجهاد الذي يخوضه المجاهد في ساحات المعارك والحروب.

الإسلام لا يسعى إلى العنف، كما تدل الكلمة نفسها. ولكنه لا يسمح بالرضوخ والاستسلام أيضاً. وفي بعض الظروف يكون المسلمون جميعهم مأمورين بالقتال للدفاع عن الدين، ويغدو القتال حينئذ واجباً، ومن يتخلف عنه

ويثبط يلقى لوماً في القرآن. وإن سمي هذا الجهاد جهاداً أصغر إلا أن واقع الأمر يـشير إلى أن قلـة قلـيلة مـن جـيوش الكفار استطاعت على مدى اثني عشر قرناً تقريباً أن تخرج منه مظفرة، أو تمكنت من الحفاظ على قاعدة الحكم.

الانتصارات التي حققتها جيوش الإسلام كانت انتصارات عجيبة، والبداية كانت مذهلة أيضاً. ففي سنتين فقط بعد وفاة النبي ﷺ تحدت هذه الجيوش، إلى جانـب قتال المرتدين في حروب الردة، القوتين العظميين من قوى ذلك العصر: الفـرس شرقاً والبيزنطيين شمالاً وغرباً، وهزمت جيوشهما مع أنها أفضل تدريباً وأكثـر عـدة وعـتاداً. وفي غـضون جـيلين زحفت جيوش الجهاد من المدينة إلى القـدس ودمـشق وحلـب وأنطاكية، وداخل الإمبراطورية البيزنطية شمالاً، وفي الـشرق نحـو القادسـية والمـدائن الـتي تـضمّ ثروات الساسانيين، ومنها اتجهت صوب نهاوند وهمدأن وصولاً إلى قزوين.

ومن ناحية أخرى وصلت تلك الجيوش إلى البصرة وأصفهان، ومن ثم إلى نيـسابور ونهر آموداريا (سيحون) في آسيا الوسطى، وهناك توجه جناح منها إلى أفغانـستان، وآخـر إلى الـسند ووادي نهـر الـسند في شـبه القـارة الهندية. وفي الجنوب وصل جيش الإسلام إلى الفسطاط والإسكندرية بمصر، فاتحاً الباب إلى الغـرب إذ تيـسر لـه مواصـلة الـزحف بـسرعة حـتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلـسي في سـبتة. وفي بحـثه عـن الجديـد مـن أصقاع العالم ليفتحه عبر هذا الجـيش البحـر، وصـل إلى جـبل طارق، ومنه إلى قرطبة وطليطلة وسرقسطة، وأقـام إمـبراطورية مزدهـرة قـدر لها أن تربط الشرق والغرب على مدى سبعمئة سنة.

إلا أن الحماسـة الـشديدة الـتي اقتـرنت بتلك الإنجازات قد حجبت دافعاً أساسـياً مـن دوافـع الفكـر الإسـلامي. فمعلـوم عـن الجهـاد أنـه ليس إذناً لبناء الإمـبراطوريات مـع أن الإمـبراطوريات قـد ظهـرت على أثره، ومعلوم أيضاً أن

الجهاد لا يظهر بأقوى أشكاله عند ربح كل شيء، بل عندما يبدو أن كل شيء معرّض للخسارة: تلك هي روح بدر.

الوعي السياسي للمسلمين متأثر بالتاريخ الحافل بالمآثر تأثراً كبيراً، أمة متناثرة عبر مساحات جغرافية مديدة، وثقافات متعددة لن تكون استجاباتها متماثلة ورتيبة؛ إلا أن هناك نقطة تتوحد عندها كلمة هذه الأمة بسرعة خلافاً لغيرها من الأمم؛ هذه النقطة يمكن أن ندعوها متلازمة المدينة، وهي الاعتقاد بأن الإسلام والأمة المسلمة يهددهما الأعداء، وبالعقيدة والوحدة والحرب يمكن الرد على ذلك.

في الماضي كانت قريش هي العدو، والآن الغرب المسيحي هو العدو. وهذه النتيجة تكوّنت عبر ألف عام منذ أيام الفرنجة في فلسطين. والقول بأنه لا مسوغ لاستخدام كلمة "المسيحي" نعتاً (للغرب) قول يضرب به عرض الحائط؛ لأن تصريحاً مثل التصريح الذي أدلى به الرئيس جورج بوش بعد الهجمات على المركز التجاري الدولي والبنتاغون في 11 سبتمبر 2001م متوعّداً بشن حرب صليبية ضد أسامة بن لادن، أو كلمة رئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برلسكوني التي جاء فيها أن المسيحية أكثر تحضراً من الإسلام يكفيان لإقناع من يتردد في افتراض أن الغرب المسيحي عدو للإسلام. ثم إن الشعور باليأس الناجم عن الحرمان والمقترن بذكريات المعايير الخضراء التي باتت تتحكم في مسارات القوة السياسية من قممها أمر له الأثر الواضح في بناء رؤى المسلمين.

الإمبراطوريات كلها ترتقي ثم تسقط؛ لكن المسلم يؤمن بأن هذه الدورة لها ثلاث مراحل: الصعود والسقوط ثم التجدد. وبما أن الإمبراطورية يبنيها البشر فإن ظهور الفساد فيها أمر لا مناص منه. وكان النبي ﷺ قد ألمح إلى ذلك حين قال: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم". وكان يعلم بأن الحكم يفسد صاحبه، ولذا رأى أن القرب من الحكم يبعد المرء عن ربه.

كان من المتحتّم على الجندي الهزيل الذي فتح مملكة من أن يتحوّل إلى حاكم مصاب بالسمنة. وهذا حال الخليفة الخامس الذي تسلّم الحكم بعد الحرب الأهلية الأولى في تاريخ الإسلام، والذي لا يستحق المقدار نفسه من الإجلال والاحترام اللذين كان الخلفاء الأربعة قبله (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي) يحظون بهما، فقد غدا سميناً قبل وفاته عام 680م إلى حد أنه لم يكن يستطع أن يصعد المنبر عند الصلاة.

لم يكن الحل الرضوخ لحكم الكافر، بل السعي الدؤوب في سبيل الإصلاح الأخلاقي الذي يمهد الطريق إلى مرحلة أخرى من مراحل النجاح السياسي. فقد بشر النبي في سننه بظهور إمام صادق (المهدي) ـ وجاء في حديث آخر أنه سيظهر على رأس كل مئة سنة من يجدد الدين ويعيد المبادئ الأولى نفسها التي جعلت الإسلام ذا حضور عالمي في مدة وجيزة. ولفهم الإسلام في زمننا هذا علينا أن نفهم تلك البداية جيداً.

يذكر المؤرخون المسلمون أنه في ليلة ولادة محمد ﷺ اهتز قصر كسرى فارس، وسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي عبدها المجوس، وغاصت بحيرة ساوة. وجاءت الحقائق تثبت فيما بعد أنها جميعها كانت بمنزلة نبوءات بأن فارس ستغدو مسلمة، وبأن المجوس سوف يعيشون في المنفى، ومعظمهم في الهند. وهناك أشياء كثيرة تنبئ بالمستقبل.

إن الروايات عن نور النبوة قوية، مع أنها بطبيعة الحال لا تخلو من اختلافات، لكن في إحدى تلك الروايات ما يفي بالحاجة في هذا المقام. فقد جاء فيها أن عبد الله والد محمد ﷺ كان يمر مع أبيه عبد المطلب بن هاشم ببيت الراهب ورقة بن نوفل، فدعته رقية، أخت ورقة لنكاحها (كان ورقة حنيفاً موحداً لا نصرانياً ولا يهودياً)، وقالت: لك مئة من الإبل، إلا أن عبد الله أبى وقال إنه لا يستطيع مخالفة أبيه، وسار معه إلى بيت وهب بن عبد مناف، وتزوج

ابنـته آمـنة، وقضى معها ثلاثة أيام حملت في أثنائها بمحمد ﷺ. ولما رجع عبد الله أتـى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال: مالك لا تعرضين عليَّ اليوم مـا كـنت عرضـته قبل ثلاثة أيام؟ فقالت: فارقك النور الذي كان معك منذ ثلاثة أيام، وأخذه أحد غيري. فقد أرادت رقية أن تكون أماً لطفل يكون نبياً فيما بعد.

لم تـشأ الأقـدار أن يعـيش محمـد طـويلاً في رعاية أبويه؛ فمات أبوه قبل مـولده بـشهرين وهو في طريقه إلى يثرب، وتوفيت أمه آمنة وهو ابن ست سنين أو نحـوها. فكفله جده عبد المطلب لكنه لم يكن يحل محل أمه. ومع أن الأسرة كانـت مـن قـريش إلا أنها لم تكن ثرية. لكن سرعـان مـا بدأت المواهب التي فطر عليها محمد ﷺ تسترعي أنظار الناس إليه.

عـرف محمـد ﷺ بذكائـه وأمانـته بين أهل مكة في سن مبكرة. وقد جعل علـى سـبيل المـثال حكمـاً ليقضي في نزاع كاد أن يشعل نيران معارك دامية بين القـبائل المتناحرة حول الكعبة التي هي رمز من رموز المسلمين، والمؤمنون في أكـناف العـالم يُوَلّـون وجـوههم نحـو هـذا البنـيان المكعـب الذي يقع في قلب المـسجد الحـرام في مكـة في صلواتهم الخمس يومياً. وجاء في الحديث أن آدم بـناها في بقعـة مـن الأرض قـرب البـيت المعمور. ولما أصاب الكعبة ما أصاب الأرض مـن الـدمار والغـرق في طوفان نوح بناها إبراهيم وابنه إسماعيل بأحجار مـن خمـسة جبال، طور سيناء والجودي والحراء وطور زيتاء ولبنان. ولما ذهب إسماعيل يبحث عن حجر يحدّد أحد أركانها لقيه الملك جبريل، وأعطاه الحجر الـذي يعـرف بالحجر الأسود. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: "نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم".

وقـد وقعـت الكعـبة في أيـدي الذين أعرضوا عن رب إبراهيم، وأول من أدخل الوثنية إلى الكعبة هو عمرو بن لحي. قيل إنه أحضر صنم هبل من العراق، ووضعه في الكعبة. عندئذ استولت قريش على الكعبة وإيراداتها. وجدُّ محمد ﷺ

نفسه كان سادن البيت المحرم عندما تقرر رفع بنائه. ولما بلغ البنيان موضع الركن حيث يوضع الحجر الأسود في مكانه، استعدت كل قبيلة للقتال في سبيل ذلك الشرف والاستئثار به. فقال محمد ﷺ أعطوني ثوباً، فحمل الحجر بيديه ووضعه عليه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية منه، وبذا استتب الأمن، وسمى أهل مكة محمداً "الأمين". وذلك عندما كان في الخامسة والثلاثين من عمره.

وقد بلغ الحديث عن أمانة محمد ﷺ وصدق قوله خديجة بنت خويلد الأرملة المتزوجة مرتين، وأفضل نساء القوم ثروة ونسباً، فاستأجرته، وجعلته مشرفاً على قوافلها في تجارتها إلى الشام. وكان عمر محمد ﷺ خمساً وعشرين سنة، وعمر خديجة أربعين سنة عندما بعثت نفيسة بنت منية إلى محمد ﷺ تطلب منه أن يتزوج خديجة، فرضي بذلك، لكن أباها خويلداً لم يرضَ بهذه الخطبة، ومع ذلك فإن خديجة مضت فيما أرادت. كان محمد ﷺ يحب خديجة حباً جماً ووصفها بأنها خير نساء القوم، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب. صحيح أن الرسول تزوج غيرها من النسوة؛ لكنه لم يتزوج غيرها إلا بعد مماتها. وكان له منها ولدان: القاسم وعبد الله، توفيا في سن مبكرة، وأربع بنات، زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة اللائي عشن أعماراً عادية. وكانت عائشة، أحب الزوجات إلى النبي ﷺ فيما بعد، تغار من خديجة، والنبي ﷺ يؤنبها، ويقول عم خديجة إنها آمنت به حين كفر به الناس، وصدقته علناً حين خشي غيرها أن يهمس بذلك، ووقفت بجانبه كصخرة. لقد كانت أفضل صاحبة وهبته ولدها. وإنه يذكر دائماً ما بلغه من الجهد والمحن طيلة عشر سنوات، وهو يحمل رسالة ربه في قلبه، ويرى كيف كان العالم من حوله يسخر من تلك الفئة القليلة من المسلمين على إيمانها ويستهزئ بها ويظلمها.

وصلت إليه تلك الرسالة في غار على بعد ثلاثة أميال خارج مكة يدعى غار حراء، إذ كان يخلو بهذا الغار ويتزود في أثناء إقامته فيه من السويق ولا

شيء آخر. وفي ليلة من ليالي رمضان عام 611 الميلادي جاءه الملك جبريل في المنام، وقال له: اقرأ (الكلمة التي اشتقت منها لفظة "القرآن"). فقال: ما أنا بقارئ. أخذه الملك جبريل فغطه حتى بلغ منه الجهد. وأمره الملك ثلاث مرات بأن يقرأ. ولما سأله الرسول ﷺ عما يقرؤه، أنزلت عليه أولى آيات القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. [العلق: 1-5].

ويقول مكسيم رودنسون في مؤلفه "محمد" (Mohammed, Peguin, 1971): "قال الصوت ثلاث كلمات عربية: (أنت رسول الله) أحدثت هزة في العالم".

رجع الرسول ﷺ إلى داره وهو يرتجف. فوضع وجهه في حضن زوجته، وأخبرها ما حدث، وأدركت أن الوقت قد حان، فطمأنت زوجها، وزارت العالم ورقة بن نوفل الذي كانت أخته قد عرضت نفسها على عبد الله والد الرسول، لما رأت في جبينه نوراً. كان ورقة شيخاً كبيراً أصابه العمى لانشغاله في قراءة الكتب، ولما حدثته خديجة بالذي سمعت من زوجها طلب إليها أن تأخذ به إلى محمد ﷺ، ولعله تنبأ بمصائر الأمور حين قال له: (ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك).

وقد حدث ذلك النفي وما هو أسوأ منه، بما فيه الخطة المدبرة لقتله، في غضون عقد من الزمن، ثم انطلق الإسلام يبشر بالسلام، واستدعى صونه من الأعداء أن ترافقه صلابة الحرب وجفوتها.

ولم يكن الله ليبعث نبيه ثم يتركه وشأنه؛ وظل يهديه في شؤونه جميعها، عامة كانت أم شخصية، روحانية كانت أم دنيوية. وكانت مدة العشر سنين الأولى أحلك الفترات في تاريخ الإسلام، وجاءت رعاية هذه الفئة القليلة من المسلمين في الآية القرآنية: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: 3]. ولهذه المدة أهميتها،

لاسيما في العصر الحاضر، إذ إن المسلمين الآن يعانون مرة أخرى ما عاناه السلف آنذاك من أزمات وخيبة أمل.

زوجة وابن عم وصحابي وعبد محرر هم أول أربعة اعتنقوا الإسلام؛ أولهم كانت خديجة، والثاني علي البالغ عشر سنين من عمره، الذي أسلم ليكون أسد الله، وأعظم جندي من جنود الإيمان لدى بلوغه أشده، وكان الثالث أبا بكر، الذي مدحه النبي ﷺ لصدقه، وعرف بالصدِّيق. أما رابعهم فهو زيد العبد الذي اعتق. غير أن هؤلاء كانوا من العائلة أو قريبين منها. وأدخلت أولى مراحل التوسّع الشبان المثاليين أو الذين واجهوا التمييز، وجاهدوا لأجل العدالة الاجتماعية. ومن أشهرهم العبد الحبشي بلال رضي الله عنه الذي اشتراه أبو بكر ثم أعتقه. وغدا رمزاً من رموز الإسلام، بيد أن هذا كله لم يكن سوى غيض من فيض، ولم يظهر حنق قريش عليه إلا في أنواع من السخرية والاستهزاء. كان عم الرسول أبو طالب يحبه من أعماق قلبه، ويوفر له الحماية، لكنه لم يسلم. وخلافاً لأبي طالب وموقفه من الرسول ﷺ فإن العم الآخر عبد العزّى المعروف بأبي لهب كان يكرهه هو والدين الذي جاء به كرهاً شديداً.

وقد وصلت الأمور بعد ذلك إلى الأزمة حين أقنع أبو لهب عدداً من قادة قريش بضرورة قتل محمد ﷺ. وقد وضعت خطة لإزالة العقبة الأساسية التي حالت دون قتل النبي ﷺ، وهي الخوف من أن تثأر له قبيلته. وبحسب الخطة اجتمع الرأي على أن يشترك في قتله رجل من كل قبيلة وعندئذ لن تستطيع قبيلته أن تطالب بدمه من كل القبائل. كان الرسول ﷺ قد أعد نفسه لمواجهة الأسوأ. فقد اختبر الطائف إذا أمكن اختيارها مكاناً للهجرة؛ لكنه في الطائف تعرض للاعتداء أيضاً. وفي آخر الأمر قرر الخروج إلى يثرب أو (المدينة) على بعد مئتي ميل من مكة. وكان في المدينة آنذاك ثلاث قبائل لليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وكان الأوس والخزرج أقوى قبيلتين من القبائل العربية

القاطـنة هناك. ولما نجحت المفاوضات طلب النبي ﷺ من المسلمين أن يسبقوه في الهجرة إلى يثرب وينتظروا قدومه.

وقـد أحاطت بهجرته عجائب الأمور؛ فقد كان أبو جهل عند الباب متهيئاً للوثـوب علـيه حـين يخـرج مـن بيته، لكنه وقع نائماً. وخَلَفَ الرسولَ ﷺ عليٌّ رضـي الله عـنه في فراشـه وتغطـى ببردته بغية كسب شيء من الوقت. وعرضت قـريش مـئة ناقـة لمن يعيده وصديقه أبا بكر إليها. لم يكن الاثنان قد ذهبا بعيداً: فقد تواعدا مع دليل في غار مهجور في جبل ثور يرشدهما إلى الطريق. وكان أبو جهـل مـن بـين الـذين اقتفوا أثرهما حتى وصلوا إلى فم الغار، إلا أنهم وجدوا شـجيرة قـد نبـتت، وعشاً بنته حمامتان بريتان، ونسيج عنكبوت على فم الغار، فانـصرفوا. وقـد سـلك الرسول ﷺ طريقاً صوب شاطئ البحر الأحمر، ثم اتجه شمالاً ليقطع الطريق الرئيسي المؤدي إلى المدينة.

وأول مـن بصر به بالقرب من المدينة ظهر الاثنين في اليوم الثاني عشر من ربـيع الأول، وكـان يجلـس تحـت نخلة قريبة من قباء، رجل يهودي. لقد دخل الرسـول المديـنة يـوم الجمعـة وسـط تـرحيب مشهود، وأسس أول مسجد في المديـنة في مكـان بـركت بـه ناقـته مـن تلقاء نفسها. وفي المدينة بدأ المسلمون ينظمون أنفسهم بوصفهم أمة. وهنا وضعت الأعمال التي استمرت شعائر ورموزاً حـتى الـيوم. فقـد أمر المسلمون أن يولوا وجوههم إلى الكعبة بدلاً من القدس. وكـان النبي ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وفي المدينة أعلن رمضان بكامله شهر صيام، ونزلت الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: 187].

وقـال تعالـى فـي الآية (39) من سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، الآية في معناها ومرادها واضحة وضوحاً كافياً. والإذن بالقتال هو للذين يُظلَمون، لا لمن يرفع السلاح، ويتأكـد المعنى

المراد في الآية اللاحقة. وقد استُخدم مثال داود وجالوت في أكثر من آية قرآنية؛ حرب داود كانت جهاداً. وإذا كان المسلمون في أمسّ الحاجة إلى نصر على جالوت فإنما ذلك أول معاركهم عند بئر بدر. فقد جاءت قريش إليه لتحسم مشكلة محمد ﷺ والمسلمين بصورة نهائية.

نشبت معركة بدر يوم الجمعة في السابع عشر من رمضان في العام الثاني للهجرة، في واحة على بعد خمسين ميلاً أو نحوه من المدينة. كانت قريش تبغض المسلمين لتزايد ثقتهم بالنفس، وانطلقت من مكة بجيش قوامه تسعمئة مقاتل من أفضل المقاتلين تسلّحاً وإعداداً، مع سبعمئة من الإبل ومئة فرس، بينما استطاع المسلمون أن يكوّنوا جيشاً تنقصه العدة والسلاح، قوامه نحو ثلاثمئة جندي، وأربعة أفراس فقط.

بلغ القلق من الرسول ﷺ مبلغاً، وما كان منه إلا أن يتوجه إلى الله، ويتضرع إليه في عريش له على حافة ميدان القتال ومعه أبو بكر، ويقول في فزع: (اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد بعدها في الأرض)، وعندها يتدخل الصدّيق، فيقول: حسبك الله، ألححت على ربك؛ إن الله منجزٌ لك ما وعدك. وخفق قلب النبي ﷺ في العريش خفقة، ولما انتبه استبشر كأنه قد تلقى نبأ ساراً؛ فقد رأى في منامه الملك جبريل يأتي لينصر المسلمين والغبار يثور من تحت نعال فرسه.

وبشر النبي ﷺ المؤمنين بأنه رأى الأعداء يولون أدبارهم، وتلا عليهم آية من سورة القمر المكية: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۞ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: 45-46].

ووعد الرسول المؤمنين وهو يقول: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن: ليس بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني

هـؤلاء، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه يقاتل القوم حتى قتل. ولما سئل الرسول: ما يضحك الرب من عبده؟ قال: غمسة يده في العدو حاسراً.

الـشهادة هـي مبتغـى المـسلم، والنصر هو ما وعد الله به، والذين يقتلون يدخلـهم الله الجـنة. في لحظة حرجة في معركة بدر هبت رياح رملية عاصفة في وجوه أهل مكة، وجرى فرس جبريل عدواً، وعند منتصف النهار كانت الحرب قـد وضـعت أوزارهـا، لقـد ولى جـيش مكـة هارباً، وكان أبو جهل بين الذين سقطوا قتلى يومئذ.

إن الملائكة تحمي المؤمنين وتنصرهم، لاسيما الذين جعلوا من دين الله الحق المبين أسوة لهم، وساروا على هديه في حياتهم الدنيوية، وأوجبوا لأنفسهم الجنة جزاء له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فُصِّلت، الآية: 30).

أتـت هـذه الرسـالة لتكفـي الـذين صاروا نماذج في الإسلام يهتدى بهم، ولأسمـائهم صـدى مـسموع في قلوب المسلمين، وهذه هي الروح التي جعلت علياً رضي الله عنه يقول للخليفة عمر رضي الله عنه في أثناء مشاورات حول عدد الجنود في حرب نهاوند مع الفرس في عام 642م: "يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر لم يكـن نـصره ولا خذلانـه بكثـرة ولا قلة، وهو دينه الذي أظهره وجنده الذي أعـزه، وأمـده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعد من الله، والله منجز وعده، وناصر جنده".

وقـد أثبـتت حـرب نهاونـد أن الإيمـان أقـوى مـن العـدد، وأنها كسرت الإمـبراطورية الزرداشـتية علـى مـا كـان أمـرها من قوة وشوكة، وهي تدعى في مـراجع الـتاريخ الإسـلامي "فـتح الفـتوح". مـن الواضـح أن الانتصار في أعظم الحـروب لا يتأتـى مـن دون استراتيجيات عسكرية، وكانت حرب نهاوند أروع

مثال لذلك؛ لكن التوكل على الله يأتي في صميم الجهاد، والثقة بالعقول البشرية وتدبيرها تأتي بعد ذلك. وهذا خالد بن الوليد، الذي قطع ألف ميل من الصحراء ليهزم البيزنطيين ويشارك في فتح القدس، يرد عندما قال له نصراني من العرب ما أكثر الروم وما أقل العرب: "ويحك أبالروم تخوّفني! والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه وأنهم أضعفوا ضعفهم". وهكذا لما عبر سعد بن أبي وقاص نهر دجلة وهو فائض لمحاربة الفرس ما كان منهم إلا أن يصرخوا: مجانين! مجانين! مجانين! إننا لا نقاتل البشر بل الجن.

ويثني جون باغوت غلوب على الجنود العرب في مؤلفه "الفتوحات العربية العظيمة" (The Great Arab Conquests, Prentice hall Inc, Englewood Cliffs, New Jersey, 1963): "اعتمدوا على روحهم العسكرية والبسالة الفردية أكثر من اعتمادهم على علم الحروب. وقد استمر هذا التقليد حتى يوماً هذا، وكثيراً ما دفع المسلمون ثمناً باهظاً في نزاعات مع قتلة محترفين يحاربون ليظفروا. كل طفل مسلم يربى تربية تستمد من سيرة الرسول ومن الفتوحات العربية، لذا فإن الشجاعة الشخصية وإغفال المهارة لا يزال مستمراً حتى الآن". وعلى حد تعبير غلوب: "الإسلام في جوهره دين الجندي".

إن الحديث النبوي يكمل رسالة القرآن الكريم. وهناك أكثر من جامع لأقوال النبي ﷺ وأفعاله التي رواها عنه أصحابه الذين عرفوه شخصياً، وهذه التقاليد المروية تدعى"الحديث". ويقال إن الإمام أحمد بن حنبل (780-855) حفظ مليون حديث من أحاديث النبي ﷺ. وأشهر كتب الحديث كتاب لأحد تلاميذ ابن حنبل، هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة الجوفي البخاري، الذي ولد في مدينة بخارى في آسيا الوسطى عام 810م، وانتقى سبعة آلاف حديث من ستمئة ألف حديث سمعها. يروي البخاري أن عمر قال للنبي ﷺ "أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟" قال ﷺ "بلى،

واعلمـوا أن الجـنة تحت ظلال السيوف". وقال رسول الله ﷺ: "لروحة في سبيل الله أو غـدوة خـير مـن الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم من الجنة أو موضع قيد يعني سوطه خير من الدنيا وما فيها". والشهيد لا يسره أن يرجع إلى الدنيا إلا ليقـتل مـرة أخـرى. فالمـوت مجرد نجاة يستبشر بها العبد المؤمن، وليس هناك عمـل مـن أعمـال الدنـيا يـساوي الجهـاد جـزاء في الآخرة. والرسول ﷺ يدعو المـسلمين إلى السعي للفردوس الكائن تحت العرش، وخير مكان في الجنة. قد جعل الله مئة درجة من درجات الجنة للشهداء، ومن يُكْلَم في سبيل الله يأتي يوم القيامة وريح دمه ريح المسك.

إن مـبادئ الإسـلام وأسـسه واضحة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256]، و﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافـرون: 6]. لكــن بعــد الهجـرة إلى المديــنة أبى المـسلمون أن يديـروا خـدّهم الآخـر لمـن ظلمـوهم. وهـان المـوت في سـبيل الـشهادة. هـذا معـتقد الإسلام، إنه إيمان تبثّه الأم في ابنها. لقد عقد الله بيعة مع المؤمنين. وهذه البيعة هي الجهاد، وكان ذلك في المدينة.

- 2 -
أفراح الموت: البيعة مع الله

يقول الله جل وعلا مخاطباً المؤمنين: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، ويقول في الآية 111 من سورة التوبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

تغرب الشمس في الصحراء وكأن بها كسوفاً، وتعلوها حلقة متلألئة تبدو كحجر ذائب في النار. والضياء يمتد في أفق بسيط منساباً مثل موجة على طرفي جوهرة متلألئة، لا تكاد تفارقها. وفي الجانب الأيسر يبدأ قمر نحيف يتألق في نور الغسق، والنجوم لم تطلع بعد. عندما دخلت في أجواء المدينة التمعت من تحتي المآذن الست للمسجد النبوي كأنها تحرس عالماً داخل هذا العالم. هناك مسجد آخر وحيد عدا المسجد النبوي فيه ست مآذن بناه السلطان أحمد في القسطنطينية في سنة 1609.

اللبنة الأولى للمسجد النبوي وضعها الرسول ﷺ بنفسه، وهو المسجد الذي نزل به الوحي في الشهر السابع عشر بعد الهجرة، يأمر المؤمنين بأن يولوا وجوههم في صلواتهم إلى مكة بدلاً من القدس. وفي هذا المسجد تلقّى النبي ﷺ الوحي من عند الله والبيعة من البشر، وفيه أرسى دعائم الأمة بعد

هجرته من موطنه مكة. وفي المسجد نفسه وافاه الأجل ودفن، وبجوار قبره قبران لصاحبيه أبي بكر وعمر. من هذه البداية المتواضعة، نما المسجد على مر ألف وأربعمئة سنة من العبادة والتقوى واكتسب البهاء والروعة. لكن لأمر لا يمكن تحديده، لم تغيّر هذه العظمة شيئاً من بساطته.

يعلو أول أذان في برد الصباح قبل ساعة من أذان الفجر، وذلك لهؤلاء الذين يبدأون عبادتهم قبل مواقيتها المحددة. غرفتي في فندق "المدينة أوبروري" تطل على تلك الساحة المربعة العظيمة التي يتزاحم فيها المسلمون ويمشون وهم الآتون من كل قارة وفي كل يوم من أيام السنة. منهم رجال ونساء في سلام مع أنفسهم ووئام مع ربهم في هذا المسجد. ترتسم خطوط الجبال الداكنة على خلفية السماء التي تبدأ بالاستيقاظ من وراء المآذن. يرتدي الرجال سراويل فضفاضة حتى الكعبين أو عباءات، والنسوة يغطين أنفسهن حتى رؤوسهن، ولكن الوجوه مكشوفة دائماً. وتزداد الوجوه جمالاً بتباينها مع الجلابيب الداكنة وتبرز المساواة بين الجميع.

نصل عند صلاة الفجر إلى باب جبريل، الملك الذي يدعى "روح القدس"، الآن يمكن لسبعمئة ألف من المؤمنين أن يركعوا لله خلف إمام واحد. وثمة مكان فسيح مخصص للنسوة. بعد الصلاة ينتقل الزخم إلى قبر الرسول ﷺ. هناك صفوف طويلة من رجال ونساء في لهفة للنظر إليه نظرة إجلال وتكريم، مع أن الشهر شهر شعبان حين يكون الزحام قليلاً نسبياً. فالعدد يتضاعف في الشهر الذي يليه، والأيام الثلاثون المباركة من رمضان تجتذب المسلمين إلى مكة والمدينة، غير أن الأعداد تبلغ ذروتها في موسم الحج بطبيعة الحال.

يشد المسلمون في العادة رحالهم إلى المدينة، مدينة الرسول ﷺ، بعد زيارة الكعبة في مسقط رأسه مكة. لم أكن حاجًّا لأن الحج يؤدّى خلال أيام الثامن والتاسع والعاشر من ذي الحجة، الشهر الثاني عشر في التقويم الإسلامي،

بل كنت معتمراً، والعمرة يمكن أداؤها في أي وقت من السنة؛ لكن أجرها ليس مثل أجر الحج، ولا تكون بديلة له؛ فالحج فريضة يجب أداؤها على كل مسلم إذا استطاع إليه سبيلاً.

لا عاطفة أقوى من عاطفة مسلم وأعمق منها وهو يلقي النظرة الأولى على الكعبة، ولا إحساس أقرب من إحساسه بالخضوع الكامل، الذي يغلبه عندما يمس جبينه الأرض في الصلاة. في أثناء تأديته الأعمال البدنية في الصلوات تملكه قوة الإيمان وقوة الاستسلام لربه، ويدرك الحياة وما لها من قيمة وتفاهة معاً.

قبل التوجه إلى الكعبة يجب على المسلم أن يغتسل ويصلي ركعتين، ويلبس لباس الإحرام، وهما قطعتان من ثوب أبيض غير مخيط يضفي على لابسه صفة ناسك متحرر من الدنيا وأوزارها. ثم ينوي الحج ويدعو أن يكون حجه مقبولاً عند الله، ومن هنا، وفي التلبية وفي جميع أعمال الحج، يُسبِّح الله ويحمده وحده لا شريك له.

يطوف عالم الإسلام حول الكعبة دون انقطاع. وفي رمضان، والحج بطبيعة الحال، تحتشد جموع غفيرة لا يمكن لجهاز الكاميرا أن يميز بها الأفراد من الحركة الجماعية للأخوَّة الإسلامية. والحرس وحدهم ينظرون إلى المشهد بنظرات مرهقة وغير مكترثة، لكنك تجدهم في حالة مختلفة حين يؤذن المؤذن للصلاة. تتكوَّن الصفوف بسرعة ويسر على الجوانب وفي الخلف ويتساوى الجميع، لا يطيعون أحداً سوى الله. ومن يتح له أن يمس أحد جدران الكعبة المشرّفة يعتبر نفسه محظوظاً. وخارج الكعبة مباشرة نجد أثر قدم سيدنا إبراهيم رسول الإسلام والمسيحية واليهودية محفوظاً في صندوق. وعلى بعد نحو مئة قدم يوجد جبلا الصفا والمروة اللذان سعت بينهما زوجة إبراهيم هاجر، وهي تلتمس الماء لابنها إسماعيل، وباتت تفعل ذلك يائسة حتى دلها جبريل على

عـين تدعـى مـاء زمـرم. ويقلّد المسلمون هاجر في تضرعاتها إلى الله، ويسعون ويمـشون بين الجبلين سبع مرات، ويروون ظمأهـم حتى الآن من ماء زمزم الذي لا يجف أبداً.

وراء أسـوار الحـرمين الـشريفين في مكة والمدينة تتناثر البضائع والأطعمة مـن أفضل الأنواع. وتبدو المدينة كأنها تحولت إلى متجر كبير في انتظار الأرباح التي تتدفق من حاجة الحجاج إلى السلع. تحيط بالمسجد النبوي حلقة من متاجر الـذهب الـتي يفضل أصحابها النقود على بطاقات الائتمان، والدولار على غيره مـن العمـلات. في الأشهر المزدحمة ترى الأبواب كلها تعج بالبشر. في الشوارع والطـرق نـسوة محجـبات يـبعن وشاحات عربية براقة، وفي أماكن أخرى رجال يتجاذبون أطراف الحديث وسط أكوام من رزم الثياب، أو آنية المطبخ مولينكس المتناثرة هنا وهناك، بانتظار الزبائن من النساء اللائي يهمهن أن يصلن إلى بيوتهن مع هدايا وسلع تلزمهن بعد عودتهن من هذه الرحلة التي يمكن أن تكون الرحلة الوحيدة لبلد أجنبي في حياتهن.

المطـاعم والـبقالات تصلح لجميع الميزانيات، والباحث لا يواجه صعوبة كـبيرة في الحصول على هامبرجر من صنع ماكدونالد في أي من مكة أو المدينة. وتباع الكوكا كولا إلى جانب أشرطة دينية عند مدخل مسجد قباء.

قـبـاء مكــان في ضـواحي المديـنة حـيث نزل الرسول ﷺ في طريقه إلى يثـرب، وقـد أصـبحت الـيوم جـزءاً من المدينة الكبيرة التي شهدت في غضون الـسنوات الـثلاثين الأخـيرة تغـيرات ربما لم تشهد مثلها خلال ثلاثمئة سنة. كان أول مـن رأى محمـداً ﷺ رجـل مـن الـيهود، وانـتقل بـذلك الخـبر الـسار إلى المـسلمين الـذين انتظـروا قدومـه أشـد انتظار. وصل الرسول ﷺ إلى قباء ظهر الاثـنين في الـثاني عشر من ربيع الأول، وتنافست القبائل كي يكون الرسول ﷺ نـزيلاً عـندها، فأطلق عنان ناقته لتسير وتبرك حيثما شاءت، وعندما وصلت إلى

مربد لغلامين يتيمين بركت. دفع الرسول ﷺ ثمنه؛ وأمر ببناء مسجد في ذلك المكان، وعمل فيه مع المهاجرين والأنصار، وارتجز المسلمون وهم يبنونه:

لئن قعدنا والنبي يعمل فذلك منا العمل المضلل

نرى اليوم ثريا متدلّية فوق المكان الذي بركت فيه الناقة وأمامه المنبر، ويمتد خلفه مسجد فخم. كان الرسول ﷺ يحب هذا المسجد الأول حباً شديداً، وغالباً ما جاءه راكباً على الحصان أو ماشياً، وقال ﷺ إن ركعتين في هذا المسجد تعدلان عمرة.

لا يغادر أحد المدينة من دون زيارة ساحة معركة أُحد، وجدت مركبتنا مكاناً بين العشرات من حافلات السياح الواقفة بصورة اعتباطية بجوار جبل الرماة. وهذه هي المنطقة السفلى من الميدان الذي وضع فيه النبي ﷺ خمسين رجلاً من الرماة على رابية لحماية المؤخّرة، فيما دارت المعركة في سهل بين الرابية والجبل. وتأخذ الأتقياء من زوار المكان دهشة حين يرون جزءاً كبيراً من ساحة القتال قد تحوّل إلى منطقة سكنية. لكن القرار متعمّد؛ وهذه المنطقة السكنية ليست من الأحياء الفقيرة التي يبنيها المعتدون، بل الحكومة السعودية تتبع سياسة التقليل من تبجيل الأماكن المرتطبة بحياة الرسول ﷺ. والسبب الذي يسوّغ مثل هذه الإجراءات أن الله هو الذي يجب أن يعبد وليس محمداً الذي هو رسول من البشر. وحتى وقت قريب كان الحرس يضربون بالسياط كل من يلبث طويلاً عند قبر النبي ﷺ في المسجد في المدينة. وقد أصبحوا أكثر ليناً اليوم لكنهم يحرصون على تحرّك الصف بسرعة، وألا تمارس أي من مظاهر التقديس أو شبه العبادة التي تشكّل جزءاً من ثقافة كثير من المجتمعات الأخرى. ولذلك تم البناء في ميدان أُحد؛ إلا أن مقبرة الخمسة والستين من شهداء أحد لا تزال على حالها، وأقيم حولها سور لحمايتها من الزوار. وهناك إعلانات باللغات البنغالية والأُردية والإنكليزية تذكر المؤمن بأن الإسلام يسمح له بزيارة قبور

السلف والأبطال لأنها تذكره بالآخرة؛ لكن العبادة لله وحده، لا لغيره من الشهداء والأولياء، ولا يجوز طلب شفاعتهم عند الله.

أضرحة الشهداء في أحد تحكي حكاية من أقوى الحكايات في تاريخ الإسلام. لم تكن قريش لتقبل بهزيمة بدر وتقف منها موقف الخنوع، وإنما عدتها مصادفة وحدثاً استثنائياً. وبمصرع رجال من أمثال أبي جهل في المعركة السابقة غدا أبو سفيان أكبر قائد لقريش. وكانت زوجته هند العنيدة تعرف بحقدها على الرسول ﷺ، وكراهيتها للإسلام قد اشتدت منذ أن خسرت أباها وأخويها في معركة بدر، وهجرت مضجع زوجها ما لم يؤخذ الثأر على نكبة بدر، ولذلك خطط أبو سفيان تحركاته بعناية.

وفي الوقت نفسه برز النبي ﷺ قائداً للمدينة، وربط الفئات الثلاث، اليهود والمشركين والمسلمين، بمعاهدة أو دستور يلزم كل طائفة بمؤازرة الأخرى في حال تعرضها لاعتداء، وصار هو الحكم الذي يحسم أي نزاع وشجار بين تلك المجموعات وأفرادها. إلا أن النظرية شيء والتطبيق شيء آخر، وذلك لأسباب أقلها الغيرة وأسوأها الخيانة. اتصل أبو سفيان بقبيلة يهودية واحدة على الأقل، هي بني النضير، ولقي ترحيباً لدى أميرها سلام بن مشكم. كان أبو سفيان يريد أن يضمن ألاّ تواجه قريش المدينة موحدة عندما تهاجم المسلمين. وتوافرت له أدلة كافية تمنحه الثقة. وكان كعب بن الأشرف من بني النضير من ألد أعداء المسلمين ينشد شعراً يحرّض قريشاً على الثأر.

استغرق الإعداد للمعركة سنة، وأتت ميزانيتها من ثروة قافلة تجارية. وكان الجيش القرشي الذي خرج إلى المدينة يتألف من ثلاثة آلاف جندي، وثلاثة آلاف من الإبل ومئتين من الخيل. وكانوا على ثقة كبيرة بانتصارهم في المعركة المرتقبة، فأخذوا معهم نسوتهم، وكانت على رأسهن هند تحث أبناء قريش وتشجعهم، وأقسمت أنها ستأكل كبد حمزة عم الرسول ﷺ، والبطل المسلم

الجليل. علم المسلمون بأمرهم عندما وصلت قريش قرب المدينة، واختلفت الآراء حول ما ينبغي فعله؛ فألح المتحمّسون من المسلمين، وهم يتذكرون بدراً، على الخروج لمحاربة العدو على الرغم من قلة عددهم وعتادهم. وحذر الآخرون من أنه سيكون انتحاراً للمسلمين. أما قريش فقد انطلقوا بإرادة فيها كثير من الوضوح؛ فهم يريدون القضاء على محمد ﷺ ووأد دينه.

في آخر الأمر لبس الرسول ﷺ لأمته يوم الجمعة في السادس من شوّال، وقرر ملاقاة قريش في أحد، على مسافة ثلاثة أميال شمالاً في اليوم التالي. ظلت الشكوك تساور المسلمين إلى الساعات المتأخرة؛ لكن النبي ﷺ قال: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها. لم يفِ اليهود بعهدهم، وأبوا أن يقاتلوا يوم السبت. وجاء مزيد من الأخبار السيئة. كان الرسول ﷺ قد خرج في ألف مقاتل، وفي صباح يوم المعركة انخذل عنه ثلاثمئة بعد أن ألح عليهم بذلك عبد الله بن أُبَيّ، الذي يحلم أن يكون قائداً لأهل المدينة بعد أن يلقى محمد ﷺ الهزيمة، وعرفت الجماعة التي انخذلت وخانت في أحرج ساعة بالمنافقين.

كان أبو سفيان يومئذ في قلب الجيش القرشي، وخالد بن وليد في الميمنة، وعكرمة بن أبي جهل في الميسرة. وطلب أبو سفيان إلى رجال الأوس والخزرج، القبيلتين المتحالفتين مع المسلمين بموجب معاهدة المدينة، أن يتراجعوا عن ساحة القتال لأن أهل مكة لا نزاع لهم معهم. فجاء ردهم مهيناً لأبي سفيان، لكن معنويات قريش كانت عالية، وارتفعت أكثر لأن هند بنت عتبة كانت تحرضهم على القتال، والنسوة معها يضربن الدفوف ويغنين:

إن تقبلوا نعانق ... ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق ... فراق غير وامق

وكانت قد هجرت زوجها وفارقته سنة كاملة.

عيّن الرسول ﷺ ستين من رماته على رابية لحماية المؤخّرة، وقال لهم: "لا يأتونا (أي المشركون) من خلفنا إن كانت (الحرب) لنا أو علينا فاثبتوا مكانكم". أما بقية المقاتلين فإنهم واجهوا العدو كما واجهوه في بدر. وكانت الغلبة في المرحلة الأولى من القتال للمسلمين، لكن الغلبة ذاتها جاءت تقلب الحسابات رأساً على عقب. فقد حسب الرماة أنهم انتصروا، فخالفوا الأوامر، وسارعوا لئلا يتخلفوا عن الآخرين فيما أصابوه من الغنائم. انتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة، وبسرعة عجيبة انقض بفرسانه على المسلمين، وحقق النصر وعلى الرغم من احتدام القتال في آخر ساعات النهار.

عندما انهزم المسلمون انتشرت إشاعة بأن محمداً قد قتل؛ لكن الصائح كان مخطئاً، والصحيح أنه أصيب بجروح وكسرت رباعيته، وإثر هذا الحدث نزلت الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: 144]. استنفر النبي ﷺ المسلمين، وحال دون أن تنقلب الهزيمة إلى اندحار. أشرف أبو سفيان على جبل، ووقف على مسمع من الجماعة التي التفت حول الرسول وأراد التأكد مما إذا كانت قريش قد قتلته كما نقل عن رجل يدعى ابن قميئة. فأجابه عمر: "والله ما قتلتموه؛ إنه يسمع كلامك الآن". ثم اعتذر أبو سفيان عن التمثيل بجثث المسلمين قائلاً: "ستجدون في قتلاكم مثلة لم آمر بها". وعندما انصرف إلى مكة صاح بآخر شماتة: إن موعدكم بدر للعام المقبل. ما استطاعت قريش إنجاز ما أرادت إنجازه، لاقت سمعتها تشويهاً.

هناك أسباب لأجلها اعتذر أبو سفيان بنفسه عن التمثيل بالقتلى. ذلك أن زوجته هي التي مثلت بالجثث، لأنها كانت مصممة على البر بما أقسمت به، وأن تذوق كبد حمزة. وكان وحشي، وهو عبد حبشي ماهراً باستعمال الرمح قد قتل حمزة لا لشيء سوى أن مالكه جبير قال له: إن قتلت حمزة فأنت حر. وبعد

أن فعل فعلته هذه تراجع عن الساحة إذ إن دوره قد انتهى. لقد عاملت النسوة قتلى المسلمين معاملة وحشية عادت على قريش بالعار. وكانت هند، زوجة أبي سفيان، قد بقرت بطن حمزة ولاكت كبده.

عرفت الحرب في بدر بأنها الفرقان لأنها أول محنة تفرق بين الخير والشر؛ لكن معركة أحد كانت أهم من سابقتها وجديرة بأن يعيها أولو الأبصار، فقد كانت محنة وبلاء، وانتهى الجهاد يومها إلى نكسة. والآيات في السورة الثالثة آل عمران تحمل درساً ذا صلة بالوقت الراهن على وجه الخصوص، عندما يرى المسلمون أنفسهم ضحايا لا منتصرين.

يقول القرآن إن النجاح والفشل من عند الله، ولكل منهما أسبابه. ولا معنى للفرح عند النجاح أو التذمّر عند الفشل، لأن كليهما من تدبير الله. الاختبار الحقيقي لإيمان المسلم يأتي في الشدائد. وبالصبر والجهاد والإيمان تغفر الذنوب، وما من عمل وبر أكبر أجراً من الشهادة. في بعض الأحيان يكون الانتصار لمن لم يؤمن بالله حبلاً يعلق به نفسه. وعندما مثّلت قريش بالجثث إثر معركة أحد أساؤوا إلى سمعتهم، ونفّروا عنهم أبناء عشيرتهم، ما يسَّر للإسلام الغلبة في نهاية الأمر.

قال تعالى في سورة آل عمران الآية (139): ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي أن النصر والغلبة حق لكم إن كنتم مؤمنين. وما نزل في أحد فقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 141-142].

لقد خرج النبي ﷺ من القرح الذي مسه في أحد أقوى من ذي قبل، وبعدئذ لم ينظر الإسلام إلى الوراء قط. أصيب المسلمون في أحد بما أصيبوا لأنهم أرادوا هذه الدنيا، وعصوا بعد ما رأوا ما يحبونه من غنائم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم [تقتلون أعداءكم] بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ

وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم [من الغنائم] مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: 152].

ويقول جل وعلا في السورة نفسها الآية (166): ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. وفي الآية (169) يقول عن الشهداء: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾. وجزاء الذين نجوا بحياتهم في هذه الهزيمة جنة مؤخرة إن آمنوا وصبروا.

من السهل أن يؤمن المرء بالنصر وحتميته؛ لكن العزيمة تأتي من الإيمان الذي يلي الهزيمة والإخفاق، الإيمان الذي يجعل من معجزة عودة النصر وتجدده أمراً محققاً. ذلك ما وقع بعد غزوة أحد؛ فقد أصيب النبي ﷺ بجرح كما أصيب به الآخرون، إلا أنهم التفوا حوله وهم يثقون بأن قلة عددهم أو النكسات التي لحقت بهم في أول الأمر لن تعيق سبيلهم إلى النصر المحتم. لقد غادر أهل مكة، وشماتة أبي سفيان لم تكن لها قيمة. وتذكر المسلمون الموعد في بدر العالم التالي، ولم يتذكره أهل مكة. لقد أزالت أحد، وفق التعبير القرآني البليغ، ﴿عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [الأنفال: 11] ويطهر القلوب. ومن ثم فإنه كان جهاداً أكبر في الوقت نفسه.

السورة الثانية (البقرة) أطول سورة في القرآن، تضم مئتين وستاً وثمانين آية، وهي تحدّد مبادئه الأخلاقية، مثلما تحدّد الآيات السبع من السورة الأولى (الفاتحة) جوهره. (وتوجد آية الكرسي التي تبين الصفات الإلهية في سورة البقرة، الآية (255)). أما الجهاد فإن مفهومه يأتي محدداً في قصة يعرفها اليهود والنصارى كما يعرفها المسلمون، ألا وهي قصة داود وجالوت.

بعث الله النبيين ووكل إليهم مهمات مختلفة؛ منهم موسى عليه السلام الذي كان كليم الله، وقاد قومه في التيه أربعين سنة، وجاهد طويلاً لينقذهم من

الكفر والضلال. ومنهم عيسى عليه السلام الذي أيده الله بالروح القدس، وجاهد جهاداً من دون سلاح. واختار الله داود عليه السلام، وهو راعي غنم فقير، ليحارب ويقتل أعظم محارب في زمانه. داود عليه السلام رعى الغنم، وقرض الشعر، وتغنى، وقاتل وأصبح ملكاً ونبياً، لقد أبى أن يلبس درعاً أو يأخذ سيفاً من طالوت، وحارب بمقلاعه وإيمانه حرباً تناولتها الآيات (249 ـ 251) من سورة البقرة: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۞ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

هذا هو الجهاد بمعنى الكلمة، والدروس المستقاة منه جزء من الدين الإسلامي الحي، تناولها عبد الله يوسف عداً وبأحسن وجه على النحو الآتي:

> 1. لا تكون للقلة والكثرة حساب، والمهم هو الإيمان والثبات والنصر من عند الله. 2. لا يغني العدد والعدة من الأمر شيئاً في وجه الحق والشجاعة وسلامة التخطيط والتدبير. 3. البطل المجاهد يجرب أسلحته وما عنده من الوسائل في حينه ومكانه ولو ضحك عليه وسخر منه الآخرون. 4. إن كان الله معنا فإن سلاح العدو يمكن أن ينقلب عليه ويهلكه. 5. الشخصية تهزم الأخطار كلها، وتبث روح البسالة في قلوب الأصدقاء المتردّدين. 6. من أخلص دينه لله يلقى أجراً من عند الله في أشكال منوّعة ومتعددة: وفي قصة داود كان الأجر الحصول على الملك والحكمة وغيرها من النعم.

وليس من الصعب إيجاد أوجه الشبه بين ما ذكر آنفاً وبين أحداث القرن الحادي والعشرين.

نـزلت الآيـة الأولى من آيات القتال في المدينة، وأذنت للمسلمين بالقتال لأنهـم ظُلمـوا. وكانـت الآيـة التي نزلت بعدها أكثر حدة من سابقتها، وبما أنها تقتـبس علـى نطـاق واسع، فسنتناول بالفحص والتدقيق، ما جاء في الآيات من 190 إلى 193 من سورة البقرة.

الآية الأولى من هذه الآيات ترفض الإرهاب رفضاً قوياً فتقول: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقـرة: 190]. ويقـول عـبد الله يوسـف علي في تفسير معنى هذه الآية: "يجوز القتال دفاعاً عن الـنفس، وفي حـدود واضحة التعيين. والذي يقاتل عليه أن يقاتل بقوة وحماس (مـن دون أن يكـون عـديم الـرفق والـرحمة)، لكـن لا لغـرض سـوى استعادة الـسلام، وحـرية عـبادة الله. ولا يجوز للمرء في حال من الأحوال أن يعتدي أو يـتجاوز الحـدود. ويـنهاه الإسـلام عـن هـتك أعـراض الـنساء وقـتل الأطفـال والـضعفاء، وقطـع الأشـجار وحرق المزارع، وينصحه بالإحسان والصلح حين يكون العدو مغلوباً على أمره".

إلا أنه ليس هناك ما يدل على جواز التواني أو التخاذل في محاربة الظالمين، وبدلاً من أن تُديرَ الخدّ الآخر، عليك بالسيف واتباع قوله: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 191].

لكن الآية 192 تقدّم الحلّ وتتطلب بعض التفسير: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: 192]، وكذلك هو حال السورة التي تليها: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 193].

يؤنّب القرآن من يقعد ويتخلف عن القتال ضد العدوان، ويقول في الآيـة (216) من سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، إلا أن ذلك

يأتي مقروناً بإيضاح أن القتال لا يعني الاعتداء؛ وإنما تُلقي اللوم بأسوأ أشكاله على من يعتدي ويظلم.

وخلاف ذلك فإن التضحية والفداء يتجسد بأروع أشكاله في الشهادة والجهاد. وتقول الآية (38) من سورة التوبة، التي نزلت عندما تردد بعض المسلمين في الخروج مع النبي ﷺ إلى تبوك لقتال البيزنطيين النصارى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: 38].

ومن الأعذار التي لجأ إليها المتخلفون لتسويغ قعودهم عن الجهاد أن الحر في تبوك شديد، فردت عليهم الآية (81) من السورة نفسها: ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗا ﴾ [التوبة: 81]. ومن أسلم ثم ولّى دبره عن الجهاد لا يكون مأواه إلا جهنم؛ وفي هذا الصدد نزلت الآيتان (15-16) من سورة الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۞ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾. الأنفال معناها غنائم الحرب، وهي مضمونة للمؤمنين - حتى إذا كانت المواجهة مع قوة عظيمة مثل المملكة المسيحية البيزنطية في ذلك العصر.

وكما رأينا مراراً وتكراراً ليس لقلة العدد وكثرته قيمة في الحسابات لأن النصر آت من دون ذلك، وقد جاء في الآية (65) من سورة الأنفال أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾.

الموت إذن تحريض وترغيب لا تخويف أو ترهيب: ﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [آل عمران: 157].

لقد ترجم الدكتور محمد محسن خان من الجامعة الإسلامية في المدينة صحيح البخاري، الجامع الذي يضم سبعة آلاف من أحاديث النبي التي انتقاها الإمام البخاري (ولد في بخارى عام 810 م وتوفي عام 870 م) من ستمئة ألف حديث، إثر استقراء وتمحيص شاق دام ست عشرة سنة، ونشرت الترجمة دار كتاب باوان، نيودلهي، 1987م. تحمل هذه الترجمة خطبة ألقاها الشيخ عبد الله بن محمد بن حامد إمام الحرم الشريف في مكة، وتعرض فيها لتاريخ الجهاد من استحبابه إلى فرضيته ووجوبه، فقال: إن القتال إذا كان مشروعاً في سبيل الله، ويتفق مع الشروط المبينة فيما يسمى "سورة الجهاد الثانية" أي سورة التوبة (بحسب ترتيب النزول الزمني تفصل سبع سنوات تقريباً بين سورتي الجهاد، وسورة التوبة هي من آخر السور المنزلة، وهي الوحيدة التي لا تبدأ بالبسملة).

وبما أن الآيات التي سبق ذكرها تجعل الجهاد فريضة فإنها الأدلة التي يستند إليها كثيرون لإثبات أنه من واجب كل مسلم أن يستجيب للدعوة إلى الجهاد؛ بيد أن للجهاد شروطاً. والسؤال: ما العمل إذا خان العدو أو نكث العهد؟ المفروض في هذه الحالة هو تقديم إشهار مدته أربعة أشهر قبل الجهاد، وإبقاء أبواب الرجوع مفتوحة طيلة هذه المدة، والقتال لا يكون مشروعاً إلا إذا أخفقت تلك المساعي جملة. وعندئذ فقط يتوجب على كل مسلم أن يعدّ له بجميع القوى المتاحة. والآية التاسعة والثلاثون من سورة التوبة تقول: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾. إذن من الممكن أن يؤخر المسلم الجهاد لأسباب تكتيكية؛ لكنه لا يمكن له أن يتخلى عنه كلياً.

وتتناول الخطبة الشهادة وجزاءها بصورة تفصيلية؛ فيقول: إن أرواح الشهداء لها أن تعيش في الجنة حيثما شاءت، والله يغفر ذنوبهم جميعاً. والشهيد يشفع عند الله لسبعين من أقاربه. ما هي رسالة الشيخ عبد الله؟ إن الله سينزل ملائكة بدر، وسيكون النصر مضموناً. لكن على المؤمنين أن يؤمنوا قبل أن يأتي

النصر. فالمسلم في العصر الحديث يعيش حياة امرئ لا يعرف النبي ﷺ ولا يفهم رسالة دينه. وإنما أصبح المسلمون يجهلون دينهم، وصاروا مثل عبدة الأوثان والمشركين الذين كانوا قد حلوا محلهم. وعلى المسلمين أن يزكوا أنفسهم إذا أرادوا الفوز في هذه الدنيا.

لقد عرض الله على عباده المؤمنين بيعاً، وهو المصطلح المحدّد الذي استعمله القرآن، ونجده في الآية (111) من آيات السورة التاسعة (سورة التوبة)، والتي تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

لا شك في أن هذه البيعة كانت أعظم بيعة في التاريخ الإنساني؛ لأننا لا نجد أي شيء آخر يخلق طاقات جبارة مثلها، أو يجعل المرء يستخف بالحياة. وفي سورة آل عمران (الآيتان: 169 و170) يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

إذن كيف تكون الجنة التي وعد بها المتقون؟ تذكر الآية (15) من سورة محمد أنه في الجنة: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

نجد الجنة ونعيمها مذكورة في القرآن الكريم من أوله إلى آخره. لتأخذ مثلاً الآيتين (70 ـ71) من سورة الزخرف: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۞ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وفي سورة الإنسان (أو الدهر) نقرأ أولاً ما أعد للكافرين من سلاسل وأغلال وسعير، ثم نقرأ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: 5]. وذلك بعد حسابهم يوم الدين مباشرة. ثم يدخلون الجنة ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 21] جزاء بما صبروا عليه. ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۞ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: 17-18]. وفي عالم الملكوت تقام لهم مأدبة فيها شراب طهور؛ ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:21].

وتصف سورة المطففين الجنة ونعيمها في خطابها للمكذبين الذين سخروا من المؤمنين، فتقول: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۞ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۞ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۞ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 22-28]، وتسنيم: معناه العلو والرخاء، ويراد به شراب طهور ورحيق؛ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: 20].

وقد فسر عبد الله يوسف علي الحور وخلوهن من الشهوانية والأمراض الجسدية تفسيراً سليماً حين قال: يكون لأهل الجنة أزواج في الجمال كجمال المنظر واللباس والثمرات. ستكون هناك حياة؛ لكنها حياة لا تشوبها الفظاظة التي تشوبها في هذه الدنيا. الأبرار من نسوة هذه الدنيا ورجالها سيدخلون الجنة وينعمون بنعيمها الذي لا يمكن وصفه بالكلمات.

وتقول الآيات (45-49) من سورة الصافات: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۞ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۞ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۞ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

والجحيم على الدرجة نفسها من الوضوح؛ وتصفها الآية (56) من سورة النساء بهذه الكلمات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ

جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾. بينما تصف سورة إبراهيم العقاب الذي يناله العنيد من الكفرة: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۞ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: 16-17]. وفي الآيتين (49-50) من السورة نفسها نجد: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۞ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾.

قبل الانصراف من ساحة القتال في أُحد كان أبو سفيان قد أشرف على الجبل، ونادى معبوده هبل، وقال: أنعمت فعال؛ اليوم بيوم بدر، والحرب سجال. سمع النبي ﷺ ما قاله أبو سفيان؛ فطلب من عمر أن يجيبه، فأجاب: الله أعلى وأجل. لسنا سواء؛ قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. ذلك هو الفرق المهم لدى المؤمن.

وبالعودة إلى من خرج ظافراً من معركة أحد، نذكر معاوية بن أبي سفيان، الذي أسس السلالة الأموية العظيمة بعد وفاة حفيد النبي ﷺ الحسن هذه السلالة التي حكمت الدولة الإسلامية من 661م إلى 739م. كما أن خالد بن الوليد الذي هاجم المسلمين بفرسانه، وألحق بهم الهزيمة اعتنق الإسلام بعد ليل من معركة أحد. وقاد المسلمين عندما سار الرسول ﷺ بهم لفتح مكة، وضمن قبل وفاته انتصار الجيوش الإسلامية في القدس المسيحية والشام والعراق إلى نهر الفرات.

هذا ما وعد الله به.

- 3 -

الفتن في ظلام الليل

كـانَ آخـر مـا عهد رسول الله ﷺ أن قال : لا يترك بجزيرة العرب دينان (توفي الرسـول ﷺ في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، اليوم نفسه الذي قدم فيه إلى المدينة مهاجـراً، وأكمـل اثـنتي عشرة سنة على هجرته). ولما توفي رسول الله ﷺ عظمت به مـصيبة المـسلمين، وكانـت عائـشة تقـول: "عـندما تـوفي الرسول ﷺ ارتدَّت العرب واشـرأبّت الـيهودية والنـصرانية، ونجـم الـنفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في اللـيلة الـشاتية لفقـد نبيهم حـتى جمعهـم الله علـى أبي بكر" ("سيرة رسول الله" لابن إسحاق الذي ولد بالمدينة عام 85هـ، ووافاه الأجل في بغداد سنة 151هـ).

كانـــت هند التـــي لاكت كبـــد حمزة، عم الرسول ﷺ، خائفة من أمرها بطبـيعة الحـال، وهـي تنتظـر مقـدم النبي ﷺ إلى مكة واستقباله. أما زوجها أبو سـفيان قائـد قـريش فإنه كان قد أسلم، واستقبل الرسول ﷺ وهو يتعمم بعمامة حمـراء يمانـية لـدى دخوله إلى موطنه فاتحاً في العشرين من رمضان (عام 630م حـسب الـتقويم الغـربي)، علـى رأس عـشرة آلاف مـن الأنـصار والمهاجـرين المـسلحين. قاومـت هند حتى آخر لحظة، واتجهت إلى زوجها أبي سفيان وهي غاضـبة؛ فأخـذت بـشاربه، ونادت قريش قائلة: "اقتلوا الدسم الأحمش، فبئس طلـيعة القوم". وقال أبو سفيان لقومه: لا "تغرنكم هذه من أنفسكم"، ونصح من معه من قريش بقبول المسلمين فاتحين.

جاء الرسول ﷺ إلى الكعبة راكباً راحلته، وطاف بها سبعاً، واستلم الحجر الأسود بمحجن (عود معوج الطرف) في يده، ثم أخذ مفتاح البيت من عثمان بن طلحة، ودخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان وكسرها في ثلاث. ورأى في الكعبة ثلاثمئة وستين صنماً فتلا: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: 81]، وبعد صلاة الظهر كسرت الأصنام وأحرقت كلها.

وسار ﷺ بعدئذ إلى جبل الصفا ليبايع الناس، فبايع الرجال أولاً ثم النساء. لم يكن الرسول ﷺ ليمس يد امرأة غير محرمة، فقد وضع إناء فيه ماء لتدخل فيه أصابعها بعده ﷺ إيذاناً ببيعتها. انضمّت هند، التي أصابتها الهزيمة من دون أن تنال من كبريائها، وجاءت متنكرة لتخفي نفسها؛ لكنها ما استطاعت أن تخفي طبيعتها. وبعد إعلان شروط البيعة والسمع والطاعة لله والإذعان لرسوله، قال الرسول ﷺ: " ولا تسرقن". فقالت هند: والله أنا أصبت من مال أبي سفيان، ولا أدري إن كان ذلك حلالاً. فقال أبو سفيان مستسلماً: وما أصبت كان حلالاً لك. هنا تدخل النبي ﷺ وقال: "وإنك لهند"؟ فقالت: "نعم؛ فاعف عما سلف، عفا الله عنك".

ثم أعلن النبي ﷺ شرطاً آخر من شروط البيعة فقال: "ولا تزنين". فقالت هند: "أو تزني الحرة يا رسول الله؟". ثم قال: "ولا تقتلن أولادكن". فردت عليه: "ربيناهم صغاراً، وأنتم قتلتموهم كباراً يوم بدر؛ فأنتم أعلم بهم". وكان عمر رضي الله عنه جالساً عند الرسول ﷺ، وسمع ما قالته هند فضحك حتى استلقى. ثم قال الرسول ﷺ: "ولا تأتين ببهتان"، فقالت: "والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق". وآخر ما قاله وهو يبايع النساء: "ولا تعصيني في معروف". فقالت: "والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك".

هذه الكلمات الرائعة التي تبادلها الرسول ﷺ مع هند تمثل روح الدين

الإسلامي. كان الرسول ﷺ قائداً من دون أدنى ريب، مطاعاً من الناس، وحاملاً رسالة ربه، ولكن كان ذلك أبعد ما يكون عن التملُّق. كانت الأمة المسلمة سواسية، يوحّد بينها الإيمان بالله. ولكن ذلك لا يعني أنه لم يكن ثمة خلافات بين المؤمنين، أو أنه استحال نشوبها بين أبناء الأمة في المستقبل. بل إن الخلافات ظهرت بعيد وفاة النبي ﷺ، وكان محورها الخلافة، وتجلت شدتها في الحروب الأهلية وفي الصراعات التي احتدمت بين حفيد هند (يزيد)، وحفيد النبي ﷺ (الحسين) في كربلاء. ولم يكن المسلمون أبداً في حاجة إلى زعيم يقودهم من موقف الحكمة والرشد أشد من حاجتهم إليه يوم وافى النبي ﷺ الأجل.

كان أبو بكر صديقه الحميم وأقرب أصحابه منه يصلي بالناس صلاة الفجر في الثاني عشر من ربيع الأول (632 حسب التقويم الغربي)؛ فدخل الرسول ﷺ المسجد فالتفت الناس، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصلى النبي بالناس، لكن الرسول قال له: صل بالناس، وجلس عن يمينه. وعندما فرغ من الصلاة كلمهم رافعاً صوته: "أيها الناس؛ سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ما تمسكون عليّ بشيء، إني لم أحل إلا ما أحل القرآن، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن".

ثم دخل ﷺ حجرة عائشة بنت أبي بكر، وقبض في حجرها في ذلك اليوم. فوضعت عائشة رأسه على وسادة، وبدأت تضرب وجهها وصدرها مع النساء.

وتوعَّد عمر بأنه سيقطع أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات، وقال عمر إنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى أربعين يوماً، إلا أن أبا بكر نهر عُمراً في خطبة أصبحت بمنزلة ميثاق بالنسبة للعقيدة؛ فقال: "أيها الناس؛ من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا آية من القرآن، نزلت قبل ثماني سنوات عندما نادى امرؤ في

معركة أحد إن محمداً الجريح قد مات: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾" [آل عمران: 144].

وبعيد وفاة النبي ﷺ انقسم المسلمون أربع جماعات؛ تكوَّنت إحداها من أهل المدينة أو الأنصار، والثانية من المهاجرين المسلمين الأوَّلين الذين هاجر منهم اثنان وسبعون إلى المدينة مع النبي ﷺ. ورأت الثالثة أن الخلافة من حق آل محمد ﷺ، أو بني هاشم، وجاءت هذه الجماعة متمثلة بفاطمة بنت الرسول ﷺ وزوجها. أما الجماعة الرابعة الأرستقراطية، بقيادة أبي سفيان الذي كان حديث العهد بالإسلام، فقد تمسكت بالسلم ولو إلى حين.

اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لإثبات أحقيتهم دون غيرهم من المسلمين؛ فانطلق أبو بكر وعمر إلى الأنصار، وأجمع الناس على أبي بكر. وتولى أبو بكر مقاليد الأمور في تلك المرحلة العصيبة. واتخذ أبو بكر لنفسه لقب خليفة رسول الله. وفيما يخص المهمة التي أخذها على عاتقه فليس من كلام أدلَّ وأفضل مما قاله أبو بكر نفسه في خطبة أمام المسلمين في السقيفة: "إني قد وليت عليكم ولست بخيركم؛ فإن أحسنت فأعينوني، وأن أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرد عليه حقه إن شاء الله. والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء".

ثم يأتي جوهر الخطبة وأهم جزء من أجزائها: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله؛ فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم".

ويأتي هذا الدستور، بما يتصف به من المثالية والعظمة، بداية ما يقول عنه برنارد لويس "أعظم مؤسسة ذات سيادة في تاريخ الإسلام وأهمها حتى حينه"
The Political Language of Islam, the University of Chicago Press, Chicago,)

1988). لكـن المثالـية نفسها تنطوي على خطر كبير يظهر في استمرارية تحديات ناشئة عن بقاء تلك المثالية غير محققة.

هـناك مـسافة شاسعة تفصل بين ما هو سبيل الله وبين عناد عباده؛ وإذ كان الرسـول ﷺ وحـده يـستطيع أن يـسلك سـبيل الله كمـا ينبغي أن يسلكه فإنه من المحتم علـى الـناس الـذين تولـوا الأمر بعد وفاته أن يتركوا مسوغات - صغيرة كانـت أم كـبيرة - للشكوى ولإجراء المقارنات وحتى الثورات في نهاية المطاف. وقد طلب أبو بكر نفسه من المسلمين أن يطيعوه ما أطاع الله ورسوله، ولا طاعة لـه إذا عـصى الله ورسـوله. وإذا أمكن للمسلم أن يجد خطأً في شخص أبي بكر وهو أقل الخلفاء الراشدين تعرضاً للنقد أو التجريح فالأمل ليس كبيراً بأن يكسب مـن تـبعه في الأمـر مـن الـناس بكفـاءات غير متعادلة طاعة المسلمين. إذن كان الجهـاد الأكـبر أن يزكـي المـرء نفسه، وأصبح تطهير الباطن وصقله سبباً لأجله تكـررت النداءات للجهاد ضد ولاة الأمور الذين عملوا خلافاً للإسلام وأوامره، ولم يراعوا مصلحة المسلمين بوصفهم أمة.

اسـتطاع أبـو بكر رضي الله عنه في مدة خلافته القصيـرة (سنتيـن ونصف) أن ينجـز آخر ما أمر به الرسول ﷺ في حياته. فباشر الحرب على الردة، وسحق جمـيع مـن ارتـدوا عـن الإسـلام، وصارت الجزيرة العربية كلها خاضعة لحكم المسلمين. لكنه واجه هو الآخر المعارضة في المدينة ومن قبل رجل بمكانة علي وعـزه ومجـده في الإسـلام. كـان علـي يستـشعر بالسخط من أمر الخلافة وترك مـشاورته فـيها. وتحول هذا التذمر إلى مرارة عندما تخطاه أبو بكر، وسمى عمراً خليفة له من دون علي. وكان من صحابة الرسول ﷺ من رأى أن عمراً رضي الله عنه كان مستبداً أكثر من الضرورة، إلا أنه كان في الوقت نفسه على قدر كبير من الـذكاء في إدارة الأمـور، وتمـتع بجرأة فائقة في الحروب. ففي غضون السنوات العشر من خلافته تحوّلت الدولة المدينة إلى إمبراطورية ضمت فلسطين ومصر، وأجـزاء كبيرة من إيران، وفي الشمال أذربيجان وأرمينيا. ومن الأهمية بمكان أن

نذكر أنه عندما كان عمر رضي الله عنه يحتضر بسبب إصابته بجرح من خنجر خادم فارسي له استدعى أجلّ الصحابة، واستوثق منهم ألا يختاروا ابنه عبد الله وارثاً له في الخلافة، وعليهم أن ينتخبوا في ثلاثة أيام بعد وفاته أحداً من ستة رجال، ومن بينهم علي رضي الله عنه، وترك الأمر لهم.

لقد جعل كبار الصحابة الخيار بين الاثنين عثمان، وهو من بني أمية وعلي. وللمرة الثانية خرج علي خاسراً. ودامت خلافة عثمان الذي كان حينئذ فوق السبعين من سنه اثنتي عشرة سنة، وثارت في عهده المناوءات والنزاعات. عندما بدأت الثروات تنصب على المدينة من المناطق المفتوحة صار عمر يدبر شؤون بيت المال تدبيراً متحفظاً دقيقاً، وفي زمن خلافة عثمان أخلى الطريق للمرونة وأثيرت تهم الفساد، والذين انتفعوا بذلك وصفوا عثمان بالسخاء والجود، فيما أنكر عليه مناوئوه تصرفاته تلك واتهموه بإيثار ذوي القربى. واتهمه خصومه بسوء الأدب عندما أمر بإحراق جميع نسخ القرآن عدا المصحف الرسمي الذي دوّن زمن خلافته.

جاء مقتل عثمان كي تشتعل نيران الفتن بين المسلمين، وكل جماعة من الجماعات المتناحرة ادعت أحقيتها في حماية الدين، ما جعل كبار القوم يلتمسون من علي أن يكون خليفة للمسلمين على تردده وتمنعه هذه المرة. إلا أن الحروب الأهلية اشتدت أكثر من ذي قبل بعد أن تسلم علي الخلافة. فقد كان الأمويون من أقارب عثمان يتحدّون علياً، واتهم معاوية والي الشام وأحد أبناء هند بنت عتبة علياً بالتحريض على قتل عثمان، فنقل علي عاصمة الخلافة من المدينة إلى الكوفة في العراق لكي يتمكن من درء الأخطار ومعالجتها. لكنه وجد هناك جيشاً إسلامياً ينتظره للقتال. ويبكي المؤرخون على الألوف من الصحابة والمؤمنين الذين لقوا حتفهم في تلك الحرب التي تعرف بحرب الجمل. وفي سنة 657م وقف علي في وجه عسكر معاوية في صفين في الشام، وقال إنه كان يستطيع مواجهة معاوية لو لم تكن عائشة وفعلتها وهي من أهل البيت. عرض

معاويـة الـصلح وإنهاء الحرب وتحكيم القرآن في ذلك، وعندما وافق علي على العـرض قـتله أحد أتباعه من الخوارج؛ بحجة أنه ارتكب بقبوله صيغة المصالحة مخالفـة للـدين، الأمـر الذين يدل على أنه كان بين المسلمين من تصور أن علياً أيضاً لم يكن مؤمناً كاملاً.

لـبس الحسن نجل علي نفسه عباءة أبيه، وجعل من الخلافة إرثاً لأول مرة في تـاريخ الإسلام. لكن معاوية وتحدياته استمرت قائمة، وفتح باب الحوار مع الحـسن. وقال إنه ينبغي للخليفة أن يكون جامعاً بين التمسك بالدين والأهلية في إدارة الحكـم. وفي هـذا الـصدد كـتب إليه معاوية ينبهه إلى قلة تجربته في إدارة شـؤون الحكـم والـرعايا وافتقاره إلى القدرة الوافية على صيانة أرواح المسلمين وممـتلكاتهم، ودرء أخطـار الأعـداء مـؤكداً أنـه أمضى حقبة طويلة في السياسة وإدارة الحكـم، وبأنـه سـيلبي لـه مـا طلبه لو كانت عنده تلك الخصائص. اقتنع الحـسن بمـا جـاء في المكـتوب، فأصبح معاوية خليفة المسلمين. إلا أن انتقال الحكـم سلمياً لم يضع نهاية للتوترات، وعندما توفي الحسن في سن مبكرة اتهم أتباعه معاوية أنه دبر أمر اغتياله بتسميمه.

كـان معاويـة كمـا زعـم، وأدار دفـة الـنظام بحكمة، فنجح من جانب في اسـتتباب الأمـن داخلياً عشرين سنة، ومن جانب آخر واصل التقدم وراء حدود الدولة طيلة مدة حكمه، كما جعل من الإمبراطورية البيزنطية، على ما كان أمرها مـن الهيـبة والقوة، تواجه من جديد تحديات من قبل المسلمين. ولكن مع ذلك لم يتعـرض النـصارى لأي تعـسف أو تعـصب خلال سنوات حكمه. وقد اختار ذوي الكفـاءات لإدارة الـنظام، بمن فيهم النصارى واليهود، وكان كاتبه نصرانياً سورياً. لكنه لم يكن متسامحاً مع معارضة المسلمين.

وعـند ظهور القلاقل في البصرة بعث بزياد واليا عليها. ونبه زياد في خطابه الطوائـف المتناحـرة علـى أن الـرؤوس ستتساقط، وكل من يهمه أن يكون رأسه

فوق جذعه عليه أن يراعيه. في أيام حكم معاوية أصبح الخليفة ملكاً. مع امتداد الإمبراطورية وتنامي حاجاتها صار الخليفة يكيف دوره معها. وعندما توفي معاوية كان الحكم الإسلامي قد امتد من السند إلى المغرب وإلى بخارى شمالاً. ولم تعطِ انتصاراته أي فرصة لنشوء معارضة جادة لأساليب حكمه. وقد نقل فيليب حتي في "تاريخ العرب" عن ابن العبري فلسفته في تدبير شؤون الدولة التي اتخذت بعداً كلاسيكياً: "إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي و لا أضع سوطي حيث يكفيني لساني. ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا مدّوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها".

الدين هو الذي وحّد المسلمين في الانتصارات الأولى المنقطعة النظير، والسياسة هي التي فرّقتهم بعد معاوية. أما المسلمون في العصر الحاضر، الذين يتمنون أن يأتيهم أبو بكر أو عمر أو علي أو حتى معاوية كي يقودهم، فربما يجدون يزيد بن معاوية (680-683م) مألوفاً في تجربتهم الحاضرة. ففي مدة ثلاث سنوات من حكمه دمر ما أنجزه أبوه من استتباب الأمن في أنحاء الدولة. كان والد يزيد قد نصحه بمعاملة الحسين شقيق الحسن معاملة اللطف؛ لكن يزيد آثر العدوان على الملاطفة، ما جعل رأب الصدع بين السنة والشيعة متعذّراً.

في هذه المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي تسير الدماء المراقة والالتباس جنباً إلى جنب، تماماً كما هو الحال حين تنفصل الدفة عن مؤخرة السفينة. بعد خمسين سنة على وفاة النبي ﷺ، كان هناك ثلاثة رجال، تربطهم صلات القرابة، وكل منهم يزعم أنه الخليفة. ففي دمشق لم يستطع الابن أن يخلف والده يزيد في الحكم بعد وفاته، وتولى زمام الأمور مروان، وعندما توفي مروان سنة 684م أصبح ابنه عبد الملك خليفة المسلمين.

وفي صحراء العرب خرج عبد الله بن الزبير على الحكم وبعد أن استولى على مكة والمدينة أعلن نفسه خليفة. وفي مدينة الكوفة التي اختارها علي

عاصـمة لخلافـته، ظهر رجل اسمه المختار الثقفي، وأحبه العوام، وكوّن جيشاً مـن التوّابين الذين عجزوا عن الدفاع عن أهل البيت، وأعلن محمد بن الحنفية، نجـل علـي رضي الله عنه، خليفة عليهم. استطاع المختار أن ينتقم جزئياً لموقعة كـربلاء عـندما هـزم عبـيد الله بـن زيـاد ومثل به في الموقع نفسه الذي سقط فيه الحـسين. ولم يكـن مخـتار مقـاتلاً فحـسب، وإنما جمع الفقراء من عامة الناس وراءه اسـتناداً إلى أن القـرآن يـنص علـى المساواة بين أبناء البشر، وعرض على أتـباعه حلمـاً يـرفع الـيأس والكآبة، وقال إنه سيظهر الإمام الغائب أو المهدي، ليقيم العدل في أنحاء العالم، ويقود جيوش الإسلام إلى الانتصار.

كان عبد الملك من أعظم خلفاء الإسلام. في أول الأمر انتظر خصومه كي يـصفوا خلافاتهم فيما بينهم، وذلك ما فعلوه؛ فقد هزم عبد الله بن الزبير مختاراً الثقفي، ثم اتجه عبد الملك إلى المنتصر فاستعاد جيشه مكة والمدينة، وقتل عبد الله في المعركة.

تـتابعت الفتن واحدة تلو الأخرى في ظلام الليل، وعندما طلع الفجر كان فجـراً مـشرقاً. وقـد بنى الخليفة عبد الملك والخلفاء الذين تبعوه في الحكم مدة مئة سنة أكبر إمبراطورية في التاريخ قوامها حسن الإدارة والسعي الفكري الجاد.

غـير أن الانحطاط أمر لا مفرّ منه. فقد تخلى الأمويون عن القيم الإسلامية المثلـى، وتدهـورت أركان الثقافة، وجاءت السياسـة لتتبعها. وتعليقاً على ذلك يقـول المـؤرخ الإسـلامي الـشهير رفـيق زكـريا: "خـان الأمويـون فكرة الأخوة الإسـلامية بـصرف النظـر عـن العـرق أو اللغـة، ما أسفر عنه سقــوط الحكــم الأمـوي" (The Struggle Within Islam, Viking, 1988). وقد خلف الأمويين في الحكـم قائـد من قادة الجيش يدعى أبا العباس الذي يرتبط بصلة قرابة بعيدة مع نـبي الإسـلام. وبمجـيء السلالة العباسية إلى الحكم بدأت دورة أخرى للصعود والهبوط والتجدد في تاريخ المسلمين.

الخلافة مؤسسة حافظت على وجودها على الرغم من تغير السلالات. ما السبب وراء بقاء هذه المؤسسة قوية على مرّ القرون؟ كان السنة من المسلمين المتناثرين في ربوع ثلاث قارات قد اعترفوا بمشروعية حكم أكثر من ملك في أي زمن من الأزمنة؛ لكنهم لم يقبلوا إلا بخليفة واحد بصورة عامة. المفروض إذن أن يكون هناك مسوغ عقلي لهذه المكانة المميزة. وقد وضع العلماء الأتراك ذلك المسوغ باقتدار بعد أن استطاع السلطان العثماني العظيم سليم الأول أن ينتزع ذلك من القاهرة. ولتقوية ذلك الادعاء تقدم العلماء بخمسة مسوّغات: حق السيف، وإقرار أهل العقد، والتسمية من الخليفة السابق، ورعاية الحرمين الشريفين أو المدينتين المقدستين، وامتلاك آثار من الرسول ﷺ (شعرة من لحيته وجبته اللتين أهداهما الخليفة في القاهرة إلى السلطان سليم).

ومن مسوغات الخلافة الخمسة الآنفة الذكر يكون حق السيف ورعاية الحرمين أهم مصداقية وأكبرها؛ وذلك لأن قوة السيف هي الضمان لتأمين حماية الحرمين والذود عنهما. إلى جانب ذلك ينبغي أن يكون السيف على قدر واف من القدرات كي يتيسر له الدفاع عن الجزيرة العربية. ربما تمكن الأمويون في قرطبة والمغول في دلهي من أن يزعموا اللقب، لكنهم لم يستطيعوا حماية الأماكن المقدّسة ما جعل ادعاءهم الخلافة افتراضياً. لقد كان الخلفاء المعترف بهم من عامة المسلمين يتخذون من المدينة أو دمشق أو بغداد مركزاً لحكمهم، أو القسطنطينية بعد أن فتح الأتراك الحجاز. ومعلوم عن الحج أن له أهمية مركزية في الإسلام، والمسلمون في ربوع العالم يتوقعون من خليفتهم أن يذود عن الحرمين وعن الطرق المؤدية إليهما. (الملوك في فارس بدءاً من محمود عبد الله (1306م) لم يدّعوا أبداً الخلافة؛ لأن الشيعة يعتقدون أن رجلاً من أهل البيت فقط يصلح أن يكون إماماً، والأئمة الاثنا عشر يمتدون من علي إلى محمد المهدي).

تشتق لفظة "الخليفة" من الجذر العربي "خلف" بمعنى "ترك وراءه"، لهذا فإنها تستعمل بديلاً للوارث أو النائب. ويصف القرآن رجلين بأنهما خليفتان لله؛ أولهما آدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:30]. ظنّت الملائكة أنهم يعلمون ما لا يعلمه الله؛ فزجرهم الله وطلب منهم أن يسجدوا لآدم فسجدوا، إلا إبليس الذي قال إنك خلقتني من نار وخلقت آدم من طين، فلعنه الله إلى يوم الدين.

والثاني داود؛ فقد جاء في الآية (26) من سورة ص: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾. وقد رفض عمر أن يكون هو خليفة لله أو نائباً عنه، وقال إن آدم وداود هما اللذان يجوز لهما الادعاء بذلك فحسب. والخليفة يمكن أن يكون نائباً للرسول لا غير، إلا أن بعض السلاطين المسلمين بدءاً من العباسيين لم يستطيعوا أن يقاوموا إغراء الادعاء بأنهم ظل الله عَلى الأرض. وهذه المزاعم تعطي فكرة عن نوايا هؤلاء الملوك من دون إرادة الله.

إن منصب الخلافة عند السنة، كما سبق ذكره، منصب إجماع من الناحية العملية. وبعد معاوية أصبح هذا الشرط مجرد أقصوصة؛ لكنه حافظ على جانبه النظري. فقد تسلم السلطان العثماني سيف الخليفة بطريق غير طريق الإرث، واستدعى ذلك أن يوافق عليه مجلس العلماء. وكانت نتائج ذلك الانتخاب المقدس معلومة سلفاً، وخلت من أي شيء مثل استطلاع الرأي العام.

غير أن سيف الخليفة كان ذا حدين. فحق الانتخاب يعني ضمناً حق الإبعاد أيضاً، وإذا تجاوز الخليفة حدود الله وشريعته وجب على المؤمن، من الناحية النظرية، ألا يطيعه. والحديث النبوي: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"، يمنح عامة المسلمين السلطة اللازمة لذلك. لا يمكن للسلطان أن يضع نفسه فوق الشريعة الإلهية، هذا مبدأ مهم لاسيما إذا أراد المرء أن يبني فهماً

صائباً لجدلية السياسات الإسلامية الحديثة. فقد استخدم حق إبعاد الخليفة مرة واحدة زمن الإمبراطورية العثمانية حين تأزمت الأوضاع، وبدا كأن البيعة مع الله قد علّقت.

ويكفي أن نضرب على ذلك مثالاً واحداً. توقّف تصاعد القوة العثمانية بسرعة هائلة بحلول القرن السادس عشر، وصار في طور الهبوط في السنوات الثماني التي تولى الحكم فيها إبراهيم المجنون، والحقبة الطويلة التي كانت مقاليد الأمور فيها في يد ابنه محمد الرابع (48-1687). قد شاعت عندئذ في الدوائر الشعبية في القسطنطينية مقولة تلخص ما آل إليه الوضع زمن حكم الأب وابنه: أصيب الأب بجنون الشهوة والابن بجنون الصيد. إلا أنه قبل مجيء إبراهيم إلى الحكم كانت هناك حركة إصلاحية قد انطلقت من المساجد، ودعا الوعاظ إلى فرض الحظر على الرقص والموسيقى ولبس الحرير وزيارة القبور وممارسات الدراويش وحتى المآذن، ونادوا باتخاذ الإسلام الأصولي الذي سيعيد للحكم والشعب المجد من جديد، وهي الأفكار التي تردّدت في الحركة الوهابية. وفي عام 1656م أصدر الصدر الأعظم كوبرولو محمد أمراً بإجلاء هؤلاء الوعاظ إلى قبرص.

لكن الوزير عرف أسباب الغضب، وفي آخر ما أوصى به السلطان لدى زيارته له قبيل وفاته يوم 31 أكتوبر 1661م أن على الحكومة أن تلتزم في مظهرها بالدين والعدل، وهما عملان من أعمال الخير والبر يشكلان حجر الزاوية بالنسبة إلى الحكم الإسلامي. في سنة 1683م لقي زحف عثماني طموح نهاية مأساوية بعد أن كان على عتبة الانتصار. فقد هزم قرة مصطفى باشا على أبواب فيينا أمام تحالف الإمبراطورية الرومانية المقدسة والبابا وبولندا. ودفع مصطفى باشا حياته ثمن هذه الهزيمة، لكن ذلك لم يغيّر من المسار نفسه. فسقطت بودا في أيدي النمساويين سنة 1686م، وبلغراد عام 1688م، ثم أصبحت القسطنطينية

نفسها معرضة للخطر، وانهارت فيها أسعار البيوت في أعقاب هروب المواطنين منها. لكن السلطان استمر في ممارسة هواية الصيد.

عيّن كوبرولو فاضل مصطفى وزيراً سنة 1680م، وتمتع بخصائص فاضلة لم يكن يتمتع بها السلطان، وهي الإيمان والأمانة والشجاعة وبعد النظر. في الثامن من نوفمبر 1687م أثار قضية المبدأ الإسلامي الخاص بمخالفة الشريعة، وعقد جلسة العلماء، وتلا على الحضور عريضة يطالب بها إسقاط السلطان (الذي لا يهمه غير الصيد) لإساءة إدارة الحكم، ثم قاد العلماء وهم صامتون إلى القصر، حيث بقي شقيقه المذعور سليمان مختفياً في الحرم مدة أربعين سنة. ظن سليمان في أول الأمر أن السلطان بعث هؤلاء الناس ليقتلوه؛ إلا أنهم سحبوه من حرمه وجعلوه سلطاناً، ولكنه لم يكن أفضل حالاً من أخيه؛ فأحلوا مكانه الأخ الثالث أحمد الثاني عام 1691م.

كان مصطفى حينئذ قد أصبح الوزير الأعظم، وأدار دفة الحكم وفق مبادئ قرآنية، وقد عززت هذه التطورات الإيمان بوجود صلة بين الدين والتجدد. وقد تناول تلك الأوضاع السفير الإنجليزي لدى القسطنطينية السير وليام ترومبول، وذكر في كتاب بعث به إلى إيرل نوتنغام في 6 نوفمبر 1689م: "سبق أن أعلن فاضل مصطفى باشا عن نواياه في إدارة هذه الحكومة طبقاً لمناهجهم القديمة". وجاءت الأحداث لتثبت أن مصطفى كان مصيباً في آرائه، وفي 1711م ألحق الأتراك هزيمة بالقيصر بطرس الأكبر عندما انطلق ليحقق حلمه في فتح القسطنطينية واستعادتها للمملكة المسيحية. وحتى عام 1738م استطاع العثمانيون أن يفتحوا بلغراد مرة أخرى. كانت لهذه الانتصارات عدة أسباب، لكن المؤمنين كانوا على أتم قناعة بمعادلة عودتهم إلى الإسلام وقيمه المثلى حتى تتغير أقدارهم. هنا يجوز القول بأن مؤسسة الخلافة كانت أعز وأقوى مما التصق بالخلفاء من ضعف، وبأن قوانين الإسلام أو الشريعة الإسلامية أتت لتحمي

المسلمين مما لحق بأنفسهم، والحقيقة أن المناهج القديمة نفسها قد أعطت ثمارها المرجوة مرة أخرى.

الشريعة أو القانون القرآني أساس للدين، وبعد القرآن تأتي السنّة (أفعال النبي ﷺ) والحديث (الأقوال المنقولة عن النبي ﷺ) أساساً للقانون الإسلامي. إلى جانب الإجماع والاجتهاد والقياس والاستحسان والاستصلاح والعرف والاستدلال، بوصفها أصولاً يمكن الاستناد إليها عند الضرورة، والفتوى حكم يصدره المفتي أو الرجل المعترف به عالماً في الشريعة. وعلى الخليفة أن يحمي الشريعة، ومن خلالها دار الإسلام. ولا يكون واجباً على المسلم أن يعيش في دار الإسلام أو الدولة الإسلامية، لكن المفترض أن يكون له الحق في العيش طبقاً لمبادئ دينه. وفي حالة حرمانه من ذلك يكون المسلم في دار الحرب، ويصبح الجهاد فريضة عليه.

ثمة مجال في الفقه الإسلامي للمسلم لاستيعاب حركة التاريخ، لكنه لا يسمح بأي قانون آخر. وتظهر المشكلات عندما يمارس ما تبقى من العالم- أو الحضارات إذا شئت- درجة من النفوذ على العالم الإسلامي. هذا النفوذ وما ينشأ عنه من توترات، من الأمور المعروفة في العالم المعاصر، ولاسيما عندما تروج التقاليد السائدة في المجتمعات الغربية وغير الإسلامية على أنها في معناها ترادف التقاليد العلمية الحديثة، ويقال عن الإسلام وعن ماضيه إنه بدائي. والإفراط في الحجاب في بعض البلدان الإسلامية لا يساعد حجّة المسلمين، ولا يساعد الإفراط في ثقافة الهامبرجر النموذج الغربي، بيد أن البرقع أو الهامبرجر لا ينقصان من أهمية هذا النقاش أو التوترات العصرية. وقد شهد التاريخ الإسلامي مثل هذه التوترات الناجمة عن النفوذ الأجنبي في الماضي أيضاً.

ما إن أكمل صلاح الدين عملية إنقاذ المسلمين في الحملة الصليبية الثالثة التي شنها الغرب حتى جاءت العواصف تهب من صوب الشرق، وتدمر كل

شـيء تجـده في طـريقها مـن بخارى وسمرقند إلى بغداد. وكان هولاكو، شقيق قـبلاي وحفيد جنكيز، يسخر من المسلمين، بذكر آيات من القرآن تتوعّد بدحر الذين تخلوا عن الإيمان: وكان يجهر بأنه غضب الله النازل عليهم.

كانـت الأمـة المـسلمة آنـذاك في أمـس الحاجة إلى معجزة، وجاءت هذه المـرة من مصر. فقد فاجأ بيبرس، السلطان المملوكي الذي استولى على الحكم مـنذ وقـت قـصير، المغـول في عـين جالـوت، ووضـع نهاية للخطر المغولي، وأصبح أقوى حاكم في المنطقة. في تلك المرحلة من اليأس وخيبة الأمل ظهرت حـركة إصـلاحية عامـة باسـم "إخـوان الصفا"، واتخذ المدعو زاهد قائد إخوان الصفا من البصرة مركزاً لنشاطات الحركة. لم يكن زاهد قائداً متعصباً، ورأى أن الـتفهُّم العقـلاني للقـرآن هو الطريق الأوحد لاستعادة المجد، وكان لعودة الثقة إلى نفـوس المـسلمين نـصيبها مـن المفاجـآت: أسـلم ابـن هولاكو أولاً، وكان لإسـلامه أصـداء مـسموعة جعلـت أمـير قبيلة تركية يدعى عثمان يعلن إسلامه. وهذا هو عثمان الذي أسس الإمبراطورية العثمانية. في غضون خمسين سنة تلت دمـار بغداد على أيدي المغول ظهرت على الساحة ثلاث إمبراطوريات إسلامية: الصفويون في فارس، والقبائل التركية في تركيا والهند.

كان المماليك من آسيا الوسطى، وهي المنطقة التي صارت ترتقي وتصعد بغـض النظـر عـن الانـتماءات الدينـية إلى الإسلام أو الوثنية. وفي تلك المرحلة الـزمنية نجـد ألـواناً مـن ثقافـتها الإقليمية تتسرب، على الرغم من اختلافها عن الـثقافة العربية- الفارسية. وعلى الرغم من اعتناق الإسلام ديناً فإن المغول الذين نظـروا إلى قانون جنكيز خان نظرة إجلال باتوا يحترمون هذا القانون. عرف باسم "الياسا"، وحظي بتقدير كبير لدى المغول لأنهم حسبوه سراً لصعودهم إلى مكانة القـوة العالمـية. وقـد تناول جـ. جـ. ساوندرس القانون الجنكيزي هذا في مؤلفه "تـاريخ فتوحات المغول" (The History of the Mongol Conquests, Routledge

وذكـر أن: "الياسـا الذي لم يصل منه نص (and Kegan Paul Ltd, London, 1971 كامـل كـان مـزيجاً غـريباً من التنوير والخرافة؛ فقد أقر التسامح الديني، وأعفى رجـال الـديانات جميعها من الضريبة، وحرَّم الغسل والتبول في ماء جار (كانت العيون الجارية في اعتقادهم موجودات حية ومقدسة لا يجوز تدنيسها وتلويثها)، وكان التجسس والهروب من الخدمة العسكرية والسرقة والزنا وذبح البهائم على الطـريقة الإسـلامية وإفـلاس التاجـر للمـرة الثالـثة مـن الجـرائم المعاقب عليها بالإعـدام... وانطلاقاً من العقائد الخرافية بأن نجاح المغول يدين للقانون نفسه؛ فقـد اكتـسب الياسا شيوعاً كبيراً، وصار معمولاً به بعد إدخال بعض التعديلات حتى في أماكن نائية مثل مصر زمن حكم المماليك".

تسرّبت عناصر من الياسا إلى التشريع المملوكي، الأمر الذي أثار الذعر في صفوف المحافظين. وعلى مستوى المجتمعات جاء المغول بصنوف من الألبسة، وعدة أنماط لقص الشعر وتمشيطه، أسوة بالإنجليز، وتأثيرهم في أساليب الحياة عـندما اسـتعمروا تلـك المناطق. ويكتب برنارد لويس في مؤلفه "اللغة السياسية للإســـــلام" (The Political Language of Islam, The university of Chicago (Press, 1988 أن الـتأثير المغولي خلق "نخبة حاكمة قوامها رجال بأسماء إسلامية وعقـيدة إسـلامية، فرضـوا قوانين غير إسلامية وعملوا بها، لذا فإنهم، في رأي المؤمـنين، تسببوا في تقويض نسيج المجتمع الإسلامي، الذي يعد الحفاظ عليه واجباً من أهم واجبات المسلمين، وتدميره. وفي القرن الرابع عشر فإن قلة قليلة مـن الـدول تمسكت بالشريعة؛ إلا أن تخليها عن الشريعة جاء إما نتيجة خطأ أو نتـيجة تحـسب واجتـناب، لا لأنهـا شـاءت أن تـتحدى الـشريعة.... أما الدول الإسـلامية الحديـثة في القـرنين التاسـع عـشر والعـشرين فإنهـا لم تتناس قوانين الـشريعة أو تهملـها ضـمنياً فحـسب؛ بل بادرت لإلغائها في عدد من المجالات ذات الأهمـية، وأحلـت محلـها قـوانين أخرى... وهذا هو الغدر وأسوأ البلايا، أسوأ حتى من وقوع أرض الإسلام تحت غلبة الكفار وحكمهم؛ فالذين يفرضون

على المسلمين قوانين الكفار هم أنفسهم من الكفرة. وادعاؤهم الإسلام يجعلهم من المرتدين، والمطلوب أن يعاملوا معاملة من يرتد عن الإسلام".

سعى الخلفاء العثمانيون، الذين نجحوا في نهاية المطاف في إبراز سلطة واحدة وتمكنوا من تحقيق استتباب الأمن واستعادة الاستقرار في معظم أنحاء العالم الإسلامي، إلى تطبيق الشريعة في أوسع نطاق ممكن، ولم يبتعدوا عن ذلك إلى أن خضعت الخلافة للزحف الأوروبي، وتزعزعت أركانها عقب ظهور الحركة الإصلاحية التركية، ثم إعلان مصطفى كمال عن إلغائها. لم يعد الخليفة في تلك المرحلة من الزمن سوى رمز للسلطة. كان قد خسر السيطرة على الأماكن المقدسة أمام الجيوش البريطانية والفرنسية في الحرب العالمية الأولى، من دون أن يثير ذلك أي قلق في صفوف العرب المسلمين. فمنهم من طمأنتهم الفتاوى التي حكمت على الأتراك بالارتداد عن الدين، والآخرون وجدوا في المشاعر القومية المتصاعدة ما يرضيهم، فيما سحر الجنيه الإسترلنيي أعين بعضهم الآخرين. إلا أنه بعيداً عن مسرح تلك الأحداث، لاسيما في الهند، البلد الذي يضمّ أكبر عدد من المسلمين في العالم، ثارت العواصف الإسلامية ضد الحكم البريطاني على المدن المقدسة، وعندما أضاف إليها المهاتما غاندي موجات الغضب الهندوسي والسيخي ضد الاستعمار البريطاني، ترنّحت أقوى إمبراطورية مسيحية في التاريخ.

ماذا عنى النبي ﷺ عندما طلب من المسلمين في أواخر أيام حياته بألا يكون في جزيرة العرب دينان؟ من الواضح أنه لم يأمر بألا يكون هناك دينان في أي مكان من العالم. فهناك قاعدة في الفقه الإسلامي للتعامل مع الكفار، وذلك يعين ضمنياً أنه سيكون هناك دائماً من لا يعتنق الإسلام.

إن المشكلات التي واجهت الأمة المسلمة في أوائل أيامها وجعلتها، كما قالت عائشة، كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، نبعت من المرتدين واليهود

والنصارى. لم تكن لدى اليهود قوة تجعلهم خطراً كبيراً. أما المرتدون الذين كانوا من بعض القبائل التي أسلمت وأطاعت النبي ﷺ، لكنها ترددت في نقل الطاعة نفسها إلى أبي بكر، فقد قمعها الخليفة الأول بشدة. وقد وضعت حروب الردة التي استغرقت معظم خلافة أبي بكر نهاية للمشكلة، وغدت درساً وعبرة لمن خان الإسلام وغدر به. فقواعد الحرب على المرتدين أشد من أحكام الجهاد ضد الكفرة. ومن ارتد عن الإسلام لا أمان له ولا رحمة ولا إمكانية للمصالحة، وعقوبته الموت إلا إذا تاب ورجع.

أي ديانة كان يريدها الرسول ﷺ عندما طلب من المسلمين ألا يبقى في جزيرة العرب دينان؟ لقد كان هناك إمبراطورية عظيمة في الشمال تحكم باسم ديانة بعث الله محمداً ﷺ لإحلال دينه محلها، فمن المعلوم عن محمد ﷺ أنه بعث بعد عيسى المسيح.

وكان النصارى هم الجماعة الثالثة في قائمة عائشة التي ذكرت الذين أثاروا المشاكل للإسلام وهو لا يزال في بدايته.

- 4 -

خريطة للإسلام

"ينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لا يفتتنون أبداً". حديث في صحيح البخاري يروي ما قاله النبي ﷺ بشأن الجهاد على الإمبراطورية البيزنطية.

لم يكن الأمير الفرنسي رينولد دو شاتيون، وهو سياسي غريب جاء إلى الأرض المقدسة في الحملة الصليبية الثانية عام 1147م، يشتهر بالرقّة. وقد شاع عنه أنه كان يضع رؤوس ضحاياه، مسلمين كانوا أم مسيحيين، في صندوق خشبي، ويقذف بها من فوق الجدران العالية لقلعته في الكرك، آملاً بأنها ستعود إلى الوعي لدى التحطم على صخور تحت الجدران. وعندما رفض بطريرك إنطاكية توفير الأموال لمهاجمة جزيرة قبرص المسيحية جرّده رينولد من ملابسه، ولطخه بالعسل، ثم تركه في حرّ غرب آسيا لتأكل منه الذباب - فاضطر البطريك للدفع بعد ذلك.

وفي قبرص أثبت الناهبون الذين اصطحبوا رينولد في حملته صحة ما ذاع عنه، وسلبوا الأموال وهتكوا أعراض النساء. وأتباع الديانات جميعها تنفسوا الصعداء عندما أسره المسلمون وهو يسرق الماشية في عام 1160م. بقي في الأسر أربع عشرة سنة، وأطلق سراحه بعد أن دفع 120,000 دينار ذهبي فدية. ومنذ ذلك الحين أصبح المسلمون هدفاً وحيداً لأحقاده الدفينة. فأقسم بأن يدنّس

المدن المقدسة، ويجر "جثة حادي الإبل" من قبره في المدينة، ويحطم الحجر الأسود في الكعبة.

في عام 1182م بنى رينولد أسطولاً للسفن في قلعته المحاطة باليابسة، وبعث بها إلى البحر الميت لإجراء الاختبار، ثم فكّك السفن، وجرَّ الأجزاء عبر الصحراء إلى إيلات على البحر الأحمر. وانطلاقاً من هذه القاعدة المتنقلة صار أسطوله ينهب قرى المسلمين، ويرسم خطة لمهاجمة المدن المقدسة. واستطاع الملك العادل، شقيق صلاح الدين الأيوبي، أن يوقف رينولد وجنده النَّهابين على بعد بضعة أميال من المدينة. وتلك أقرب نقطة، ولجها غزاة من غير المسلمين، إلى المدينتين المقدستين.

تراجعت هذه العواطف الفجة خلال ألف سنة، إلا أن كل عصر من العصور جاء ليبرز شكلاً خاصاً به من أشكال الصدام الذي بدأ مع ظهور الإسلام. هذا الصدام ليس صراعاً بين الحضارات؛ لأن كلاً من الإسلام والمسيحية يحوي أكثر من حضارة واحدة وأكثر من ثقافة واحدة، وإنما يقع في صميم هذا الصدام خلاف فكري ولاهوتي أساسي، يظهر في كثير من الأحيان بمظهر كفاح سياسي لأجل الأرض والسلطة.

إن محمداً ﷺ عند المسلمين بشر، وهو آخر نبي في سلسلة الأنبياء التي تبدأ بآدم وتضم عيسى المسيح. ويعد المسيحيون عيسى إلهاً ومخلّصاً للبشرية من ذنوبها. لذا فإن على الكنيسة أن تعلن أن محمداً احتال في ادعائه بالنبوَّة، وأي شيء خلاف ذلك سيفسر بأن المسيحية ديانة عمرها 611 سنة فحسب، وبذا يمكن أن تفقد رسالة المسيح صفة الأبدية. والقرآن يدعو المسيحيين مراراً وتكراراً إلى وحدانية الله التي دعا إليها إبراهيم، ونبذ فكرة الثالوث، والإيمان بأن محمداً ﷺ خاتم النبيين. القرآن ينزل المسيح منزلة تكريم؛ لكن الكنيسة إذا ردت على هذا التكريم بالمثل فإنها ستقدم على الانتحار.

يشكل التوحيد، أي أن الله إله واحد لا شريك له، أساس رسالة الإسلام، ومن ثم لا يمكن أن يتخذ الله ولداً له. وتقول الآية (171) من سورة النساء: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

وجاء في الآية التالية: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾؛ فلم لا يعبده المسيحيون ويكونون عباداً له (من دون المسيح)؟ يذكر القرآن أن مريم لم يمسها بشر؛ لكنه يرفض ألوهية المسيح. وجاء في السورة التاسعة عشرة (مريم) أنه: عندما بلغ زكريا سن الشيخوخة واشتعل رأسه شيباً دعا ربه أن يهب له ولياً يرث من آل يعقوب، فاستجاب الله دعاءه. هنا يتساءل زكريا قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، فيجيبه الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 8-9].

نجد في ما ذكرناه تفسيراً وافياً للتناقض الظاهري: كيف يمكن ألا يكون طفل ولدته العذراء، وبعث به الله، ابناً لله؟ بهذا المنطق يجب أن يكون آدم عليه السلام ولداً لله؛ لأنه لم يخلق من أب ولا من أم. ومع ذلك فإن المسيحيين لا يرون أن آدم ابن الله.

إن أول أثر عظيم من آثار الهندسة المعمارية الإسلامية هو قبة الصخرة في القدس، وهي وليدة خيال الخليفة الأموي صاحب الرؤية الكبيرة عبد الملك عام 688م، وليست مسجداً، لأنه ليس فيها جدار قبلة يشير إلى مكة. وإلى جانب القبة هناك المسجد الأقصى أيضاً؛ إذن ما المعنى الذي أراد إيصاله ببناء قبة فوق صخرة؟

هناك رواقان يضمان أربعين عموداً، يحيطان بالصخرة التي تقوم عليها القبة، وتتلألأ القبة فوق كنيسة القيامة وقبة كنيسة الضريح المقدس، وتعلو فوق

جدار المبكى والهيكل الذي بناه سليمان عام 1000 ق. م، ودمره أولاً البابليون من جنود بختنصر، وأعاد بناءه عزرا، ثم شوّهه الوثنيون، واتخذوه معبداً لعبادة الأصنام منذ العام 167ق. م. واستعاده هيرودوس مرة أخرى، لكن طيتوس جاء في عام 70م ليلحق به دماراً وخراباً شاملاً. وقد بنى سليمان الهيكل في المكان الذي قدم إبراهيم ابنه فداء (يقول اليهود إن ذلك الابن هو إسحاق، ويقول المسلمون إنه إسماعيل، ابن إبراهيم البكر من هاجر، وأما القرآن فإنه يقول عنهما إنهما من الأنبياء الصالحين).

تستخدم كارين أرمسترونج في مؤلفها "تاريخ القدس: مدينة واحدة لثلاث ديانات" (A History of Gerusalem: One City, ThreeFaiths, Harper Collins, 1977) تعبيراً رائعاً في وصف قبة الصخرة المثمنة، ويقول إنها "خريطة للإسلام". يعتقد المسلمون أن هذه هي الصخرة التي انطلق منها الرسول ﷺ إلى السماء، وجاء في القرآن الكريم: إن الله ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ [الإسراء: 1]. ولقبة الصخرة مدلولات أخرى غير ما سبق ذكره.

> فقد أصبحت معلماً مهماً من معالم الهندسة المعمارية الإسلامية، ورمزاً قوياً للمعراج، وتمثل في الوقت نفسه التوحيد في توازنه الكامل؛ فظاهرها الذي يتعالى نحو السماء غير المتناهية صورة طبق الأصل عن بعدها الداخلي، وفي مظهرها نعي كيف يتوافق اللاهوتي والإنساني، أو عوالم البواطن والظواهر، بعضها مع بعض، ويكون كل منهما مكملاً للآخر كأنهما شطران لكل واحد. ثم إن الألوان تحمل معنى ورسالة؛ فالزرقة أو لون السماء تدل في الفن الإسلامي على الأبدية، بينما يعبر اللون الذهبي عن المعرفة والعلم، وهي الملكة التي توصل المسلمين، بحسب التعبير القرآني، إلى خشية الله.

الآيات القرآنية المنقوشة على أروقة القبة ليست آيات عن المعراج؛ وإنما هي الآيات التي تعاتب النصارى على تشويههم رسالة المسيح وتعاليمه. وقبة

الصخرة تنذر المسيحيين وتدعوهم للتوبة عن فكرة الثالوث، والعودة إلى التوحيد والإله الواحد.

ومن الناحية الأيديولوجية فإن محمداً وعيسى المسيح عليهما السلام يعرضان نموذجين مختلفين تماماً للمثالية، وهي الحقيقة التي استخدمت لبث شتى الصور السلبية عن الأول. يقول القرآن إن الأنبياء بعثوا في أزمنة مختلفة ولكل منهم درجة مختلفة. فقد كلّم الله موسى مباشرة، وهو النبي الذي أمضى أربعين سنة في التيه يحارب كفر أمته وضلالها عن سواء السبيل، وقد أنزل الله عليه التوراة، ولكن ما علمه كثيراً عن السيف وعلم السيف. وقد ولد داود في بيت راع للغنم؛ فأصبح مقاتلاً وملكاً وشاعراً وخليفة لله. أما عيسى فقد أيد بروح القدس، ولم يؤتَ شيئاً من السلاح، وكانت رسالته كلها رسالة سلمية. ومحمد ﷺ خاتم النبيين، ولكون رسالته أعظم من رسالة أي نبي من الأنبياء الذين سبقوه؛ فقد اجتمعت فيه خصائص جميع الرسل.

إن التقارب الشديد بين المسيحية والإسلام سبب لتنافرهما وعدائهما. قال المسيح عن نفسه إنه من البشر، فَلِمَ يقول المسيحيون إنه ابن الله؟ واليهود من أهل الكتاب في إيمانهم بوحدة الله أقرب إلى الإسلام مقارنة بالمسيحية، لكنهم لا يؤمنون بالمسيح رسولاً ونبياً، وبذا يبعدون عن الإسلام بنبي آخر؛ إذن فإن التقارب بين هذه الأديان تقارب مهلهل، يكفي لاندثاره أن تنبعث جذوة من معتقد أو طموح بشري، أو حماقة يرتكبها امرؤ فتتحول إلى نيران مضطرمة.

شهد القرن السادس الميلادي ظهور مؤسسي إمبراطوريات عظيمة: سلالة تانغ في الصين، هارشا فاردنا في الهند، وجوستينيان في بيزنطة، وأنوشروان العادل في فارس. وبما أن الجيران إذا اكتسبوا عدة وعتاداً وأصبحوا أقوياء فإن العلاقة بينهم دائماً تكون علاقة تنافر وعداء، فإن البيزنطيين والساسانيين تصارعوا فيما بينهم باستمرار. وفي العقد الأول من القرن السابع، بدا الفرس في

عهـد خـسرو الثاني غير قابلين للهزيمة في كل جانب، في أرمينيا وآسيا الصغرى وسـوريا. وبحلـول العـام 610 م وصلت طلائع الفرس إلى مشارف القسطنطينية. وسـط تلـك الظـروف الصعبة وجد البيزنطيون منقذاً لهم في شخص هرقل الذي يقـول عـنه بعض المؤرخين من عصره إنه كان يصارع الأسود في الحلبة من دون سـلاح. سـقطت أنطاكـية بأيدي الفرس عام 611م، وفي الخامس من مايو 614م اسـتولوا علـى القدس، ودمروا كنيسة الضريح، وحملوا معهم الصليب الأعظم الذي استعمل لصلب المسيح بوصفه غنيمة.

فرح المشركون في مكة عندما علموا أن القدس سقطت بأيدي الفرس، ورأوا أن ذلك هزيمة للموحدين من أمثال محمد ﷺ، وسخروا منه وهم يقولون: إن الله لم يقدر على أن يحمي القدس. ولطمأنة الرسول وإراحته جراء ما قاله المشركون عقب سقوط القدس أنزل الله الآيات (2-6 من سورة الروم): ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

بـدا أن المـرحلة اللاحقـة مـن مـراحل تلـك الحرب لا تتفق مع التنبؤات القـرآنية؛ إذ إن الجـيوش الفارسـية ضـمت مـصر إلى الإمـبراطورية عام 616م، ووصـلت إلى طـرابلس. وفي غـزو آخـر اسـتطاعت تلـك الجـيوش أن تحاصـر القـسطنطينية. إلا أن القـرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبحلول عـام 622م كـان هـرقل قـد غيّـر مجـرى الأحداث بمعنى الكلمة مستخدماً قوته البحرية لإلحاق هزيمة بالفرس. فقد بعث بعسكر عبر بحر اليونان، وفاجأ الفرس بغـارة في إيـسوس، حيث كان الإسكندر قد انتصر في حرب كبيرة منذ ألف سنة تقـريباً. وبحلـول عـام 625م كـان جنود هرقل قد أعادوا الوضع إلى ما كان عليه واسـتعادوا صليب الصلبوت. وفي سنة 628 مشى هرقل على الأقدام إلى القدس وفاء لنذر له، ووضع الصليب مرة أخرى في مكانه.

هنأت الهند هرقل على إنجازاته، كما احتفلت به الشعوب الأوروبية لدخوله القدس منتصراً. وكان في القدس نفسها عندما وصلت إليه رسالة من المدينة تدعو ملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى الإسلام.

بعث الرسول محمد ﷺ رسائل مماثلة إلى ملوك فارس والحبشة والبحرين وعمان ومصر، وقد نظر ملك فارس أو الشاهنشاه إلى الرسالة نظرة احتقار، ومزقها تمزيقاً، وعندما بلغ ذلك الرسول ﷺ قال: مزق الله ملكه. عندئذ أصدر الشاهنشاه أوامره إلى باذان ملك اليمن بأن يأسر هذا الرجل الذي رأى نفسه مساوياً لملك فارس، وأن يخرب دياره إذا لم يقبل الطاعة. وأجاب الرسول ﷺ: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى. ولم يأسر ملك اليمن الرسول؛ بل أسلم، وجعل من اليمن جزءاً من الدولة الإسلامية المتعاظمة.

وقد قيل للرسول ﷺ: إن قيصر الروم لا يقرأ أي رسالة إلا إذا كان عليها خاتم؛ فاتخذ خاتماً من فضة، ونقش عليه "محمد رسول الله"، واختار دحية بن خليفة الكلبي الخزرجي ليحمل رسالته إلى قيصر. كانت الرسالة موجزة وواضحة: "بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين؛ فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين".

عامل هرقل هذه الرسالة معاملة احترام شابه نوع من الحقد، وطرح استفسارات عن هذا الرجل الذي يزعم أنه مسيح آخر، وسأل إذا كان أحد في بلده من الحجاز، وصادف أن أبا سفيان كان في عير له في القدس آنذاك، فأجاب عن أسئلة قيصر، وتحدث عن الرسول ﷺ بكلمات وقورة. وعلى خلاف كسرى لم تلق الرسالة احتقاراً واستصغاراً لدى قيصر.

لم يوشك الرسول ﷺ على قتال النصارى مثلما أوشك عليها حين قاد جيشاً إلى تبوك على حدود الشام لصد خطر محتمل من الروم. وعندما دعا

للجهاد وجد بين المسلمين من كان يتردد ويتقاعس عنه؛ إما بسبب الحر (غادر الجيش المدينة في سبتمبر أو أكتوبر)، أو خوفاً من الروم. وفي الجماعة المتخلفة هذه كان المنافقون الذين زعموا أنه لا يمكنهم أن يتمالكوا أنفسهم أمام النسوة الشاميات وجمالهن، وأصروا على أن أفضل خيار لديهم هو البقاء في بيوتهم مع الأهل. وبعد أن غادر الجيش المدينة فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله فرحاً شديداً، وقالوا إن نفورهم وقاهم من الحر؛ فأنزل الله آية توعدهم بأن نار جهنم أشد حراً. وقد اشترك المنافقون في دسيسة استهدفت قتل النبي ﷺ في طريقه من تبوك إلى المدينة.

وفي صحيح البخاري ما يشير إلى أن الرسول ﷺ تطلع في أواخر سني حياته إلى القسطنطينية، ويروي في كتاب الجهاد (جزءاً من الحديث): قال رسول الله لامرأة دعيت أم حرام: أول جيش من أمتي يغزون البحر أوجبوا. قالت: أنا فيهم؟، قال: أنت فيهم، ثم قال النبي ﷺ أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم. فقالت: أنا فيهم يا رسول الله، قال: لا.

وفي حديث آخر يرويه البخاري عن النبي ﷺ يقول: في قتال مع الروم ينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلث وهم أفضل الشهداء، ويفتح الثلث القسطنطينية. وأثبتت الوقائع فيما بعد صدق ما قاله الرسول ﷺ؛ لكن الحديث يأتي دلالة على أن الموت والهزيمة والنصر عناصر متساوية لتجربة القتال بين المسلمين والمسيحيين.

فتحت الجيوش الإسلامية جبهة مع الإمبراطورية المسيحية بعد وفاة النبي ﷺ بمدة قصيرة، وقبل الانتهاء من حرب الردة تماماً. فقد بعث أبو بكر رضي الله عنه اثنين من أفضل القادة: عمرو بن العاص وخالد بن الوليد (وهذا هو المقاتل نفسه الذي هزم المسلمين في غزوة أحد) إلى الشام الدولة التي كان معظم أهلها من المسيحيين حينئذ. وما قاله الخليفة الأول في نصائحه للجيش

يأتي مثالاً رائعاً للمعاملة الإنسانية في الحروب: "أوصيكم بتقوى الله، لا تعصوا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا. لا تقتلوا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا صبياً صغيراً، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تعرقوا نخلاً، ولا تذبحوا ماشية إلا للأكل، ولا تمسوا ناسكاً بأذى"، لكنه أمر ولأسباب غير معلومة بقتل مجزوز الشعر.

اتجه عمرو بن العاص غرباً، وسار خالد بن الوليد بجنده نحو عمّان، وممر درعا، ومن ثم صوب دمشق مدينة المدن. أما هرقل فإنه بعث بعساكره وسط هذه الكمّاشة، وأمر بدحر أضعف خطي الهجوم؛ الخط الذي قاده عمرو بن العاص. وفي مأثرة عجيبة من مآثر تاريخ الحروب التفت الخيالة بقيادة خالد وبسرعة خاطفة شقت طريقها وسط امتداد الصحراء، حتى وصلت في حينه إلى عمرو بن العاص لتعدّل مسار الحرب. وقد منيت العساكر البيزنطية بهزيمة ساحقة في حرب أجنادين، في يوليو 624م. وكان ذلك أول فتح عظيم للمسلمين في تاريخ الحروب بينهم وبين المسيحيين.

لقد جاء نبأ الفتح في حرب أجنادين أبا بكر وهو محموم، ووافاه الأجل يوم 23 أغسطس 634م. وبعد تولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة، وبوصفه قائداً أعلى، قسم الجنود المسلمين إلى أجناد قادها كل من عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وخالد بن الوليد، فيما عين أبا عبيدة قائداً للأجناد الثلاثة. وقد سقطت دمشق في أيدي قوات أبي عبيدة وخالد بن الوليد. لم تلق المدينة المفتوحة عقوبة إثر السقوط؛ لكن المسلمين فرضوا على أهلها جزية قدرها دينار وكمية من البر. أما هرقل فإنه كان بطبيعة الحال حائراً في أمره لكنه لم يقف منه موقف إهمال أو تهاون.

كان هرقل لا يزال يسيطر على البحر حتى بعد سقوط دمشق، ويمتلك موارد تمكّنه من إعادة بناء جيش لسوريا. وقد آثر العرب التراجع إلى الوراء وإقامة الخطوط جنوب اليرموك، ورأوا أن من الأفضل أن يقاتلوا والصحراء

خلفهم؛ ذلك أن تلك الأرض تتيح للمسلمين حرية المناورة، وتشكل خطراً على العدو المسيحي. ونشر هرقل عسكره على ممر درعا بعد احتلاله ثانياً، وبقي الوضع في جمود أربعة أشهر، لكن المسلمين استغلوا الوضع القائم استغلالاً حربياً أفضل، وبإحضار مدد من المدينة تمكنوا تدريجياً من نشر القوات في كماشة تحيط بالقوات الإمبراطورية من ثلاثة جوانب. وحانت الفرصة عشية 19 أغسطس 636م حين هبت رياح رملية عاصفة في وجه الأعداء تعميهم، إنها النصرة الإلهية التي تستمر جزءاً من حكايات الفتوحات الإسلامية.

صبيحة العشرين من أغسطس تحولت تلك الرياح إلى إعصار، وانفكّت فصيلة من الفصائل المسلمة وانصرفت نحو وادي الرقاد، واستولت على جسر الوادي، مما أسفر عن وقوع القوات البيزنطية في حصار من كل جانب. وتلاه الهجوم الكلاسيكي في صفوف الأعداء المتعامين بفعل الرياح الرملية، ولم تجد القوات الإمبراطورية الواقعة في فخ نصبته الطبيعة والقوات البشرية ملاذاً من الفرار. ومن بين الشخصيات التي حرضت العرب على القتال هند بنت عتبة نفسها التي كانت تحث أبناءها على قتال النصارى غير المختونين من الأبناء. وبعد هذه الهزيمة رجع هرقل إلى القسطنطينية.

وفي السنة التالية فتح المسلمون القدس المدينة الوحيدة التي زارها الخليفة عمر رضي الله عنه بعد فتحها.

لا يكفي القليل من الجمل لتناول التاريخ بمساحاته الشاسعة؛ لكن ما نرثه من التاريخ يكون مزيجاً من الحقائق والخيال. وما من انتصار مهما كان عظيماً خالٍ من جوانب القصور والنقص؛ والإخفاق في مهمة من المهمات لا يكون إخفاقاً مطلقاً يستحيل معه أن يحلم المرء. أضف إلى ذلك أن فكرة ما لا تكون مصونة من الاستثناءات، ومع ذلك فإن التحدي الحقيقي هو أن يكتشف المرء معنى ومغزى في الحقائق المتراكمة. وإذا صورت الوقائع كما هي فعلاً ـ

وهـو مـا طالـبت بـه الموضوعية الأوروبية في العصور اللاحقة - فإن ذلك لن يـستثني الـدورات الـتي وجـدها ابـن خلدون في صعود القوة الإسلامية العالمية وانهيارها وتجددها.

يعـيد المحافظون من المسلمين بداية ذلك الانهيار إلى وفاة عمر رضي الله عـنه الـذي اغـتاله عبد مسيحي من الشام اسمه فيروز، وهو يصلي في المسجد. فقد بلغت التوترات في أوائل سنوات الإسلام مبلغاً، وكان أبو بكر رضي الله عنه الخليفة الراشد الوحيد الذي وافاه الأجل بصورة طبيعية. فبعد عمر رضي الله عنه قـتل كـل مـن عـثمان وعلـي رضـي الله عنهما على يد المسلمين أنفسهم. وعلى الـرغم مـن الأزمـات المتعاقـبة علـى مـستوى القـيادة العليا لم تؤد إلى إجهاض الإنجـازات التي حققها الجهاد، والتي تحققت في امتداد ثغور الإسلام عبر آسيا وأفـريقيا. وعـندما أتـيحت للجهاد فرص للامتداد شرقاً وغرباً معاً؛ فإنه اكتسب حماسة وقوة دفع ذاتية، وهي الظاهرة التي فسرها جيبون بهذه الكلمات:

> عـندما جـاءت حرب فارس كي ترهق وتنال من قوى المملكة الرومية، وانثـنت الكنيـسة عـن مسارها جراء ظهور فرق نسطورية ويعقوبية، عندئذ أقام محمـد، وهـو يحمـل الـسيف في يـد والقـرآن في أخرى، عرشه على أنقاض المـسيحية والـروم. عبقرية الرسول العربي وأطوار أمته وروح دينه من الأسباب الـتي أدت إلى انهـيار الإمبراطورية الشرقية وسقوطها. وأعيننا ترقب بلهفة ثورة مـن أكـبر الـثورات الـتي خلفـت انطباعاتها الجديدة والدائمة على شعوب هذه الكرة.

أمـا المسلمون فإنهم يعتقدون أن ذلك معجزة، فبعد النصر على المسيحية في عقـر دارهـا، القدس، توجهت الجيوش الإسلامية نحو قلب القوة المسيحية (القسطنطينية).

جـاءت المحاولة الأولى لفتح عاصمة الإمبراطورية الرومية في زمن خلافة عـثمان بـن عفـان رضـي الله عـنه، الخليفة الراشد الثالث. ففي عام 653م انطلق

معاويـة والي الـشام آنذاك إلى البوسفور، بينما أبحر أسطول بقيادة بسر بن أرطأة مـن طـرابلس. تقـدم الإمبراطور قسطنطين الثاني وتحدى الأسطول، وادعى كل من الطرفين النصر في المعارك البحرية. لكن الجيش الإسلامي مني بخسائر كبيرة استحال معها الزحف قدماً نحو أسوار القسطنطينية.

واسـتأنف معاويـة حملاته على شرق الإمبراطورية البيزنطية بعد توليه زمام الحكم، وفي سنة 664م بعث جيشاً بقيادة خالد بن الوليد، عبر الأناضول ووصل إلى بـرغاموس، ورافقه في هذه المهمة أسطول آخر بقيادة أمير البحر بسر، لكن الـشتاء أرغم تلك العساكر على الرجوع. وأشهر هذه الحملات جاءت عام 668م بقـيادة فـضالة بـن عبـيد الأنـصاري، فقـد شـارك فيها عدد كبير من ألمع أبطال الإسـلام وصـحابة الرسـول ﷺ، بمـن فيهم أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه. ومـرة أخرى تولى بسر بن أرطأة قيادة السفن، ومع أن هناك خلافاً في السنة التي انطلقـت فـيها هـذه الحملـة؛ لكـن المـؤرخين عامـة يـتفقون علـى أن الجيوش الإسـلامية كانـت قـد وصلت إلى أسوار القسطنطينية سنة 670م. ودارت الحرب على نمط معين ثماني سنوات بعد ذلك. في أشهر الصيف كانت الجيوش تضرب الحـصار حـول المديـنة، وفي الـشتاء تتـراجع إلى جزيرة على بعد نحو 80 ميلاً جـنوب المديـنة الهـدف. وقـد اتخـذت هذه التدابير بهدف إرهاق الغزاة وتعزيز معـنويات المـدافعين عـن المديـنة. وفي آخر الأمر تراجع المسلمون عن الساحة سنة 678م، ما شكّل أول إخفاق جدي في حملاتهم الأولى.

كـان أبـــو أيـوب الأنصاري واحداً ممن سقطوا عند أسوار القسطنطينية، وقـد اكتـشف قـبره حين فتح الأتراك المدينة بعد ثمانية قرون، وتحديداً في سنة 1453م، فاعتـبر ذلـك حـدثاً دينـياً عظـيماً. وفي جامع أبي أيوب الأنصاري منح سيف الخلافة الإسلامية إلى السلطان العثماني. بعد الإخفاق الذي مني به الجيش الإسلامي سنة 678م عقد معاوية صلحاً مع القسطنطينية، وهذا الصلح ظل قائماً مدة أربعين سنة.

عـندما اعتلـى سليمان عرش دمشق عام 715م قال له بعض العلماء إنه أول خليفة على اسم نبي (سليمان)؛ وعليه فإنه سينتصر في حين أخفق من سبقوه في الحكـم. ولا بد أنه كانت لدى سليمان بن عبد الملك أسباب أفضل لبدء الحملة علـى القـسطنطنية سـنة 715م حين كان العرب يشنّون هجوماً أكثر طموحاً بكثير. فقـد تـسلّم أخـوه مـسلمة بـن عبد الملك أوامر لا غموض فيها ألزمته بالفتح أو بالـبقاء، وأمـره بـألا يتراجع من دون إيعاز من دمشق. لم يرتكب سليمان الخطأ الـذي ارتكبه معاوية، فزود العساكر بحاجاتها لموسم الشتاء. إلا أن الحظ ساعد القـسطنطينية وأهلـها، وقـبل سـتة أشهر من وصول العرب إلى أسوارها استولى علـى الحكـم المحـارب البارع ليو بعد إسقاط ثيودوسيوس الثالث وإرغامه على التقاعد في صومعة. وكان ذلك أفضل ما في وسعه أن يعمله لشعبه.

بدأ المسلمون حصارهم الثاني للقسطنطينية يوم الخامس عشر من أغسطس سـنة 717م، وقـد تألف الجيش الإسلامي العظيم من مئة وثمانين ألف مقاتل في الـبر والبحـر، مع ألف وثمانمئة سفينة كبيرة وصغيرة. كان سليمان بن معاذ قائداً للأسـطول الإسـلامي هـذه المـرة. كـان في حـوزة المـسيحيين، في وجه عزيمة المـسلمين وإصـرارهم على الفتح، سلاحان: ليو نفسه، ومعجزة يدعونها "النار الإغـريقية". كـان مـن الأمـور المعلـومة أن الكـبريت مـادة ملتهبة، ويروى عن الإسبارطيين أنهم حاولوا إحراق بلاشيا وتدميرها في 429 ق م برمي أعواد ملتهبة مدهـونة بالقطـران والكـبريت. ويعـتقد الـرومان أن ملكـاً نزل من السماء وعلم قـسطنطين، الإمـبراطور الـذي أسـس عاصـمتهم القـسطنطينية، استعمال ذلك السلاح.

وقـيل إن الـنار الإغريقية كانت خليطاً من الكبريت والنفط والقطران، ولم تكـن يخمـدها المـاء أيـضاً، وإنمـا الـرمان أو الخـل وحـدهما اللذان يصلحان لإخمادها. المدافعون عن المدينة انتظروا الرياح المواتية، وقذفوا تلك الصواريخ

النارية إلى السفن العربية، وأثاروا ذعراً وخوفاً في صفوف العرب. الحقيقة أن العرب كانوا قد جربوا الإمبراطورية المسيحية، وما كان أمرها عليه من قوة حين حاصروا القسطنطينية للمرة الأولى؛ لكنهم ما عرفوا شيئاً عن هذا السلاح المدمر. وعندما اكتشفوا مكوناته الكيماوية استخدموه ضد أعدائهم بتأثيرات مدمرة جداً.

تصوّر المسلمون أنهم استعدوا جيداً لمواجهة الشتاء، لكن ذلك كان نظرياً. وصلت الإمدادات والتعزيزات في الربيع، وعندئذ كانت أي فكرة عن انتصار العرب وسحق العدو قد تبخرت في الهواء. استغل ليو الوسائل المتاحة على قلتها أفضل استغلال، ولجأ من حين إلى آخر إلى خديعة الحروب ومهاجمة الجيش العربي بصواريخ نارية، ما مكنه في آخر الأمر من فك الحصار. توفي سليمان في السنة التي هاجم فيها المسلمون القسطنطينية، ويقول المسلمون إنه مات حزناً إلا أن مثل هذه الأقاويل والآراء تبدو مبالغاً فيها. اضطر الجيش الذي بعثه سليمان إلى الانسحاب إلى دمشق في عام 717م، والسفن إما انتشرت وتناثرت بفعل العواصف، أو نهبها القراصنة الذين كسبوا أرزاقهم من السفن حال رجوعها بسبب الهزائم.

انهزم المسلمون الأولون، وصدق ما قاله النبي ﷺ، وبذا وصل الغزو الإسلامي للإمبراطورية المسيحية الشرقية إلى نهايته. في تلك المرحلة انتقلت ساحة القتال إلى الجنوب عند سواحل البحر المتوسط، وأثبت العرب من سكان الصحراء جدارتهم في التكيف مع البحر، وفتحت عساكر معاوية قبرص وجزيرة رودس، وغزت صقلية. وتمكن المسلمون في زمن خلافة عبد الملك من بناء قاعدة لهم على حواف إسبانيا بعد أن استولوا على مايوركا ومينوركا.

وفي الوقت نفسه خلق المسلمون جواً من الذعر في الموانئ الإيطالية والبيزنطية الغنية مستخدمين في تلك المغامرات اسم الخليفة أو اسم أمير من

الأمراء، أو باللجوء إلى أعمال القرصنة. وكانت من بين هذه العصابات المستقلة عصابة استولت على جزيرة كريت، وأنشأ رجال الأمير التونسي زيادة الله دولة مسلمة في صقلية خلال الربع الأول من القرن التاسع. وبقي البابا يدفع الخراج مدة وجيزة لإبقاء المسلمين بعيدين عنه. أما حلم فتح القسطنطينية فقد بقي منسياً إلى أن أحياه الأتراك في الألفية التالية.

في غضون عقد ونصف من الهزيمة في القسطنطينية سنة 717م، أوصدت أبواب أوروبا المسيحية الغربية في وجوه المسلمين، وذلك في حرب يسميها المؤرخون المسلمون بلاط الشهداء. ويسميها المسيحيون معركة تور؛ لكن المدهش في الأمر أن تلك الأبواب كانت بعيدة في عمق أوروبا، فقد وقع الصدام على ضفاف نهر اللوار في أكتوبر 732م، أي بعد مرور مئة سنة على وفاة نبي الإسلام تماماً. وفيما وقف العالم مذهولاً، ولم يدر كيف وصل المسلمون إلى تلك المناطق النائية؛ لم يعرف المؤمنون ما الذي أعاق تقدمهم وراء ذلك، وإذا كان إيمانهم قد أتى بهم إلى هذا المكان البعيد، فما الذي أوقف تقدمهم في تور؟ هل الإيمان نفسه أصابه ضعف؟

كان طارق بن زياد وموسى بن نصير من أبرع القادة في جيش الخليفة عبد الملك، وقد دعوا الله أن يفتحا أراضي جديدة في سبيله لدى وصولهما إلى سواحل المحيط الأطلسي، فاستجاب الله إلى دعائهما. وفي سنة 711م سلمّت مملكة القوط إلى الخليفة. وفي العقود اللاحقة انتشرت الجيوش الإسلامية في الولايات الفرنسية الجنوبية إلى أن أوقفت في تولوز سنة 722م. وفي عام 731م ولي على الأندلس عبد الرحمن الغافقي الذي دبر الأمور أحسن تدبير، ووضع حداً للخلافات بين البربر والعرب، بعد أن أصبحت تلك الخلافات خطراً على المملكة الحديثة وأنذرت بانقسامها. رأى البربر، المسلمون الجدد الذين جندوا من أفريقيا، أنهم حملوا معظم أثقال القتال؛ لكن الاختيار يقع على العرب

عندما يتعلق الأمر بالتعيينات في أعلى المناصب. وليس من الضروري أن نقف طويلاً عند الحكايات عن الجدال والدسائس التي تورط فيها عبد الرحمن وقائد البربر مونوزا ودوق إيدو الفرنسي وكارل مارتيل؛ وإنما يكفي القول إنه في أوائل سنة 732م عبر عبد الرحمن أراغون ونافار، وهزم دوق إيدو في آرليس على ضفاف نهر الرون، واستولى على أكيتانيا وبوردو ومدينة ليون. عندئذ وصلت طلائع جيشه أماكن تبعد مسافة مئة ميل من باريس.

كان الفرنجة، الذين اعتنقوا الديانة المسيحية زمن حكم كلوفيس، أكبر قوة في أوروبا، ولو أصابتهم هزيمة في هذه الحرب لترتبت عليها عواقب ذكرها جيبون في واحد من مقالاته الشهيرة:

> تمدد خط الزحف المنتصر مسافة ألف ميل بداية من صخرة جبل طارق إلى ضفاف نهر اللوار. ولو أضيفت إليها مسافة مماثلة لوصل المسلمون إلى تخوم بولندا ومرتفعات اسكتلندا. معلوم عن نهر الراين أنه لا يصعب عبوره أكثر من النيل أو الفرات؛ ولكان بوسع الأسطول العربي أن يصل إلى فم نهر التايمز من دون أن يواجه أي معركة بحرية. ولوجدنا الآن أن ترجمة القرآن تدرس في كليات أكسفورد، ولكانت منابرها تستخدم لشرح قداسة وصحة الوحي الذي نزل على محمد أمام شعب مختون.

هذه فكرة.

يقال عن كارل مارتيل عامة إنه القوة التي كانت تقف وراء عرش ثيوديريك. ويقول العرب من المؤرخين إن مارتيل تعمد البطء واستأخر محاربة عبد الرحمن، وانتظر حتى تقعد الجنود المسلمين أثقال الغنائم، العدو القديم للجيوش الإسلامية، وأن يوهنهم التنازع والرغبة في العودة. وفي آخر الأمر التقى الفريقان في تور، وفوجئ عبد الرحمن بحجم جيش العدو، وطلائعه ما استطاعت أن تقدر قوة الأعداء الفرنجة تقديراً صائباً. بدأت الاشتباكات في اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من أكتوبر، وبعد تسعة أيام وقعت أول مواجهة كبيرة

بـين المـسلمين والفـرنجة، وحـتى اليوم العاشر تمتع الجيش الإسلامي بنوع من الـتفوق؛ إلا أن الفـرنجة اسـتطاعوا أن ينـشئوا مـنفذاً لهم إلى مخيم حيث خزن المـسلمون غـنائمهم. ولم يستطع عبد الرحمن أن يمنع جنوده الراجلين وفرسانه مـن التركيـز على الدفاع عما غنموه من الأموال بدلاً من إلحاق هزيمة بالأعداء. وفي الحادي والعشرين من أكتوبر أصيب عبد الرحمن بسهم أو رمح ولقي حتفه. وتـراجع المـسلمون عـن الساحة في تلك الليلة بعد أن أخذوا معهم ما تيسر لهم من مغانمهم.

ربما يكون هناك من تذكر حينئذ الآيات القرآنية التي نزلت بعد الحرب في أحـد، ونـبهت إلى أن هزيمة المسلمين فيها أتت بسبب طمعهم في الغنائم؛ هذه الآيـات صـريحة في بـيان العـوامل المنطقـية الـتي مـن أجلها أصيب المسلمون بالهزيمة.

ويختـلف المؤرخـون فيما بينهم حول انتصار ليو وانتصار كارل مارتيل أي منهما كان أهم وأكبر؛ إلا أن هذا النقاش في جوهره نقاش أكاديمي، والخلاصة أن كليهما انتصرا.

- 5 -
طوق من النار

يـا للـندامة أيهـا الحكام المسلمون! لوقعة كهذه تتساقط الدموع وتتكسر القلـوب وتـتعالى الآهـات والأحـزان... (كلمات من خطبة ألقاها الشيخ الإمام شمـس الدين يوسف في جامع دمشق بعد أن أبرم صلح بين فريدريك والكامل عـام 1229، وبموجـبه سـلم المـسلمون المقدسات المسيحية إلى الصليبيين في حملتهم السادسة).

أولاً: النـبأ الـسار. تميز منجّم فريدريك الثاني ميخائيل سكوت بين أقرانه بـبراعة فائقة، ويشتهر عنه أنه تنبأ بموته بنفسه. فبعد أن رسم خريطة لطالعه وجد أنـه يمـوت حـين يـنزل علـى رأسه حجر ذو وزن معلوم. ومن ذلك الوقت صار يضع على رأسه خوذة ليل نهار، وذات مرة رفع الخوذة عن رأسه وهو يصلي في كنيسة؛ فإذا بحجر صغير يسقط من المحراب ويجرحه جرحاً طفيفاً. وزن الحجر فـوجده بالـوزن المذكـور في الخريطة، فآوى إلى الفراش حتى وافاه الأجل سنة 1235م. كـان ميخائيل سكوت قد التحقق ببلاط الإمبراطور الروماني المقدس في إيطالـيا سنة 1220 منجّماً وسيميائياً، وإلى جانب تنبئه بطريقة موته، كان من أهم مـا أنجز أنه ترجم أعمال أرسطوطاليس التي اطلع عليها الأوروبيون بفضل العالم العـربي العظـيم ابـن رشـد. وكان فريدريك من الأمراء الأوروبيين العظام، وقد سـعى لبـناء جـسور بـين العـالمين المـسيحي والعـربي علـى المستويات الفردية والفكرية في أثناء النصف الأول من القرن الثالث عشر.

لقب فريدريك، كما درجت العادة، بعدة ألقاب، بما فيها أمير الأمراء وأعجوبة العالم. وربما يكون هناك ما يبرّر اللقب الثاني إذ قاد الحملة الصليبية الوحيدة من دون أن يهرق دماءً. ويقول عنه المؤرخ العربي جمال الدين بن واصل إنه كان قائداً فذاً موهوباً، شغوفاً بدراسة الفلسفة والمنطق والطب، وأحب المسلمين، وكانت صقلية موطنه الأصلي حيث تعلم العلوم وتربى. كان فريدريك وأبوه وجده ملوكاً في الجزيرة؛ لكن أهل الجزيرة كان معظمهم من المسلمين. أتقن اللغة العربية، وكان بينه وبين العلماء العرب مراسلات، ونظر إلى العلوم والحضارة الإسلامية نظرة إجلال وتقدير كبير، وازدرى الإفرنج وأوروبا الغربية وحتى البابا، وكان في حرسه الخاص بالقصر الملكي مسلمون يصلّون الصلوات عندما يؤذن المؤذن مولين وجوههم نحو مكة. ومن بقايا آثاره رسالتان ينبئ كل منهما بسعة اطلاعه على الشعر العربي ومناهج الفكر العربي. وقد بعث في 1229م برسالة إلى صديقه فخر الدين أحد أمراء القاهرة، ذكر فيها "أن البابا استولى بالخيانة والخديعة على حصن يدعى مونت كاسينو، سلّمه له رئيس رهبانه اللعين". ولبيان مرارة ألمه أورد أبياتاً من شعر المتنبي، الشاعر العربي من القرن العاشر، يلوم بها الموت على أنه أخذ الآخرين دونه، وآثر الآخرين على من أحبوه، ويقول إن فراقاً من وسعه أن يمنع الفراق هو فراقه نفسه.

خلافاً لغريغوري الرابع الذي تولى كرسي البابوية عام 1227م، لم يكن لدى فريدريك رغبة في محاربة المسلمين. كان فريدريك يحب القدس، ويوصي بأن يحج الناس إليها؛ إلا أنه لم يجد فيها ما يستدعي شن حرب صليبية. غير أنه كان ملك القدس عبر زواجه من يولاند، ابنة يوحنا، كما أن البابا لم يجد رادعاً في هزيمة الحملة الصليبية الخامسة في دمياط سنة 1221م فاستغل الرغبة الشعبية في أخذ الثأر لإضعاف سلامة الرأي. وفي عام 1228م نزل في عكا على رأس جيش آخر أقل عدداً وعتاداً من الجيوش السابقة، وبدلاً من إراقة الدماء فتح باب الحوار.

كـاد الملـك الكامـل بن العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي أن يسلّم مصر والقـدس للـصليبيين في حملـتهم الخامـسة سـنة 1218م، قـبل أن يتيـسر لـه اسـتعادتهما كـاملاً في أغـسطس 1221م. فقد أدرك جيداً أخطار الحرب وفداحة خـسائرها، وفي أكتوبـر 1219م عـرض على الصليبيين القدس والصليب الأعظم ومـنطقة فلـسطين غرب الأردن بكاملها. ولولا عناد القديس الإسباني الكاردينال بيلاجـيوس الـذي ولاّه الـبابا قائـداً للجيش في الحملة الصليبية الخامسة لتوصل الطـرفان إلى اتفـاق حيـنذاك. وبالقـدر نفـسه كان الملك الكامل ميالاً للسلم مع فـريدريك، وإن لم يكـن ذلـك علـى شـروط فـريدريك لكـونها سلمية أكثر من الـضرورة. طلـب الإمـبراطور مـن الملـك أن يـسلم إلـيه القـدس لأن أهميـتها الاسـتراتيجية ضـاعت مـع ضـياع جـدرانها، لقد زالت تلك الأسوار حين اتخذ المعظّـم حـاكم الـشام وشـقيق الملك الكامل قراراً يخلو من الحكمة، وأراد أن يتـرك هـذه المديـنة غـير الـصالحة للاسـتعمال معـسكراً حال استيلاء الصليبيين عليها، وبادر إلى تدميرها. ورأى فريدريك أن وجود عدد من الفرنجة في القدس سيكون أقل خطراً على المسلمين مقارنة بجيش الفرنجة القادم إليها.

كانـت الاتـصالات قائمة بين الكامل وفريدريك منذ مدة طويلة قبل مجيء فـريدريك، وقـد لعـبا لعـبة الدبلوماسـية بـبراعة. ونشأت بين الأمير فخر الدين المفـاوض نـيابة عـن القاهـرة وبـين فـريدريك علاقـة صـداقة شخـصية. وانتهز الإمـبراطور تلـك المفاوضـات لإرسـال استفـسارات فلسفية وهندسية ورياضية صـعبة إلى علمـاء القاهرة، وتلقى أجوبة شافية عن تلك الاستفسارات جميعها، وقد أسرّ فريدريك ذات مرة إلى صديقه فخر الدين أنه لا يطمع أن تكون القدس ملكـاً لـه، وجل ما في الأمر أنه كان يسعى للحفاظ على سمعته بين المسيحيين. وفي الـثامن عـشر مـن فبرايـر 1229م وقـع فريدريك والأمير فخر الدين معاهدة صـلح مدتها عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعين يوماً بحسب التقويم الإسلامي. وبمـوجب هـذه المعاهـدة استعاد المسيحيون مقدساتهم في القدس وبيت اللحم

والناصرة، لكنهم لم يسمح لهم بإقامة تحصينات فيها. أما المسلمون فإنهم حصلوا على الحرم الشريف في القدس. وقال الكامل: إننا سلمنا إليهم (أي المسيحيين) بعض الكنائس والبيوت التي أصابها الخراب، أما الحرم الشريف وقبة الصخرة وغيرهما من الأماكن المقدسة التي نزورها فإنها كانت ولا تزال في قبضتنا وملكاً لنا. لكنه احتال حين قال إن المسلمين لهم الحق كل الحق في استرجاع ما أعطوه بعد انقضاء مدة المعاهدة مباشرة. وبالفعل فإن المسلمين فعلوا ذلك؛ غير أن حالة هياج عمت الشوارع آنياً، وبلغ الشعور بالندم والغضب مبلغه حين اطلع المسلمون على أن وارث صلاح الدين ارتكب خيانة وغدراً بحق أعظم منجزاته.

خرج جمع غفير من الناس الغاضبين إلى شوارع حلب وبغداد والموصل عندما علموا بضياع القدس، وهي المشاهد التي تجعل منها القنوات التلفزيونية في زمننا أخباراً عالمية. وقد أثارت مشاعر الغضب تلك نقمة الملك الناصر ابن أخ الكامل، الذي كان آنذاك حاكم الشام، على عمه الكامل. وطلب من الخطيب البارع الشيخ شمس الدين يوسف أن يلقي خطبة بشأن القدس في جامع دمشق، وألقى المصلون آهات وصرخات كبيرة عندما أعلن الإمام أن الكامل خائن. وقال الإمام في خطبته: إن الطريق إلى بيت المقدس أغلق على جماعات الصلحاء من الحجاج، أسفاً على عباد الله الأتقياء الذين يسكنون هناك، كم من أوقات خروا فيها ساجدين في الصلوات، وكم من دموع سالت من أعينهم. والله لو كانت أعينهم عيوناً لما استطاعت أن تسدد دينها من الأحزان. يا للندامة أيها الحكام المسلمون! لوقعة كهذه تتساقط الدموع وتتكسر القلوب وتتعالى الآهات والأحزان.

وكذلك أطلق المسيحيون أنفسهم صرخات مماثلة بسبب الخيانة والغدر، واكتشف فريدريك الذي كان من حقه أن يضع التاج على رأسه في المدينة

المقدسة لدى وصوله إلى القدس أن لا أحد من القساوسة يستجيب له. أما البابا الذي دعا إلى حرب مقدسة وفضّلها على سلام معقول فإنه حرم فريدريك من الكنيسة عقاباً له على تأخره عن شن الحملة الصليبية. وللسبب نفسه أخذ البابا التاج، ووضعه على رأسه عند الضريح المقدس. لم تكن تصرفات فريدريك في القدس لتجعله مقبولاً بين المسيحيين. فعندما زار المسجد الأقصى تجرأ عليه أحد القساوسة، ورمى الإنجيل داخل المسجد. فسارع إليه فريدريك صارخاً "يا خنزير"، كما يروي المؤرخون العرب. وقال: إن السلطان قد تكرم وسمح لنا بأن نزور هذا المكان، وأنت تتصرف على هذا المنوال. وإذا جاء أحد منكم إلى هذا المكان كما جئت أنت فسأقتله. وحين سأل الإمبراطور عن سبب نصب شبيكة خشبية عند الباب، قيل له: لئلا تدخل الطيور. فقال وربما لأن الله سمح للخنازير بأن تدخل المكان، وهو يقصد بذلك الصليبيين القادمين إلى المدينة المقدسة في الحملة الصليبية الأولى.

كان الشيخ شمس الدين قاضي نابلس قد استقبل الإمبراطور لدى وصوله إلى المسجد، وطلب من المؤذنين ألا يؤذنوا في أثناء زيارة فريدريك. لكن عبد الكريم المؤذن في المسجد الأقصى صعد المئذنة عند الفجر، وبدأ يتلو من القرآن عمداً الآيات التي تقول إن الله لم يتخذ له ولداً، والتي تذكر عيسى وأمه مريم. فنهر القاضي شمس الدين المؤذن، فلم يرفع الأذان. وعند استفسار فريدريك عن السبب قيل: إكراماً لك. فقال الإمبراطور: "إنك لمخطئ أيها القاضي؛ هل تبدِّلون شعائركم وأحكامكم ودينكم من أجلي؟ لو زرتَ بلدي ومكثت فيه فهل أصدر أوامر بإسكات النواقيس من أجلك؟ بالله عليك لا تفعل، إني أجدكم تخطئون أول مرة". بعدئذ أعطى فريدريك كل من كان في المسجد عشرة دنانير.

أقام فريدريك في القدس ليلتين قبل رحيله إلى يافا؛ لأنه كان يخشى على

نفسه من فرسان المعبد الذين أرادوا قتله، وكانوا عندئذ في فلسطين، وجعلوا العالم مكاناً أشد ظلاماً وقتامة.

لا يزال العالم يتذكر فريدريك الأمير الصليبي من القرن الثالث عشر؛ لأنه تصرف في عصره تصرفات غير معتادة تماماً، وكتبت عنه كارين آرمسترونغ في مؤلفها (تاريخ القدس: مدينة واحدة، ثلاث ديانات):

> "بعد نزيف الدماء والحرب صارت القدس رمزاً لوحدة المسلمين، ولم يكن بوسع أي حاكم من الحكام المسلمين أن يقدم أي تنازلات بسهولة بشأن المدينة المقدسة. والصدمة لم تكن أقل شدة في صفوف المسيحيين، وإبرام اتفاق من هذا القبيل مع الكفرة كان عندهم بمنزلة كفر وإهانة للدين. ولم تكن فكرة السماح للمسلمين بالبقاء في الحرم في مدينة مسيحية قابلة للاحتمال، ورأوا في تعامل فريدريك خزياً وعاراً لهم، وقالوا إنه لم يكن يليق بصليبي أن يتصرف كما تصرف فريدريك. وقد وضع فرسان المعبد مخططاً لقتل فريدريك، ولكنه غادر البلد بسرعة. وعندما أسرع إلى سفينته في ساعة مبكرة صباحاً رماه الجزارون من سكان عكا بأسلاب الذبائح وأحشائها. لقد أصبحت القدس قضية حساسة جداً في العالم المسيحي، إلى درجة أن كل من تجاسر فقلل من شأن المدينة المقدسة أو أبدى حفاوة نحو المسلمين عرّض نفسه لعملية اغتيال محتملة. تكشف كل ما في حكاية فريدريك وحملته الصليبية غير العادية عن تعذّر التوفيق بين الإسلام والغرب: لم تكن لدى أي منهما رغبة في التعايش أو السلام.

كان أول صراع إسلامي مسيحي بين العرب والبيزنطيين صراعاً حاداً؛ لكنه مضى من دون أن تلوثه سموم أخرى. إلا أن القديس يوحنا الدمشقي الذي ولد بعد أربعين سنة من وفاة النبي ﷺ، قد أسس جدلية الاستجابة المسيحية الدينية، فنفى أولاً الآيات القرآنية التي تناولت المسيحية، ثم حاجّ في المعتقدات الأساسية: هل كلام الله مخلوق أو غير مخلوق؟ والنزاع حول ما إذا كان الله لا كلمة له في وقت من الأوقات. بعد ذلك جاءت السخرية التي دأب المسيحيون على رمي نبي الإسلام ﷺ بها، متهمينه بالشهوة الجنسية. وأخيراً فإن تلك

الجدلية وجدت مكملاً لها في العقيدة المسيحية عن الذنوب؛ فالهزائم التي منيت بها الدول المسيحية على قوتها وجبروتها، أعيدت كلها إلى ذنوب المسيحيين، وإلى العقاب الذي أنزله الله بهم. ورجال الدين من الأصول اللاتينية يضيفون إليه الهرطقة التي ارتكبها هرقل بانحرافه عن الكنيسة الكاثوليكية الرومية.

غير أن هناك روايات أخرى شاملة: بدأ بعض المسيحيين العرب يقدسون بحيرا الراهب الذي تعرف على محمد وتنبأ بأنه سيكون نبياً. وتعتقد هذه الجماعة أن الراهب بحيرا علّم محمداً ما لم يكن يعلمه من الأسرار الربانية. مع استمرار الحروب في بيزنطة والبحر الأبيض المتوسط وإسبانيا، ازدادت تلك المجادلات الكلامية حدة؛ إلا أنه بعد انطلاق الحملة الصليبية بمشاركة الباباوات الرومان، التي تحولت في أثنائها مدينة القدس إلى مركز إراقة الدماء بين القارات؛ اتخذ المسيحيون من شخص النبي ﷺ هدفاً لحملة سامة ومتواصلة.

صارت عناصر الاستجابة المسيحية تتغير مع مرور الوقت إلى أن أصبح أحدها مثيراً إلى درجة أنه أشعل العواطف أكثر من المذابح في الحروب. ففي القرن التاسع الميلادي ارتاد نسطاس البيزنطي الساحة الفكرية نفسها التي تعوَّد عليها كثيرون ممن سبقوه وعاصروه (إله محمد لا يقبل القانون المسيحي؛ وعليه فإنه لا يمكن أن يكون إلهاً حقاً)، إلا أنه زاد عليها ما هو أقسى وأمرّ، فقال: إن محمداً كان شيطاناً. والحقيقة أن الهزائم والرضوخ، وهو أشد من الهزيمة، لسيطرة المسلمين في الأراضي المفتوحة من الأمور التي دفعت المسيحيين إلى أن يجعلوا من شخص محمد هدفاً لطعناتهم، وليس من المصادفة أن تكون الحرب الكلامية في إسبانيا أعنف وأشد منها في أي مكان آخر. ولوّث الغضب والمرارة الصراع بداء مزمن لم يبرأ. وكان ردّ المسلمين على الإساءة إلى شخص نبيهم عقوبة الموت.

كانت العواطف في الألفية الثانية أكثر وضوحاً في ديماغوجية الباباوات وتنديد الفلاسفة، وفيما فعله المتشددون من رجال الكنائس قبل الحروب الصليبية من تشويه اسم "محمد" ﷺ إلى جانب شعر دانتي الذي اتهم نبي الإسلام بزرع بذور التفرقة الدينية وقال ما قال في شأنه. لقد كان المسلمون ولا يزالون يطرحون سؤالاً من دون أن يلقوا إجابة لائقة عليه: إذا كانوا قد أنزلوا المسيح منزلة احترام وإجلال؛ فلم لا يعامل المسيحيون محمداً ﷺ المعاملة نفسها؟

لقد جعل المسيحيون من المسيح صورة لفضيلة رتيبة؛ ومن المنطلق نفسه وضعوا ﷺ في موضع ألوهية لم يدّعيها قط. لم تكن العزوبية عملاً من أعمال البر عند محمد ﷺ. وقد عاش حياة جنسية نشيطة، وهناك من أصحابه من أذاع سمعته من هذه الناحية بحسن النية ولكن من دون داع لها. وقد استغل ما رواه البخاري في صحيحه في هذا الخصوص أفصح الخطباء والكتاب من أوروبا الغربية المسيحية وقوداً لحملاتهم الطائشة في أثناء الحروب الصليبية وقبلها وبعدها على حد سواء. وكان فولتير مع دانتي في الركب نفسه الذي يسيء إلى النبي، فأبرزا صورة محمد الشغوف بالجنس أو المدعّي فألحق العيب برسالته، وعرض الوحي الكاذب، أي الآيات التي أنكرها الرسول ﷺ، الذي يكرم معبودات الوثنيين العزى واللات ومنات، دليلاً على الدجل. وهو ما يسمى في زماننا "بالآيات الشيطانية". وقد سخر اليهودي الإسباني بيدرو دي ألفونسو، الذي اعتنق المسيحية سنة 1106، وأصبح ابناً بالعماد لألفونسو الأول، من تلك الآيات، وقال: إن محمداً [ﷺ] لو لم يرغمه أتباعه لما رجع عن تلك الآيات. وكان بطرس المبجّل رئيس أساقفة كلوني يقول إنه يفضل المنطق على القوة، والكلمات على الأسلحة، وقد دس من خلال مؤلفه "الهرطقة الممقوتة لطائفة المسلمين" (The Abominable Heresy of the Sect of Saracens) في تلك الكلمات ضغائن وأحقاداً لا يستهان بها، واتهم الرسول ﷺ بأنه احتال حين

قال إن الله يكلمه، ووصفه بالافتراء، وكتب إلى لويس السابع يدعوه لشن حرب صليبية، وتدمير هذه الديانة الهرطقية مثلما فعل يشوع مع العموريين والكنعانيين.

هناك كثرة كاثرة من هذه الأقاويل وأمثالها ومن السخرية مما أوحي في القرآن؛ فقد قال توماس الباقي إن من تكلم إلى محمد [ﷺ] لم يكن الملك جبريل؛ بل كان ناصحاً شريراً له، علمه من الدسائس ما يمكنه من تسفيه الأغبياء والجهلة العرب. وهناك حكايات أخرى أذيعت بعد مزجها بنوع من التمثيل الصوري، وقيل إن الرسول ﷺ كانت عنده حمامة درّبها على التقاط حبة من أذنه ليتباهى بها، ويقول إنها الروح القدس. لم يكن هذا كله سوى نسخ معدلة لموضوع قديم. ففي حياة الرسول ﷺ كان أعداؤه يقولون عن الآيات القرآنية إنها هذيان أو من أقاويل شاعر مجنون، فنزلت الآيات: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ [يس: 69]، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: 41-42].

ونجد الخلاعة الجنسية عنصراً يلازم التفكير المسيحي دائماً؛ فالمسيحيون الذين يعتقدون بأنه لا خلاص من النار إلا بالآلام ينظرون إلى نبي له عدة زوجات وغنائم الحروب نظرة ازدراء، حتى وإن لم يجدوا شيئاً آخر غير ذلك. ويعود السبب، كما ذكرت سابقاً، إلى أن الإسلام يسعه أن يبقى ويعيش مع اعترافه بالمسيح نبياً ورسولاً؛ لكن لا يمكن أن تبقى المسيحية إذا أقرّت بأن محمداً، لا المسيح، خاتم النبيين. لذا يجب أن يكون محمد لدى المسيحية "زارع بذور التفرقة" وأبا الهرطقة، مثلما المسيحية ديانة ناقصة عند المسلمين. في زمن الشاعر دانتي كانت هذه الحروب الكلامية قد بلغت ذروتها، واشتدت الكراهية بين الإسلام والمسيحية اشتداداً استحال معه تقليل الفجوات بينهما. شاعر بمكانة دانتي أليغيري الذي لا مثيل له في الآداب المسيحية جاء ليجاهر

بـصور وأمـثال تتخطـى حدود الحرية في التعبير الفني، ونحن نقرأ في قصيدة له (تـرجمها إلى الإنكليـزية جـون سـياردي، وصـدرت عن دار بنغوين، هارموند سـوورث، عـام 1954م) أن التقـى محمـداً وعلـياً في الجحيم، مستخدماً تعابير وكلمات بذيئة وقذرة لعل مثلها لا يستخدم في بيوت الدعارة الغربية.

في دار الإسـلام تمسح هـذه الـضغينة بالسيف. وبقيت دار الحرب ساحة قتال متعددة الجبهات. لقد أطلقت الحروب الصليبية في الرؤوس أولاً . فاستلّت مـن سـيرة ابن إسحاق مقتطفات من هنا وهناك، وأذيعت بين الدوائر المسيحية. وقـيل عـن محمـد ﷺ إنـه محتال ومحرّف. وشكلت الزاوية الجنسية وقوداً غنياً لـتلك الدعايـة، وعممـت مـا جاء عن عائشة وعمرها عند الزواج، وعن الحور العـين الـسبعين الـتي ينالها الشهيد جزاء له في الجنة. بل إن المعركة على الدين بقـيت حامـية الوطـيس حـتى بعـد أن فقـدت الحمـلات الصليبية زخمها. ولجأ المـناطقة مـن المـسيحيين إلى أسـاليب اسـتدلال أشد براعة. جاء مثلاً في رسالة ريكـولدو دي مـونت غـروس حول كلمة الشهادة الإسلامية لا إله إلا الله محمد رسـول الله: "ممـا يلاحظ أن محمداً أدخل هذه الكلمة في القرآن مئة مرة على ما أظـن. لا إله إلا الله. هذه المقولة تنطبق على كل شيء: لا كلب إلا كلب، أو لا حصان إلا حصان".

هــذا ذكــاء مفـرط. وكـرر ريكـولدو في رسـالته الـتهم التي وجهت إلى الرسـول ﷺ في بدايـة الإسـلام، وقـال: إمـا أنـه مجـنون أو ممسوس، ولذلك السبب نجد في القرآن ما نجده من غموض وملابسات. ومخاوف سان بيدرو من إمكانـية ارتـداد المسيحيين الإسبان عن ديانتهم دفعته ليصور النبي ﷺ في صورة رمـزية، ويقـول عـنه: "ارتـدى محمد ألبسة أرجوانية، واستعمل العطور ليصبح زكـي الـرائحة، ولـوّن شـفتيه وكحّـل عينـيه. كما نرى القادة المسلمين وكثيرين غيرهم من الذكور والإناث يفعلون في زمننا هذا".

بـل إن وفاة النبي ﷺ لم تسلم من الافتراء. فقال مفكّرو الحملات الصليبية مـثل ألان (من ليل) وجيبير (من نوجنت) قال إن الكلاب أكلت جثته، أو اختنق وأكلـته الخنازيـر. وأضـاف رانولفـي هـيغدين أن ذلك وقع حين كان ثملاً. وقد تعـرض نـوريان دانـيال في كـتابه: "الإسـلام والغـرب" (Islam and the West, Edinburgh University Press, Edinburgh, 1958) للحـروب الـتكفيرية هـذه، وأورد مزيجاً مشوشاً من هذه الإشارات.

قد أشيع عن الحروب الصليبية أنها فريضة أخلاقية وصقل للنفس، وعملية تطهير وتصفية من خلال السيف، ويقول دانيال معلقاً عليها:

> "كان جوهر الحملات الصليبية الذبح في حب الله. وفي أعمال الجادين من الكتاب نجد ملاحظات متفرّقة تكشف عن النزعة نفسها. فالكاتب فيدينانزو لم يكـن يقـصد مـن كتاباته سوى تحريض الناس على الحروب الصليبيـة، إلا أن تفكيره يتضـح بكـل جــلاء بملاحظــة عرَضيــة حــول "سيلـيرا كارناليا" (scelera carnalia) الـتي لا يـصلــح ذكرها، ويحاول الغرب خلق الانطباع بأن الإسـلام يـشجع علـيه، وإن لم نجد أي سبب غير هذا السبب فإنه يجعل واجباً على المسيحيين أن يحاربوهم ويطهروا الأرض منهم". وقال بندكت أليانان: إن المـسلمين لا يصلحون لمجادلتهم؛ وإنما المفروض أن نبيدهم بالنار والسيف. وكـتب القـديس برنارد: المسيحي يفتخر حين يموت وثني [أي المسلم]؛ لأن المجـد عـندئذ يكـون للمسيح، ويظهر جود الملك وسخاؤه في موت مسيحي لأنه يصل حينئذ إلى جزائه".

إن جـزاء الـشهيد مـن المـسيحيين الجنة أيضاً، والحقيقة أن هذه المواقف العدوانـية المـسيحية نـشأت عـن كآبة عميقة أخذتهم عندما رأوا نجاح النبي ﷺ وهـو آت بعد المسيح، وقد تضاعفت هذه المشاعر في أعقاب انتصارات صلاح الـدين والفـتوحات الإسـلامية الـتي قادها، وإخفاق الحملات الصليبية في فتح المدينة المقدسة فيما بعد.

وفي 1239م، وهي السنة التي انتهت فيها الهدنة بين فريدريك والكامل، أرغم الناصر داود، حاكم الكرك، (من المفارقات أنه المكان نفسه الذي اتخذ منه رينولد قاعدة للانطلاق في حملته) الفرنجة على الخروج من القدس. وبعد مدة وجيزة أعادها إليهم مرة أخرى لأنهم ساندوه في حربه مع القاهرة. إلا أن هذه الهدنة كانت قصيرة. ففي سنة 1244م أعاد جيش من الأتراك الاستيلاء على المدينة. وبعد مضي خمس سنوات جاءت الحملة الصليبية السابعة والأخيرة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، حين أرسى الفرنجة سفنهم في دمياط، ولاذ المصريون بالفرار من ساحة القتال. وقد وصف ابن واصل، المؤرخ العربي من ذلك العصر، ذلك بأنه مخزٍ؛ إذ كان في الميناء من المؤن والأسلحة ما يكفي للدفاع عنها مدة سنتين. ويقول إنه عم حزن شديد أجواء مصر، لاسيما أن السلطان (نجم الدين أيوب) سقط مريضاً، وبسبب الضعف لم يكن يقدر على التحرك، ولا على تولي قيادة جيشه، بل إن الجيش نفسه سعى ليفرض وصايته عليه. توفي السلطان يوم الثلاثين من أغسطس 1249م، وعلى الرغم من النكسات التي مني بها الصليبيون في أماكن أخرى إلا أنهم زحفوا من دمياط إلى المنصورة، واقتربوا من الجيش المصري في معسكره. بعد وفاة السلطان نجم الدين خلفه في الحكم الملك المعظم، لكنه كان حينئذ في العراق. وأصبح اسم الأمير فخر الدين، الذي كان حياً آنذاك، يذكر في الخطبة في جامع القاهرة. وفي العاشر من فبراير 1250م وجد الجيش الإسلامي، وهو في معسكره في المنصورة، الفرسان الفرنجة في وسطه. كان الأمير فخر الدين يغتسل في ذلك الوقت فركب الفرس من دون سلاح، وسارع لحشد القوى لكن فرسان الهيكل قبضوا عليه وقتلوه. وهنا تأكد الصليبيون من انتصارهم، وأخذوا ينتشرون بين الأزقة.

في تلك اللحظات الحاسمة انقلبت الأمور ووجدت مملكة توشك على الاحتضار دماء جديدة كافية وقادرة على إلحاق الهزيمة بقوة أوروبا المسيحية.

فقد شنّ المماليك من الأصول التركية من فرقة البحرية المصرية، بقيادة ركن الدين بيبرس، هجوماً شديداً، وذبحوا الفرنجة. وبلغت الهموم ذروتها في القاهرة لأن الأخبار عن القتال التي نقلت إليها آنذاك بالحمائم لم تكن تحمل شيئاً يسرها. وفي صباح اليوم التالي الأربعاء وصل إلى القاهرة خبر عن نصرة بيبرس، فاستعد أهلها لإقامة الولائم، معلنين النبأ السار في أنحاء العاصمة بالطبول والأفراح العامة. جاء هذا الانتصار على الغزاة الفرنجة لينشر فرحة وبهجة في أرجاء مصر. وروى ابن واصل أن هذه هي الحرب الأولى التي هزم فيها الأتراك الأسود الكفرة الكلاب. وبعودة الهمم وانتعاش العزائم تابع المسلمون سلسلة من الانتصارات، إلى أن حققوا يوم السابع من أبريل 1250م النصر النهائي العظيم الذي أبدى فيه المماليك ثانية بسالة وشجاعة منقطعة النظير.

وكتب عنهم ابن واصل أنهم كانوا فرسان الهيكل المسلمين. وقع الجيش الصليبي بكامله أسيراً. كلّف مملوك خصي يدعى صبيحاً بحراسة الملك الفرنسي في الأسر، الأمر الذي أثار تذمراً في صفوف المماليك. واحتفل شعراء القاهرة بهذا النصر العظيم، وقرضوا أشعاراً توحي بأن المسيح نفسه سيغضب مما فعله أتباعه. وفي الثاني من مايو من السنة نفسها دخل ركن الدين قائد المماليك المخيم الذي كان فيه الملك المعظم، فطعنه بسيفه، وسار في طريقه. طلب السلطان الجريح من المصريين المساعدة لكنه لم يحصل عليها. ففر نحو سفنه، إلا أن رجال ركن الدين قتلوه بعد إلقاء القبض عليه. وبقيت جثته ملقاة ثلاثة أيام إلى أن رآها بعض الملاّحين ودفنوها. وبهذا انتهت السلالة الأيوبية التي أسسها البطل الجليل صلاح الدين الأيوبي.

كان المماليك من الأتراك حديثي العهد بالإسلام وأعادوا إلى الإسلام شيئاً من طاقاته الأصيلة. وفي 1260م أدهش بيبرس العالم بدحره عاصفة المغول

الهـوجاء في معركة عين جالوت، وعندئذ عادت سوريا وفلسطين مرة أخرى إلى مملكـة مـصر، مـا جعل الغرب المسيحي يقف حائراً، ولا يجد دليلاً من الأدلة يصلح سنداً أو تفسيراً لتسويغ تجدد الإسلام الذي نعته الغرب بالهرطقة، والذي استطاع أن يقلب مسار التيار المغولي أيضاً. ثم أتى السلطان خليل ودمر في عام 1291م مملكـة عكـا، وقضى على القوة المسيحية في فلسطين، لكنه لم يتعرّض للوجود المسيحي هناك.

وفي هـذا الخـصوص قـال دانـيل: "جـاء الفـتح الإسـلامـي مـصحوبـاً بمـشكـلات تجلــت بـأقـسى أشكالها في معاناة المسيحيين وإخضاعهم للحكم الإسـلامي، لاسـيمـا عندما فرض ذلك الحكم بصورة مباشـرة". ونقل في ذلـك الـسياق عـن كـتاب ريكــولـدو: (Epistocae commendatorie de perdition Acconis):

"عـندما كـنت في بغـداد وسـط الأسـرى علـى ضفة دجلة سرتني، من ناحـية، نـضارة الحديقـة لأنهـا كانت مثل الجنة، غنية في أشجارها وخصوبتها وثمارهـا من صنوف متعددة. هذه الحديقة تفجرت وسقيت من مياه الفردوس، وبنـيت حـولها بـيوت ذهبية. ومن ناحية أخرى فإن مذبحة المسيحيين وأسرهم والإطاحـة بهـم بعـد الاسـتيلاء علـى عكـا دفعتني إلى الكآبة والحزن. وعندما رأيـت المـسلمين في بهجة ونعيم والمسيحيين مهمَلين وخائفين... بدأت أتأمّل فـيما قـضى الله بـه في شـأن العـالم وحكمـه، لاسـيما فـيما يتصل بالمسلمين والمـسيحيين... فمن الهند إلى المناطق الغربية يملك المسلمون أفضل الممالك خصوبة وثراء بنعيم هذه الأرض ... وفي حوزتهم جبال من الملح، ونوافير من الـزيت، والمـن والـسلوى من الجنة، وتوابل عطرية، وأحجار كريمة، ودهون البلسان، وأحلى الفواكه".

كانـت مشاعر ريكولدو واضحة: تكاثر المسلمون لأن دينهم شجعهم على ارتكاب الزنا، ومع ذلك منحهم الله القوة لسحق الأديان الأخرى. وقد أجبر على مـشاهدة النـسوة والأطفـال مـن المـسيحيين وهــم يـباعون في سوق العبيد بعد

إخراجهم إلى الشوارع في مواكب، ويرى الراهبات يحولن إلى جاريات، ويسمع كلمات ساخرة تقذف إلى المسيحيين، بأن مسيحهم لا يستطيع أن ينصرهم على محمد: يبدو أن الله أصبح إلهاً للقرآن من دون الإنجيل! هذا التماثل لافت بين العواطف المسيحية تلك وبين أحزان المسلمين في ساعات حرجة؛ فقد اشتكى المسلمون الشكوى نفسها عندما جاء عصر الفتوحات المسيحية. وقد وصفت هذه المتلازمة وصفاً جيداً بأن نصفها إحساس بالشفقة على الذات ونصفها الآخر تظاهر بالشجاعة. والتعويض في المستقبل لا يكفي دواء لهذا الداء.

لم يقصّر المسلمون في ذم المسيحيين وقدحهم، مع ذلك فإنهم ينظرون إلى أي هجوم موجه إلى نبيهم نظرة مؤامرة متعمدة ومؤذية. يقول همبرت الروماني، المنظّر لفكرة الحروب الصليبية، أن محمداً أنشأ الإسلام "ليدمر المسيحية". (انظر مؤلف نورمان دانيل المشار إليه سابقاً). ويقول دانتي عن المسيحيين والمسلمين إنهم يعدون أنفسهم أبناء لأب واحد، ويرى أنه لا تكون إلا مزاعم أحدهما مشروعة. ومن هنا تغدو من الخطوة الأخرى سهلة. كانت المسيحية في خطر فوجّهت الكنيسة الدعوة إلى شهدائها. وهكذا استسقى جهاد جهاداً آخر.

كانت هذه الحرب التي دامت ثلاثمئة سنة أو أكثر حرباً فكرية ودينية وعسكرية. ولأن الباباوات أخذوا على عاتقهم مهمة قيادة الزحف الصليبي؛ أصبح من المحتم أن يكون للأساقفة أثر بارز في تحشيد العوام وتعبئة الأفكار الضرورية لمواصلة تلك الحملات. وأعد الرهبان من الدومينيكان والفرنسيسكان لتولي مهمات التبشير بين المسلمين. وفي عام 1219م عبر القديس فرنسيس الأسيسي النيل في أثناء الحملة الصليبية الخامسة، ودعا السلطان الكامل نفسه إلى المسيحية. تأثر السلطان بروح هذا المبشّر المتسوّل وتحمّسه، وعامله معاملة إكرام، ووفر له الحرس ليعود آمناً إلى موطنه. وإن كان الكامل ميالاً للسلم إلا

أنـه لم يكـن في نيته أن يصالح البابا أبداً، والرهبان الفرنسيسكان هم الآخرون لم يفكـروا في أمـر الـسلم قـط. وعندما أخفقوا في تحقيق مكسب ما، وبدا أن كل شـيء قـد ضاع؛ وجدوا في الاستشهاد تحت سيوف المسلمين فرحهم المنشود. وفي الـسنة الـتي جاء فيها فرنسيس ليدعو السلطان الكامل إلى المسيحية تعمدت مجمـوعة من الإخوة الفرنسيسكان الإغراء على الاستشهاد في مراكش اقتداء بما فعله بطل من الإسبان في القرن التاسع.

إن حكايـة الـراهب برفكتوس في قرطبة تربط العديد من مستويات العلاقة المعقـدة. ففـي سـنة 850م التقى برفكتوس بمجموعة من المسلمين في السوق، وسـألوه سؤالاً قديماً: هل المسيح أفضل أم محمد؟ كان ذلك بالطبع شَرَكاً نصبه المـسلمون: إذا فـضل محمـداً علـى المـسيح فإنه سينكر دينه نفسه، وإذا فضل المـسيح فإنـه سـيعرض نفـسه للقـتل. بدأ برفكتوس إجابته بحذر، وفجأة توقف وأطلـق وابـلاً من الشتائم، وأخذ يصف النبي بالدجل والمروق الجنسي وما إلى ذلـك. كانـت المـشكلة في طبيعـتها مـشكلة شارع أمكن حلها بسهولة؛ إلا أنها اتخـذت بعـداً خطـيراً فجأة. اقتاده جمهور من الغاضبين إلى القاضي فرفض أن يـصدر عليه الحكم بالقتل، وأصاب حين قال في حكمه: إنه لا يستحق العقوبة؛ لأن المـسلمين حرضـوه على تلك الفعلة الشنيعة. بيد أن برفكتوس انتابته نوبات متكررة من الغيظ، وصار يسب النبي ﷺ سباً اضطر القانون إلى أن يتخذ مساره، ونفذت فيه عقوبة القتل يوم العيد.

وفي يـوم العـيد نفـسه خـرجت جماعـة مـن المسلمين إلى البحر تتنزه في زورق وسط المياه، وغرق جميع من كانوا على متنه؛ فقال المسيحيون إنه علامة مـن العلامـات الإلهية، والله أنزل عقابه على المغاربة لما فعلوه بحق برفكتوس، ذلـك الـراهب الـذي تحـول إلى رمـز ديـني في إسـبانيا، واتخذته المجموعات الاستـشهادية قـدوة ومـثالاً لهـا. ففـي صـيف عـام 851م سـار إلى القاضي نحو

خمسين من المسيحيين ـ فيهم رهبان وقساوسة وعلماء وعامة الناس ـ ليسبوا النبي ﷺ وينالوا الحكم بالقتل. ومع أن تفجر المشاعر الدينية من هذا القبيل لم يلق ترحيباً كبيراً لدى الكنيسة، ودعا مطران قرطبة إلى التعايش سلمياً مع الحكام الجدد، وأدان علناً تلك الحماسة. إلا أن الشهداء وجدوا القيادة في المتطرفين من أمثال يولوغيو وبول الفارو اللذين أضافا مشهداً من مشاهد القيامة: إن صعود الإسلام ينبئ بنهاية العالم. أفلا يقال إن عودة المسيح لن تحدث ما لم يحدث الارتداد العظيم، وما لم يأت متمرد يقيم دولته في القدس، ويدخل كثير من المسيحيين في دينه؟ واستدل هؤلاء بأن سفر الرؤيا من الإنجيل يذكر أن دابة عظيمة ستزحف من وهدة، حاملة 666 وصمة لها، وتتربع على العرش في جبل الهيكل لتحكم العالم. لقد بنى المسلمون مسجدين على جبل الهيكل، وحكموا أصقاعاً واسعة من العالم. ولإعطاء أوجه الشبه آنفة الذكر نوعاً من المصداقية قيل إن محمداً توفي عام 666 بحسب التقويم الإسباني (لو تيسر لأي منهما أن يقرأ القرآن لوقف مذعوراً وهو يقرأ الآية: 82 من السورة السابعة والعشرين (النمل) التي تنص على خروج الدابة).

وفي أواخر القرن الرابع عشر فعل الفرنسيسكان في القدس ما فعله إخوانهم في المغرب قبل نحو قرنين؛ فقد ذهبت جماعة منهم يوم 11 نوفمبر 1391م إلى المسجد الأقصى وطلبت من القاضي أن يستمع إلى شهاداتهم، وعندما سمح لهم القاضي بذلك وصفوا النبي ﷺ بالفسق والقتل، وقالوا إنه الأكول النهّاب الذي ظن أن الحياة ليست إلا للأكل وتعاطي الجنس وارتداء الألبسة الفاخرة. وعندما علم المسلمون بذلك اجتمع جمع كبير منهم مطالبين بإنزال عقوبة القتل في هؤلاء لارتكابهم جريمة الإهانة. وطلب الفرنسيسكان أنفسهم العقوبة نفسها؛ فعرض القاضي عليهم الإسلام قبل أن يقضي عليهم بالقتل، إلا أنهم آثروا الموت ظانين أنه سيوجب اللعنة على المسلمين. وسجّل

حدث مماثل في سنة 1393م. هذه هي الروح الصليبية، في القتل أو الانتحار على السواء.

هناك قول شائع يصف الحملة الصليبية الأولى بأنها أتت انتصاراً للملكية على الفوضى. وبحلول القرن الأخير من الألفية الأولى كانت القوة الإسلامية قد نخرت وتمزقت على نفسها. وفي الوقت نفسه بدأ الملوك المسيحيون يوحدون كلمتهم، ويستعدون للانقضاض على الدول الإسلامية، بعد أن أرغمهم الباباوات والعوام على تجاوز خلافاتهم الداخلية. لم يعمّر الأمويون طويلاً بعد معركة بلاط الشهداء (تور)؛ فقد خسروا مصداقيتهم ثم إمبراطوريتهم. بعد وفاة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (مني المسلمون بهزيمة في معركة بلاط الشهداء في حكمه) خلفه في الحكم أربعة في مدة تقل عن عشر سنوات.

كان أبو العباس، وهو ينحدر من آل هاشم، قائداً في الجيش الأموي، وفي يونيو 750م دعا ثمانين من كبار الأمويين إلى مأدبة عشاء في منزله وذبحهم جميعهم، فيما تعامل الضيوف الآخرون مع المشهد كجزء من ترفيه في ذلك المساء (كان عبد الرحمن هو الأمير الأموي الوحيد الذي نجا بحياته، وذهب إلى الأندلس ليؤسس حكم السلالة الأموية في قرطبة)، ونال هذا التمرد تأييد العامة من رعايا الدولة على الأسس المبدئية. ربما كان المؤرخ الطبري من الموالين إلى جانب كونه رجلاً متعدد الألوان، إلا أنه كان يمثل الرأي الشعبي السائد حين كتب: "الآن انقشعت الليالي شديدة الظلمات، وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها، وبزغ القمر من مبزغه، ورجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم، والعطف عليكم".

إن العباسيين من سلالة أبي العباس الذي دعا نفسه بالسفاح قد لا يذكرهم رجال التاريخ لصفاء عقيدتهم أو قوة إيمانهم مثلما يذكرون بعضهم؛ وأشهرهم

هـارون الرشـيد (786-804) الـذي اعتلـى قمة المجد. ولعل حكايات "ألف ليلة ولـيلة" تقلـل مـن الواقـع. لم تكن الثقافة في ديوان العباسيين ثقافة عربية بجميع خصائـصها وميـزاتها؛ وإنما تسللت إليها ثقافات تركية وفارسية أيضاً. والعاصمة في زمـن الخلافـة العباسـية انـتقلت إلى بغداد، وبدأت أعمال البناء عام 762م، وانـتهت بعـد أربـع سـنوات. ومجموع ما كلفته تلك الأعمال تقدر بنحو خمسة ملايـين درهم. ويأتي الترف من ذلك النوع دائماً مصحوباً بالانحطاط. فقد بدأت الحقـيقة في الـبلاط تتـنافس مـع الخيال. ويقال بأنه كان لدى المتوكل ابن حفيد هـارون الرشـيد أربعـة آلاف جاريـة، والمـدهش في الأمـر زعمـه أنه ضاجعهن جمـيعهن، وتكاثر العبيد والمخصيّون، وكانت الثروات أسطورية بمعنى الكلمة. وإذا كـان هـارون اشـترى حجـرة ياقـوت بـأربعين ألف درهم، فقد أمر الخليفة المستعين بالله بسجادة لوالدته قيمتها 130 مليون درهم. ومع ذلك كله فإن العصر العباسي تميز من غيره من العصور بتحقيق إنجازات كبيرة؛ أهمها الإنجازات في مـيدان العلـوم والمعـارف. فـابن سينا والفارابي والغزالي علماء من ذلك العصر يعرف أسماءهم الجميع. والمعلومات الإحصائية من العصر العباسي تقول إنه في أواخـر القرن التاسع وُجد في بغداد وحدها أكثر من مئة مكتبة بينما كانت المدن من أمثال لندن وباريس حينئذ تخلو منها تماماً.

ربمـا احـتمل مـن شارك في الثراء تجاوزات العباسيين؛ لكن الصلحاء من رجـال الـدين وقفـوا بـصرامة في وجههـا. وقـد تميّـز العباسيون بمضايقة الأئمة الأربعــة العظــام الـذيـن وضعوا أسس الفقه الإسلامي؛ وهم أبو حنيفة (700-767م)، ومالـك بن أنس (710- 795م)، ومحمد الشافعي(772- 826م)، وأحمد بـن حنبل (780 - 855م)؛ فقـد لقـي الأول حـتفه في الـسجن، وضرب الثاني بالـسياط، و ألقي الثالث في السجن مدة، فيما ضرب الأخير بالسياط ثم سجن. وذلك ما أصاب هؤلاء الفقهاء الكبار الأربعة الذين يقال عنهم إن أبواب الاجتهاد قـد أغلقـت بعدهم. وليس ثمة ما يدعو إلى العجب إذا ما علمنا أنه عندما وصل

المغـولي هولاكـو خان إلى أبواب بغداد في 1258م سخر من الخليفة المستعصم بآيـات قـرآنية أنـزلها الله إنذاراً للمسلمين من أن جزاء الاستكبار الذل والخسران والدمار. قد دمر المغول العاصمة بغداد، وقتلوا الخليفة، ووضعوا نهاية للسلالة العباسـية. وبـذا انـتقل مركز القوة الإسلامية في المنطقة جنوباً إلى القاهرة ليشهد حركة تجدد أخرى عظيمة.

كـان لانتـصار الفرنـسيين في معـركة بـلاط الـشهداء تأثير إيجابي كبير في أوروبـا. وبـوحدة الفرنجة بدأ مركز القوة ينتقل من الشرق إلى الغرب الأوروبي. وبعـد أربعـة عـشر قـرناً لا يـزال البندول عالقاً في مكانه، ولم يرجع إلى موقعه الـسابق أبـداً. فقد البيزنطيون سيطرتهم على البابوية في عهد بيبين، ابن مارتيل، بانـتخاب الـبابا ستيفان عام 752م. وبعد بيبين جاء ابنه شارلمان العظيم الذي كان معاصـراً للخلـيفة العباسـي هـارون الرشيد، وبنى تراثه العظيم بعبقريته، إلى أن أصـبح المـسيحيون يحلمـون مـن جديـد في استعادة القدس والجلجلة وضريح المـسيح وكنيـسة القـيامة. وقـد قـويت هـذه الأحلام وتعززت مع كل رحلة من رحـلات الحـج الـتي أداهـا الـناس في تلـك الأزمـنة الغارقة في الفقر والمرض والحـرب، ونالـت تـشجيعاً مـن رجـال الكنيسة الذين اتخذوا من العقيدة عمدة لبقائهم.

وفي القـرن الأخـير من تلك الألفية تلقت الثقة المتنامية لأوروبا المسيحية مـزيداً مـن الـدعم من النبوءة القديمة التي تقول بأن القيامة لا تقوم (أنها اقتربت ثانـية) قـبل أن يـأتي إمـبراطور من الغرب ويصبح ملكاً على القدس ويدمر عدو المـسيح. عـندئذ غدا خليط الديانة والسياسة صالحاً للتطبيق؛ إلا أن القرن الذي صـار فـيه ذلـك الخلـيط مثمـراً أكثـر من أي مرحلة أخرى كان القرن الأول من الألفية الثانية.

جـاء الحـج العظـيم سنة 1033م ينبئ بما ستؤول إليه الأمور مستقبلاً؛ ففي

1061 غزا الكونت روجر صقلية الإسلامية، وتيسر له أن يعيد صقلية إلى المملكة المسيحية حتى عام 1091م. وفي السنة الخامسة والثمانين بعد الألف قاتل الفرسان الفرنجة والإسبان معاً، وتمكنوا من استعادة طليطلة. وشكل البابا غريغوري السابع مليشيا دعيت فرسان القديس بطرس، وأمر بتعبئتها عندما حقق الأتراك انتصارات كبيرة على البيزنطيين في 1071م و1074م. عندئذ كان مطلوباً من الفرسان أن يعيدوا فتح القدس في خلفية مواجهاتهم السابقة مع الأتراك. والمعلوم أن هؤلاء الفرسان أخفقوا في تحقيق ما أرادوه؛ إلا أنه بعد مضي خمس وعشرين سنة على ذلك حقق البابا الآخر الأمنية التي حلم بها المسيحيون أربعة قرون ونصف، فرفعت ألوية غودفري دي بويون على شرفات القدس.

كتب الراهب روبرت رواية عن ذلك الانتصار بعد عشر سنوات من حدوثه، ووصفه بأنه الحدث الأعظم في التاريخ منذ صلب المسيح؛ لأن المسيح الدجال سيظهر عما قريب، وستبدأ المعركة الفاصلة قبل يوم الدين. وقد ظهر "المسيح الدجّال" بالفعل، لكن اسمه كان صلاح الدين.

- 6 -

الله! محمد! صلاح الدين!

اللـهم اجعل روحه مقبولة لديك، وافتح له أبواب الجنة؛ لأن ذلك آخر فتح من الفتوحات التي تمناها. (العبارة المكتوبة على ضريح صلاح الدين الذي توفي يوم 4 مارس 1193م).

بدأ كل شيء بالخصاء. الحكاية في مجملها أشبه ما تكون بأقصوصة من أقاصيص ألف ليلة وليلة، غير أن أوجه الشبه لا تجعلها وليدة خيال. كان لنجم الدين، وهو رأس أسرة كردية ثرية في توفين في أرمينيا، صديق حميم يدعى بهروز. وكان السحر والوسامة موطن قوته وضعفه في آن. وقد فتن زوجة أمير محلي فتجرّدت له من ملابسها؛ لكن حظه العاثر جعله يضبط عارياً من النصف السفلي، فبادر الأمير إلى إخصائه وإبعاده عن القرية زيادة في الأمان.

قرر نجم الدين أن يصاحب صديقه؛ فاتجه الاثنان إلى بغداد، ووصلا إلى ديوان الخليفة العباسي المستصفي. ونجاحهما في قلب حالة البؤس والشقاء إلى نعيم ورخاء من الأمور التي تعطي فكرة عن روح العصر، أو على الأقل عن روح الصداقة القائمة بين الاثنين. وخلاف ما هي عليه الأمور في هذا العصر المتحضر فإن المخصيين في ذلك الوقت لم يكونوا يتعرضون للسخرية أو الإهانة، أو يكرهون على عرض أنفسهم في أسواق الدعارة أو مواجهة النبذ لمجرّد حرمانهم من إحدى القدرات. بل إن غيابها كان مطلوباً لا في الأعمال التي تتطلّب الاحتكاك بالأسرة والنساء فحسب، ربما لأن عقولهم تكون أكثر تركيزاً. أفادت شخصية بهروز الساحرة حين اتخذه السلطان رفيقاً له في لعبة الشطرنج، وجزاء

لـه مـنحه قلعـة في مديـنة تكـريت التي تقع على ضفة دجلة شمال بغداد. وعين بهـروز صـديقه نجـم الـدين حاكمـاً علـى القلعـة، ودعا الأخير شقيقه شيركوه ليشاركه في رفاهيته.

في تكـريت رزق نجـم الـدين في سـنة 1337م ابنا سماه يوسف بن أيوب، (في العقـد الأخير من القرن العشرين اتخذ صدام حسين من ذلك شرفاً، وأشهر نفسه بأنـه ولـد في تكـريت أيـضاً). لكـن حياة يوسف لم تكن سعيدة في أوائل أيامهـا؛ ففـي اللـيلة نفـسها الـتي ولـد فـيها نشب شجار بين عمه شيركوه وبين المسؤول عـن بوابة القلعة، وسرعان ما تحول ذلك الشجار إلى العنف الذي لم يـتوقف إلا بعـد مقـتل الأخـير. وعـندما علـم بهروز بذلك أصابه الذعر، وأقال الأخوين من الخدمة، فرحل نجم الدين ومن معه إلى الموصل التي وقعت تحت إمرة رجل كان نجم الدين قد أنقذه منذ خمس سنوات.

كان اتابك الموصل وحلب في ذلك الوقت عماد الدين زنكي، وهو واحد مـن الكـثيرين الـذين ادعوا أحقيتهم في تسلم مقاليد السلطة المهلهلة، وقد كان داكـن البـشرة ذا لحية كثة، لكنه اختلف عن غيره من الزعماء والأمراء. كان ينام مـع جـنوده، وفـرض علـيهم ضـبط الـنفس فرضاً مثالياً، ويقال إنهم ساروا في زحفهـم بـين حـبلين لئلا يدمروا حقولاً مزروعة. هذا هو القائد الذي وصفه ابن الأثـير بأنـه هـبة للمـسلمين مـن عـند ربهـم، والـذي قـدر له أن يغزو المملكة المـسيحية في فلـسطين الـتي بلغـت ذروة المجد في غضون 52 سنة، وأن يعود الفضل فيه إلى يوسف الذي عرفه العالم بصلاح الدين الأيوبي. أظهر عماد الدين قدراتـه في الـسنة الـتي ولـد فـيها صـلاح الـدين، بفتح قلعة بارين بعد أن هزم فـولك، ملـك القـدس، وأصـحابه مـن البارونات، واحتجزهم جميعهم إلى أن دفعوا خمسين ألف دينار فدية لإطلاق سراحهم. وقد أحدثت هذه الوقائع ضجة كـبيرة، وسـار الـرهبان في جمـيع أصقاع الإمبراطورية البيزنطية، وهم يحذرون

المسيحيين من أن المسلمين لا يهمهم شيء عدا بيت المقدس. وسط ذلك الهياج والضوضاء حافظ الإمبراطور يوحنا الثاني كومنينوس على هدوئه، واستغل الفرصة المواتية لاسترداد أنطاكية من الصليبيين الذين عاشوا حالة اضطراب شديد.

استطاع عماد الدين أن يبدل في 1144م الخريطة الجيوسياسية للمنطقة؛ فاستولى على الرها وهي أولى الممالك الأربع التي أنشئت في الحملة الصليبية الأولى.

عندما دعا عماد الدين زنكي إلى الجهاد جاء إليه جنود من القبائل التركية ومتخصصون في نقب الحصون من خراسان وحلب. دمّر جيشه أولاً كل ما حول المدينة المحصنة حتى قيل إن الطيور لم تجترئ على الاقتراب من الرها. ووصل النقّابون العاملون من داخل الأنفاق إلى ما تحت الأبراج المقامة على أسوار المدينة، وأُشعلت النار في الدعامات الخشبية تحت الأبراج، ما جعل الجدران تتزعزع وتتساقط. وقبل يومين من عيد ميلاد المسيح عام 1144م اقتحم عماد الدين عند الفجر الرها واستولى عليها، وجرد الفرنجة الغرباء من ألبستهم ونهبوا ووضعوا في الأغلال. إلا أنه عامل المسيحيين الشرقيين المحليين والسوريين والأرمن معاملة طيبة، وقال إنهم من أهل الأرض على خلاف الفرنجة الأوروبيين. جاءت أحداث الرها لتذهل أوروبا. وهناك حكاية مثيرة تشير إلى ما تركه ذلك الانتصار من تأثيرات: كان في ديوان ملك صقلية روجر الثاني عدد من المسلمين، طبقاً للعرف المتبع في تلك الجزيرة، وكان أحدهم شيخاً طاعناً في السن. ذات يوم جلس الملك ينظر إلى البحر؛ فرأى سفينة جاءت بنبأ عن انتصار الجيش الذي بعث به روجر لغزو طرابلس، فاتجه إلى الشيخ المسلم الذي أخذه النعاس، وقال في نكتة ساخرة: هل تدري ما أخبر به هؤلاء الناس؟

قال الشيخ "لا".

قالـوا لي إننا هزمنا المسلمين في طرابلس، ما الفائدة التي يعود بها محمد الآن على أرضه وأمته؟

فـردّ الشيخ، "لم يكن محمد في طرابلس، بل في الرها التي استولى عليها المسلمون للتو".

ضـحك الآخـرون من جلساء الملك في ديوانه، إلا أن الملك نفسه نبههم إلى أن الشيخ يصدق دائماً. وبعد بضعة أيام أعلن سقوط الرها رسمياً، مما جعل رجـال الكنيـسة يلـتقطون الـصدمات الناشـئة عـن ذلك الحدث، وما رافقها من تيارات عاطفية يبثّونها في مغارب أوروبا ومشارقها.

يـوم عـيد القـيامة مـن عام 1146م ركع لويس السابع وزوجته إيلينور ملكة أكويـتان أمـام القديس برنارد كليرفو في فيزيلاي الذي وعد الزوجين بالخلود في الجـنة إذا أقـدما علـى مـا عـرف فيما بعد بالحملة الصليبية الثانية. هذه المواقف كانـت رد فعـل مباشـراً على سقوط الرها. بالنسبة إلى إيلينور، البالغة من عمرها آنذاك خمساً وعشرين سنة، تبيّن أن الحملة الصليبية لم تكن نعمة إلهية، ذلك أن زوجها اتهمها بأنها تراود عمها ريمون الأنطاكي، وفرض عليها الحراسة.

وبعد ذلك طلق لويس زوجته إيلينور لأنها، على ما قيل رسمياً، لم تنجب وريثاً ذكراً له. لكن إيلينور اكتسبت شهرة أوسع من ذي قبل إذ إنها تزوجت ملك إنجلتـرا هنـري الـثاني وأخذت معها أكويتان. ويرى المؤرخون العرب أن لويس السابع لم يكن له أثر كبير في هذه الحرب الصليبية، ويقولون إن الملك الألماني كونـراد الـثالث هـو الذي قاد الحملة الصليبية الهائلة على دمشق، وللمرة الثانية خـسر الـصليبيون تلك المعركة المصيرية بعد أن أشرفوا على الانتصار. أما عماد الـدين زنكـي فقـد قـتل غـدراً قبيل الحرب الصليبية الثانية، وهو في الستين من عمره في سبتمبر 1146م.

خلف عماد الدين ابنه الثاني نور الدين زنكي الذي كان في التاسعة عشرة من عمره. كان نور الدين رجلاً تقياً صالحاً، وأشد تحمساً للجهاد من والده. واختار لنفسه حياة تقشف، فيما أنفق على الآخرين بجود وسخاء. وكان همه الوحيد هو الجهاد، وذلك في وقت آثر فيه غيره من الحكام وولاة الأمور من المسلمين السلم والمصالحة. كان أونور حاكم دمشق حليفاً رئيسياً لمملكة القدس، وللسبب نفسه كانت صدمته كبيرة بالفعل حين وجد الحرب الصليبية تنتهي إلى عتبات دمشق من دون أبواب الرها. تجمع المسلمون من جميع الأرجاء للدفاع عن دمشق، وعندما بلغ الفرنجة أن نور الدين في طريقه إلى دمشق أيضاً غادروا الساحة وتناثروا على مرأى من أعين الدمشقيين المصابين بحيرة. بنى نور الدين منبراً فاخراً ليضعه في المسجد الأقصى بعد تحريره، وسيقيمه في مكانه ذات يوم شاب في بلاطه.

كان ذلك الشاب هو صلاح الدين بالطبع. لقد تلقن من ناصحه نور الدين أن وحدة سوريا ومصر مفتاح للجهاد، وأنه سيكون من شبه المستحيل أن تهتز مملكة القدس ما دامت القوة العربية مشتتة ومنقسمة على نفسها. لذا فإن السياسية الرسمية للفرنجة، الذين يحتلون المنطقة الفاصلة بينهما الإبقاء على انقسامهما.

في عام 1163م طلب نور الدين من شيركوه (كان الأخير في عداد جيش عماد الدين الزنكي أيضاً) أن يقود الحملة على مصر، كما أمر صلاح الدين الشاب البالغ من العمر 26 سنة أن يرافق شيركوه في مهمته. وفي القاهرة قاومت السلالة الفاطمية الشيعية المتداعية شيركوه وصلاح الدين خمس سنوات بمساعدة من القدس؛ إلا أن القاهرة سقطت في عام 1169م، وأعلن شيركوه نفسه ملكاً لمصر، ولكنه بعد شهرين فقط قضى نحبه، ويقال إن موته جاء نتيجة تسميم. فنصب نور الدين صلاح الدين الأيوبي ملكاً لمصر مفترضاً أن شاباً في

الثانية والثلاثين من عمره سيكون أكثر إذعاناً له. لكن كانت لصلاح الدين آراؤه الخاصة حول استراتيجية الحرب ومصالحه الشخصية. وفي سنة 1174م بدأ نور الدين يعد جيشاً لمحاربة صلاح الدين؛ إلا أنه توفي لإصابته بنوبة قلبية يوم 15 مايو من دون أن يتمكن من الزحف إلى مصر. وفي سنة 1175م انطلق صلاح الدين في حملته، فاستولى على دمشق، وأبعد الولد الذي خلف نور الدين، وعين نفسه سلطاناً لسوريا ومصر، وحامياً للأمكنة المقدسة.

كان صلاح الدين يعرف جيداً ما أراد تحقيقه، وقال إنه عندما منحه الله دولة مصر أراده الله أن يحرر القدس. كان صلاح الدين على استعداد لتولي المهمة التي تنتظر من يؤديها منذ بداية القرن الثاني عشر.

بدأت الحروب الصليبية رسمياً في الخامس والعشرين من نوفمبر 1095م حين ألقى البابا أوربان الأول خطبة أمام حشد غفير من الفرسان والقساوسة وعامة الناس، وأعلن الغفران من الذنوب لكل من يشارك في الحرب المقدسة ضد المسلمين. وقال البابا إن الأتراك المسلمين جمع من الملعونين الذين لا صلة لهم بالله. ومن واجب المسيحيين أن يبيدوا هؤلاء الأشرار في أرضهم. وعندما تطهّر الأرض البيزنطية المقدسة من نجاسة الأتراك، سيزحف جند المسيح إلى القدس ليحرروا ضريح المخلّص من الكفار. فتعالت الأصوات "هذه إرادة الله".

وبحلول عام 1096م عبّأ نحو مئة ألف رجل من بين النبلاء وقطاع الطرق والرهبان والفلاحين في خمسة جيوش. ولم تكن هناك طبقة من الطبقات الاجتماعية لم تستثر الحرب المقدسة همتها. وفي ذلك الربيع تبعه العدد نفسه من الرجال أو أكثر ليشكل جزءاً من خمسة جيوش إضافية. كان الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنينوس الأول قد طلب في 1095م نجدة لإخراج الأتراك من الأناضول التي وقعت تحت احتلالهم بعد معركة منزيكرت سنة 1071م. كان

الإمبراطور يتوقع أن تصل إليه فرقة من الجنود المرتزقة؛ إلا أنه أصيب بدهشة كبيرة عندما وجد تلك الحشود الغفيرة قد وصلت إلى القسطنطينية لإنقاذه، فدفعها نحو الأتراك بأسرع ما أمكن. وعلى الرغم من أن الظروف لم تكن مواتية إلا أن تلك الجيوش هزمت السلاجقة، ووصلت إلى فلسطين، وأنشأت إمارتين؛ إحداهما في الرها، والأخرى في أنطاكية قبل أن تقف عام 1099م عند أسوار القدس.

في الخامس عشر من يوليو 1099م وفي رمضان المبارك استطاع جندي من جيش غودفري أن يقتحم المدينة من خلال الأبراج الشمالية، وتبعه الجنود الآخرون المتعطشون للدماء والملتهبون بنيران العاطفة الدينية، وظلوا يذبحون المسلمين واليهود رجالاً ونساءً ثلاثة أيام متتالية. وكان هناك عشرة آلاف من المسلمين في المسجد الأقصى ظنوا أنفسهم في أمان لكونهم في الحرم قتلوا جميعهم، كما لاقى اليهود المصير نفسه وهم في معبد من معابدهم. ويروي شاهد عيان اسمه ريمون أغيلس باعتزاز: "شاهدت أكوام الرؤوس والأيادي والأرجل... ولو ذكرت لك حقيقة ما رأيته بأم عيني لما صدقته، ويكفي أن أقول على الأقل إن الرجال ركبوا جيادهم في المعبد وفي سقيفة سليمان ووصلت الدماء إلى ركبهم وألجمة الجياد. لقد كان ذلك ومن أعدل ما قضى الله به وأروعه أن يملأ هذا المكان بدماء الكفار لأنه عانى طويلاً من كفرهم وتجديفهم.

وقد ظلت الجثث متناثرة حتى جاء عيد ميلاد المسيح، ولم تزل روائحها الكريهة بعد مرور تسعمئة سنة. وقد ردّ خليفة العالم الإسلامي على هذه الكارثة الجائحة بتشكيل لجنة.

تدفقت جموع من المسلمين المذعورين ممن نجوا بحياتهم من تلك المآسي إلى دمشق وبغداد، وهم يبكون بكاء لا يتوقف، وأراد القاضي أبو سعد الهراوي أن يخفف من شدة أحزانهم بتذكيرهم بأحداث الهجرة حين اضطر

المسلمون إلى الهروب من مكة، وقال إنهم سيعودون إلى القدس فاتحين مثلما عاد المسلمون عندئذ إلى مكة. ذهب القاضي بوفد من هؤلاء المسلمين إلى الخليفة الذي تحدث وقدّم إليهم دعمه بالكلام وعاد إلى سوء الإدارة. وذكر القاضي تلك الوقائع وهو يعبر عن بالغ الأسف على ما ألمّ بأهل الإيمان من ضعف ووهن. وبقي الشعراء وحدهم يثيرون المشاعر على طريقة الشاعر محمد إقبال في القرن العشرين حين أصيبت الأمة بخيبة الأمل مرة أخرى؛ فقد كتب أبو المظفر الأبيوردي:

وشــــر ســــلاح المــــرء دمــــع يفيــــضه
إذا الحــــرب شــــبت نارهــــا بالــــصوارم
فإيهــــاً بــــني الإســــلام إن وراءكــــم
وقائــــع يلحقــــن الــــذرى بالمناســــم
أتهــــويمة في ظــــل أمــــن وغــــبطة
وعــــيش كــــنُوَّار الخمــــيلة نــــاعم
وكــــيف تــــنام العــــين مــــلء جفــــونها
علــــى هفــــوات أيقظــــت كــــل نــــائم
وإخــــوانكم بالــــشام أضــــحى مقــــيلهم
ظهــــور المباكــــي أو بطــــون القــــشاعم
تــــسومهم الــــروم الهــــوان وأنــــتم
تجــــرّون ذيــــل الخفــــض فعــــل المــــسالم
وكــــم مــــن دمــــاء قــــد أبــــيحت ومــــن دمــــى
تــــواري حــــياء حــــسنها بالمعاصــــم
بحــــيث الــــسيوف البــــيض محمــــرة الظــــبى
وســــمر العــــوالي دامــــيات اللــــهاذم
وبــــين اخــــتلاس الطعــــن والــــضرب وقفــــة
تظــــل لهــــا الــــولدان شــــيب القــــوادم

وتلـــك حـــروب مـــن يغـــب عـــن غمارهـــا
ليـــسلم، يقـــرع بعـــدها ســـن نـــادم
ســـللن بأيـــدي المـــشركين قواضـــباً
ســـتعمد مـــنهم في الطُّلـــى والجمـــاجم
يكـــاد لهـــن المـــستجن بطيـــبة
يـــنادي بأعلـــى الـــصوت يـــا أهـــل هاشـــم
أرى أمـــتي لا يـــشرعون إلى العـــدى
رمـــاحهم والـــدين واهـــي الـــدعائم
ويجتنـــبون الـــنار خـــوفاً مـــن الـــردى
ولا يحـــسبون العـــار ضـــربة لازم
أترضـــى صـــناديد الأعاريـــب بـــالأذى
ويُغـــضى علـــى ذل كمـــاة الأعـــاجم

وقد وجد هؤلاء الأبطال العرب والشجعان الفرس في آخر الأمر في كردي قائداً لهم؛ وهو صلاح الدين. وفي عام 1183م استطاع صلاح الدين أن يكمل مهمة توحيد القوة العربية، ويجمعها تحت راية واحدة وفتح قلعة الشهباء في حلب في شهر صفر. وقد كتب القاضي الشاب محيى الدين شعراً صار شائعاً بين الأوساط الشعبية:

وفتحك القلعة الشهباء في صفر... مبشرٌ بفتوح القدس في رجب

وعندما جمع صلاح الدين المسلمين في دولة واحدة تحت راية الجهاد، صار الداء نفسه الذي من أجله أضاع المسلمون القدس شائعاً بين المسيحيين؛ ألا وهو داء التفرقة والخلاف. وبطبيعة الحال كان الخلاف الأساسي حول السياسة التي ينبغي اتخاذها تجاه المسلمين، ودار بصفة رئيسية بين الجهة الداعية للسلم والجهة الداعية للحرب. وارتفعت المجادلات الكلامية من أسفل السلم الاجتماعي إلى ذروته. على المستوى الاجتماعي كانت الروح الصليبية القوية

والفجة قد أخلت الساحة لراحة البال والاستقرار بالنسبة للمسيحيين من الجيل الثاني والجيل الثالث، وقد بدأ كثيرون منهم (بعضهم من الأمهات الشرقيات) يعدون أنفسهم أهل الشرف، ويغتسلون ويستعملون الصابون، ويتحدثون بالعربية، ويستمعون إلى الموسيقى المحلية ويلبسون الكوفية. وكانت هناك نساء مسيحيات يخرجن إلى الأسواق مقنعات. وذلك كله للتلاؤم مع البيئة، لا لاعتناق الإسلام. ونتيجة لذلك أصبح الأوروبيون يتزوجون من المحليات، ونشأ عن تلك العلاقات جيل نصفه أوروبي والنصف الآخر شرقي.

أصبحت المشكلة أكثر خطورة عندما بلغ الأمر صانعي القرار على أعلى مستوى. فالصقور منهم أصروا على مواصلة الحرب المقدسة، فيما رأى الحمائم أن حقائق الجوار الجغرافي تستدعي التكيف والتوافق. أما العرب على العموم فقد نظروا إلى كل شيء صليبي نظرة ازدراء ما عدا شجاعتهم الصليبية الفجة. لم يحمل الصليبيون معهم علوماً ولا فنوناً ولا ثقافة؛ لكنهم بنوا قلاعاً ممتازة وكنائس محصنة، وتمسكوا بثقافة المواجهة. كان الرهبان منهم يلبسون الدروع ويلبس النبلاء العباءات. وقد أنشئت أخوية الإسبتار لرعاية المرضى، ومن خلال مرسوم بابوي وضع البابا الأخوية سنة 1113م تحت سلطة روما المباشرة، وفي 1136م منحها الحق في استعمال الأسلحة فشكلت جزءاً مهماً من أجزاء الحرب الصليبية الثانية الفاشلة. وفي سنة 1119م أنشئت أخوية الهيكل بغية حماية الحجاج، واستمدت رسالتها من تعاليم القديس برنارد كليرفو الذي، كما سبق ذكره، جاهر بأفكاره من دون تحفظ؛ فقال: قتل وثنيّ في سبيل المسيح يفتح الطريق إلى المجد. كان هؤلاء الفرسان الرهبان جهاديين مسيحيين بمعنى الكلمة، نذورا أنفسهم للعفة والفقر. وكانوا أول من يهجم في المعارك وآخر من ينسحب. لقد كانوا صُلب السلاح المسيحي.

من أشد الصقور قسوة وفجاجة رينولد دي شاتيون والقيادة المسيحية كلها

بدت مشوشة؛ فقد أصيب بولدوين الرابع في سن مبكرة بمرض الجذام، ووافاه الأجل في مارس 1185م. ومات ابنه بولدوين الخامس هو الآخر في العام التالي. ثم تـولى غي دي لوسنيان مقاليد الأمور، ولكن بعد وقوع مذابح أخوية لا يمكن أن تحتملها مملكة قوية معافاة.

وفي مـارس مـن عام 1187م دعا صلاح الدين إلى الجهاد. كان رينولد دي شـاتيون قـد نقـض الهدنـة الـتي وقّعهـا صلاح الدين مع ريموند الثالث صاحب طـرابلس، وأحـد حمـائم المـسيحيين. ففـي سـنة 1186م أغـار علـى الحجـاج المـسلمين وهـم في طريقهم إلى مكة، فقتل بعضهم وأسر آخرين، وعندما ذكر بالـصلح رد علـيه ساخراً: "نادوا محمدكم لينقذكم". وعلى خلفية هذه الأحداث لقـيت دعـوة صـلاح الـدين إلى الجهـاد اسـتجابة واسـعة؛ فاحتشدت لديه قوة عـسكرية كـبيرة زادت فعالـية باسـتراتيجية حكـيمة. فقد كان صلاح الدين أدرى بفرسـان مملكـة القـدس مـن أنفـسهم. وانتـصاره العظـيم في معركة حطين كان انتـصاراً لحكمـته الحربية بقدر ما كان انتصاراً لقوة السلاح. وعندما حشد خمسة وعـشرين ألف جندي شرق الجليل، أمر الملك غي في القدس بإحضار الصليب الأعظـم مـن الـضريح المقدس الذي استخدم من قبل عشرين مرة فقط علماً في أوقـات الأزمـة العـصيبة. في الفاتح من يوليو احتشدت عساكر صلاح الدين في ميدان لوبيا المكان الذي توقع أن تدور المعركة فيه.

كـان يـريد استدراج الملك وجيشه إلى مكان مفتوح حين يبلغ حر الصيف أشـده، ولهذا السبب لجأ إلى المخاطرة، وقسم الجيش إلى كتائب، وقاد بنفسه كتيـبة خاصـة إلى طـبرية، واسـتولى علـى المديـنة، وبـات ينتظر خارج القلعة. وعـندما ضـرب الحـصار أرسلت الملكة استشيفا زوجة ريموند نداء استغاثة إلى القـدس. ونـبه ريمـوند بنفسه أصحابه على أن ذلك يمكن أن يكون شَركاً؛ لكن الـصقور مـن بينهم استهزأوا به قائلين إنه ممن يحبون أهل الإسلام. خرج هؤلاء

الأشداء ظافرين من معركة في المجلس المسيحي، وخسروا معركة دارت رحاها في حطين، ومن المفارقات أنه المكان نفسه الذي يقال بأن المسيح ألقى فيه عظة الجبل، وبشر المستضعفين بأنهم سيرثون الأرض.

في اليوم الثالث من يوليو انطلق الجيش المسيحي في مهمة إنقاذ طبرية، وحاصره صلاح الدين من كل جانب، وسد في وجهه الطرق المؤدية إلى مياه بحيرة طبرية كلها، وراح يراقب وينتظر إلى أن أنهك العطش قواهم. وفي الوقت نفسه ظل الفرسان من جيش صلاح الدين يضيّقون على المسيحيين من جميع الجهات. وفي ظهر اليوم التالي أمر صلاح الدين رجاله بإحضار الحشيش الجاف، ونشره في وجه العدو وأشعل النيران. انهارت معنويات الجيش المسيحي انهياراً تاماً، إلى درجة أن الجنود رفضوا الدفاع عن الصليب عندما أمرهم بذلك الملك غي. لقد أباد الفرسان المسلمون فرسان الهيكل وعجز ما تبقى من الجيش الصليبي عن الدفاع عن نفسه، فسحقهم المسلمون. استطاع ريموند أن يفر من الساحة لأن صلاح الدين تعمد أن يفتح منفذاً له لينجو بحياته.

كان الأفضل بن صلاح الدين البالغ من العمر 17 سنة مع أبيه يوم 4 يوليو. وأدرك الصليبيون أنهم في موقف حرج، فحاربوا ببسالة نادرة من فوق المرتفعات التي تحيط بمخيم قائدهم الملك غي. وقد صرخ الشاب مرتين معلناً انتصار المسلمين؛ لكن والده صلاح الدين أسكته قائلاً: إن الفتح يكون عندما يسقط ذلك المخيم لا قبله. وعندما انهار المخيم ترجل صلاح الدين عن ظهر فرسه ودموع الفرحة تنهمر من عينيه، وخر ساجداً لله يشكره. استولى المسلمون على الصليب وأسروا كلاً من غي وشاتيون. كان صلاح الدين جالساً في الديوان حين أُحضِر الاثنان إليه؛ فطلب من غي أن يجلس إلى جانبه على الديوان وقدم إليه شراباً. ثم خرج السلطان ليعاين عسكره، ثم عاد وأمر بإحضار الأسيرين مرة ثانية، فعرض على عدوه شاتيون الإسلام، وعندما رفض وضع صلاح الدين

سيفه الأحدب على كتفه، فتقدم الخدم ليقطعوا رأسه. أما الملك غي فقد ارتجف حين رأى ما رآه، وركع أمام السلطان، فطلب منه صلاح الدين أن يرفع رأسه؛ لأن الملوك لا يقتل بعضهم بعضاً، وعقب بأن شاتيون قتل عقاباً على ذنوبه.

فتحت الآن الطريق إلى القدس. وسقطت مدن عكا وبيروت وصيدا بأيدي المسلمين. استعصت صور وحدها وعارضَت، فأهمل صلاح الدين هذه المدينة الساحلية، وهو الخطأ الذي أدرك المسلمون فداحته فيما بعد. أراد صلاح الدين أن يحاصر القدس بإزالة الجيوب المسيحية في المنطقة، وفي التاسع عشر من سبتمبر نجح صلاح الدين في تقويض المعسكر المسيحي في عسقلان، وشرع في تنفيذ المرحلة النهائية من مراحل مهمته. وكانت أكبر أمنية من أماني الجيش الإسلامي أن يسمع المؤذن يؤذن للصلاة في المسجد الأقصى.

بدأ الهجوم على القدس يوم 26 سبتمبر، ووصف الكاتب عماد الدين الذي أرخ فتوحات صلاح الدين وحياته تلك المهمة بكلمات رائعة، وشبه القدس بعروس يقدم المسلمون دماءهم مهراً لها، ويعيدون إليها بركاتها بعد رفع الأسى عن وجهها المشرق، ويرجعون إليها نضارتها لتحل مكان الأحزان التي عمَّتها، وأضاف بأن نداءات المسلمين كانت تعلو فوق صرخات الآلام من القبة، وتدعو للنجدة على الأعداء. وتفاءل بأن استجابة الإسلام لتلك النداءات وأصداء الخطابات ستجعل من القناديل المضاءة تنير السماء، وسيعود الدين إلى أرضه وموطنه، وسيبعد عن الأقصى الفجرة الملعونين.

دام الحصار الذي فرض حول القدس سنة 1099م خمسة أسابيع، ولكنه لم يدم هذه المرة إلا سبعة أيام. أخذ صلاح الدين يحطم السور الشمالي حول بوابة سانت ستيفان، وهو المكان نفسه الذي نزل به غودفري قبل ثمانية وثمانين عاماً. وفي 29 من سبتمبر تمكن من إحداث ثغرة فيه، وعرض هيراكليوس بطريرك القدس ـ الذي كان يعيش علناً مع زوجة بزاز من نابلس ـ أموالاً طائلة على

الحرس مقابل دفاعهم عن تلك الثغرة؛ إلا أنه لم يجد من يستجيب لعرضه. وفي الوقت نفسه بدأت الأمهات بحلق رؤوس الأطفال لأنهن توقعن أن الشهادة آتية. لكن المدافعين عن المدينة وجدوا في الأماكن المقدسة ورقتهم الأخيرة، وهددوا بتدمير قبة الصخرة والمسجد الأقصى، مما خفف من حدة حماس صلاح الدين. (ناقش المسلمون في عام 1098م الخيار نفسه، واختاروا ألا يمسوا أي كنيسة بالضرر. وبعد ذلك دخل الصليبيون المدينة وذبحوهم). وأخيراً أبرم الطرفان صفقة سمح بموجبها للمسيحيين بمغادرة المدينة بعد تسديد غرامة مالية: عشرة دنانير ذهبية مقابل كل رجل، وخمسة دنانير مقابل كل امرأة، ودينار واحد لكل طفل.

دخل صلاح الدين القدس في الثاني من أكتوبر 1187م (27 رجب، سنة 583 هـ حسب التقويم الهجري)، وهو اليوم الذي يحتفل فيه المسلمون بالإسراء والمعراج. وقد أوفى صلاح الدين ما وعد به، ولم يقتل أحداً من المسيحيين. فيما فضح البطريق هيراكليوس الذي خلف وراءه مركبات مملوءة بالثروات، فيما استرقّ عدد كبير من المسيحيين لأنهم لم يجدوا مالاً لدفع الغرامة. ويشتهر عن صلاح الدين أنه بكى على مأساة الأسر المسيحية التي كان يفصل ما بين أفرادها للاسترقاق، وحرر المئات منها من دون أي فدية. ولولا هذا الكرم ما كان صلاح وصل إلى ما وصل إليه. وقد أفرج عن أرامل القتلى من الجنود، وسرّح زوجات السجناء، وأعطاهن هدايا من عنده. وطلب أخوه الملك العادل ألف مسيحي أجراً لمساهمته في الحرب، وحررهم جميعهم على الفور. وقال العادل إن النصارى في كل مكان سيذكرون تعامله معهم، وسيقارنونه بمعاملتهم. وفي الوقت نفسه أخذ رجال الدين والعلماء يذكرونهم بأن ذلك الجهاد لم يكن إلا الجهاد الأصغر، وبانتهائه بدأ الجهاد الأكبر؛ جهاد تزكية النفوس والسعي الدائم من أجل حياة الاستقامة كما أمر الله جل وعلا.

ولم يكن صلاح الدين ليتهم المسيحيين من الأصول الشرقية بإثارة الحروب الصليبية؛ وقد سمح للسوريين والأرمن منهم بالعيش في القدس، وقد أراد المتشددون من المسلمين أن يخربوا كنيسة الضريح المقدس؛ لكنه لم يأذن لأحد أن يمس مكاناً من الأماكن المسيحية المقدسة بأذى. وقد أغلقت كنيسة الضريح أمام الزوار ثلاثة أيام فقط. وقد دعا اليهود كي يرجعوا إلى القدس، ما جعل اليهود في أنحاء العالم يباركونه. دمر صلاح الدين مدينة عسقلان لأنه لم يرد أن يدافع عن مدينتين؛ لكنه أعطى اليهود بيوتاً في القدس، كما سمح لهم ببناء معبد في المدينة المقدسة.

اتخذ صلاح الدين الخليفة الثاني عمر قدوة له، وذلك حين أخذ القدس من دون إراقة دماء أو تخريب. بعد هزيمة البيزنطيين في معركة اليرموك يوم 20 أغسطس 636م، أدرك الإمبراطور هرقل أنه لا يسعه الاحتفاظ بالمنطقة، فذهب إلى القدس، وأخذ صليب الصلبوت، وهجر سوريا ولم يرجع إليها أبداً. في يوليو عام 637م وصل المسلمون إلى مشارف القدس، واستمر الحصار سبعة أشهر، وقد دافع البطريق سوفرونيوس عن المدينة بكل ما في وسعه، لكنه أرغم في فبراير على الاستسلام. ومن غير المؤكد أن الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه سافر إلى القدس ليقبل استسلامها أم لا؛ لكنه ذهب إليها ليزور ثالث أقدس مدينة إسلامية من دون شك. ولما رأى القساوسة البيزنطيون وهم في أفخر حلل الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه يركب جملاً أبيض ويرتدي قميصاً بالياً مرقعاً ظنوا ذلك رياء.

إن تاريخ القدس ملطخ بالدماء قبل الإسلام وبعده على السواء؛ إلا أن انتقال السلطة على المدينة في زمن عمر رضي الله جرى بسلام لم يعرف له مثيل في تاريخ المدينة. فلم يقتل أحد بعد استسلام المدينة، ولم يخرب مبنى من مبانيها، ولم تجر محاولة من أي نوع لإدخال أي إنسان من أهلها في الإسلام؛

بـل يذكـر أنـه عـندما كان عمر رضي الله عنه يزور كنيسة الضريح برفقة البطريق سمعـا المـؤذن يـؤذن للـصلاة، فطلب البطريق إلى الخليفة أن يصلي في المكان نفسه، لكن عمر أبى وقال للبطريق إنه لو صلى في ذلك المكان لحوّل المسلمون الكنيـسة إلى مـسجد لهـم. ثم أصدر عمر رضي الله عنه أمراً يقضي بأن لا يصلي أي مسلم في تلك الكنيسة، أو في مكان شهادة القسطنطين، وأن لا يبنى مسجد في تلك الأماكن في أي حال من الأحوال.

عُـرض على اليهود والنصارى ـ كان النصارى غالبية أهل القدس حينذاك ـ الحمايـة وفـق أحكـام القـرآن بوصـفهم أهـل الذمـة: مـنحوا الحرية، لكن دون المـساواة الـتامة، وفرضـت علـيهم الجـزية بمقدار دينار واحد عن كل أسرة في الـسنة. إلا أن مـن خلفوا عمراً رضي الله عنه لم يكونوا جميعهم على القدر نفسه مـن الحكمـة، وفي الأزمـنة اللاحقـة أسـيء اسـتعمال الجـزية، وغـدت إهانـة للآخرين. وقد رفع عمر رضي الله عنه الحظر الذي فرضه النصارى على اليهود، وسمـح لهـم بـأن يعودوا إلى القدس التي كانت أكثر قداسة عندهم بالمقارنة مع المـسيحيين أو المـسلمين، ودعـا سـبعين أسـرة يهـودية مـن منفاها في طبرية، ومـنحهم الحـق في إقامـة دائمـة جـنوب غرب الحرم فوق المكان الذي يقع فيه الهيكل.

لم يكـن نـبل عمـر أو صـلاح الدين سائداً بين كل الفاتحين عندما استولى صلاح الدين على القدس. لقد كان سلوك صلاح الدين مثالياً، لكن جنوده طلبوا نـصيبهم مـن الغـنائم لأنهم منعوا من أعمال السلب والنهب، وجعلوا من العبيد ركيزة أطماعهم. وكالعادة عانت النساء من السبي، في حين وجد الدعاويون من المـسلمين في استـسلام النـسوة واغتـصابهن مجداً وشرفاً. وذلك ما غدا مسوغاً للأحـزان المـسيحية الـتي انتـشرت في أنحـاء أوروبا. ومن الأقاويل التي شاعت حينـئذ مـثلاً أن "راحـيل تبكـي على أولادها وتأبى أن تتعزى عن أولادها لأنهم

ليسوا بموجودين". إلا أن تلك التعديات وأمثالها لا تنال شيئاً من مثالية سلوك صلاح الدين أو من سياساته الرشيدة. ومن بين الفضائل الإنسانية كلها تصدر الكرم والجرأة قائمة حساباته، وكثيراً ما استشهد بالآيات القرآنية التي تثني على كرم النبي ﷺ، يكرّر حديث النبي ﷺ "... ويحب الشجاعة ولو على قتل حية".

وقد كان اختيار رجل لإلقاء أول خطبة يوم الجمعة في المسجد الأقصى أعظم شرف يمكن أن يهبه صلاح الدين لأحد في ذلك الوقت، ويذكر المؤرخون العرب أن الشيوخ العظام الذين تطلعوا إلى ذلك الشرف تبللت جباههم بالعرق عندما عين صلاح الدين القاضي محيى الدين الحلبي البالغ من عمره 32 سنة خطيباً، والذي نظم قصيدة في حلب، وألقى خطبة يتذكرها الناس حتى الآن، ودعا فيها إلى الانتقام من الكفار، لكن رسالته المركزية للمؤمنين تلخصت في أن الانتصار لم يتحقق بسيوفهم الصارمة ولا بخيولهم الخفيفة ولا ببسالتهم وشجاعتهم في ساحة القتال؛ وإنما النصر من عند الله وحده. وسمى صلاح الدين سلطان الإسلام.

لا يزال نسيج وحده، كما تؤكّد أي صورة تلفزيونية عن ساحة المعركة في فلسطين. إلا أن المفارقة هي أن الرجل الذي نال مكرمة لدى اليهود في أرجاء العالم لفتحه أبواب القدس لليهود العائدين إليها غدا رمزاً للجهاد ضد إسرائيل. ولعل ما هو المفارقة الأكبر أن مقلاع خليفة الله داود غدا سلاحاً مفضلاً للأطفال الفلسطينيين ضد الجيوش التي تحمل رايات نجمة داود.

إن المعارك الملحمية التي دارت بين صلاح الدين وجيوش الصليبيين في حملتهم الثالثة تستمر هي الأخرى واقعاً حياً نابضاً في منطقة يعرف عنها أنها تختار ذكرياتها بحيطة. قبل وفاة صلاح الدين عام 1193م كان البابا ألكسندر الثالث أول من نبه أمراء أوروبا إلى ما يمكن أن يستجد نتيجة ظهور قوة جديدة على ساحة الأرض المقدسة، لكنه لم يجد أحداً يتنبه إلى ما قاله أو يصغي إليه.

وكانـت فرنـسا وإنكلتـرا آنذاك أعظم قوتين عسكريتين في الغرب؛ وقد تصرفت الأسـر المالكة في البلدين المذكورين تصرفاً غريباً إذ استعملتا وصفاً معتدلاً. أما البيـزنطيون الـذين رفضوا الاعتراف بمشروعية ما فعله البابا ليو الثالث حين توج شـارلمان يـوم عـيد مـيلاد المسيح عام 800 إمبراطوراً رومانياً مقدساً، بحجة أن ذلـك الـبطل الفرنجـي أمـيّ، فقـد أخـذوا يتوسـلون الأسـر الحاكمة الأخرى، ويطلـبون نجـدتها في حمايـة ثغور إمبراطورية كان الأتراك يقتطعون منها بصورة تدريجية من صوب الشرق.

مـا الذي كانت تفعله إنكلترا وفرنسا في العقد الذي وحّد فيه صلاح الدين مصر وسوريا وفتح فلسطين؟ رزق الملك الفرنسي لويس السابع، ديوث الحملة الـصليبية الثانـية، بولد من زوجته الثالثة أديل دي شامبين في 1165 حين كان في الخامسة والأربعين من عمره. أطلق الناس على ابنه، فيليب أوغست، لقب "هبة الله"، إذ بـدا الـوالد علـى الأقل غير قادر على الإنجاب. قد تكون هذه الأقاويل شـائعة مـن شـائعات بـاريس؛ إلا أن لهذه التسمية سبباً آخر ذا وجاهة، وهو أن ميلاد وريث لسلالة كابيتيان جاء عقبة تحول دون إدعاء أسرة بلانتاجنت بأن لهم حقاً في عرش فرنسا إلى جانب عرش إنكلترا. أقام الفرنسيون احتفالات كبيرة في الـشوارع عندما ولد فيليب، وهم يسخرون من الإنجليز، ودعوا ربهم أن يتمكّن الطفل عندما يكبر ويُصبح ملكاً من إبعاد هنري الثاني وورثته عن أكويتان في البرّ الفرنسي. وقد عمّت الكآبة أجواء إنكلترا عند ولادة فيليب، ورأى المنجمون في الـسماء نجمـين مذنـبين، وقالوا إن ذلك ينبئ بخراب ملك أو بموته. كان فيليب أصـغر مـن الطفـل المـنافس لـه ريتشارد بثماني سنوات. أما الملكة إيلينور التي عجـزت عن إنجاب ولي عهد لزوجها السابق لويس السابع المتقى فقد أثبتت في الثلاثينـيات مـن العمر خصوبتها، فأنجبت لزوجها الشهواني هنري الثاني خمسة أبـناء، توفي أولهم رضيعاً. وريتشارد هو ثاني الأبناء الأربعة الأحياء وكان أحبهم إليها.

لم تكن الأسرتان المالكتان لتسمحا للسياسة بالتدخل في حياتهما الغرامية؛ فقد أصبح ريتشارد وفيليب - أحدهما ابن إيلينور والآخر ابن زوجها - متحابين، وقد كتب جيرالد (هو رجل دين من ويلز، ومن أبرز مؤرخي عصره) عن تلك العلاقة كلمات لا يمكن عدها تفاهة أو تحذلقاً: كان الاثنان يأكلان من طبق واحد، وينامان معاً في الفراش. وقد تقرر أن تكون أليس، أخت فيليب من أمه، وكانت غاية الجمال، زوجة لريتشارد. كان في الرابعة من عمره في ذلك الوقت، لكن الزيجات الملكية كانت تدعى تحالفات لأسباب وجيهة. وقد بعثت أليس فيما بعد إلى البلاط الإنجليزي لتكون على إلمام بآدابه، وتعد نفسها لريتشارد. وفيما كان ريتشارد وفيليب يشتركان في الفراش ذهبت أليس إلى هنري والد ريتشارد لتشاركه فراشه. وقد أفسح هنري المجال لشريكته الجديدة بوضع إليونور في السجن. كان زوجها الأول قد سجنها لتورطها في الخيانة الزوجية وفعل الثاني ذلك لأنه تورط في الزنا. وبعد ذلك نشأت علاقة حب بين فيليب وجيفري شقيق ريتشارد، على الرغم مما عرف عن جيفري من نفاقه وخداعه.

على المستوى السياسي ألح فيليب على أن يفي ريتشارد بوعده ويتزوج من امرأة عاشت شريكة لوالده، لأنه يريد قلعة جيسورس ملكاً له وفق ترتيبات الزواج المتفق عليها بين الطرفين. وكانت تلك القلعة في فرنسا، وكثيراً ما التقت فيها الأسرتان قرب شجرة الدردار التي صارت مشهورة. لم تكن تهم ريتشارد علاقات زوجته الغرامية مع الأصدقاء قبل زواجه منها؛ لكنه انزعج عندما علم بعدم اختياره ولياً للعهد. وعندها شجع هنري أبناءه على حرب أهلية دامت ثلاث سنوات، ولم تضع أوزارها إلا بعد أن لقي ابنه الأكبر حتفه عام 1183م. وبموته زالت العقبة التي حالت دون وصول ريتشارد إلى العرش، لكن والده هنري لم يكن مرتاحاً، وأظهر كثيراً من التعنت والعناد، وفي عام 1186م سقط ابنه الثالث جيفري صريعاً في حادث، وقد أثار هذا الخبر أحزان فيليب إلى درجة أنه أراد أن يرمي بنفسه مع جيفري. وعاد إلى ريتشارد ليخفف من حدة

أحـزانه. وبعـد وقـوع هـذه الأحـداث كلـها استطاعت الأسرة أن ترى النور، أو وجدت من أراها النور.

في نوفمـبر 1187م ركـب يوشـيا مطـران صـور سـفينة ذات أشرعة سوداء إشـعاراً بأنـه في حـداد، واتجـه نحـو أوروبا حاملاً ذلك النبأ المؤلم عن سقوط القـدس. عـندئذ كـان غـريغوري الـثامن يتـربع على كرسي البابوية، وأصر على أوروبـا بأن تصرف الاهتمامات عن نزاعاتها المريرة، وتستعد لمحاربة المسلمين في حـرب صـليبية أخـرى. تـوفي غـريغوري بعد ذلك بشهرين، إلا أن كليمنت الثالث تولى مهمته، فبعث يوشيا إلى إنكلترا ليطلب منها قيادة حملة صليبية على ذريـة إسماعـيل. التقـى يوشـيا بريتشارد في فرنسا في ديسمبر. وركع الأمير على ركبتـيه وقـبل الـصليب، وكـان أول أمـير مـن أمراء أوروبا يعلن انطلاق الحملة الصليبية، ثم ركع هنري وفيليب هما الآخران بعد أن قابلهما المطران.

لكـن هنـري نهـض بسرعة إذ اعتقد أنه يقدّم ما فيه الكفاية من أجل قضية المسيحيين؛ وذلك بدفع دية قتل توماس بيكيت إلى فرسان الهيكل والاسبتاريين. وما لبث أن سأل المطران: هل عليه أن يعبد المسيح الذي لا ينصره في حربه مع ابـنه؟ ولمـا اجـتمع هنـري وفيلـيب للمـرة الثانـية عـند شـجرة الدردار في قلعة جيـسورس كانـت الأحقـاد والـضغائن قـد حلـت محل التقى. وفي حالة غضب شديد أمر فيليب بقطع الشجرة، فيما أعلن هنري الحرب؛ لكن ليس على صلاح الـدين بـل على فيليب، وصار من فينة إلى أخرى يتحدث عن العلاقة بين فيليب وابـنه ريتشارد، ولعن أبنه، وفي عام 1188م اتحد العشيقان معاً ضد قوات هنري الـذي مـني بهـزيمة وعـاش منزوياً إلى أن وافاه الأجل. ويقال إن الدم تفجر من فـتحة أنفـه عـندما اقترب ريتشارد من جثة أبيه، لكن المهـم في الأمر أن ريتشارد كان ملكاً آنذاك وعلى استعداد للحرب المقدسة.

وبمناسـبة تـتويج ريتـشارد أقـيم حفـل دعي إليه الرجال دون النساء، وقد

جاءت مذابح اليهود من الإنجليز لتهيئ الرأي العام للحرب الصليبية (كان ريتشارد يستمتع بأخبار قلع أسنان اليهود ببطء). وقد فرض على إنكلترا ضريبة سميت ضريبة صلاح الدين: عُشر دخل كل واحد من الرعايا مدة ثلاث سنوات إلا إذا انضم إلى الحرب الصليبية. ولعل من الملائم تسمية جزية مسيحية باسم مسلم.

في يوليو من عام 1190م التقى ريتشارد الأول وفيليب الثاني مع جيوشهما في حقول بورغندي. في ذلك الوقت كان فيليب أعزباً، ومضت عشر سنوات على تربعه عرش فرنسا، على الرغم من كونه أصغر من ريتشارد بست سنوات. لكن ريتشارد كان نجم أوروبا. سار الاثنان في طريقين مغايرين؛ لكنهما اتفقا على الالتقاء في صقلية، والانطلاق معاً في الحملة على المفترين.

تناول بهاء الدين ردود فعل المسلمين لدى نزول فيليب وقواته في ست سفن يوم 20 أبريل 1191م وريتشارد وجنوده في 8 يونيو من السنة نفسها. وذكر ما مفاده أن السلطان واجه البلايا بثبات وإيمان، واستنفر المسلمين لجهاد الأوروبيين، بعد أن وحدوا صفوفهم وتكالبوا على أهل الإسلام وديارهم، ونادى المسلمين باسم دينهم وشرفهم وكرامتهم، وأنذرهم بأنهم إذا تركوا سيوفهم تصدأ وهجروها فإنه لن يأتي أحد ـ من الشرق أو الغرب، من القريب أو البعيد ـ ليظهر دين الله، ويحمي الحق، ويزهق الباطل، واستنهض همم المسلمين الذين تجري في عروقهم الدماء، ودعاهم إلى نبذ الكسل والخذلان معبراً عن إيمانه بالقضاء على قوة الكفر والنصر لأهل الإسلام.

كانت المعارك التي دارت بين ريتشارد وصلاح الدين لمدة ستة عشر شهراً مفعمة بالرومانسية، وأكثرها إثارة ورومانسية كانت آخر معركة صليبية انقضت فيها قوات صلاح الدين على مخيم ريتشارد خارج يافا. ومع أن المغيرين كانوا أكثر عدداً من المدافعين عن المخيم إلا أن ريتشارد حافظ على لقبه قلب الأسد،

وبمهارتـه وبـسالته أدهـش صـلاح الـدين الذي كان يرقبه. وعندما حمي وطيس القـتال سـقط ريتـشارد عن فرسه، وازداد أمره حرجاً؛ فالتفت صلاح الدين إلى شقيقه الملك العادل، وأشار عليه بإرسال فرسين عربيين هدية إلى ريتشارد، لأن ملكاً بعظمته وشأنه لا يجدر به أن يقاتل راجلاً. استطاع ريتشارد أن يخرج مظفراً مـن تلـك المعـركة، وهـو علـى ظهر حصان أهداه إليه صلاح الدين، إلا أنه لم يـستطع إنقـاذ حملـته الـصليبية الـتي صـارت بحكـم المنتهـية بعـدما اضـطرت للانـسحاب مـن بيت نوبا يوم 6 يوليو 1192م، عندما كانت الجيوش العظيمة قد وصلت إلى مشارف القدس، وارتقت المعنويات القتالية إلى قمتها. فضلاً عن أن ريتـشارد أصـبح علـى أتم قناعة بأن تحركاته جميعها كانت تصل إلى علم صلاح الدين مسبقاً، كما ظهر من نوعية معلومات صلاح الدين أن هناك عميلاً له على أرفـع المـستويات في مجلـس ريتشارد. وبغض النظر عن هوية العميل فلا بد أنه كان من أكثر الجواسيس فعالية في تاريخ أجهزة الاستخبارات.

كـان ريتشارد على استعداد لمهاجمة القدس إذا أصر عليه الآخرون؛ لكنه تخلـى عـن منـصب قائد الجيوش. وكان فيليب قد عاد إلى بلده فرنسا منذ حين. وانتهـى الأمـر إلى خيبة الأمل. وقد وضع هيو دوق بورغندى قصيدة تساءل فيها عـن رجـولة ريتـشارد. واستخدم ريتشارد كفاءاته للرد على تلك الأغنية، وكتب قـصيدة تهجـو هـيو أفـذع هجـاء. بعـد معـركة يافا سقط ريتشارد مريضاً، وكان مـصاباً بالحمـى عـندما تلـي علـيه نـص المعاهدة مع صلاح الدين. وكانت آخر مراسـلة بـين الرجلين العظيمين مقياساً حقيقياً لطبائع الاثنين. فلقد كتب ريتشارد إلى صـلاح الدين أنه يرحل إلى موطنه لمدة ثلاث سنوات فقط، وبعد انتهاء مدة الهدنـة سيعود مرة أخرى بجيش أعظم من ذي قبل. وأجاب صلاح الدين أنه إذا اضطر إلى خسارة ملكه فإنه يفضل أن يخسره أمام ملك بشجاعة ريتشارد وشرفه.

غـادر ريتشادر في أكتوبر على ظهر آخر سفينة، وشهد مغامرات غريبة قبل تـتويجه ثانية. أما صلاح الدين فإنه لم يكد يتجاوز فصل الشتاء قانعاً حتى مرض

في فبرايـر، وفي الـرابع مـن مـارس 1193م انـتقل إلى جوار ربه. قبل وفاته كان صـلاح الدين قد حقق أحلامه، وهو لم يفتح القدس فحسب؛ بل حفظها مدينةً للإسـلام أيـضاً. وقـد كـتب المـؤرخ العربي بهاء الدين: "وكان يوم موته يوماً لم يـصب الإسـلام والمـسلمون بمـثله منذ فقد الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم". ولم يكـن عـنده مـال حـين وافـاه الأجـل فاقترض الناس نقوداً لإخراج جنازته. وكانـت الدموع تسيل من أعين المسلمين الذين تذكروا أنه عندما توفي النبي ﷺ لم يكـن في ملكـه سـوى سـلاح له وبغلة بيضاء وقطعة أرض في خيبر قد وقفها لأعمـال خيرية. والإمام الذي صلى على جنازته كان محيي الدين بن زكي، وهو القاضـي الـشاب الحلـبي الـذي اختاره صلاح الدين إماماً لأول صلاة جمعة في المسجد الأقصى بعد فتح القدس.

هناك مسجد متواضع يدعى خانقاه شيد في مكان من المدينة القديمة عاش فـيه صـلاح الـدين بعـد فـتح القـدس سـنة 1187م. وفي غرفة صغيرة من غرف المـسجد نجد عبارة منقوشة: "الله، محمد، صلاح الدين". لقد قاد صلاح الدين أنجح جهاد منذ زمن النبي ﷺ.

- 7 -
أبواب أوروبا

"ابـك اليوم بكـاء النـساء على ملك لم تحفظه حفظ الرجال" (عائشة أم أبي عبد الله لابنها عندما رأته يبكي على سقوط غرناطة).

"لا تفعـل مـا تـريد أن تفعله ولا ما تستطيع أن تفعله؛ بل افعل ما يخدم مـصالحك... إذا زرت مكتباً حكومـياً فادخـل أعمـى، واخـرج مـنه أصـم". (مقولـتان مـن مقولات ألكسندر مافروكورداتو ـ أمير يوناني خدم الإمبراطورية العثمانـية، وقـد ذكـر المقولـتين في مؤلفه: "كتاب الواجبات"، نقلاً عن Philip Mansel, Constantinople: City of the World's Desire, 1453-1924, John Murray, 1995).

يقـول أهـل غـرناطة ما من ألم أشد من أن تكون أعمى في الحمراء. عندما فـتح العـرب إسـبانيا قالـوا إنهـم دخلـوا الجنة. من شرفات أسوار قصر الحمراء القابـع علـى صـخرة ناتـئة مـن جـبال سيرانيفيدا، انظر إلى الخارج وسترى جنة صنعتها الطبيعة، وانظر إلى الداخل ترى جنة صنعها الإنسان. إن من ينقصون من قـصر الحمراء جانبه الرومانسي يزيدون أنفسهم فقراً. إذ الواقع أن الذكريات أكثر خصوبة من الحقائق الوعرة الجافة.

كـان أبـو عـبد الله آخر الملوك المغاربة، وكان رعاياه يسمونه "الزغابي" أو "سـيئ الحـظ". ويـسميه آخرون "الملك الولد". الأولاد يتغيّرون، لكن الحظوظ تبقـى على حالها في بعض الأحيان. كان والده ابن الحسن قد وقع في أواخر أيام

حياته في حب أسيرة مسيحية دعيت ثريا. ولو سرت في ساحة أشجار السرو في بساتين الحمراء لسمعت الدليل ينبهك عن عمد إلى ركن بين عرائش باردة فخمة حيث جلس الملك يراود عشيقته المسيحية. ما كانت عائشة زوجة ابن الحسن لتثير أي ضجة بشأن زواج الملك من امرأة أخرى؛ لكنها كانت قلقة من ولدي ثريا. فقد كانت ترغب في أن تكون المملكة لابنها أبي عبد الله دون غيره، وأدركت في الوقت نفسه أن الزوجة الأصغر سناً غالباً ما تكون أقرب إلى قلب الملك.

بحلول 1482م نشبت الحرب بين الأب ابن الحسن والابن أبي عبد الله. ومنذ ذلك الحين لم تتمكن السلالة الناصرية المتعثرة أن تتخلص من عواقب ذلك الصراع. وفي عام 1483م وقع أبو عبد الله في أسر القشتاليين، واستخدموه بيدقا في لعبتهم مع أبيه، وفي 1485م استولوا على رِندة، وبعدها سقطت لوخا ومالقة وباخا وألميرا في سنوات متتابعة. ثم حاصر القشتاليون عام 1491م آخر حصن من حصون المسلمين في إسبانيا، ولعل أعظمها قصر الحمراء. وفي ديسمبر تفاوض الجانبان على شروط الاستسلام، وفي فاتح عام 1492 دخل الجنود المسيحيون القلعة.

وفي صباح اليوم الثاني من يناير 1492 سلم أبو عبد الله مفاتيح الحمراء إلى القشتاليين. ولما رأته أمه ينظر من قمة جبل يدعى "زفرة العربي الأخيرة" إلى الحمراء بعينين دامعتين قالت لابنها المهزوم: (ابك اليوم بكاء النساء على ملك لم تحفظه حفظ الرجال).

ليس من المعقول أن يأمل المرء أن يتمكّن "الملك الولد" الصمود في وجه التاريخ وهو في أطوار التأرجح والتقلب. ويرجع المؤرخون المسيحيون من تلك العصور بداية حروب الاسترداد إلى معركة كوفادونجا في 722م ، والتي كان النصر فيها للمسيحيين، وذلك بعد مضي 11 سنة على هزيمة ساحقة منيت بها

الجيوش المسيحية في معركة وادي لكة عام 711م على يد جيش إسلامي صغير قوامه أحد عشر ألف جندي. إلا أن هذا تاريخ مريح لا يستند إلى وقائع. والأنسب أن يقال إن المسلمين بدأوا في الانسحاب من الأندلس منذ عام 1085م حين سقطت طُليطلة بأيدي جيش ألفونسو السادس.

كانت العقود الأولى من القرن الثاني عشر عقود انتصارات للكنيسة من إسبانيا إلى فلسطين، وبحلول عام 1150 كان المسلمون قد خسروا جميع الأراضي شمال لشبونه ونهر غواديانا. ومثلما أحيا عماد الدين ونور الدين زنكي روح الجهاد في فلسطين، تدخّل الموحدون من مراكش في الأندلس لوقف الزحف المسيحي، ولكن كان ثمة فارق أنه في حالة الأندلس لم يكن هناك قائد بحنكة صلاح الدين، قادر على تعزيز المكاسب المحققة في أول الأمر. وقد بلغت قوة الموحدين ذروتها في العقد الأخير من القرن الثاني عشر. وفي العام 1191م وصلوا إلى مشارف لشبونه بعد أن فتحوا القصر. وبعد أن هزموا ألفونسو الثامن أمير قشتالة في عام 1195م، توجهوا في 1197م نحو مدريد ولكنهم أخفقوا مرة أخرى.

ازداد قلق الكنيسة من الموقف الحرج ولأسباب معقولة، وقد نالت إسبانيا أهمية خاصة داخل المنطقة الصليبية؛ فأصدر البابا إنوسنت الثالث أمراً إلى كل أسقف من أساقفة فرنسا كي يرسلوا بالنجدة إلى قشتالة، وفي تحركات تكمل بعضها بعضا، حظر مجلسا لاتيران في 1179م و1215م على المسيحيين المتاجرة مع المسلمين واليهود والعمل في بيوتهم، وأنذرا المخالفين بالحرم الكنسي ومصادرة الممتلكات. (وفي سنة 1227م فرض البابا غريغوري التاسع الحظر على الأذان في أراضي المسيحيين).

انطلق ألفونسو الثامن في 1212م مصحوباً بكتائب من أرغون ونافارا في زحفه إلى لاس نافاس دي تولوسا. وفي السادس عشر من يوليو دمر الموحدين.

وفي عام 1236م فتح فرناندو الثالث قرطبة عاصمة الأندلس والدرة في تاج إسبانيا، وذلك بعد أن اتخذ من ثورة المرتزقة المسيحيين في يناير واجهة ومسوغاً للحصار الذي دام حتى استسلم المدافعون يوم 29 يونيو. وفي اليوم التالي أقيمت صلوات للمسيحيين في مسجد قرطبة بعد تحويله إلى كاتدرائية. ودخل فرناندو ملك قشتالة إشبيلية في الثاني والعشرين من ديسمبر 1248م فاتحاً، وأمر المسلمين جميعهم بمغادرة إسبانيا التي أصبح معظمها تحت حكم أرغون أو قشتالة أو البرتغال. وقد خلفت هذه الانتصارات المتتابعة وراءها تأثيرات كبيرة على مستوى العالم؛ فهدد لويس التاسع ملك فرنسا وقائد آخر حملة صليبية سلطان مصر أيوب، وقال في رسالة مؤرخة يوم 5 يونيو 1249م: طاردنا رجالكم (في إسبانيا) مطاردة جمع من الثيران، وقتلنا الرجال، وجعلنا النسوة أرامل، وسبينا البنات والولدان. أليس في ذلك عبرة لكم؟.

في عام 1237م، جاء محمد بن يوسف بن نصر من سلالة غير معروفة وأرسى دعائم حكمه في غرناطة. وبقيت السلالة الناصرية مدة قرنين ونصف القرن تحكم قوساً ممتداً من غرناطة إلى جبل طارق جنوباً، وخلّفت وراءها ثروة عظيمة من روائع الفنون والهندسة المعمارية الإسلامية في إسبانيا. ويكمن سر ذلك المجد فيما تميز به النصيريون من وعي دقيق بحقائق الأمور، والذي صان السلالة مدة طويلة. ومنذ العام 1246م كان النصيريون يدفعون خراجاً سنوياً إلى قشتالة، ثم تقوت هذه الرؤية السياسية الواقعية وتعززت أكثر من ذي قبل عندما بنى محمد الثاني سلسلة من حصون منيعة ساعدت في الحفاظ على استقلال غرناطة، وجعلت منها مدينة أسطورية. وقد دفعت الحكايات الشائعة عن الثروات المطمورة التي يحرسها الجن جنود نابليون إلى تفجير برج الأدوار السبعة قبل مغادرتهم الحصن في أثناء مهمة نابليون في إسبانيا ولكن من دون جدوى، إلا أن الأنقاض المتساقطة جراء التفجيرات قد سدت مخرجهم من الحصن. وهو الباب نفسه الذي خرج منه أبو عبد الله لدى مغادرته الحصن.

جاء محمد الخامس ليضع اللمسات الأخيرة والنهائية على أفخم ما أنجزته هذه السلالة من قصور ومكاتب وحدائق في الحمراء الواقعة على جبل. للحمراء مدخل فخم، وعلى القوس نجد يداً كبيرة منقوشة، وتحتها مفتاح. وفي مئات من الأماكن ـ على الجدران الداخلية والمحاريب وعلى الجدران في اتجاه الحديقة ـ يقع النظر على جملة مخطوطة اتخذها محمد الأول ـ مؤسس الحمراء ـ شعاراً له، وهي: (والله غالب على أمره)، ولعله كان يقصد أن يذكر من يأتي بعده بأن الأمر لله وحده من دون غيره.

لقد دقت النواقيس في الكنائس في أوروبا من مشارقها إلى مغاربها احتفالاً بسقوط غرناطة. والبوابة التي دخل منها الإسلام إلى أوروبا من صوب الغرب قد أغلقت في آخر الأمر بعد أكثر من سبعمئة سنة. لكن بوابة أخرى ـ القسطنطينية ـ قد انفتحت في الوقت نفسه صوب الشرق.

في سنة 1204م ـ بعد مضي سبع عشرة سنة على استيلاء صلاح الدين على القدس ـ لم يدمر المسلمون القسطنطينية بل الصليبيون عندما شرعوا حربهم الصليبية الرابعة بتحريض من البندقية وجنيف. كان فرسان الفرنجة قد نزلوا في البندقية ليتوجهوا فيما بعد إلى الأراضي المقدسة؛ إلا أن الداهية دوغ صرفهم إلى القسطنطينية فانشغل هؤلاء الفرسان بأعمال الدمار والاغتصاب والنهب. ويروي ابن الأثير انهم أجلسوا عاهرة على عرش البطريق، بينما اغتصب الثملون من الفرنسيس الراهبات المسيحيات في الصوامع. وفي الوقت نفسه توج عاهل فلاندرس المدعو بالدوين إمبراطوراً لدولة مهجورة. وعاد البيزنطيون مرة أخرى عام 1261م، إلا أنه لم يتيسر لهم أبداً استعادة الثقة بالنفس. ولقد تكثفت ضغوط الأتراك المسلمين على هذه الإمبراطورية بعد أن تمكن عثمان (القائد التركي الذي عُرف خلفاؤه فيما بعد بالعثمانيين) من إرساء قاعدة حكمه في شمال غرب الأناضول عام 1299م، متخذاً من بورصة أول عاصمة لدولته. في عام 1366م

نقل مراد الأول العاصمة إلى أدرنة في أوروبا. وفي الثلاثين سنة التالية أنزل العثمانيون هزائم ببلغاريا وصربيا، وهما الدولتان اللتان يمكنهما المطالبة بالقسطنطينية. وقد حاصر بايزيد في أثناء حكمه (1389م- 1402م) مدينة القسطنطينية؛ لكن الجدران الشهيرة نفسها الممتدة من القرن الذهبي إلى بحر مرمرة ومن ثمة حول المدينة قد صدته، وحالت دون دخوله إليها.

وفي عام 1402 انهارت السلالة العثمانية التي بقيت تزدهر وتنمو من مرحلة إلى أخرى، وكان المسؤول عن انهيارها هو الآخر تركي من آسيا الوسطى، تميز بالعبقرية في شؤون الحرب، وهو تيمور الأعرج. وقد أسر بايزيد بعد أن هزم جيشه. وبعد وفاة تيمور أخذت رقعة الحكم العثماني تتسع من جديد. وقاد مراد الثاني الذي تولى قيادة الحكم سنة 1421م حملة أخرى على القسطنطينية، إلا أن أداء ابنه محمد في هذا المضمار كان أفضل نتيجة من أداء أبيه.

كانت أم محمد الثاني يهودية أو جارية مسيحية (كان النبلاء من الأتراك عامة يتزوجون الجاريات إذا حملن)، وقد اتخذ من أحلام أبيه شغلاً شاغلاً لنفسه، وكان وزيره الأعظم من بين الناس الذين ضحكوا عليه وسخروا منه بسبب أحلامه تلك، وسُمع يقول: إن مثل تلك الأماني الفارغة من غباوة الشباب لا غير. لكن محمداً لم يكن يلقي بالاً لتلك الموعظة وأمثالها؛ بل أخذ يعد للحملة ببناء قلعة روميلي حصار على البوسفور بغية تأمين سلامة أمن خطوطه للإمدادات. وفي مايو 1453م أعلن النفير للجهاد، وقال في خطابه للجنود: إنهم جند الله، وحثهم على القتال بتذكيرهم بحديث النبي ﷺ الذي جاء فيه إن القسطنطينية ستكون تحت حكم المسلمين في يوم من الأيام.

في التاسع والعشرين من مايو سنة 1453م سالت الدماء ـ كما ذكر نيكولو باربارو ـ مثل المطر بعد العاصفة، وشوهدت الجثث عائمة في البحر كما يعوم البطيخ في القناة وفقاً لأحد المراقبين. وقاتل قسطنطين الثاني آخر إمبراطور

بيزنطي حتى آخر لحظة من حياته ومن حياة إمبراطوريته، فيما استعبد أو بيع نحو ثلاثين ألفا من المسيحيين. أما محمد الثاني فقد ركب على ظهر فرس أبيض إلى كاتدرائية آياصوفيا، أم الكنائس جميعها، والتي بناها جستنيان في القرن السادس، ونزل عن فرسه قبالة الكاتدرائية، ثم أخذ حفنة من التراب، ورماه على عمامته ونطق بالشهادة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ثم ما لبثت أن تحولت الكاتدرائية إلى مسجد، ودعا محمد الثاني لنصرة سلالة عثمان.

وكان محمد حينئذٍ قد بلغ السنة العشرين من عمره فقط، وكان أول ما أمر به أن يقتل الوزير الأعظم الذي سخر منه على أحلامه بفتح القسطنطينية. إن استانبول، الاسم التركي للقسطنطينية، لا يعني مدينة الإسلام؛ وإنما هي صورة محرفة للعبارة اليونانية: (eis teen polin)، وتعني (إلى داخل المدينة)، وذلك أن زيارة فلاح تركي إلى العاصمة كانت حدثاً مهماً. وما فعله محمد هو أنه حرّف الكلمة المحرّفة فجعلها "اسلامبول" أو (مدينة الإسلام). تحولّت القسطنطينية فيما بعد إلى المركز الجديد للإسلام وقوته السياسية والعسكرية، والقاعدة التي ينطلق منها المجاهدون في زحفهم إلى داخل أوروبا المسيحية. وبعد مرور سنتين على هذا الفتح بدأ الفاتح يحلم بروما. ومثل جفيده سليم؛ تصور محمد الثاني نفسه إسكندر عصره، وكان يطلب أن يقرأ له كتاب حياة المقدوني لآريان كل يوم. والإسكندر أحد الأبطال القدامى وقد جاء ذكره في القرآن، وهو نموذج مشروع للمجاهد المسلم.

ذكّر العلماء محمداً أن النصر من عند الله. ولم يجادل، وفسره بالبشرى لآل عثمان. وقد نشر الوعاظ أقاصيص عن صالحين في حلل بيضاء قاتلوا بقيادة النبي إلياس في صفوف جيش محمد يوم سقطت القسطنطينية. وتأكيداً لهذه النصرة الإلهية، ولربط هذا الإنجاز بحديث النبي عن القسطنطينية، اكتشف قبر أبي أيوب الأنصاري قرب القرن الذهبي بمحاذاة الجدران التي لم تخضع في

669م. كـان أبـو أيـوب الأنـصاري مـن صحابة الرسول ﷺ، وأحد قادة الجيش الأمـوي الـذي حاصر العاصمة البيزنطية في المرة الثانية. بنى محمد مسجداً عند قـبر الـصحابي، يـأتي الـناس لزيارته. وأصبحت تلك المنطقة تدعى أيوب، ولا تـزال تحظـى بالتكريم، وقد بني مسجد ثان عام 1470م في المكان الذي وجدت فـيه كنيـسة الحـواريين، وكـتب علـيه بأحـرف مذهـبة الحـديث النبوي عن فتح القسطنطينية.

ثمـة حكايـات مـثيرة عن حريم الباب العالي في غرف تضيع بين ثنايا عالم مـستور عـن الأنظـار، عـالم للعبـيد والجواري والمخصيين الطامعين بالسلطة . وهناك سلاطين أفقدتهم التشريفات القدرة على التحرك، والأقارب متسمرون في أماكـنهم بسبب الخوف. وعلى الرغم من ذلك كله علينا ألا ننسى أن النظام عمل علـى مـا يـرام، وكانـت الدولـة إسلامية معتزة بإسلامها. لم يكن أي سلطان من الـسلاطين لـيعلن حـرباً إلا بعد أن يصدر المفتي فتـوى بذلـك. وكـان السلطان يـسير كـل جمعـة في مـوكب إلى جامـع العاصـمة ـ إذا كـان فيها ـ لأداء صلاة الجمعـة. وكان الناس يحتفلون كل سنة بعيد مولد النبي ﷺ وسط أضواء وألوان جعلـت زائـراً للعاصمة في عام 1841م يعلق عليها بأن الليلة بدت كأنها من نسج خياله، وهذا الزائر هو هانس كريستيان أندرسن.

ومـن الاحـتفالات الـرسمية البارزة الاحتفال بختان ولدان السلطان، وهو تقلـيد بـدأه سـليمان وهو في الثانية والثلاثين من عمره في 27 يونيو 1530م حين خـتن ثلاثـة مـن أولاده: مـصطفى ومحمد وسليم بحضرة أعيان الدولة والأمراء الأجانب. أقيم احتفال مهيب للنبلاء وسرداق للعامة، ومحافل الشعر للمتعلمين، ومـسابقات في تـلاوة القـرآن للمـدارس الدينية. ثم أخذت مثل هذه الاحتفالات تـزداد روعـة وبهـاء علـى مـرّ السنين والعقود، وعند ختان محمد الثالث أهدى الجلـد المقطـوع إلى والدتـه في صفيحة ذهب، وتسلمت الجدة السكين، بينما

عاد الختّان وهو يحمل ثلاثة آلاف قطعة ذهب وصاعاً ذهبياً وحلة فاخرة. والأهم من ذلك كله أن السلطان زوجه بنتاً من بناته. ومن المؤكد أن الختّان لم يكن حلاّقاً من الحلاّقين العاديين.

في أعقاب الفتوحات زمن سليم أصبح السلطان خليفة وخادماً للحرمين الشريفين. وكان شيخ الإسلام المفتي الأعظم من أقوى رجالات الدولة، ورئيس العلماء، وكان له أثر واضح في سياسة الدولة على أعلى المستويات، فكانوا يعتمدون على تفسيره وشرحه للأحكام الإلهية لعزل السلطان في حال كون الفرصة مواتية والساعة سعيدة. ومن أغرب الفتاوى الصادرة عام 1622م فتوى ينهى السلطان عثمان الثاني فيها عن أداء الحج المبرور؛ بحجة أن غيابه سيسبب خللاً في نظام الحكم. والحقيقة التي لا مراء فيها أن عثمان لم يكن يقصد من رحلته أداء فريضة دينية؛ بل أراد أن يكوّن جيشاً من العرب لمحاربة قوات الحرس النخبوي التي صارت تناهضه بالتحالف مع المفتي الأعظم والوزير الأعظم. في التاسع من مايو كان هذا الحرس قد قبض على عثمان بالاستناد إلى القانون، وحمله إلى الأبراج السبعة حيث عصر خصيتيه وخنق عنقه حتى مات.

وكان أنجح الصدور العظام والوزراء يستخدمون سلطة القرآن ("الأساليب القديمة" نفسها التي ساعدت الإمبراطورية على البقاء وتحقيق الانتصارات) للاهتداء بها في الشؤون الإدارية وأحياناً في الشؤون الاقتصادية. كانت الشريعة الإسلامية هي قانون الدولة من دون أدنى شك، ولكن مع ذلك سُنّت بعض التشريعات التي تجاوزت حتى حدود الشريعة، ومنها مثلاً القانون الخاص باللباس في تطبيقاته على مختلف الطوائف؛ فالمسلمون وحدهم كان لهم الحق في التعمُّم بعمائم خضراء وبيضاء، فيما خصصت الزرقة الداكنة والشاحبة والصفراء لعمائم المسيحيين واليهود. وفي الفترات اللاحقة سنّت تشريعات أسوأ من ذي قبل؛ ففي عام 1580م أصدر مراد الثالث ـ على سبيل المثال ـ أوامر بأن

يعيش غير المسلمين حياة تواضع وخمول، وألا يرتدوا ألبسة كألبسة المسلمين، ولا يسكنوا قرب المساجد أو في مبان عالية، ولا يشتروا العبيد. وقد صار مراد الرابع (ليس ابن مراد الثالث، وإنما سلطان آخر يحمل الاسم نفسه تسلم مقاليد الأمور بعده بنصف قرن تقريباً) سلطاناً وهو ما يزال شاباً، وأبى أن يتصرف تصرف رجل راشد. ووالدته التي يقال عنها إنها كانت أقوى امرأة في تاريخ الخلافة العثمانية هي التي حكمت باسمه. وكانت ترى أن السلطنة إذا تراخت فإنها قد تخسر السيطرة على اليمن، بوابة مكة، وما من سلطان يمكنه البقاء في الحكم إذا فقد السيطرة على المدن المقدسة.

وجميع ما ذكر عن التشريعات وتطبيقاتها لا يعني أن الإسلام فرض على الناس جميعهم ديناً وعقيدة، أو أن الآخر أرغم على العيش بعيداً عن الحكم والجيش؛ بل إن الواقع يشير إلى خلاف ذلك، إذ تكمن أسباب نجاح الدولة العثمانية في البقاء حقباً طويلة في توجهاتها المناقضة؛ فاليهود الذين أبعدوا عن إسبانيا في أثناء حملات التفتيش تسلّموا دعوات للإقامة في تركيا، وعاشوا هناك في أمن وسلام إلى أن لفظت الخلافة أنفاسها. وفي تلك المرحلة استمر اليهود يشكلون ما يقارب العشرة في المئة من مجموع سكان الدولة، ولم يحصل انخفاض في تلك النسبة المئوية إلا في القرن التاسع عشر الذي كان أصعب القرون للإمبراطورية الإسلامية. في عام 1914م كان 22% من سكان القسطنطينية من المسيحيين الأرثوذكسيين، و25% من الأرمن، و4% من اليهود. لم يحاول (الفاتح) محمد الثاني إجلاء المسيحيين من القسطنطينية رداً على ما لاقاه المسلمون على يد الإسبان في الأندلس؛ بل إنه خصص مكاناً للكنيسة.

مع مرور الوقت واستقرار الأوضاع بدأت الخانات البيزنطية تعود ـ هذا إن افترضنا غيابها عن الساحة ـ من جديد إلى أجواء القسطنطينية. لم يكن محمد الثاني رجلاً ورعاً؛ فقد استدعى الفنان جنتيل بلّيني ليصور لوحات غرامية لمخادعه وغرفه الخاصة (من آثاره الفنية العظيمة أيضاً لوحة للسلطان الفاتح).

لكـن ابـنه بايـزيد الـثاني كان ورعاً وتقياً، لذا أزال الرسوم والصور الغرامية التي وضـعها أبـوه، وبـادر إلى إغـلاق الخانـات البيـزنطية ولـو إلى حـين؛ فمعظـم الـسلاطين قد استمتعوا بالخمور وبالنسوة، ومنهم من أشرك الصغار من الولدان في مـتعه. لقـد فـرض سـليمان العظـيم الحظر على تعاطي المسكرات والخمور مـرة، لكـنه لم يكـن يـود أن تحـول هـذه الأوامـر وأمـثالها دون تحقـيق متعاته المفـضّلة، وكـان حفـيده سـليم الـثاني قد أفرط في شرب الخمور إلى درجة أن الـناس أسمـوه ـ ربما حباً فيه ـ سكّيراً. ويقال إنه مات إثر سقطة في الحمام وهو ثمل.

وقـد تمـتع الآخـرون من غير الصفوة بشراب عادي كالبيرة يسمى "بوظة". وقــد كـتب السفيـر الهنغاري أوغير دي بوسبك الذي قـدم إلى القسطنطينية يوم العشرين من يناير 1555م يصف الحياة العامــــة في زمن حكم سليمان (Turkish Letters, Sickle Moon Books, 2001):

> الأتـراك أنـاس بـسطاء جـداً، غـير مبالين بالأطعمة ولذائذها. إذا وجد أحد مـنهم الخبـز والملح وشيئاً من الثوم أو البصل ونوعاً من الحليب الرائب الذي يدعى "يوغـورت" فإنه لا يطلب شيئاً غيره... بل إن الولائم الرسمية تتكوّن على العموم من الكعـك والخبـز والحلـوى المـتعدّدة الأصناف، وعدة أطباق من الأرز تضاف إليها لحوم الغنم والدجاج... غير أن هناك مشروباً يجب ألا أغفله من أجل الكمال.

وكان ذلك المشروب "شراباً عربياً" يصنع من الزبيب بعد تخميره يومين، ويشرب مع كمية كبيرة من الثلج. وروى السفير أنه يؤثّر في الأقدام والرأس مثل الخمر، لكن المهم أنه غير محرّم.

صـورّ الأوروبـيون الغـربيون الأتـراك بـأنهم شـبقون وشهوانيون، ووقفوا مذهـولين أمـام مـشاهد الـشذوذ. ولعـل الحكايـات مـن داخـل الحريم تجعلهم يـشعرون بـنوع مـن الحـسد؛ وقـد فرضت مدينة البندقية ـ فينيس ـ الحظر على الغلمان تحت الرابعة عشرة أن يزوروا القسطنطينية خشية إصابتهم بالداء التركي.

ويقـال إن محمـداً الـثاني جعل رادو ـ شقيق فلاد المخوزق (نموذج دراكولا) ـ أمـير والاشيا. ويشير فيليب مانسل إلى أن عدداً كبيراً من أهالي البندقية قد استقر في القـسطنطينية، لكنـنا لا نعـرف مـسلماً عثمانياً قد اتخذ من البندقية موطناً له. ويـشير مانـسل في الـسياق نفسه إلى أنه عرف في أواخر القرن الثامن عشر أفخم بيت من بيوت الدعارة في المدينة بجوار مبنى السفارة البريطانية.

في ذلـك الوقت أصبح التركي صورة كاريكاتورية مركّبة غريبة في أوروبا، المـسلم المـريع الغـارق في الفجـور، الـذي كانت قوته العسكرية التي تستكمل استـشراق الـرقص الـشرقي لمخـصيي الحـرملك تـستحوذ على العقلية الغربية. وتناول إدوارد سعيد هذه العقلية في مؤلفه "الاسشراق" (Orientalism, Pantheon, New York, 1978):

> "لم يـصبح الإسـلام رمـزاً للإرهـاب والـدمار بصورة عفوية، ولم يكن المـسلمون يعرفون حشوداً شيطانية من البرابرة المحتقرين من دون سبب. فعند الأوروبـيين كـان الإسـلام جـرحاً لا يقـبل الـشفاء، وبقـي "الـتهديد العثماني" الملاصـق لأوروبـا حـتى نهايـة القـرن الـسابع عـشر يـشكل خطـراً دائماً على الحـضارة المـسيحية بـرمتها، ومـع مـرور الـوقت امتـصت الحضارة الأوروبية الـتهديد نفـسه بجمـيع مـا التصق به من حب وأحداث عظيمة وشخصيات خير وشـر بوصـفه جـزءاً من نسيج الحياة. وفي إنكلترا وحدها، كما يروي صمويل تـشو في دراسـته الكلاسـيكية "الهـلال والـوردة" The Crescent and the Rose، "كـان الـرجل المتوسـط الـذكاء والـتعلّم" يلم بتاريخ الإسلام العثماني ووقائعه المهمـة وتـوغله إلى الحـضارة الأوروبـية المـسيحية إلمامـاً واسعاً، ويمكنه أن يـشاهد تلـك التفاصـيل علـى "مـسرح لـندن" أيضاً. والمهم في سياق الظروف الحالـية أن ما بقي من الإسلام حياً ومعروفاً في هذا العصر هو بالضرورة صورة مختزلة عما كانت تجسّده تلك القوات الخطيرة بالنسبة إلى أوروبا".

كـان سـليم الأول (1512 ـ 1520م) يعـتقد بأنه مأمور من عند الله بأن يفتح الـشرق والغـرب. لكـن فـارس كانت تعرقل تحقيق طموحاته في الشرق وراءها.

وقد نجح سليم الأول في نقل مقر الخلافة إلى القسطنطينية بعد أن هزم المماليك وأعدم آخر ملوكهم شنقاً عند بوابة القاهرة عام 1517م. وسلم الأمير شريف مكة مفاتيح الكعبة إليه، وأرغم الأمراء من آل الرسول على دفع الخراج - ولو كرهاً منهم - إلى الخليفة الجديد. ولعل أشرف لقب ناله سليم وورثه من جاء بعده إلى أن جعله الإنجليز غير ذي أهمية في القرن العشرين هو خادم الحرمين الشريفين. لم يكن هناك أحد في الإسلام ولا في المسيحية ينافس سليم الأول في عصره؛ فالإمبراطورية المغولية في الهند ازدهرت بعده بعشر سنوات، بينما كان المراكشيون قد أبعدوا عن إسبانيا. أما الفرس فقد كانوا قانعين بفارس. وكانت المدن الكبيرة جميعها، دمشق وبغداد والقاهرة، والمدن الثلاث المقدسة، مكة والمدينة والقدس، خاضعة للإمبراطورية العثمانية. وكان السلطان ظل الله على الأرض. وهو ادعاء كان يمكن أن يعترض عليه المتمسكون بتعاليم الدين القويم لكن لم يكن بوسعهم أن يفعلوا شيئاً بصدده.

وقد ذكر دي بوسبك في رسائله أن ابن سليم الأول سليمان القانوني (1520-1566م) أراد أن ينجز ثلاث مهمات: إكمال أعمال بناء مسجده، وإصلاح القنوات الرومانية للوفاء بحاجات القسطنطينية من الماء، وفتح فيينا. وينقل دي بوسبك شيئاً عن التوتّر الذي شعر به الأوروبيون إزاء علامة أخرى على "غضب السماء" على المسيحيين، مثل أتيلا قديماً، أو تيمور في الزمن الحديث":

> يقف سليمان وجهاً لوجه أمامنا بجميع ما أحدثته انتصاراته من رعب، وانتصارات من خلفوه في الأمر. فقد سحق سهول هنغاريا بمئتي ألف من الفرسان، وهدد النمسا، وهدد ما تبقى من ألمانيا. جاء إلينا وخلفه الأقوام كلها التي تسكن الأرض من أوروبا إلى حدود فارس. وكان يبيد أي شيء يسد طريقه ويحطمه ويدمره كالصاعقة، وهو على رأس الجنود المحنكين ويقود جيشاً مدرباً أحسن تدريب، وألف القتال بقيادته. وكان اسمه يلقي الرعب في النفوس في جميع الأنحاء. وكان يزأر كالأسد على حدودنا باحثاً عن ثغرة هنا وأحياناً هناك.

إلا أن السفير الهنغاري كان متفائلاً بأن الإمبراطور فرديناند سيصمد ويخلص المؤمنين من رعاياه ومعهم المسيحية بصورة عامة. وقد امتدت الإمبراطورية التي حكمها سليمان من هنغاريا إلى اليمن، ومن العراق إلى الجزائر. واستولى على بلغراد عام 1521م، وعلى جزيرة رودس عام 1522م. ووصل إلى مشارف فيينا وبدأ العمل على بناء مسجده العظيم بعد أن وافق الإمبراطور تشارلز الخامس على دفع الجزية. لقد استحقّ التكريم الذي ناله.

لكن المدهش في الأمر أن أوروبا بدأت تكتب رسائل التعازي بوفاة الإمبراطورية قبل سقوطها مريضة بوقت طويل. كان بعض السفراء الأوروبيين، الذين عوّضوا بإصدار الحكم ما افتقروا إليه من إدراك، توّاقين إلى أن يكونوا عدوانيين. ورأى السفير الإنجليزي السير توماس رو في عام 1622م، وهو مبعوث تجول بين دول العالم ورعى مصالح بلده في الهند أيضاً، أن الإمبراطورية العثمانية تحولت إلى بالوعة أقذار، وصارت على حافة الانهيار المحتم. وفي عام 1639م وجه سفير فيينا تهديداً إلى الصدر الأعظم الذي رد عليه بازدراء، وقال إن جميع ما يشاع عن القوة المسيحية محض وهم. وكان في وسع الأتراك أن يضحكوا على مثل تلك الأقاويل قرناً أو قرنين بعد ذيوعها.

صدرت أولى التلميحات إلى المشاكل الماثلة في المستقبل عن مسيحي اعتنق الإسلام في عام 1731م. ففي سنة 1726م تمكن إبراهيم مُتَفَرِّقة، وهو مسؤول كبير، من إقناع شيخ الإسلام بإجازة استعمال تقنية غير حديثة جداً تدعى الطباعة ضدّ رغبات الخطّاطين. وفي 1731م تقدم إلى محمود الأول برسالة بعنوان "الأسس العقلانية لسياسة الدول"، وأهم ما أورد فيها هو: كيف استطاعت الأقوام المسيحية على ما كان أمرها من ضعف أن تكتسب قوة وتهزم الجيوش العثمانية الساحقة؟

صارت وصفاته لمعالجة الداء تطرح مراراً ومن حين إلى آخر على شكل

مقترحات وإرشادات ونصائح بعد أن تزايد أمر السلطان وهناً وضعفاً. وطلب من ولي الأمر أن يجري إصلاحات في النظام، ويحاكي أوروبا في قوانينها وسياسة حكمها الحديثة. وجاءت نصائح إبراهيم في وقت عمّت به الاضطرابات والقلاقل أرجاء الدولة، وآلت مقاليد الأمور إلى محمود نتيجة ثورة الشوارع حث عليها رجال الدين الذين نددوا بسلفه أحمد الثالث لتورطه في تبذير مناقض للإسلام، وأصدروا فتوى في حقه بسبب إبرامه معاهدة مع روسيا المسيحية، وحربه على دولة فارس المسلمة.

كان فاتح القسطنطينية محمد الثاني أول من أحس بأخطار الطابور الخامس المسيحي الذي انضمّ إلى محاور القوى الرئيسية في غرب أوروبا. وبالفعل أخذ اليونانيون زمام المبادرة، وبدأوا يحشدون لشن حملة صليبية في أول فرصة سانحة. وكانت هنغاريا والنمسا والبندقية من القوى الرئيسية المجاورة التي تيسر لها أن تستخدم الوحدة المتوافرة في ظل ألوية الحرب الصليبية لبدء الأعمال العدوانية. وقد كتب فيليب مانسل أن "ما سماه رجال السياسة في القرن التاسع عشر المسألة الشرقية ـ الخطة المرسومة لتمكين القوى الأوروبية من فتح الأراضي العثمانية ـ بدأ العمل على تنفيذه فعلاً منذ عام 1453م". لقد اكتسبت "المسألة الشرقية" أهمية ملحة في القرن التاسع عشر حين بدأ العثمانيون في التأرجح، بعد أن كانت استجابتهم على مدى ثلاثة قرون تتصف بالتصميم، وعلى رغم ما شابه من تردد بين حين وآخر. ومحمد نفسه وقد رد على التلميحات الأوروبية بتعزيز ترتيبات الدفاع، وبحلول عام 1455م أكمل بناء سبعة أبراج على حواف بحر مرمرة، واستمرت الأعمال لتمتين الأسوار عشرين سنة فيما بعد. وفي ما يتعلق بالقسطنطينية فقد قيل إن الدفاع عنها وتعزيزه المتواصل هو أفضل هجوم.

ما من سياسة تعتمد على قوة السيف وحده تكفي لتأمين الدفاع عن

القسطنطينية، بل إن الأمر يتطلب سياسة متعددة الجوانب تكون قابلة للقبول لدى العوام، لدى المسلمين والمسيحيين واليهود الذين استقر بهم المقام في مواطنهم الجديدة، وعاشوا في أمان ما دام الخلفاء يحكمون الدولة.

لم يكن هناك أي بطريرك للكنيسة الشرقية عندما سقطت القسطنطينية، وذلك بسبب مساعٍ شتى جرت حينئذ للوصول إلى معاهدة صلح مع الرومان. ووجد محمد الثاني في شخص جورج جيناديوس سكولاريوس راهباً على قدر كبير من المعرفة، فجعله بطريقاً، واستعاد جميع الحقوق والامتيازات التي تمتعت بها الكنيسة في ظل الحكم البيزنطي. وكان من أكبر مزايا سكولاريوس أنه عارض أي فكرة للاتحاد مع الروم مرة أخرى، وفي الخامس من يناير 1454م رفع إلى مرتبة الكهنوتية، واحتل كرسي البطريق في كنيسة الرسل المقدسة. لقد اتصفت هذه السياسة بكثير من الذكاء، ومنعت الرومان من ادعاء الأحقية في سيادة المسيحيين استناداً إلى الفراغ الناشئ عن اتساع آفاق الإمبراطورية العثمانية بسرعة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى بث الروح في كنيسة أمكن لها - في حدود المستطاع - أن تؤكد ولاءها للسلطان، وتؤمِّن المداخيل للدولة، وتكون قوة متعادلة للروم. لقد استطاع محمد أن يدرأ الخطر الرومي ببناء سد أرثوذكسي. كما أنه ابتكر بنية عالمية لتأمين حماية الإمبراطورية الإسلامية. وكان من أعظم نتائجها ظهور مؤسسة صارت بمنزلة حصن منيع، واستمرت على حالها قوية متينة نحو أربعة قرون إلى أن دمرت نفسها بنفسها. وكانت في الوقت ذاته المثال الأغرب على التفاعل الإسلامي المسيحي.

وصف السلطان عبد المجيد العبودية بأنها عار وعمل بربري، مع أنه ربما لم يكن بعيداً عن الصواب حين قال إن العبيد يلقون في تركيا معاملة أفضل نسبياً، وبادر إلى إغلاق سوق العبيد في المدينة عام 1847م، إلا أنه لم يفرض الحظر على تجارة العبيد. عندئذ كان تجار العبيد يقودون الصغار من الولدان في

السوق معلنين ثمنهم. وجميع ما يروى عن السماسرة والمشترين، وانشغالهم في فحص المعروضين للبيع في أسنانهم وعوراتهم، وعن الأبكار من الجواري أنهن يجلبن سعراً أعلى هراء. العبودية هي الخدمة الإجبارية والرضوخ الجنسي، وكان المتأنقون من المشترين يسمح لهم بأن يأخذوا النسوة إلى بيوتهم للتأكد مما إذا كن يشخرن. وجيء بالعبيد من أماكن قريبة مثل بولندا وأماكن أخرى بعيدة كالسودان (كان جد بوشكين زنجياً بيع في القسطنطينية).

كان للعبد حق من الناحية النظرية في شراء حريته؛ إلا أن هذه الفكرة كانت خيالاً إلى حد بعيد. ولم تكن عالمية هذه الممارسة تبريراً بل تفسيراً لها. وقد لاقى المسلمون في البلدان المفتوحة أيضاً المصير نفسه أو أسوأ منه إذا افترضنا أن الموت أسوأ من العبودية. ومن المؤكد أن مثل هذه العواقب المترتبة على الهزيمة جاءت لتجعل من رغبة الانتصار في المعارك أشد. لقد كان العبيد من غنائم الحروب منذ أول يوم من تاريخ الحروب، ومن حسن الحظ أن العبودية ألغيت قبل أن تنتهي الحروب.

لقد كانت هناك فرصة ترتبت عليها أحياناً نتائج مهمة في التاريخ الإسلامي كما كان الأمر – مثلاً- في حال "سلالة العبيد" في دلهي، و"المماليك" في مصر؛ فإذا أسلم العبد لم يكن ينجو بنفسه من الخدمة الإجبارية فحسب، بل كان يعطى فرصاً مثل غيره، ولا يعني ذلك المساواة مع غيره بمعنى الكلمة في جميع الأحوال. (وإبراهيم مُتَفَرِّقة الذي سبق ذكره هو الآخر أنقذ نفسه من العبودية باتخاذ الإسلام ديناً له). وإن كان ثمة مسلمون جدد مرتبطين بالمجتمع برباط وثيق، أو مجموعات منهم لها تاريخ معروف في المجال العسكري؛ فإنهم استطاعوا استغلال الفرص المواتية للاستيلاء على الحكم في ممالك تداعت أركانها. وأسوة بالسلالات المسلمة المالكة عامة فإن السلالة العثمانية لم تجد في الامتيازات الطبقية إحراجاً لها، وعينت العبيد في خدمات حساسة جداً في

القصر، وخولّتهم ـ بمعنى الكلمة ـ إحياء من أرادوا له الحياة، وإماتة من أرادوا لـه المـوت. وقـد نـام أربعة من العبيد في كل زاوية من زوايا غرف النوم لأوائل السلاطين العثمانيين.

لقـد أضـفى محمـد علـى العـبودية طابعـاً بـديعاً، وجعـل العبـيد حرسـاً للإمبراطورية، وشكل منهم مجموعة أطلق عليها اسم "الإنكشارية"، وهي كلمـة مـشتقـة من اللفظة التركية (yeni ceri) التي تعني "الجنود الجدد". وعرف المنهج المتـبع للتجنـيد في الإنشكارية بالدفشرمة أو "الجمع"، وكانت كذلك حقاً؛ فقد جـرت العادة أن يصدر السلطان مرسوماً، فينطلق المسؤولون إلى مناطق مسيحية مثل البوسنة لجمع الولدان المسيحيين السلاف بين سن الثمانية والسادسة عشرة، (وهـم مـن غـير الأتـراك دائمـاً)، ويجلـبون إلى القسطنطينية، حيث تجرى لهم عمليـات الخـتان قـبل إدخـالهم في الإسـلام. وكـان للنـسب دوره هنا؛ إذ كان أفـضلهم شـرفاً وأصـالة يجـد طـريقه إلى مدرسة القصر، أو إلى بيت من بيوت الباشاوات، فيما كان يرسل الأقل حظاً من هذه النواحي إلى مزارع نائية.

وقـد اخـتير عدد قليل منهم للتدريب المطلوب للانضمام إلى الإنكشارية. وقـد أصـبحت هـذه القـوة النخبوية المسؤولة عن حراسة القصر قوة طلائعية في شـؤون الإمـبراطورية، وتولت حماية الأبراج السبعة، وقامت بحراسة الأسوار، ونفـذت قـوانين الدولة داخل المدينة. ولحرمان الشبان المجنَّدين في الإنكشارية مـن حـنين الأسرة فإنهم حولوا ولاءاتهم إلى الدولة أكثر منها إلى السلطان. وفي المقابـل وفـرت لهم الدولة السلطات وتسهيلات الراحة (كان قائد كل وحدة من وحـدات الحـرس يـضع في حزامه مغرفة حساء). كانت معسكراتهم بين مسجد سليمان وقرن الذهب، بينما عاش الآغا ـ قائد الإنكشارية ـ في قصر شامخ.

كان دفع الرواتب يتم يوم الثلاثاء كل ثلاثة أشهر، وكان السلطان، بوصفه عـضواً في الوحدة 61 من وحدات الإنكشارية، يتسلّم كيساً جلدياً صغيراً أيضاً،

لكنه سرعان ما يعطيه للقائد بعد أن يضيف إليه البقشيش الجزيل من عنده. وكلما زار السلطان معسكرات الإنكشارية تناول الحساء، وملأ الكأس بقطعات ذهبية قبل عودته إلى القصر. وكان للإنكشارية نصيب وافر من الثناء والدلال في الإعلانات الصادرة رسمياً، مما خلّف في نفوسهم شعوراً بالكبرياء في بعض الأحيان. وكان قلب قدر اللاو (الرز واللحم) علامة من علامات السخط في الثكنات، ولم يكن هناك نبأ أسوأ من جوع الإنكشارية. وقد عرّض سليم الثاني نفسه للمشكلات عندما امتنع عن توزيع علاوات عادية على الإنكشارية. لكن الدولة عاشت بمأمن من سياسات النقابات العمالية. وفي وجه نفوذهم وقوتهم اضطر سليمان لرفع الحصار عن فيينا (مدينة أحلامه)، ومن أجلهم أجهض الهجوم على فارس.

وفي 1622م فعلوا مع عثمان الثاني ما سبق ذكره؛ إذ إنهم خاضوا معارك مع مراد الرابع، وثاروا على محمود عندما أراد أن يكون الجيش في تدريبه ومظهره كالجيوش الأوروبية، ونبذ التقاليد المتبعة منذ القِدَم. وقد استصدر محمود فتوى تشير إلى أن قواعد التدريب والأزياء العسكرية ليست بمسيحية بل إسلامية حديثة، وحاول الصدر الأعظم بدوره أن يوضح أن قواعد التدريب الجديدة تتوافق مع تعاليم القرآن، وتحظى بموافقة العلماء، لكن القلاقل ظهرت على الساحة عند ما بدأ أربعة مدربين التمارين في 11 يونيو 1826م على الطراز الأوروبي.

وفي اليوم الثالث عشر من يونيو اكتسح عشرون ألفاً من الإنكشارية الشوارع وهاجموا القصر، وهم يصرخون معلنين رفضهم ممارسات الكفّار ويطالبون بالاحتفاظ بالماضي باسم محمد والمرشد الروحي حاجي بكتاش. واتهموا محمود بالميل إلى النصرانية الشائعة التي أبدى اليونانيون حماسة كبيرة في نشرها، وقالوا إنهم رأوا صليب قسطنطين على آيا صوفيا. ورداً على ذلك لجأ محمود إلى سلاح المدفعية، وفي 17 يونيو أعلن إلغاء الإنكشارية، وأعدم

ستة آلاف من رجالها، ونفى خمسة آلاف منهم خارج حدود الدولة. وسواء أكان ذلك مصادفة أم لا فإن النجم العثماني بدأ في الأفول بعد تلك الأحداث، ولم يستعد بريقه أبداً. الأمر الذي مكن الغرب من استرداد ما خسره لصالح المسلمين منذ مئات السنين.

كان القرن التاسع عشر قرن الخسائر بالنسبة إلى المسلمين؛ ففي عام 1808م شجّع الصرب على الثورة، وبحلول 1830م أقاموا دولة لهم. وتبعهم اليونانيون الذين استلهموا شعر بايرون، وطالبوا عام 1821م بالاستقلال عن الحكم العثماني، وحصلوا على الاستقلال عام 1839م. ودخلت روسيا الدائرة الخارجية التركية في القوقاز، واحتلت بريطانيا عدن في عام 1839م، ولذا تمكنت من تعزيز سيطرتها على الطرق البحرية المؤدية إلى درة التاج البريطاني (الهند). وأصبحت عدن القاعدة التي يعمل منها البريطانيون في شبه الجزيرة العربية، وأنشأوا تحالفات في نهاية الأمر مع أبو ظبي ودبي والشارقة.

إذا صرت منهوك القوى وأصابك الوهن في مكان عرّضت نفسك للأمر ذاته في الأمكنة جميعها؛ فالجزائر وقعت تحت الاحتلال الفرنسي. وعلى خلاف التجربة البريطانية في الهند احتل الفرنسيون العاصمة الجزائرية، واتجهوا بعدها إلى أماكن أخرى. وقد جرب الفرنسيون الجهاد عندما خرج عبد القادر (1808-1883م) لمحاربة الكفرة مدعوماً من العلماء وأهل القرى، وهزمه الفرنسيون، وفي 1847م أبعدوه إلى دمشق حيث تعايش مع الفرنسيين المقيمين تعايشاً لا بأس به ودافع عنهم في فتنة 1860م إلى أن وافاه الأجل في عام 1883م.

اندلعت حرب أهلية في لبنان، وتعرض المسيحيون لغارة في دمشق، مما حرض الأوروبيين على التدخل في شؤون المنطقة. وفي أعقاب إبرام اتفاق بين المسلمين والدروز والمسيحيين أنشئت في لبنان حكومة من نوع خاص، (في العقد نفسه جربت تونس ما يمكن أن نسميه في هذا العصر تجربة البنك الدولي، فعندما ارتفعت مديونيتها شكلت في سنة 1869م لجنة مالية دولية بهدف إصلاح

أنظمتها المالية وإعادة تثبيت الوضع الأمني والقانوني، والاستثمار في التعليم. وفي عام 1881م استولت فرنسا على ذلك البلد ولأسباب معروفة (استقرار الوضع المالي، واستقرار الوضع الحدودي، ولئلا يكون الإيطاليون على القدر نفسه من الاهتمام بتونس ورفاهية الشعب التونسي). واختارت روسيا أماكن أخرى للتوغل.

والواقع أن المنافسات الدائرة بين القوى الأوروبية هي التي مكنت تركيا من الاحتفاظ بشيء لولاه لكانت تحولت إلى أنقاض. فقد حلم بطرس الأكبر بفتح القسطنطينية واستعادتها للمسيحية، وقال القيصر ألكسندر الأول إن المدينة مفتاح لباب بيته. وكان للكلمات التي تحدث بها نيكولاس الأول في لقاء مع السفير البريطاني في سان بطرسبرغ عام 1853م صدى مسموع طيلة القرن التالي، وفي إشارة إلى تركيا قال: بين أيدينا رجل مريض، مريض إلى أقصى درجة. وطلب إلى القوى الأوروبية أن تتقاسم الإمبراطورية العثمانية على أسس اتفاقية فيما بينها، وتجعل من القسطنطينية مدينة حرة. وقد أثارت هذه الإهانة الروسية حفيظة طلاب المدارس الدينية التركية (طالبان ذلك العصر)، وخرجوا إلى الشوارع احتجاجاً عليها، وحصل عبد المجيد على فتوى لإعلان الحرب على روسيا يوم 4 أكتوبر 1853م. إلا أنه لم يكن في وسع بني عثمان خوض الحرب بمفردهم. وكانت بريطانيا وفرنسا عاقدتي العزم على إبقاء روسيا بعيدة عما سيكون مكافأة لهما في يوم من الأيام، فانضمتا إلى تركيا في حرب تعرف بحرب القرم، وبحلول 1856م كان التحالف قد ألحق هزيمة بروسيا. فقدّم عبد المجيد لنفسه قصراً جديداً، وهجر الباب العالي.

ولم يكن الجلوس حول المائدة نفسها التي جلست عليها بريطانيا وفرنسا من دون مقابل؛ فلأول مرة منذ عام 1453م تدق الأجراس - بموجب مرسوم ملكي - في كنائس القسطنطينية عام 1856م. وأعلن كثير من المسلمين ذلك اليوم

يـوم حداد. ومع حلول عام 1877م حصلت بلغاريا على الاستقلال، وفي 1898م تمكـنت جزيـرة كـريت من الفوز بما فازت به بلغاريا، (وانضمت إلى اليونان في 1913م). وقـد سرى الوهن الذي أصيبت به القسطنطينية إلى قلب الإمبراطورية، وصارت مثقلة بأعباء الديون الأجنبية المتراكمة، وأصبحت مداخيلها تفحص من قـبل الجهـات الدائـنة. وارتجـف المـسلمون في أنحاء العالم خوفاً عندما وصل جيش بلغاري إلى أسوار القسطنطينية في أثناء حروب البلقان.

لم تكـن السلطنة العثمانية آنذاك تضم أكبر عدد من السكان المسلمين، بل كانـت الهند في ظل الحكم البريطاني تضم أكبر عدد منهم. وقد ثار غضبهم على مـا ألمّ بخليفـتهم، وفي أثـناء حـروب الـبلقان أوفدوا إلى تركيا بعثة طبية بقيادة الدكـتور أم. أيه. أنصاري. وقد أطلقت تلك البعثة عام 1912م موجة تحوّلت إلى حملة عارمة في غضون عشر سنوات.

أثـــارت الخلافـــة التـــي أوشـكـــت علـى نهايـتها في 1922م عواطـف المـسلمين في الهـند، وفي العاشـر مـن نوفمـبر 1922م واجه ورثة محمد الثاني وسـليمان العظيم ما كان آخر إهانة وأسوأها؛ فقد هجرتهـم الفرقة الملكية. وفي الـسادس عـشر مـن ذلـك الـشهر كـتب محمـد وحـيد الدين، خليفة المسلمين وسـلطان تـركيا، إلى الجنـرال الـسير تـشارلز ("تـيم") هارنغـتون، قائد القوات البريطانية:

سيدي،

> بمـا أنـني أخـشى علـى حـياتي في إسـطنبول، فـإنني أطلب ملجأ لدى الحكومة البريطانية، وألتمس أن أنقل بأسرع وقت من إسطنبول إلى مكان آخر.

في الـساعة الثامـنة صـباح 17 نوفمـبر غادر آخر خليفة هو محمد السادس قـصره، وخـرج مـن بـوابة أورهـاني وسـط عاصـفة شتوية تحت حماية الحرس البريطاني، ورافقه في هجرته ابنه أرطغرل ورئيس الحجّاب، وقائد الفرقة الملكية

الذي لم يفارقه كما فعل باقي أعضائها. أركبه البريطانيون في باخرة، ومنها ركب سفينة الملايو، ووصل إلى مالطا، وقضى نحبه في سان ريمو عام 1926م. وأعاق الدائنون تشييع جثمانه أسبوعين.

كان هناك خليفة آخر، لكنه لم يكن سلطاناً. ولم يكن كمال أتاتورك يشعر بأنه يملك قوة كافية للتخلّي عن الخلافة. بقي عبد المجيد الثاني خليفة بالاسم حتى العام 1924م. في الثالث من مارس من السنة المذكورة ألغيت الخلافة، وطلب من الخليفة أن يشد رحاله عند بزوغ الفجر، وخرج في الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة، ووصل إلى محطة القطار في الساعة الحادية عشرة. وكان مدير المحطة الموظف الوحيد الذي تعاطف معه. كان هذا المدير يهودياً، وعبر عن مشاعر الشكر للسلالة العثمانية التي أنقذت اليهود بعد أن أبعدوا عن إسبانيا. وصل القطار السريع في منتصف الليل، وتسلم عبد المجيد تأشيرة لدخول سويسرا مع ألفي جنيه استرليني ليتدبر بها أموره في العالم. استطاعت السلالة العثمانية أن تمتلك موازين القوى، وأن تعلي كلمة الإسلام في معظم فترات حكمها التي استمرت 469 سنة. ولا يزال في الهند متحمّسون للخلافة حتى الآن.

جاء القرن التاسع عشر ليقضي على إمبراطوريات إسلامية عظيمة أخرى في العالم، ومنها الإمبراطورية المغولية في الهند. وقد كانت الإمبراطورية الهندية تعتبر نفسها في سنوات حكم الملوك المغول أكبر وجهانكير وشاهجهان أفضل من الإمبراطورية العثمانية، وهي الفكرة التي سفّهها الأتراك. بعد قرن من الانحلال الذي استمر يلاحق هذه الإمبراطورية جاء الإنجليز ليدفنوا المغول عام 1857م جراء حرب خلّفت آثارها العميقة على الهند وبريطانيا معاً. لقد ماتت الإمبراطورية المغولية من دون أن تجد أحداً يبكي على موتها؛ لكن كان هناك من يحبها.

- 8 -

الجهاد في الشرق: هلال فوق دلهي

وقيل لأبي يزيد البسطامي "أنت تمر على الماء".

فأجاب، "وكذلك قطعة الخشب".

"وتطير في الهواء"

"وكذلك الطير"

"أنت تمر إلى الكعبة في ليلة"

"أي ساحر من السحرة الهنود يسعه أن يأتي من الهند إلى دماوند في ليلة واحدة"

فسألوا، "إذن فما العمل الذي يعمله من هم على حق من الناس؟".

أجاب، "إذا كان صادقاً لا يتعلّق قلبه بأحد إلا الله".

(مقتبس من "الزهاد والصوفية المسلمون" للشيخ فريد الدين عطار).

لم يكن مصير المسلم الهندي مثل مصير نظيره المراكشي في إسبانيا؛ فقد سوّت إسبانيا حسابها مع العرب، واقتنعت بحماية ما استرجعته مع اللجوء للبطش إذا دعت الحاجة. ومن خلال الحملات التفتيشية أبعد الإسبانيون جميع المسلمين واليهود عن الوطن الكاثوليكي، ومن تبقّى منهم أكره على اعتناق المسيحية ديناً له من دون أن يعطى أي خيار آخر. وجد اليهود المبعدون عن إسبانيا ملاذاً لدى السلطنة العثمانية، وعاشوا في أمان في ظل الخلافة. أما المسلمون فإنهم استوطنوا ما وراء البحر الأطلسي في شمال أفريقيا معتمدين

علـى الماضـي وذكـرياته الحلـوة، لأنـه لم يكـن لـدى أفريقيا الإسلامية طاقات لتدخل في أي صراع آخر مع أوروبا.

ولكـن كانـت هـناك قـارة أخـرى يمكـنها أن تكون ساحة صراع بين الأمم الإسـلامية وأوروبـا المـسيحية، وهـي القارة الآسيوية، ومنها شبه القارة الهندية ومـنطقة المحـيط الهـندي. لقـد اقـتحمت القـوة الإسلامية قلب الهند في أوائل الألفية الثانية، و أصبحت الشعوب المسيحية تتحدى تلك القوة في منتصف هذه الألفية. واستمرت اللغة المستخدمة تستمد من الحرب المقدسة نفسها.

وفي البحـر بـدأ الـبرتغاليون حـرباً صليبية ضد المراكشيين بعد أن خوّلهم الـبابا بـذلك. وفي الـوقت نفـسه الـتقطوا (أو نهـبوا) الـتوابل بمحاذاة السواحل الـشرقية والغـربية للمحيط الهندي ليكسبوا أرباحاً هائلة في أوروبا. وقد أحدثت هـذه الحـروب البحرية هزات كبيرة في أثناء استمرارها؛ إلا أن المعارك الحقيقية قـد دارت علـى الـبر. وكان البريطانيون أقل تهوراً من البرتغاليين، اختاروا توقيتاً مناسـباً ـ أولاً ـ لزعـزعة المـسلمين، وبعد ذلك ليحلوا محلهم في حكـم دولة غنـية ـ الهـند. ووراء سلـسلة جـبال الهملايـا والـبامير ظهـرت روسـيا الجبارة؛ فابتلعت مساحات واسعة من الأراضي في الجانب الشرقي، وأخضعت الشعوب المسلمة الضعيفة في آسيا الوسطى.

بعـد تـدمير الإمـبراطوريات والممالـك الإسلامية تصارعت كلكتا عاصمة الهـند الـبريطانية آنـذاك وسـان بطرسبرغ (روسيا) على الدولة المسلمة المستقلة الـواقعة بـين الاثـنتين (أفغانـستان). وأصـبح هذا الصراع يعرف فيما بعد باللعبة العظـيمة. وقد اتخذت القوتان العظميان من القوى المسيحية في ذلك العصر من دولـة مسلمة ساحة لتلك اللعبة. ومعلوم أن الممر الجبلي (خيبر) كان على مدى العـصور طـريقاً مـؤدياً إلى فـتح دلهي. ومن حكـم دلهي لم يجد نفسه بمأمن من

الأخطـار مـن دون الـسيطرة على كابول. وكانت بريطانيا تعي ذلك كونها الدولة الأجنبية الوحيدة التي وصلت إلى دلهي عبر البحار.

ومـن الاعتقادات المحلية أن أول مسيحي قدم إلى الهند كان القديس توما أحـد تلامذة المسيح، وكان معروفاً بشكوكه. وجاء المسلمون تجاراً إلى الموانئ الغـربية الممـتدة مـن غوجـرات إلى كـيرالا قبل مئات السنين من دخول الجيش الإسـلامي إلى قلـب الهند. فقد جاءت أولى الجيوش الإسلامية بحثاً عن ثروات وسـط الهـند في القـرن الحادي عشر، والثانية جاءت في القرن اللاحق بحثاً عن مملكة لها. وأتت السفن الأوروبية الأولى المسلحة بمدافع الحروب المقدسة من الـبرتغال، ولم يـستطع الـبرتغاليون أن يواصلوا التقدم بعد كسب موطئ قدم في جـوا؛ لأن سـلالة مسلمة أخرى ـ السلالة المغولية ـ شقت طريقها إلى هذا البلد في حملـة عارمـة، وأوقفـت الـبرتغاليين داخـل جـوا. وكانـت بريطانيا أول قوة مسيحية تمكنت من تأسيس إمبراطورية لها في الهند بعد أن وضعت نهاية للحكم المغولي ورسمت ملامح دولة حديثة.

ربمـا يكـون الفـتح الإسلامي لوسط الهند قد بدأ بسوء فهم: فاللفظة التي يـنطق بها امرؤ يمكن أن تصبح سُماً بالنسبة إلى امرئ آخر. كانت اللات والعزى ومـناة الأصـنام الأكثر تبجيلاً في مكة قبل الإسلام، وقد ندّدت الآيات القرآنية بهـذه الأصـنام الكاذبـة، مـصدر الخـلاف الشهير عن "الآيات الشيطانية". ووفقاً لخرافة قديمة، عندما حطّم النبي الأصنام في الكعبة لم يكن فيها تمثال مناة: فقد هـرّب علـى ظهـر سـفينة مـع البـضائع الـتجارية إلى مدينة ساحلية هندية دعيت "بـراباس"، الـتي كانـت تـستورد الخـيل مـن العـرب. وحـسب ما جاء في تلك الخرافة فإن عبدة الأوثان بنوا معبداً لمناة، وسموه "سومناث" أو "سومنات". وقد قـاد الـسلطان محمـود الـذي أنـشأ إمـبراطورية لـه انطلاقـاً مـن مدينة غزني في أفغانـستان، أول جهـاد في قلب الهند، ومن أشهر غزواته الغزوة التي حطم فيها تمثال سومنات، ورجع إلى بلده بغنائم أشبعت أطماعه في الثروة.

وكـــان مـــن بيـــن العباقـرة الذين رافقوا محموداً في أثناء مهمته العسكرية المذكـورة عـالم الاجـتماع والمـؤرخ والفلكي واللغوي وعالم الطبيعيات، الذي تـرجم إقلـيدس إلى اللغـة السنسكرتية، وألف للهنود رسالة حول الاسطرلاب؛ وهـو أبو الريحان البيروني (Al Beiruni's India: An Account, trans. E. Sachau, chand, 1964). وقـد سجل البيروني تفاصيل تدمير المعبد في 1026م، إلا أنه لم يذكـر شـيئاً عـن هـذه الـصلة المزعومة بين حياة النبي ﷺ ومعبد (سومنات) في الهـند. يروي البيروني أن تمثال حجر محلىً بالحلي كان يعبد في سومنات. وهذا ما يعد شاهداً ودليلاً آخر يعزز ادعاء المناتيين، كانت اللات على صورة إنسان، والعـزى علـى صـورة شـجرة مقدسة، ومناة على صورة حجر. وفي هذا الصدد تقـول روميلا ثابار، المؤرخة الهندية الشهيرة: "ليس هناك من سند تاريخي يثبت الادعاء بأن صنم سومنات هو مناة ذاته، وليس هناك من شهادة تشير إلى أنه كان في المعـبد تمثال لمناة. مع ذلك، فإن الحكاية مهمة لإعادة صياغة عاقبة الحدث لأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنمط إضفاء الشرعية الذي عرض على محمود".

وقـد اسـتمر هـذا الاعـتقاد مسيطراً على العقول، وها هو ذا الشيخ منهاج الـسراج، أحـد علمـاء الـدين مـن القـرن الثالث عشر، يقول في مؤلفه "عبقات ناصـري": إن محمـوداً قاد جيشاً إلى نهروالا في غوجرات، وأخذ مناة، التمثال في معـبد سـومنات، فجعلـه أربـع قطع؛ طرحت إحداها قبالة مركز الجامع في غـزني، والثانـية أمـام بـوابة القصر السلطاني، وأرسلت الثالثة والرابعة إلى مكة والمدينة على التوالي". لم يكن معبد سومنات الوحيد الذي دمره محمود؛ إلا أنه عد تدميره إنجازاً لنفسه، ورأى أن العملية ستلقى قبولاً لدى الخليفة أيضاً.

وتقـول ثابـار في مقـال لهـا نـشر في مجلـة "فـرونت لاين" 1999م بعنوان "سومنات ومحمود":

> إن الـصلة بمناة جعلت محموداً يلقى مزيداً من الثناء. إذ إنه لم يكن في مقدمـة من حطموا الأصنام في المعابد الهندوسية فحسب؛ بل تسنى له أن ينفذ

ما أمر به رسول الإسلام. ولهذه الأسباب عد بطلاً بارزاً من أبطال الإسلام. ومع أنه أغار على معابد أخرى وحطم الأصنام فيها؛ إلا أن سومنات يلقى اهتماماً خاصاً في جميع المؤلفات التي تتناول أنشطته. وهو يذكر في خطابه الموجه إلى الخليفة الفتوحات المحققة على يده، ويذكرها على أنها إنجازات مهمة في سبيل قضية الإسلام.

كانت القضية الإسلامية قد وجدت طريقها إلى الهند قبل ثلاثمئة سنة من محمود وإنجازاته؛ فقد دخل جيش إسلامي ـ مؤلف على وجه التقريب من العدد نفسه من الجنود الذي تألف منه الجيش في إسبانيا ـ السند في عام 711م. وكان على رأسه الشاب محمد بن القاسم، زوج ابنة الحجاج والي العراق في خلافة الوليد. كان القراصنة من السند قد نهبوا السفن التجارية العربية التي كانت في طريقها عائدة من سريلانكا، وجعلوا من النسوة والأطفال المسلمين عبيداً. ولم يأخذ داهير ـ الملك البراهمني للسند التي كان يقطنها آنذاك غالبية البوذيين ـ الأمر على محمل الجد، وأبى أن يدفع تعويضات عما لحق بالسفن ومن على ظهرها. وفي عام 712م أخرجه محمد بن القاسم من عاصمة الدولة ديبال. لكن داهير لقي حتفه في معركة أخرى حاسمة في يونيو، إذ أصابه سهم ناري أسقطه عن ظهر الفيل. وحتى عام 714م كان العرب قد فتحوا جميع المناطق التي تعرف الآن بالجنوب الباكستاني. إلا أن الإسلام على غير عادته ظل محصوراً في المناطق نفسها طيلة ثلاثة قرون؛ لأن الملوك الهندوس الأقوياء أعاقوا انتشاره وتوسعه شمالاً وشرقاً، إلى أن جاء محمود الغزنوي الذي تميز بعبقرية عسكرية، ولم يلق هزيمة في حرب من الحروب التي دامت ثلاثة عقود متتالية.

تمكن الملوك المسلمون من توطيد أمرهم في أفغانستان في عام 870م، فقد فتح يعقوب بن ليث كابول بعد أن انهزمت السلالة الشاهية الهندوسية، التي حكمت من مقرها في مكان قرب بيشاور المناطق من كابول إلى نهر بياس شرقاً، وأسس يعقوب مدينة غزني. وفي سنة 977م تربع سبكتكين ـ وهو الآخر من

المماليك الأتراك - على عرش غزني خلفاً لوالد زوجته ألبطغين، وأذاق جاره الهندوسي الشاهي جايبال هزائم نكراء في المعارك.

وفي 1008م كان ابنه محمود أول من عبر نهر السند؛ لكن الأمراء والحكام في الطرف الشرقي من النهر اتخذوا استعدادات لمواجهة الغزاة. وكان آنندبال - الملك الشاهي من بيشاور - على رأس تحالف عسكري ضم أوجاين وغواليار وكانوج ودلهي وأجمير. ولم يكن هدفهم الوحيد إلا إيقاف المهاجمين عند بوابات الهند. وتشير المصادر المعاصرة إلى أن الهياج عم صفوف المواطنين، وأن النساء بعن ما عندهن من حلي ومجوهرات، وتبرعن بأثمانها للجيش والقائمين على أمره. وكتب النصر في المعركة لمحمود لأن الفيل الذي ركبه آنندبال ثار خوفاً فأسقط راكبه ودحره. وجاء ذلك الانتصار ليفتح الطريق إلى الهند وإلى الثروات الأسطورية المكتنزة في المعابد التي استعملها محمود في بناء بلاطٍ له في غزني، لم يكن أقل عظمة من بلاط بغداد فيما يتعلق الأمر بمكانة المفكِّرين والفنانين والشعراء، بمن فيهم أبو ريحان البيروني.

ويمكن أن نقول إن البيروني كان صائباً حين بالغ في ثناء الهنود لتقدمهم في الرياضيات والتنجيم والفلسفة والهندسة المعمارية، ولاحظ أن المسلمين لا يسعهم سوى أن يقفوا حائرين أمام ما في الهند من خزانات وصهاريج. لكنه انتقد البراهمة على غبائهم الذي غدا داء لا يقبل العلاج. وذكر أن الهندوس يعتقدون أنه ليس هناك بلد في العالم مثل بلدهم، ولا شعب كشعبهم، ولا ملك كملكهم، ولا علوم تعادل علومهم رقيّاً. وذلك ما جعلهم متعجرفين، مغترين بأنفسهم، ومختالين إلى درجة الحمق، لذلك تراهم لا يتقاسمون معارفهم مع أبناء قوميات أخرى من بينهم؛ فضلاً عن الأجانب أو الغرباء من خارج بلدهم.

في أكتوبر 1024 انطلق محمود نحو سومنات مروراً بملتان وأجمير، وآثر الملك الهروب، ولم يقف في وجه الغزنوي وجيشه، ما أتاح للأفغان أن يصلوا

إلى سومنات من دون صعوبة تذكر. ويقال إن سقف المعبد تكوّن من أربع عشرة قبة من الذهب، وأقيم على ست وخمسين دعامة خشبية مزدانة بالأحجار الكريمة. وفي غرفة مظلمة من غرف المعبد يوجد قضيب (لينغام) الإله شيفا محلى بصنوف من المجوهرات، الذي يأتي ألوف الزوار لعبادته كل سنة، ويحضرون معهم أموالهم. ويبدو أن لا جدوى من تكرار ما روي عن الثروات الطائلة التي حملها محمود معه من سومنات؛ إذ كثيراً ما تكون المبالغ التي يذكرها المؤرخون دلالة على مداهنة أو تذمر نحو شخصية تاريخية. لكن حقيقة ما في الأمر أنه لم يكن يهم هذا الجيش المحارب الذي كان في طريقه عائداً إلى غزني سوى الغنائم وتأمين حمايتها. يصف البيروني الذي لم يكن يشعر بالفخر من الدمار الذي ألحقه محمود بالهند بأنه:

> دمّر رفاه البلد، وبعثر الهندوس مثل ذرّات الغبار في كل الاتجاهات، وأصبحوا حكاية من الماضي على ألسنة الناس. وها هي تلك البقايا التي لأجلها يكره الهندوس المسلمين أشد كراهية، وللسبب نفسه ابتعدت العلوم الهندوسية عن المناطق المفتوحة، ولاذت بالفرار إلى أماكن نائية مثل كشمير وبنارس وغيرهما.

لم يكن محمود يرغب في أن يحكم الأقاليم التي فتحها لذا سلم مفتاح بوابة الهند إلى حاكم في لاهور. وجميع من تبعوه في الحكم هم الآخرون واصلوا سياسته تجاه الهند، وعدها أرض ثروات تبتغى. غير أن تدمير معبد سومنات هو الذي جعل محموداً يعرف في الخرافة الشعبية بأنه غريب مسلم غزا البلد، ونهب الثروات وهتك الأعراض.

ولقد جاء بيان ثان عاطفي مع بداية أعظم إمبراطورية مسلمة في شبه القارة الهندية؛ ألا وهي الإمبراطورية المغولية. سمعة المغول هي التي جذبت البريطانيين نحو الهند، وأوفد جيمس الأول مبعوثه السير توماس رو ـ سبق ذكره في سياق القسطنطينية ـ إلى الديار الهندية. وعندما رأى توماس الإمبراطور

جهانكير في أزيائه الرسمية أخذته الرهبة: ياقوتة بحجم الجوزة في جانب العمامة، وماسة بالحجم نفسه في الجانب الآخر، وفي الوسط زمردة أكبر من حجم القلب. اللآلئ واليواقيت وأحجار الألماس في الوشاح، وأحجار الألماس على المرافق وفتحة الكمين، وطوق من لآلئ كبيرة الحجم حول العنق. ولقد ذكر السائح الفرنسي فرانسوا برنييه أن مداخيل الإمبراطورية المغولية كانت ـ حسب التقدير ـ أكثر من مجموع مداخيل الإمبراطورية العثمانية وفارس. لكن الحقيقة أن هذا البذخ في بداية الأمر بدأ من ظروف عادية، وكان مؤسس الإمبراطورية المغولية بابر يفضل القلم على الأحجار الكريمة.

لُقِّب ظهير الدين محمد بثلاثة ألقاب؛ أولها: "بابر"، وكان وصفياً، ومعناه النمر. والثاني "بادشاه"، أو الملك، دل على ما أنجزه. أما الثالث "الغازي" فقد لقب به نفسه في أعقاب النصر العظيم الذي مكّنه من تأسيس السلطنة المغولية.

في السادس من ديسمبر 1992م دمر المتعصبون من الهندوس بتحريض من القادة الوطنيين مسجداً في بلدة أيوديا كان يعرف باسم المسجد البابري نسبة إلى بابر، لأنهم يعتقدون أن بابر بنى المسجد مكان معبد أقيم تخليداً لذكرى مولد الإله راما.

اتصف بابر ببصيرة غير عادية من دون شك، وهو يذكر في "بابر ناما"، مذكراته أو سيرته الذاتية التي تناول فيها وقائع حياته بكل أمانة وببراعة بيانية منقطعة النظير، ومن دون إبداء شيء من الاعتذار أو الأسف، أنه لم يدمر سوى التماثيل التي وجدها في أورواه بمنطقة غواليور، وأنه زار وادي أورواه يوم 28 سبتمبر 1529م، ويبدو أن مشكلته الرئيسية كانت: "هذه الأصنام التي نحتت كلها عارية، ولم تستر عوراتها. لقد أمرت بتحطيمها".

لا تذكر "بابر ناما" شيئاً عن تدمير معبد الإله راما بأوامر مباشرة، أو على أيدي جنوده في أثناء تحركهم شرقاً لإخضاع الأفغان الذين خسروا السلطنة في

دلهي، من دون أن يخسروا الأمل في العودة إليها. ولو راعينا ما تميزت به المذكرة ـ بابر ناما ـ من صراحة ووضوح لجاز الاستنتاج بأن بابر لم يكن ليتكلف أو يتردد في بيان حدث مهم مثل تدمير مولد الإله راما. وقد لا يكون هذا الاستنتاج حاسماً ونهائياً لأن صفحات من النسخة الأصلية قد ضاعت، على الرغم من أن ورثته في الحكم قد اهتموا بها اهتماماً كبيراً، وعملوا على تأمين إكمال ترجمتها بالفارسية في 1589م. والمهم في الأمر أن أبا الفضل ـ المؤرخ الرسمي زمن حكم أكبر (حفيد بابر)، والذي يعد من أشهر المؤرخين، وكثيراً ما يستند رجال التاريخ إلى ما ذكره ـ هو الآخر لم يذكر شيئاً عن تحطيم المعبد في أيوديا، موطن راما تشاندرا الذي ولد في عصر تريتا، وجمع في شخصه العلو الروحي والخصيصة الملكية إلى جانب أن الشاعر الهندي العظيم غوسوامى تولسيداس ـ الذي كتب ملحمة شعرية حول الإله راما أسماها "راما شرتيا ماناس" ـ لم يكنْ هو الآخر على معرفة بمثل هذا الحدث؛ هدم المعبد في مكان ولادة راما.

ثم إن بابر نفسه لم يكن من المتزمتين في شؤون العقيدة والدين؛ فقد ذكر ضمن الوقائع المسجلة في بابر ناما يوم 24 أبريل 1519م أنه عند صلاة الظهر أقيم في المكان حفل لشرب الخمر. وقال: يوم 24 أبريل 1519م عند الظهر ركبنا واتجهنا نحو كابول، ووصلنا إلى ضريح الخواجه حسن وكنا جميعاً سكارى فرقدنا حيناً من الوقت. والشيء الوحيد الذي لا يتنازع عليه اثنان هو أن المسجد ذا القباب الثلاث في أيوديا بناه المير باقي، أحد النبلاء في بلاط بابر، عام 1528م. والعبارة المكتوبة تعني أن "المكان الذي تنزل به الملائكة قد بني بناء على أوامر السلطان بابر. شكراً لنبي الأنبياء في الدنيا والآخرة، وتمجيداً لمكانة بابر قلندر (المنعزل) الذي حقق نجاحاً عظيماً في الدنيا". إلا أنه ليس هناك أي دليل يؤكّد أن معبداً يكرّم مكان ولادة الإله راما قد هدم لبناء مسجد للمسلمين في محله.

عند الإعداد للمعارك ألقى بابر خطابات بليغة مثيرة ولكنه لم يكن متعصباً. والحقيقة أن التعصب من نوع ما يكون سياسة غير حكيمة بالنسبة إلى فئة صغيرة من الغزاة من الأصول التركية ـ المغولية، تجد نفسها مكتنفة بالأعداء من الأفغان المبعدين، ومن الهندوس الذين لا يعرف هو أو جيشه شيئاً عنهم. كان بين المغول أناس يمكن أن نصفهم بالأصوليين لو كانوا في هذا العصر، فقد أصروا على تنفيذ الشريعة في بلد غالبية سكانه من الهندوس بأقصى سرعة. ويعلق المؤرخ بيمال داس على الاستجابة التي تلقتها تلك النداءات من دوائر الحكم فيقول: "لقد تميز حكام الهند من الأصول التركية بالواقعية والحكمة ورحابة الصدر، وإليهم يعود الفضل في عدم إصغائهم لمثل تلك الأقاويل، والاستئثار علناً بحقهم في اختيار ما رأوه أفضل وأنسب لحكمهم بغض النظر عن الشريعة ونصائح العلماء (The Foundations of Muslim Nationalism, Manohar, Delhi, 1999). إن الادعاء بأن مسجد المير باقي بني في مكان ولادة الإله راما يقوم على اعتقاد ضخّمه مؤجّجو النيران بين الهندوس والمسلمين زمن حكم النائب واجد علي شاه، آخر نواب السلالة الآصفية، في منطقة أواد. والأيادي التي دبرت وأثارت نيران الفتن كانت أيادي البريطانيين الذين وجدوا أنفسهم على بعد خطوة واحدة عن أن يصبحوا أسياد الهند.

المواجهة الحقيقية بين بابر والمصالح الهندية لم تكن على معبد في أيوديا وإنما في ميدان القتال قرب أغرا. فقد دخل بابر دلهي وهزم الملك الأفغاني إبراهيم لودي في معركة بانيبات في إبريل 1526م، وأصبح ملكاً للهند بمعنى الكلمة عقب انتصاره في الجهاد في خانوا بعد سنة.

تنبأ المنجم محمد شريف بأن بابر سيخسر المعركة، ولعله كان يرصد المزاج في المخيم المغولي أكثر من رصد النجوم في السماء. وقف في هذه المعركة في وجهه تحالف قوى بقيادة رانا سانغا. ويقول العقيد جيمس رود، مؤرخ سلالة راجبوت "حوليات راجستان وأزمنتها القديمة» (Annals and the

(Antiquities of Rajasthan, London, OUP, 1920) إن الجيش الذي قاده رانا سانغا كان يتكوّن من ثمانين ألف فرس، وسبعة راجات (جمع راجا) من ذوي المناصب العليا، وتسعة من الضباط بمراتب راو، و104 من الأمراء الملقبين بـ "راول" و"راوت"، وخمسمئة من الفيلة الحربية. وفي المقابل تكون جيش بابر من العدد نفسه من المقاتلين الذين حاربوا في بانيبات، بحدود اثني عشر ألفاً. وفي جميع المناوشات التي اندلعت في بداية المعركة انتصر التحالف الراجبوتي، الذي ضم حسن خان من ميوات ومحمود خان من جيش لودي المنهزم الذي راودته آمال في العودة إلى عرش دلهي. كان اليأس في المخيم المغولي قد بلغ مبلغه.

في السادس والعشرين من فبراير 1527م أصدر بابر أمراً بالانطلاق في الجهاد على ساحتين؛ جهاد ضد المشركين، وآخر في سبيل تزكية النفس، وتاب عن شرب الخمر وأناب إلى الله. وسارع الخدم إلى تحطيم كؤوس من الذهب والفضة. ويصور بابر نفسه المشهد فيقول: على أرض الكراهية والدمار تحطمت الأباريق والأكواب وغيرها من الأواني الذهبية والفضية التي كانت في جمالها وعددها مثل نجوم الفلك. كسروها فجعلوها حطاما، وهكذا ستمزق وتحطم آلهة عبدة الأصنام إن شاء الله. بعد ذلك استدعى جميع فرسانه وشجعانه وقال لهم: إذا مات المرء موتاً كريماً يكون موته أفضل من حياة مذلة وعار. لقد أعطانا الله عز وجل سعادة، وخلق لنا نعماً، فإذا متنا متنا موت شهداء، وإذا قتلنا قتلنا انتقاماً من عصيانه. إذن فليحلف كل أحد منكم ويقسم بكلامه المجيد أنه لن يحوِّل وجهه عن هذا العدو، ولن يولي مدبراً عن هذه المعركة ما لم تنزع الحياة من جسده. وحلف الجميع بالقرآن.

ويوم 13 مارس ـ فاتح السنة بالتقويم الفارسي ـ نظم بابر التشكيلات، وبدأت المعارك في اليوم السابع عشر بين الساعة التاسعة والعاشرة صباحاً. كان

بابـر في القلـب يحـيطه الذين يجاهدون في سبيل الله (الوصف القرآني للجهاد، ومـا ذكره بابر في مذكراته (بابر ناما) فيه إشارات متكررة إلى الآيات القرآنية التي تتحدث عن الشهداء وإيمانهم، وتعد بالنصر للمؤمنين).

كانـت الهجمـات الـضارية من الجانب الأيسر تزيد موقف المغول حرجاً، إلا أنهـم اعتـصموا بالخطوط الأمامية. وأصدر بابر الأمر بأن تتحرك كتيبة خاصة مـن الجـنود المـشاة إلى الخطـوط الأمامية، بينما استخدم سلاح المدفعية بقيادة الأسـتاذ علـي قُلـي، "أعجـوبة زمانـه"، المدافع والبنادق بفعالية كبيرة من وراء صـف مـن العربات (التكتيك نفسه الذي استخدم في بانيبات أيضاً). ومن القلب تقدم بابر نفسه نحو جنود المشركين، وفي ظل الفتح والحظ عن اليمين، والوقار والنـصرة عـن اليـسار، وبـين أوقـات الصلاة الأولى والصلاة الثانية كانت ألسنة لهـيب القـتال تـبلغ السماء، وكان جيش الإسلام من اليمين واليسار يدفع جيش الكفار يميناً ويساراً ليلتصقا في زحمة بالقلب.

في آخـر الأمـر هـاجم الأعـداء بقـوة وضـراوة ميـسرة المغـول؛ إلا أن المجاهـدين الـذين شـغلهم الجـزاء الموعـود عـن أي شـيء آخـر انهالوا عليهم بالـسهام وأرغمـوهم علـى التـراجع. وفي الـنهاية "لاح النـصر في جمـال امـرأة ضـفائرها مـزدانة بـــ لينـصرنك الله نـصراً عزيـزاً، فوهبنا حسن المآل الذي كان مخـبّأ وراء حجـاب، وأصـبح حقيقـية وتفـرّق الهندوس الحمقى، بعدما عرفوا حرج موقفهم، وتناثروا كالعهن المنفوش والفراش المبثوث".

بعد هذا الفتح لقب بابر نفسه بلقب الغازي، وكتب الأبيات الآتية:

لأجل الإسلام جبت الفيافي

وأعددت لحرب المشركين والهندوس

عقدت العزم على أن ألقى الموت شهيداً
والشكر لله! عدت غازياً

إن لحرب خانوا هذه أهمية قصوى؛ لأنه لو خرج منها بابر خاسراً لكان ذهب عرش دلهي إلى رانا سانغا الميواري، وانتهت به سلسلة السلاطين المسلمين الذين حكموا دلهي منذ 1162م عندما ألحق محمد الغوري الهزيمة ببريثويراج. ونتيجة لانتصار بابر في حرب خانوا ظل سلطان من السلاطين المسلمين يتربع على العرش في دلهي أو في أغرا حتى العام 1858م حين أجلى الإنجليز بهادور شاه ظفر الذي فارقه الحظ إلى بورما. وجرت محاولتان في ميدان بانيبات لإعادة الأمور إلى مسارها: الأولى عام 1556م والثانية 1761م؛ وكلتاهما باءتا بالإخفاق.

ويذكر همايون نجل بابر أربعة أمور؛ أنه خسر السلطنة نتيجة حرب في كانوج في مايو 1540م دارت بينه وبين حاكمه للأقاليم الشرقية، شير شاه سوري الأفغاني الأصل، وعاد إلى الحكم مرة أخرى عام 1555م بمساعدة طهماسب، ملك فارس وصديق أبيه بابر. والعودة إلى العرش كانت أسهل من إضاعته منذ نحو عقد ونصف. وقد وفى عند عودته بما وعد به ساقياً يدعى نظاماً، فجعله ملكاً ساعتين أو يومين لدى عودته إلى دلهي في يوليو 1555م، اعترافاً بأنه أنقذ الملك من الموت. ولأن همايون كان أباً لأعظم إمبراطور مغولي (جلال الدين أكبر).

بالغ أبو الفضل - المؤرخ في ديوان الإمبراطور أكبر - في التملق للعرش في مؤلفه "أكبر نامه"؛ فقد ذكر أن ملك الملوك (أو الشاهنشاه) ولد بابتسامة تعطي فرحة لقلوب العقلاء. لكن الحقيقة أنه ما عرف شيئاً يبعث على الفرحة؛ كان الأب همايون وزوجته حميده يعيشان في المنفى عندما ولد ابنهما أكبر. ثم كان على الطفل أن ينتظر وينتظر قبل أن يأتي ما يجعله يبتسم. وعندما بلغ أكبر الرابعة عشرة من عمره توفي أبوه. ولم يتمكن الأربعة من القائمين على أمور التربية من تثقيفه مع أن أحدهم المدعو عبد اللطيف استطاع أن يخلق لديه حباً دائماً للشعر الصوفي.

لقد واجه الملك الطفل تحدياً في العرش من قبل رجل غريب لم يعرف له مثيل في تاريخ الهند، وكان رجلاً قبيحاً ناقصاً في النمو، ولم يكن يعرف استعمال السيف ولا ركوب الفرس، وانتمى إلى إحدى أدنى الطبقات في الهرمية الهندوسية، لكنه كان بطلاً حقيقياً. كان اسمه هيماتشاندرا، لكن الناس دعوه هيمو. بدأ حياته كبائع بارود في بلدة صغيرة تدعى ألوار، وفي مدة وجيزة تعرض فيها الحكم المغولي لخلل ارتقى بسرعة حتى أصبحت الإدارة كلها خاضعة له، واستطاع أن يعوض عن جوانب النقص في شخصه من خلال كفاءاته القيادية وذكائه النادر.

في 1556م انطلق هيمو ليواجه عساكر الإمبراطور أكبر على ما كان أمرها من هشاشة وضعف. وشاعت التنبؤات عن المصير في كل طرف من طرفي المعركة المرتقبة. ففي الطريق إلى بانيبات رأى هيمو في المنام أن فيضاناً اكتسح الفيل الذي ركب ظهره، وأنقذه المغول من الموت. وعن الجيش المغولي فقد تكهن أحمد بك الذي طالع الحظوظ في عظام كتف الغنم بأن أكبر سيخرج ظافراً من المعركة. دارت رحى المعركة ورجحت كفة هيمو، بينما كان أكبر يرقب من فوق تل يحرسه رجال من عسكره. كادت المعركة تنتهي بهزيمة المغول فإذا بسهم يصيب هيمو. وهو الحدث الذي يعزوه أبو الفضل إلى الغضب الذي أنزله الله على الكفار، ويقول إنه جاء فتحاً للمسلمين في الجهاد. وسيق هيمو مغلولاً إلى أكبر إلا أنه رفض أن يقتل رجلاً وهو في الأغلال، فبادر بيرم خان المجاهد في سبيل الله وقتله.

دلت البوادر كلها على أن حكم المغول قد قدر له البقاء؛ إلا أن الحفاظ على السلالة يتطلب وريثاً للملك أيضاً. في الرابعة عشرة من عمره تزوج أكبر رقية ابنة عمه هندال. وبعد مرور ثلاث عشرة سنة على زواجه منها ومن أخريات لم يرزق بوريث ذكر يخلفه في الحكم. لم تكن ميوله الجنسية ولا الأعراف

الـسائدة في ذلـك العـصر مـشكلة بالنـسبة إلـيه؛ إلا أن زياراته المتكررة لبيوت الأمراء ورجال البلاط الملكي صارت تسبب نوعاً من المشكلة، بسبب الميل إلى مغازلـة النـساء. فقدّم بدايوني، أحد رجال الحاشية، نصيحة معقولة إلى كل من أزعجـته مـيول الإمـبراطور: لا تـصادق فـيّالاً، وإلا وسّع باب بيتك. رزق ثلاثة أطفـال: فاطمـة، والتوأمين حسن وحسين (بأسماء أهل البيت)، وجميعهم ماتوا في سن الرضاعة.

ولمـا بلـغ الـيأس مـنه مـبلغاً الـتفت إلى أحـد مـريدي الشيخ معين الدين الشيـشتي أجلّ المتصوفة في الهند، وكان قد أتى في أواخر القرن الثاني عشر من العـراق، واسـتقرّ في مديـنة أجمـير. زار الإمـبراطور سليم الشيشتي من الطريقة الشيشتية، في صومعته في قرية سيكري بالقرب من أغرا، وتعهد بأنه إذا رزق ابناً فإنه سيمشي إلى مزار الشيخ معين الدين الشيشتي على الأقدام. حملت منه زوجة لـه مـن طـبقة الـراجبوت، ابنة الراجا بيهارامال، وفي أغسطس 1569م وأنجبت ولـداً أسمـاه "سـليماً". ومشى سلطان الهند حافي القدمين مسافة ثلاثمئة كيلومتر من أغرا إلى أجمير ليقدم شكره إلى مزار الشيخ معين الدين.

صـحيح أن الإسلام قد انتشر في ربوع الهند؛ إلا أنه لم ينتشر بسيف حمله أكـبر، بل يعود الفضل في ذلك إلى الصلحاء والقوى الروحية التي امتلكها أجلّ الـصوفية من أمثال الشيخ معين الدين الشيشتي. انحنى الإمبراطور أمام الولي. لم يكـن الملوك يطلبون ولاء الصوفية؛ لأن ولاءهم لله وحده. ولفظ الصوفي مشتق مـن الكلمة العربية (صوف)، وكل رجل وامرأة سلك هذا الطريق دعي "صوفياً" لأنـه لم يملـك شيئاً من الدنيا غير خرقة خشنة من الصوف. الصوفي يختار لنفسه حـياة هدفها الأول والآخر هـو الاتحاد مع الذات الإلهية، مستلهماً آيـات قرآنية مـثـل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]، ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طـه: 7]. الحكمـة الـتي يحظـى بهـا هـؤلاء الـسادة حكمة إلهية؛ إلا أنهم لا يوضحون ما

ينعمون به من قوى روحانية ولا بتمجيده أو الاعتزاز به، وهم ينظرون إلى الحياة نظرة احتقار كمن لا ينظر إلى موجود غير الذي يحبه.

لقد استمرت الصوفية عنصراً من عناصر التقاليد الإسلامية منذ صدر الإسلام، ولد الحسن البصري في المدينة بعد وفاة النبي ﷺ بعشر سنوات فقط. يوضح الشيخ فريد الدين العطار في "الصوفية والأولياء من المسلمين" حساسيات الصوفي: "قال أبو يزيد البسطامي الصوفي الفارسي من القرآن التاسع، "قطعت المفاوز حتى بلغت إلى البوادي وقطعت البوادي حتى وصلت إلى الملكوت وقطعت الملكوت حتى وصلت إلى الملك. فقلت بالإجازة؟ قال: وهبت لك جميع ما رأيت. قلت إنك تعلم أني لم أر شيئاً من ذلك. قال: فما تريد؟ قلت: أريد أن لا أريد".

إن أول من وصل إلى الهند من الصوفية كان منصور الحلاج، الولي الذي أصبح مثار خلاف حاد، فأضاع رأسه بمعنى الكلمة؛ فقد تجاوز الحدود التي كانت قابلة للتأويل عند العلماء، وألقى بنفسه فيما كان محرماً وكفراً حين جعل ذاته تساوي الحق، فنفذت فيه عقوبة الإعدام يوم 28 مارس 913م، وصار يذكر أسطورة ومثالاً لتفاني العبد في عبادة ربه. في أثناء مكوثه في الهند تجول منصور بين الأراضي التي فتحها العرب في السند والبنجاب، وتحول إلى رمز للحب في الشعر الشعبي في المنطقة؛ لكن الحقيقة هي أن الهند عاشت التصوف وتأثرت به لدى وصول الشيخ معين الدين إليها.

وما تناقلته الألسنة عن الشيخ معين الدين وجلالة مكانته قد دون باللغة الفارسية بعد مرور ثلاثة قرون على وفاته، وتلك الآثار مشحونة بالخوارق والألغاز؛ لكن المهم في الأمر أن تلك الآثار جميعها تنطوي على أخبار عن إسلام هؤلاء الذين اعترفوا بكون قوته الروحانية أرفع وأسمى. ويروي "سير الأقطاب" (نقلت عنه الدكتورة بي. أم. كوري في " The Shrine and Cult of Muin

حكايات عما (al din Chishti of Ajmer, oxford University Press, Delhi, 1989
جرى في مواجهاته مع ملك أجمير والكاهن شادي ديف، وعن إسلام أجاي بال، أكبر ساحر في الهند وأقواهم. وعلى الرغم من أن هذه الحكايات خرافية بمعنى الكلمة؛ إلا أن هناك من يصدقها ويعتقد بأنها حق.

لقد اختار معين الدين مدينة أجمير في الهند محطة له لرؤيا رآها وهو في غيبوبة عند قبر الرسول ﷺ بالمدينة. وأوَّلَ رؤياه بأنه مأمور بنشر كلمة الإسلام بين الناس؛ فسافر سنوات حتى وصل إلى أجمير برفقة أربعين من أتباعه. كان هناك منجمون قد أوصوا الملك المحلي بقتل الدرويش فلان إن دخل أرضه؛ إلا أنه لم يعق معين الدين ورفقاءه أحد لدى قدومهم إلى مملكته. وقد نزلوا تحت شجرة خارج المدينة حيث بركت جمال الملك. جاء سائق الإبل الملكي وقال لهم أن يغادروا المكان، عندما سمع الشيخ كلامه نهض من مكانه غاضباً، ودعا على الجمال بأن لا تقوم من مقامها أبداً. وذهب بنفسه إلى حافة بحيرة تدعى "آنا ساجر".

دار نقاش بين الشيخ معين الدين والهندوس لأنه أكل اللحم، وتحول إلى جدل مرير وهوجم الشيخ في صلاته. ثم إنه أخذ حفنة من تراب وتلا عليها آية الكرسي ثم رماها على المهاجمين؛ فلحقهم ضعف شديد، وفقدوا القدرة على الحراك. وعندها ذهب الناس إلى رجل يدعى ديف ليستشيروه في الأمر، فقال: إن ساحراً قوياً من السحرة هو الذي يمكن أن يرد على هذا الناسك المسلم ويعرف حيلته. وخرج بنفسه للقاء الشيخ، إلا أنه ذعر وأخذته الرجفة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وكلما حاول أن يحمي نفسه بقول "رام، رام" انطلقت من بين شفتيه اسم الله، "رحيم، رحيم". فأعطاه الشيخ كأساً فيها ماء، فشرب منها ورمى بنفسه على قدميه، فأسلم وأصبح من تلامذته وأتباعه.

سأله الشيخ معين الدين عن الاسم الذي سمي به؛ فقال "ديف". فأضاف الشيخ إليه كلمة "شادي" علامة على إسلامه فصار يدعى شادي ديف. وأرسل في

الـوقت نفـسه إليه رجلاً يسأله عن الإبل المتسمرة في مكانها، وأنها نهضت بعد أن خلـصها الـشيخ مـن رقيته. ثم جاء أجايبال، أكبر ساحر هندوسي، ليختبر ما امتلكه مـن قـوى أمـام الشيخ معين الدين وروحانيته، ولما دفع الشيخ شعوذته وسـحره وأفاعـيه وقذائفـه الـنارية كلها أطاعه وقبل الإسلام ديناً، وسماه الشيخ "عبد الله". ويقال إنه طلب من الشيخ معين الدين أن يباركه في أمر، ويمنحه حياة دائمـة. فـدعا الـشيخ واسـتجيب دعـاؤُه ولكن بشرط أن يبقى مستوراً عن أنظار الـناس. وإن أجايـبال أو عبد الله يأتي لزيارة ضريح معين الدين كل ليلة من ليالي الخميس.

ومـنذ وفاتـه غدا ضريحه مزاراً يؤمه الناس سلاطين كانوا أم عبيداً؛ إلا أن شـهرته تـضاعفت بعـد أن مـشى إليه الإمبراطور المغولي حافي القدمين ليشكره علـى مـولد وريـث له. وبنى أكبر مسجداً بجوار مقبرة الشيخ معين الدين، وزار الـضريح أربـع عـشرة مرة، وكان جهانكير (ابن الإمبراطور أكبر) هو الآخر على يقـين بأنه يدين في حياته لهذا الولي. هناك لوحة بفرشاة المصور المغولي العظيم بخيتر في متحف تشيستر بيتي ليبرري في دبلن تظهر الشيخ معين الدين الشيشتي يقـدم أوسمة المنصب الملكي إلى جهانكير. وكذلك زار شاهجهان ابن جهانكير أجمـير خمـس مـرات. بـل إن ابـنه أورانـك زيب الذي عرف بتزمته في الشؤون الدينـية بحـيث عـارض زيـارة أضـرحة الأولياء أتى إلى أجمير لتقديم شكره بعد انتصاره على شقيقه.

مـن الـسلوكيات المألـوفة تماماً في الهند أن يكون تأثير ولي من أولياء الله أكـبر مـن تـأثير سـيف مقـدس. لقد توفي الشيخ معين الدين عام 1236م، ونشر أتـباعه مـن الطريقة الشيشتية بعده الإسلام بين الناس. فاستقرّ قطب الدين بختيار كاكي في مدينة دلهي، واختار فريد الدين (يعرف في الأوساط الشعبية ببابا فريد) البـنجاب، وأدى خـدمـات جلـيلة ومهمـة في المنطقة. وقد توفي عام 1266م.

وهـناك حكايـات عجيـبة عنه ما زالت مستمرة في الانتشار حتى الوقت الحالي؛ وتقول إحداها إنه بقي معلقـاً فــي حبــل أربعين يوماً وهو يتأمل. وثمة عدد من الأبـيات في الكـتاب الـسيخي المقدس ـ جورو غرانث صاحب ـ تعــزى إلــى الـشيخ فـريد الدين. كان خليفته الشيخ نظام الدين أوليا الذي توفي سنة 1325م، رئـيس الـصوفية في دلهـي، وفي قلـب العاصـمة الهندية الحديثة ثمة حي يدعى حـضرة نظام الدين. وتوفي خليفته الشيخ نصير الدين شيراغ الدهلوي عام 1356. وكان له تلميذ يدعى غيسو دراز (طويل الشعر)، وقد حمل معه الطريقة الشيشتية إلى جولـبركا في جـنوب الهند. إلا أن هجرته إلى الجنوب لم تكن بسبب ديني؛ فقد لاذ بالفرار من دلهي من وجه حملة تيمور في 1398م.

في منتـصف القـرن الـثالث عـشر ظهـرت طـريقة صـوفية ثانـية دعـيت الـسهروردية، واتجـه أصحابها صوب الشرق إلى البنغال. وفي القرن الرابع عشر أسس الشيخ شرف الدين المانيري الطريقة الفردوسية في إقليم بيهار. أما الرجال مـن الطـريقة القادرية فانهم وصلوا إلى الهند في نهاية القرن الخامس عشر. وفي أوائـل القـرن الـسابع عشر أسس أصحاب الطريقة النقشبندية قاعدة لهم في بلدة سـرهيند بـولاية البنجاب، وانضموا إلى سياسة الإمبراطورية المغولية؛ إلا أنه لم تشاركهم أي طريقة أخرى من الطرق الصوفية في رؤيتهم المتحفظة.

الـتوافق والتـناغم مـن صميم التعاليم الصوفية؛ والمتصوفة نشروا الإسلام في ربوع الهند من دون إثارة نزاعات، ولم يعارضوا استيعاب التقاليد الاجتماعية المحلية. وقد سمح الشيخ شرف الدين المانيري مثلاً للمسلمات من بيهار بوضع مـادة حمـراء تدعـى "سـيندور" علـى مفـرق شـعرهن كعلامة على الزاوج. وقد أسـست المـنظمات الدينـية الإصلاحية، مثل جماعة التبليغ، في القرن العشرين لإزالة مثل هذه الممارسات التقليدية من الإسلام في الهند.

وفـيما نجد عوامل كثيرة تميز سكان شبه القارة الهندية بعضهم من بعض؛ لا يـزال هـناك مظهـر مـن مظاهـر التقديس يسمو فوق مأساة التفرقة وتهديدات

الحـروب المتواصلة: الخضوع عند مزارات الأولياء من أمثال الشيخ معين الدين الشيـشتي والـشيخ نظـام الـدين. وعندما يفد زعيم باكستاني في زيارة رسمية إلى الهـند يـضع أجمير في برنامج زيارته، وما من هندي يعيق مثل هذه الزيارات في حال من الأحوال. هؤلاء الأولياء جميعهم كانوا من عامة الناس، ويستمر أمرهم كـذلك إلى يومـنا. ورسـالتهم تصون التآلف في الحياة اليومية حتى عندما تصبح الحروب بين النخبة مريرة، وتتسم عبارات المؤرخين بالقسوة والحدة التي تحرق بعد وفاتهم بأجيال طويلة.

لقد وصل الإسلام إلى شبه القارة في مطلع القرن الثامن، وبوصوله نشأت علاقـة متـشابكة ومعقـدة انعكـست ملامحهـا في الحـروب والـثقافة والحضارة والـتحاور واللـباس والأخـلاق والأدب والقانـون والتـصوف والفلـسفة والـريبة والأسـطورة والانفصال والاندماج والأوهام والأحلام، وقد تولدت هذه العلاقة مـن بطـن الحـرب، لكـنها لم تـدم بالحـرب. قـدم المـسلمون إلى الهـند غـزاة ومهـاجمين، وجعلـوا مـنها وطناً لهم فأصبحوا هنوداً. واستمرت بلداً لهم حتى بعـد نجاح الاستراتيجية التي رسمها المرسوم البابوي عام 1455، بعد سنتين من سقوط القسطنطينية بأيدي المسلمين، عبر طريق طويل وملتوٍ بعد أربعمئة سنة.

- 9 -
البحر المقدس: الفلفل والسلطة

إذ أدرك الأمير المذكور الأمير هنري البرتغالي، [الذي يدعى الملاح أيضاً] منذ مدة أن الملاحة في هذا البحر المحيط في اتجاه السواحل الجنوبية أو الشرقية لم تكن من الأمور المألوفة أبداً، أو على الأقل ليست من الأمور التي يتذكرها الناس. وقد علم الأمير أن لا أحد منا في الغرب يعرف مثل هذه الملاحة، كما أننا لا نعرف كثيراً عن الشعوب التي تستوطن تلك المناطق. وعلى الرغم من ذلك يرى أنه يمكن أن يؤدي واجبه نحو ربه في هذا الأمر أحسن وأفضل أداء إذا أصبح ذلك البحر قابلاً للملاحة بجهده وكدحه، إذ إنه لو وصل إلى الهنود الذين يقال عنهم إنهم يعبدون اسم المسيح فسيكون بوسعه أن يقيم صلات معهم، ويحثهم على مناصرة المسيحيين في حربهم على المسلمين وغيرهم من أعداء الدين، وسيغدو من الممكن أيضاً الاستيلاء على شعوب أخرى من الكفرة والمشركين الذين لم تمسسهم عدوى محمد.

[عن المرسوم الذي أصدره البابا نيكولاس الخامس في 8 يناير 1455م. الذي أراد أن يقيم تحالفاً بين القوى المسيحية الغربية وأهل الهند الذين ظنهم خطأ مسيحيين هراطقة لأنهم لم يكونوا مسلمين، وذلك بغية تضييق الخناق على الإمبراطوريات الإسلامية فيما بينهما].

ظهر أسطول عظيم في المحيط الهندي في القرن الخامس عشر، وأقام قيادته بقوات ساحقة من جاوا إلى كلكتا، ومنها إلى ماليندي أغنى موانئ شرق أفريقيا في شمال ممباسا وجنوب مقديشو. ولو شاهد المرء الأشرعة عن بعد لرآها كالغيوم المتراكمة، وقد أحدثت الطبول المحملة عليها هزات لدى اقترابها

مـن الموانـئ. والـسفينة المحملـة بالبضائع كانت عليها تسع صوارٍ، وبلغ طولها أربعمـئة قـدم، فـيما لم يكـن يتجاوز طول سفينة كولمبس، سانتا ماريا، خمسة وثمـانين قـدماً. غـير أن هذا الأسطول لم يكن دليلاً على أي قوة أوروبية، وإنما انطلق من السواحل الصينية.

كـان قائـد هـذا الأسـطول الصيني مسلماً اسمه زينغ هِي. وكان والده، ما هِي، قد أدى فريضة الحج، وقتل في الحروب مع المغول عام 1381م. كان زينغ ثـاني أبـنائه، وقـد أرسـله إلى بكين حيث أجريت له عملية إخصاء ليغدو طاهراً ونـزيهاً ومهـيأً للخدمـة في البـيت الملكـي. (سمـي سـان بـاو، أو الخصي ذي الجوهـرات الـثلاث، وثمة تفسير بأن اللقب انبثق من مصدر شرف بوذي بمعنى الجواهر الثلاث للقذف العفيف). اختار زينغ الوقوف إلى جانب جهة منتصرة في حروب الخلافة، وصار من أقرب الناس إلى الإمبراطور زو دي. كان الإمبراطور حائراً في أول الأمر، وفكر فيما إذا كان زينغ الذي تقدمت به السن يصلح لقيادة مثل تلك المغامرات البحرية، لكن الاختيار وقع عليه من دون غيره من البحارة؛ لأن مثلاً صينياً يقول إن "الفرس المسنّ يعرف الطريق".

قاد سبعة أساطيل من الصين إلى أفريقيا خلال 1405 - 1433م، ووصل إلى ماليـندي عـام 1418م. وقـد تألـف الأسـطول الأول من تلك الأساطيل من 317 سـفينة حملـت 27000 رجـل. لم يـشهد العالم مثيلاً له من قبل. وبحلول 1433م استطاع زينغ أن يفرض سيطرته على البحار، لكن ليس على المسؤولين الصينيين داخـل بلـده. بعد وفاة زو دي آثروا العدول عن سياسته، وقرروا إيقاف الأموال المطلـوبة للبحرية، ولجأُوا إلى الانعزال. ونتيجة لذلك صار المحيط الهندي مرة أخـرى مفـتوحاً أمـام دول لو أتيح لها إرسال ثلاث من السفن بربع حجم السفن الـصينية لاتـصفت مغامـراتها تلـك بـنعوت التعظـيم ولأبهـرت الناظـرين إلـيها والكاتبين عنها معاً.

قبل وصول زينغ إلى ساحل أفريقيا بثلاث سنوات فتحت دولة أوروبية فقيرة معقلاً للمسلمين على الساحل الشمالي مما أثار إعجاب روما والدولة المعنية نفسها وحيرتها. كان الملك جون قد نال تقديراً كبيراً لدى رعاياه لأنه حافظ على استقلال البرتغال في وجه قشتالة التي توسعت طموحاتها مع مرور الأيام. في عام 1415م عبرت مجموعة كبيرة من سفن شراعية صغيرة مسافة 15 ميلاً بين البرتغال ومدينة سبتة، التي كانت تحت سيطرة المسلمين. لكن حاكم سبتة لم يأخذ هذا التهديد مأخذ الجد؛ بل أرجع عسكراً من البربر جاء لحماية المدينة. ولما استولى الملك جون على سبتة يوم 21 أغسطس 1415م خسر ثمانية من رجاله فقط. وذَبَحَ المسلمين، وتحول جامع المدينة إلى كنيسة، وأعلن الملك أن ذنوبه كلها قد غفرت بعد أن غسل يديه بدماء الكفار. وسايره البابا أيضاً فيما قاله، وأعلن بدوره أن ذلك النصر نصر للصليب.

شارك أبناء جون من الملكة الإنكليزية فليبا (ابنة جون غونت) دوراتي، وبيدرو، وهنرى في حرب سبتة ونالوا مرتبة الفرسان. وقد تنبأ المنجم بأن هنري سيرتقي قمة المجد، لكن ذلك المجد بدا مستبعداً لكون هنري أصغر الأبناء، وأبعد ما يكون عن العرش. وفوض إليه والده خدمة يقصد بها إبقاء الثالث من الأبناء مشغولاً. وفي عام 1319م أصدر البابا جون الثاني والعشرين مرسوماً أنشأ بموجبه أخوية المسيح للدفاع عن المسيحيين في وجه المسلمين، ولنقل الحرب إلى المسلمين وإلى أراضيهم. وأصبح هنري رئيس هذه الأخوية في 1417م. ولم تستطع البرتغال على مدى مئة سنة أن تنجز مهمة تذكر في هذا الخصوص؛ وذلك لأنها كانت دولة فقيرة، ولم تكن تملك من الذهب ما يكفي لصياغة القطع النقدية، واستعملت العملة المراكشية. فقد كان الذهب العملة الوحيدة التي يقبلها التجار للسلع الثمينة والكماليات مثل التوابل والحرير، وارتفعت أثمانه، وزادت أضعافاً مضاعفة بعد أن استنزفت التجارة ما تبقى منه في حوزة البرتغاليين. لذا وقف الفاتحون مبهورين أمام نوعية البيوت التي وجدوها في سبتة.

ولما بلغ هنري الخامسة والعشرين انتقل إلى مدينة الغارف التي فتحها فرسان الهيكل، وكان بين الناس الذين أنزلوه منزلة تكريم من قال إنه أقسم بأن يحيا حياة عفة. وعندها ألقيت على عاتقه مهمة رعاية الذين اتخذوا من الاكتشاف مهنة لهم، وشجع البحارة على التوجه إلى ساحل أفريقيا، ذلك أن السفن إذا لم تحقق هدفاً من الأهداف؛ فإنها على الأقل استطاعت أن تعود دائماً بالمغانم والعبيد (كان أرسطاطاليس قد وضع النظرية القائلة بأن الأفارقة عبيد في طبائعهم؛ لكن رأيه هذا لا يجعل من هذا الشر مقبولاً).

وصل أول العبيد السود السواحل الأوروبية عام 1441م. وبقيت العبودية شائعة في العصور التي كانت القوة فيها تعني الحق. من المغانم آنفة الذكر خصص الأمير هنري لنفسه الخمس بما فيها العبيد، فيما نالت الأخوية المسيحية منها جزءاً من واحد وعشرين. ومن الأمور التي تجدر ملاحظتها أن المرء حصل على أربعة عشر من العبيد مقابل حصان عربي واحد حين كانت الأسعار متدنية، وعندما ارتفعت الأسعار تغيرت تلك النسبة، وأصبح كل ستة من العبيد يباعون مقابل فرس عربي.

في عام 1437م حاول الأمير هنري أن ينجز مهمة أخرى من أصعب المهمات الموكولة إليه؛ فهاجم طنجة لكنها لم تكن مثل سبتة، على الأقل حتى ذلك الحين. هُزم البرتغاليون، ووقع فرناندو الأخ الأصغر للأمير هنري في الأسر. عرض المراكشيون مبادلة الأمير الأسير مقابل ميناء سبتة؛ لكن هنري رفض فكرة التخلي عن سبتة مقابل الإفراج عن أخيه. وبات فرناندو يتضرع لإنقاذه، وقضى نحبه بعد مرور خمس سنوات على وقوعه في الأسر، وأعلن أنه مات شهيداً.

وعلى الرغم من الانتصارات في الطرف الغربي كانت روما تتخوف من المضي قدماً في الهجمات. وباءت أحلامها في بناء تحالف مع المغول كلها

بالخيبة؛ لأن ورثة هولاكو اعتنقوا الإسلام وانضموا إلى "قواته" بدلاً من قمعها. وأما مشاعر السرور والأفراح في الصفوف المسيحية عقب الانتصارات على ساحة إسبانيا فإنها تضاءلت في وجه القوة العثمانية المتصاعدة. ومع حلول عام 1453م كانت القسطنطينية ـ الرمز الحقيقي من رموز الديانة المسيحية على بوابة أوروبا ـ قد سقطت، وحل العثمانيون محل العرب المهزومين بوصفهم حماة جدداً "للدين الإسلامي". وأسوأ ما في الأمر أن القوى المسيحية لم تعد ترغب في الحروب الصليبية، والبرتغال وإسبانيا ـ هما الاثنتان من دون غيرهما من الدول المسيحية ـ كانتا متحمستين لفكرة الحروب على الأسس الدينية، إلا أنهما كانتا على خلاف بشأن اقتسام الثروات التي يمكن أن تعود بها المغامرات الجديدة.

في الثامن من يناير 1455م أصدر البابا نيكولاس الخامس مرسوماً استجابة لنداء من البرتغاليين (مع أن المرسوم لم يأت إصداره بسبب إصرار البرتغاليين عليه)، وخول الملك ألفونسو بموجبه وورثته والأمير هنري بحقوق فتح الأراضي شرق رأس بوجادور من دون غيرهم، وكان من المفروض على السفن المسيحية أن تأخذ الإذن من لشبونة، حتى وإن لم ترد شيئاً سوى صيد الأسماك في المياه البرتغالية.

بموجب المرسوم فوض ألفونسو، الجندي الحقيقي الذي يقاتل باسم المسيح، بمهمة: "الإغارة على المسلمين حيثما كانوا وغيرهم من أعداء المسيحية أينما وجدوا والبحث عنهم والقبض عليهم وقهرهم وإخضاعهم، والاستيلاء على ممالكهم ودوقياتهم وإماراتهم ومستعمراتهم وممتلكاتهم وعقاراتهم والبضائع المنقولة إليهم وتحويلهم إلى عبيد دائمين".

وأهم ما جاء في المرسوم يتعلق بالاستراتيجية العالمية التي وضع ملامحها قائلاً:

إن هنري يمكن أن يؤدي واجبه نحو ربه في هذا الأمر أحسن وأفضل أداء إذا أصبح ذلك البحر قابلاً للملاحة بجهده وكدحه، إذ إنه لو وصل إلى الهنود الذين يقال عنهم إنهم يعبدون اسم المسيح فسيكون بوسعه أن يقيم صلات معهم، ويحثهم على مناصرة المسيحيين في حربهم على المسلمين وغيرهم من أعداء الدين، وسيغدو من الممكن أيضاً الاستيلاء على شعوب أخرى من الذين لم تمسسهم عدوى محمد.

وصدر في عام 1456م مرسوم بابوي آخر يوسّع صلاحية أخوية المسيح وصولاً إلى الهنود. وما زال صدى رؤية نيكولاس العالمية يتردّد في مؤسسة استشارية أو اثنتين في واشنطن وتل أبيب ونيودلهي تتحدثان عن تحالف ثلاثي يمكن أن يعصر البلدان الإسلامية فيما بينها.

شكل ألفونسو جيشاً من اثني عشر ألفاً من المقاتلين الجدد، كما صاغ عملة جديدة، وباسم يتلاءم مع أهدافها: (كروزادو). لم يصل الجيش إلى القسطنطينية أبداً؛ لكنه عبر ممر جبل طارق واستولى على القصر الصغير بجوار سبتة في 1458م. وفي عام 1471م اتخذ ألفونسو قراراً تجارياً وتعاقد مع تجار العبيد، وعهد إليهم بمهمات الرحلات الاستكشافية، ونقل موارد الدولة إلى حرب أخرى مقدسة ضد أهل مراكش.

وشكل بعد ذلك جيشاً من ثلاثين ألف جندي وثلاثمئة من السفن الشراعية الكبيرة والصغيرة، واستولى على أرزيلا التي كانت مثل سبتة تحتاج إلى ترتيبات للدفاع عنها. قتل في هذه الحرب ألفان من المسلمين واستعبد خمسة آلاف آخرون، وأخذ المهاجمون معهم ثمانمئة ألف قطعة من العملة الإسبانية الذهبية (دوبلون). وواصل جيش الفاتحين زحفه إلى طنجة (مسقط رأس الرحالة المسلم المشهور ابن بطوطة). وسار البرتغاليون آنذاك على طريق آخر، واتخذ الملك لنفسه لقباً وجده مناسباً وهو ألفونسو الأفريقي.

جاءت المنافع في البحر تصدق المزاعم، وفي عام 1471م عبر ألفارو إستيف خط الاستواء قرب جزيرة سماها ساو تومي. وفي الوقت نفسه بدأت إسبانيا في النهوض والتحرك. فاحتمال وصول البرتغال إلى الهند قبل إسبانيا يثير الانزعاج. كان الناس يعتقدون أن الهند تحتضن ثلث سكان العالم، وأكثر من ذلك بكثير إنتاج العالم من التوابل. وكثيراً ما أرسل التجار العرب، الذين استقرّوا في كلكتّا المدينة الميناثية الهندية الشهيرة، التوابل على ظهر السفن التي يركبها الحجاج في طريقهم إلى مكة، وكانوا وحدهم المسيطرين على تجارتها. وفي المرحلة اللاحقة احتكر تجار البندقية هذه التجارة على أوروبا، ولدى وصولها إلى أوروبا تتضاعف أسعارها أضعافاً كثيرة. والتوابل التي كانت تباع في كلكتّا بدوقة واحدة تباع عند وصولها إلى البندقية بستين إلى مئة دوقة، وتتضاعف الأثمان عندما تعرض للبيع في أسواق أوروبا الغربية. وكان الفلفل يحتل مكانة الصدارة في تجارة التوابل لأنه كان يستخدم في تلك العصور مادة لحفظ المأكولات فضلاً عن منافعه الصحية. وعلاوة على خصائصه الطبية فإن خليط الفلفل والملح يُوضع على اللحوم إذا أريد حفظها في الرحلات البحرية أو في أشهر الشتاء الطويلة. لقد أصبحت التوابل من الحاجات اليومية التي لم يكن المرء في غنى عنها سواء أكان كمادة للتجميل أم ترياقاً من الطاعون.

في عام 1478م أرغم البرتغاليون أسطولاً إسبانياً على الانسحاب بعيداً عن ساحل أفريقيا الغربي. وقد حلت روما مشكلة التنافس بين هاتين الدولتين الجارتين نهائياً في يونيو 1494م بموجب معاهدة توردیسیاس الشهيرة التي قسّم فيها "خط البابا" الشهير العالم بين البرتغال وإسبانيا، فحصل البرتغاليون على الشرق، وطلب من إسبانيا الالتزام بالاتجاه الذي سلكه كولمبس.

في 1496م اعتلى مانويل عرش لشبونة، وتوجه أولاً إلى الأكثر أهمية. كان هناك نحو مئة ألف من اليهود الذين لجأوا إلى البرتغال هاربين من حملات

التفتيش في إسبانيا. وبقي المسلمون مقيمين هناك. فأصدر مانويل مرسوماً يقضي بمغادرة اليهود والمسلمين البرتغال في مدة عشرة أشهر أو اعتناقهم المسيحية. ولم تكن أوامره قابلة للتساهل؛ فقد ألزم جميع الأطفال دون الـ 15 سنة بالتنصر، مما جعل الآباء مرغمين على اختيار واحد من الاثنين؛ الدين أو الأبناء.

في السابع من يوليو 1497م ظل فاسكو دي جاما يصلّي طوال الليل في كنيسة هنري دون غيرها. وفي صباح اليوم التالي أقسم المصلّون على أنهم سيفضّلون الموت على الإخفاق. وركع الرجال طلباً للغفران حفاة الأقدام وفي ثياب كهنوتية والشموع في أيديهم. وبالمناسبة تلي عليهم نص المرسوم البابوي أيضاً. ولأسباب غير معلومة أقسم فاسكو دي جاما - وهو يرتدي حلة حمراء عليها صليب مذهب معلق - بأنه لن يحلق لحيته إن لم يرجع من كلكتّا. كانت الرياح مواتية، وانطلقت من لشبونة الحملة الصليبية المكونة من ثلاث سفن: سان جبرائيل، وسان رافائيل، وبيريو، وهي ترفع صليباً أحمر حمرة الدم، خاصاً بالنظام الكهنوتي للمسيح. وكان تحمس الصليبيين من الشدة إلى درجة أنهم نزلوا على الأرض أول مرة بعد أن قطعوا مسافة أربعمئة ميل.

وقد وقعت أول مواجهة بينهم وبين العرب في موزامبيق (وهو ميناء صغير سميت الدولة الآن باسمه). وظن حاكم المدينة الذي كان موالياً لدولة كيلوا أن هؤلاء البيض قدموا للتجارة، وحسبهم أتراكاً. وعندما جاءهم الحاكم ودخل عليهم وهم على ظهر السفينة طلب منهم بأدب أن يروه نسخة من القرآن؛ لكن البرتغاليين فكّروا بسرعة ولجأوا إلى الكذب، ثم غادروا المكان من دون انتظار. ذلك التصرف الوديع الذي نادراً ما نطّلع على مثله في تاريخ الشعوب.

وقد سجل الفارو فيلهو، الجندي البرتغالي الذي يدوّن اليوميات في سفينة الجانب البرتغالي في هذه الرحلة القصة بكثير من التفصيل. ويتناول العرض

الهندي للزيارة البرتغالية الأولى بإيجاز شديد يكاد يكون نوعاً من قلة الاكتراث، واكتفى بالقول إنهم جاؤوا ورأوا، ولم يتاجروا. لكن رواية فيلهو تذكر تفاصيل هذه الحرب المقدسة وأهوالها المروعة، وقال إن فاسكو دي جاما استمتع بمشاهد التعذيب، وصب شحوم الخنازير المغلية على جلود المسلمين.

ومن المفارقات العجيبة أن فاسكو وصل إلى الهند بمساعدة ملاح مسلم، ذلك الملاح هو أحمد بن ماجد الذي كان يسلك ذلك الطريق إلى الهند بانتظام، وصار يعرف بلقب المراكشي الكوجراتي. وكان فلكياً وشاعراً وبحاراً عظيماً، وجه أحمد بن ماجد السفن البرتغالية إلى الوراء ونحو النصف الشمالي، (كان هناك تصفيق وكلمات شكر لله)، وسيّرها من رأس السيف الطويل شرقاً، ووصل إلى كلكتا في 23 يوماً. وعندما عاد فاسكو دي جاما إلى كلكتا سالكاً الطريق البحري نفسه استغرقت الرحلة ثلاثة أشهر. فقد وصل إلى ذلك الميناء الهندي في 18 مايو 1498م عقب أطول رحلة في تاريخ الإبحار.

في طريقه إلى القصر للقاء الراجا، توقف فاسكو دي جاما عند معبد ظناً منه أنه كنيسة لطائفة مسيحية غريبة، وربما رأى صورة أم وطفل فحسبها صورة مريم وعيسى. لكن الصورة التي ركع لها كانت صورة كريشنا وديفاكي.

كان الراجا مانا فيكراما مستلقياً على سرير عاري الجسد، وهو يمضغ جوز الكوثل، ويبصق في وعاء ذهبي يحمله غلام حين جاء فاسكو دي جاما لمقابلته. ولما رأى الهدايا - أحواض الاغتسال والمرجان والقلنسوات القرمزية وأباريق العسل - أشاح بوجهه عنها مشمئزاً، وكاد الربان البرتغالي يفقد حياته لشحه وتقتيره. في اليوم التالي اعتُقِل البرتغاليون، لكن الراجا سرحهم لأن أربعة من أعيان النابر التمسوا إليه بذلك، وقالوا إنهم قطعوا لفاسكو دي جاما عهد شرف لحفظ حياته. وصارت كلكتا تدفع فيما بعد قيمة فادحة للإهانة التي تعرض لها فاسكو دي جاما في شرفه وكرامته.

ولـدى عودة البطل فاسكو دي جاما إلى لشبونة تلقى ترحيباً حاراً، وتسلم عـشرين ألـف قطعـة ذهب (كروزادو) مكافأة له، ونصبه مانويل "رئيساً لكل من غينـيا والفـتوحات والملاحة والتجارة مع أثيوبيا والعرب وفارس والهند". وكتب إلى فرناندو وايزابيلا بأن هناك مسيحيين في الهند مع افتقارهم إلى قوة الإيمان إلا أنهـم يصلحون للمساعدة في تدمير المراكشيين (المسلمين). ونصحهما بمواصلة الحروب المقدسة بهمة وعزيمة أكبر.

في الـثامن مـن مـارس 1500م أقلعـت ثـلاث عـشرة سـفينة في أول مهمة دبلوماسـية اعـتمدت علـى إبراز العضلات العسكرية، وحملت على متنها 1200 رجـل بمـن فـيهم الألمـان ورجـال المدفعـية مـن فلاندرس، وكان على رأسهم ارستقراطي شاب يدعى بيدرو الفاريس كابرال. كان الراجا مانا فيكراما هذه المرة جالـساً علـى عـرش وهـو يلـبس إزاراً محلـياً. وعرض عليه البرتغاليون معاهدة صداقة فقبلها، وأمر بطرد جميع المسلمين فرفض. في المرفأ استولى كابرال على سـفينة للعـرب. وعلـى البر فإن التجار العرب هاجموا البرتغاليين في باحة لهم، فانطلقـت المدافع الأوروبية، واستولى كابرال على عشر سفن تجارية، وأحرقت أطقمها أحياء على مرأى من الناس (أكلوا ثلاثة فيلة وجدوها بين البضائع).

في عـام 1502م انطلـق فاسكو دي جاما مرة أخرى بخمس وعشرين سفينة وسـلاح مدفعية أقوى من ذي قبل. وفي طريقه إلى الساحل الهندي أوقف سفينة للحجـاج، وأحرق على متنها 700 من المسلمين في طريقهم إلى مكة. أما كلكتا فقـد دمـرها الـبرتغاليون بـنيران المدافـع، وأقـيم عرض لأسرى الحرب بعد أن قطعـت أيـاديهم وأنوفهم وآذانهـم، وكسرت أسنانهم، ووضعوا جميعهم موثقي الأرجـل داخل سفينة، ثم أحرقها الغزاة. وتسلم مانا فيكراما رسالة تطلب منه أن يعـد لنفـسه طعاماً من تلك اللحوم الإنسانية. وعندما أرسل الراجا أحد البراهمة للـتفاوض مع البرتغاليين قطعوا شفتيه، ووضعوا أذني كلب محل أذنيه. وبحلول

عام 1503م شعر البرتغاليون بأن لديهم من القوة ما يكفي لإنشاء مستوطنة دائمة، ولاسيما أنه كان لديهم خمس سفن في كوتشين (إمارة بجوار كلكتّا)، توطدت صداقتهم معها، أو ربما أرغمت على الخضوع.

وبطبيعة الحال أثار ظهور قوة رهيبة جديدة ردود أفعال على مستوى العالم الإسلامي، وقد هدد السلطان قانصوه بوصفه حاكم مصر بالثأر من المسيحيين في القدس. وذهب رئيس دير سانت كاترينا في جبل سيناء إلى روما ولشبونة لإجراء المفاوضات، لكن مانويل رد عليه بأن البرتغال تعمل ما هو واجبها، ويتضمن ذلك الواجب تخريب مكة وتدمير قبر "النبي" في المدينة. من المعلوم أن السلاطين المسلمين عامة كانوا يزدرون الحروب البحرية، وهو شعور تقاسموه مع معظم الملوك، ويميلون إلى اعتبارها "حروب بقالين". لكن عندما تعرّضت شبه الجزيرة العربية للتهديد، اتخذت الإمبراطورية العثمانية قرار القتال.

وفي عام 1507م قاد أمير البحر عامر حسين إلى ميناء ديف في كوجرات اثنتي عشرة سفينة، على متونها 1500 من الجنود وسلاح المدفعية. وآنذاك كان مالك أياز حاكماً لديف، وما يعرف عن حياته وتاريخه يبدو عجيباً وغير عادي؛ فقد ولد في روسيا، وأدخل في الإسلام وهو عبد من العبيد، وشاء له القدر أن يصل إلى الهند وينشأ ويتربى في بلاط كوجرات. قبل شروط اتفاقية مع آلميدا. وفي اليوم الثاني من فبراير 1509م وقف أياز بأسطوله إلى جانب آلميدا الذي قاد 18 سفينة برتغالية محملة بأربعين مدفعاً، وكانت أكثر ارتفاعاً فوق الماء فتمكّنت من شن غارات متكرّرة على سفن حسين ودمرتها. وكتب حسين إلى القسطنطينية أن رجلاً ولد نصرانياً قد غدر وخان.

كان مانويل قد أضاف إلى مملكته لقباً آخر، الهند البرتغالية. ثم جاء ألفونسو دي ألبوكرك لينجز ما أعلنه مانويل بزهو. لكن البرتغال أرادت أن يكون لها إمبراطورية في البحار أكثر منها على البر. وكانت هناك جزيرة بعيدة عن الساحل الغربي الهندي في وسط الطريق بين كلكتا وكوجرات. وبحكم موقعها

الجغرافي كانت صالحة لتخدم الأهداف الاستراتيجية البرتغالية على الأمد القصير. وشارك ألبوكرك سلفه في تعطشهم لدماء المسلمين. مع أنه يضاف إلى اسمه عامة لقب "العظيم"؛ إلا أنه هو القبطان البرتغالي الوحيد الذي خسر معركة في كلكتا، لكنه عوض عن تلك الهزيمة بالزحف في 1510م إلى جوا (الجزيرة التي وفرت مرفأً آمناً حتى في أسوا الحالات الموسمية)، كانت جوا آنذاك جزءاً من مملكة المسلمين في بيجابور.

ومرة أخرى كان البرتغاليون محظوظين حين غادر أكثر المدافعين عن المدينة، وانضموا إلى حرب أخرى دارت رحاها في الوقت نفسه. بعد نزيف الدماء في جوا أربعة أيام والتي سقط ستة آلاف من المسلمين ضحاياه كتب ألبوكرك إلى مانويل: لم نترك أحداً من المسلمين الذين صادفناهم ينجو بحياته، فقد جمعناهم في المساجد وأحرقناهم... وباستثناء مدينة بعظمة جوا وأهميتها، ما من انتقام تم حتى ذلك الحين من خيانة المسلمين تجاه مقامكم السامي وشعبكم.

أصدر ألبوكرك مرسوماً يمنع فيه المسلمين من العيش في جوا، وأعدم ضابطاً كبيراً من ضباط جيشه دعي رودريغس دياز شنقاً عقوبة له بسبب مضاجعته امرأة مسلمة وقعت في الأسر. وفي الوقت نفسه اتخذ قراراً آخر بغية إعطاء الوجود البرتغالي صفة الدوام أو شبهها، وسمح بموجبه للبرتغاليين بالزواج من النسوة المحليات بشرط أن يكون لون بشرتهن مائلاً إلى البياض. ونتيجة لذلك نشأ جيل جديد خليط من الهندي والأوروبي. توفي ألبوكرك عام 1515م عن عمر يناهز ثلاثاً وستين سنة، وقبل موته حاول أن يحقق حلماً كبيراً من أحلامه الشخصية والوطنية؛ فتح مكة والمدينة وتدميرهما، فهاجم عدن لكنه ولى مدبراً بعد أن تكبد جيشه خسائر فادحة في الأرواح.

وهكذا أنشئت في الهند أول مستعمرة أوروبية في منطقة جوا قبل ست عشرة سنة من زحف بابر عبر جبال هندوكوش وتأسيسه إمبراطورية مغولية. واستمر الوجود البرتغالي في الهند حتى بعد الإمبراطورية البريطانية، إلا أن انتصار البرتغاليين كان إحصائياً. ومرد ذلك إخفاق البرتغال في بناء تحالف استراتجي مع غير المسلمين من مواطني الهند، من أجل تضييق الخناق على القوة العثمانية التي بسطت سيطرتها على أراض بين الهند وأوروبا؛ وبدلاً من الفتح والاتساع بقي الوجود البرتغالي محصوراً داخل حدود جوا، بينما أصبح المغول سلالة عظيمة من السلالات المالكة في تاريخ البلاد. وجاءت قوة مسيحية أخرى، بريطانيا، لتضع نهاية لحكم المسلمين في الهند بعد استمراره سبعمئة سنة، وهي على وجه التقريب المدة نفسها التي بقيت فيها إسبانيا تحت حكم المسلمين.

أعلن البريطانيون، أو شركة الهند الشرقية على الأقل، أول حرب لها في الهند في أثناء حكم أورانك زيب، آخر ملوك المغول الستة العظام في عام 1686م. اعتقد السير جوسيا تشايلد، حاكم شركة الهند الشرقية المؤسسة في لندن، أنه يمكن له جلب الحقوق التجارية في البنغال باستخدام سفن المدافع. وربما يكون مندوبه في مدينة سورات شجعه على بناء رؤية من ذلك القبيل؛ إذ رأى المندوب أن البحرية المغولية من الضعف والوهن إلى درجة أنه يمكن تفجيرها (بضرطة). إلا أن الفصل الأول من فصول الحرب المغولية والبريطانية لم يفض إلى مثل تلك النهاية السارة لصالح شركة الهند الشرقية بسهولة.

ولك أن تلقي التبعة مرة أخرى على الفلفل. فقد رفع التجار الهولنديون فجأة سعر الفلفل من ثلاث شلنات للرطل إلى ثمانية شلنات. وفي الرابع والعشرين من سبتمبر 1599م شكل ثمانون من تجار لندن شركة برأسمال قدره ثلاثون ألف جنيه استرليني أو ما يقاربه، وحاولوا الحصول على عهد ملكي

يسمح لهم بالتجارة في الشرق، وحصلوا على إذن جيمس الأول في 1600م، وارتفع عدد المساهمين في الشركة إلى 217، وتضاعف رأس المال وبلغ 68000 جينه استرليني. وفي عام 1608م وطئت أول سفن شركة الهند الشرقية ساحل الهند.

كان من الأمور المعلومة منذ وقت أن بريطانيا تتبنى اهتمامات بالتجارة الهندية؛ فقد وصل أول وفد بريطاني إلى الديوان المغولي بقيادة وليام هوكينز الذي عرف بحنكته الدبلوماسية وكان يجيد الفارسية والتركية، ونزل في الهند يوم 28 أغسطس 1608م، ووصل إلى أغرا عام 1609م حاملاً رسالة الملك جيمس. تشير القرائن إلى أن الإمبراطور جهانكير رحب بشركته، ودعاه أنكليش خان. لكنه لم يلق اهتماماً كبيراً في حسابات الإمبراطور، الذي لم يتطرق إليه ولا إلى وفده في مذكراته الرسمية "جهانكير ناما". وقد غادر وليام الهند عام 1611م يائساً من أمره، وغاضباً من اليسوعيين الذي ظن أنهم فاقوه في الحيلة والدهاء. والواقع أن سباقاً مريراً جرى بين الأوروبيين بغية الوصول إلى البلاط المغولي منذ زمن حكم الإمبراطور أكبر، واشتد ذلك التنافس حدة لإخفاقهم في الوصول إلى الأهداف المنشودة.

ولم تكن الحروب التجارية بين الأوروبيين حروباً مجازية. وقد ذكر جهانكير في مذكراته البريطانيين أول مرة وهو يتحدث عن المعركة البحرية بين الإنجليز والبرتغاليين التي انتصرت فيها بريطانيا. لم يكن جهانكير كغيره من الملوك المغول يهتم بالبحر باستثناء ما يتعلق بتأمين حماية رحلات الحجاج من إمبراطوريته، إلا أنه كان معجباً بكفاءات البحرية البريطانية. وقد أذن بموجب مرسوم ملكي صادر عام 1612م لشركة الهند الشرقية أن تؤسس أول محطة تجارية لها في مدينة سورات، وقد أنشأت مصنعاً لها، وفتحت وكالات التوزيع في مدن أحمد أباد وأغرا وكلكتا.

وفي عام 1615م وصلت إلى الهند بعثة تجارية ثانية نيابة عن الملك والشركة، وكان رئيس البعثة السير توماس رو محامياً من أكسفورد، وقد استكشف الأمازون (ونال عن ذلك لقب فارس)، وكان رجلاً ذا لحية وشارب مقصوص بعناية، وكان سريع الغضب في طبيعته. استخف بأمر المغول، لكن جهانكير ازدراه حين سأله إذا كان الملك البريطاني عظيماً جداً فلماذا هداياه عادية جداً؟ فأجاب توماس أحسن إجابة ممكنة فقال ليس هناك شيء إلا وهو في حوزة الإمبراطور، لذا فإن أي شيء يقدم إليه هدية يكون عديم القيمة. كره السير توماس الهند بقدر ما كره تركيا، ونصح الشركة أن تعتصم بالبحر وألا تتخذ من الهند ساحة لأنشطة عسكرية، ورأى أن كسب الأرباح هدف أفضل من الحروب والمعسكرات. وقد وضعت هذه الآراء توماس في موقع منفرد؛ فقد أخطأ في تقديراته بشأن كل من الهند وتركيا.

اكتسبت شركة الهند الشرقية طابعاً هندياً أكثر من ذي قبل بعد أن ذبح الهولنديون الإنجليز في أمبونيا عام 1623م وطردوهم من إندونيسيا. كانت أرباح الشركة جيدة منذ البداية إذ بلغت العوائد السنوية 25% على رأس المال. ولحماية تلك الأرباح صار لزاماً على الشركة أن تبني حصوناً لها. وفي عام 1640م تحركت الشركة شرقاً، واستولت على مدراس وبنت قلعة السانت جورج. وفي عام 1661م تلقى تشارلز الثاني جزيرة نائية مهراً عقب زواجه من كاثرين براغانزا. كان البرتغاليون يدعون تلك الجزيرة بومباي. وفي عام 1668م أجّر تشارلز بومباي التي كانت رسمياً جزءاً من الأراضي الملكية شرق غرينيش في كنت، مقابل عشرة جنيهات ذهبية سنوياً إيجاراً دائماً. وانتهى الإيجار الدائم في عام 1739م.

وفي عام 1650م منح الأمير شجاع بن الإمبراطور شاهجهان وحاكم البنغال الشركة إذناً للتجارة مقابل مبلغ قدره ثلاثة آلاف روبية، وقد افتتح أول مصنع في

هوغلي. وتحولت الضفة الغربية لنهر هوغلي إلى أوروبا مصغرة؛ فقد قدم الهولنديون آنذاك إلى شينسواره بجوار هوغلي، والفرنسيون إلى أسفل نهر هوغلي، والدانماركيون إلى سيرامبور.

في بادئ الأمر كانت الأمور تسير على ما يرام، وغدا موظفو الشركة من أصحاب الملايين، واستخدموا أموالهم للاستثار بتعاملات كان من الوارد أن تفوز بها الجهة التي استخدمتهم. وكان من بينهم أمريكي في مكتب الشركة في مدراس يدعى إيليهو ييل، المشهور اليوم بفضل الجامعة التي أنشئت بأمواله في ولاية كونتيكت الأمريكية، أكثر من تجارته الخاصة مع كل من سيام وكانتون على حساب الشركة. ومن الأمور المعلومة أن الشركة جاءت إلى الهند للتجارة؛ إلا أن عوائدها الطائلة حرضتها على إعادة النظر في طموحاتها.

في عام 1687م كتب السير جوسيا تشايلد من مكتبه في لندن إلى حاكم مدراس بأن العهد الجديد يهدف إلى تأسيس مستعمرة بريطانية مستقلة في الهند. واستدل بأن الأحداث المستجدة تلزم الشركة بإنشاء دولة ذات سيادة في أرض شبه قارة. كان تشايلد مؤسس الإمبراطورية على أتم قناعة بأن الهند تحتاج إلى الشركة أكثر من حاجة الشركة إليها، وأعلن الحرب على المغول بعد انهيار المفاوضات حول الحقوق التجارية في البنغال. غير أن ممثل الشركة في هوغلي جوب تشارنوك كان أشد حذراً، وبالنظر إلى أنه لم يكن لديه سوى 306 جنود وسفينتان، فإنه لم يغامر بأكثر من اشتباكات محدودة مع القوات التابعة لحاكم البنغال المغولي قاسم خان. استطاعت البحرية المغولية أن تستولي على بومباي عام 1689م، وفي العام اللاحق اضطر رجال شركة الهند الشرقية إلى طلب عفو مذل من الإمبراطور أورانك زيب. فأعاد الإمبراطور لهم الحقوق التجارية في بومباي وهوغلي بعد أن دفعوا تعويضات وقطعوا وعوداً بحسن السلوك.

لمواجهة الأزمة قرر جوب تشارنوك أن يبحث عن مكان أكثر قابلية للدفاع

عـنه مـن هوغلي؛ فاكتشف قرية سوتانوتي التي حمتها الوحول من جانب والنهر مـن جانـب آخـر. ألقـى المرسـاة فـي القريـة المذكورة في 1690م، وبشيء من الـصعوبة حـصل علـى الحقـوق لاستخدام أراضي سوتانوتي وقريتين مجاورتين لها، غوفيندابور وكلكتا مقابل إيجار سنوي قدره 12000 روبية. في تلك الأراضي أقـيم مـصنع وأنـشئت قلعـة ولـيام. وهكـذا ولدت العاصمة. وكما يقول الشاعر روديارد كيبلينج،

كانت كلكتا
وليدة مصادفة في الاهتداء إليها، في إقامتها
أسست وشيدت
على الغرين
قصر، ووحل، وزربية، وفقر، وفخر
جنباً إلى جنب

وما زال الفخر والفقر يعيشان في كلكتا جنباً إلى جنب.

في عـام 1717 جـاء رئـيس الـشركة في كلكـتا جـون سـورمان إلى بـلاط فروخـسيار بـرفقة صـديقه وجليـسه، التاجـر الأرمـني المدعـو خواجا إسرائيل سرحدي. كان الإمبراطور فروخسيار قد نشأ وترعرع في البنغال عندما كان والده حاكمـاً للإقليم، وكانت ألعاب روضته تأتي من إنكلترا. دخل عليه سورمان وهو يحمـل لعـباً للراشـدين. وربما ساعدت الرشاوى الطائلة للحاشية أيضاً، والعناية الطبـية بالإمـبراطور. ومـع ذلك كله فإن المفاوضات كانت من الصعوبة بمكان، ولم يتوصل الطرفان إلى اتفاق إلا بعد أن هدد الإنجليز بالانسحاب من سورات. وهكـذا ربحـت الـشركة بعـد قـرن مـن الالـتماس ومحاولة واحدة فاشلة لإبراز العضلات.

في 31 ديـسمبر 1716م وقّـع الإمـبراطور مرسوماً سماه البريطانيون ميثاقهم العظـيم للحـريات والحقـوق (ماغـنا كارتـا) في الهند. واعترف الديوان المغولي نفـسه بأنـه لم يمـنح أي أمة أوروبية مثل تلك الحقوق أبداً. حصلت الشركة على

تفويض من قبل الإمبراطور يمكنها من الدفاع عن حقوقها المتصورة قانونياً. وفي إطـار ذلك المرسوم أمكن للشركة أن تمارس الأعمال التجارية وامتلاك الأراضي والاستقرار في أي مكان في إقليم البنغال، وذلك كله مقابل مكافآت قيمتها ثلاثة آلاف روبـية سنوياً. وبعد أربعين سنة بالضبط استند روبرت كلايف إلى المرسوم نفسه لإثبات شرعية تقدمه إلى بلاسي.

هناك عدة أسباب كامنة وراء هزيمة النواب سراج الدولة ووفاته في غضون سـنة مـن توليـه حكـم البنغال وبيهار. ليس هناك مجال لسرد قصة ضعفه وخيانة وجهـاء بلاطـه في هـذا الكتاب. يكفي القول عن هزيمة سراج الدولة أتت بداية نهاية حكم المسلمين في شمال الهند.

كـسب المسلمون الجولة الأولى في الخامس عشر من مايو 1756م، وغادر سـراج الدولـة عاصـمة مملكـته، مرشـد أباد، ليحقق آخر انتصار من انتصارات حـياته. وفي العـشرين مـن يونـيو استولى على قلعة وليام بعد أن لاذ البريطانيون بالفـرار. وفي اللـيلة ذاتهـا مـات 43 من 55 من أسرى الحرب البريطانيين خنقاً؛ لأنهـم وضـعوا في زنـزانة أبعادها 14 قدماً x 18 قدماً استخدمت من قبل معتقلاً لمـن كان يسكر من الجنود، وتشتهر اليوم باسم الثقب الأسود في كلكتا. لا يهم إذا مـا كـان سراج الدولة أمر بذلك، أو شعر بالأسف عليه بقدر أهمية رد الفعل علـيه. أصيب الإنجليز بالذعر. كانوا سيحاولون استعادة كلكتا إلى سيطرتهم على أي حال، لكن الثقب الأسود أضاف الحماسة الأخلاقية إلى قضيتهم.

ولـد روبـرت كلايـف يـوم 29 سـبتمبر 1725م قـرب درايـتون ماركت في شروبـشاير، وعـندما كـان في السابعة من عمره ذكر عمه في رسالة ميوله الحادة للاسـتبداد والغطرسة، وشاء العم أن يلقن الولد الكرم والصبر والوداعة، ولكن الحـظ لم يـساعده. إلا أن إخفاقـه نفسه جاء ليكون خيراً لبريطانيا. وتكهن مالك

مدرسة خاصة التحق بها بأنه إذا طال العمر بهذا الولد، فإنه سيحقّق مكانة عظيمة.

كان كلايف في السابعة عشرة عندما حصل على وظيفة كاتب لدى شركة الهند الشرقية براتب سنوي قدره خمسة جنيهات، ولم يستطع أن يصل إلى الهند إلا متأخراً؛ لأن السفينة التي ركبها في مارس 1743م قد تنحت عن الطريق بسبب الرياح غير المواتية، ووصلت إلى البرازيل بدلاً من الهند. ولدى وصوله إلى مدراس كان قد نفد كل ما في حوزته، واضطر للاقتراض مرتين من صديقه القبطان، وقبول قمصان وجوربين هدية من رجل يرافقه على ظهر السفينة، وعندما رجع إلى إنكلترا يوم 23 مارس 1753م كان بطلاً من الأبطال ويمتلك ثروة هائلة. ومن عاصره من الوجهاء والأعيان لم يحسدوه على ثروته ولا على سمعته، وقد تلقى ترحيباً حاراً في إنكلترا وانتخب عضواً في البرلمان. إلا أنه وجد البرلمان يخلو من جوانب الإثارة مقارنة بالهند، لاسيما أنه لم يتجاوز حينئذ الثلاثين. فرجع مرة أخرى إلى مدراس في أغسطس 1756م بوصفه نائب حاكم، وبعد ستة أسابيع فقط كان يقود القوات البرية في طريقها إلى كلكتا لتعيدها إلى سيطرة الشركة. وقد كتب كلايف إلى اللجنة السرية في لندن يوم 11 أكتوبر: "أمتدح نفسي لأن هذه المهمة لن تنتهي بالاستيلاء على كلكتا فقط وإنما سيركز الاهتمام على أن تكون للشركة في تلك المناطق ممتلكات مستقرة أفضل وأكثر بقاء من أي وقت سابق". ما من شك في أن الإمبراطورية البريطانية تأسست على التبصر وبعد النظر.

في 2 يناير 1757م سقطت كلكتا بأيدي البريطانيين من دون مقاومة، وفي الأشهر الستة اللاحقة استطاع كلايف أن يقسم الديوان في البنغال، بعرض منصب النواب على مير جعفر مقابل مساعدة الإنجليز. تعطي القوات التي نشرت من كلا الجانبين في معركة بلاسي الحاسمة فكرة عن مدى حاجة كلايف إلى

المساندة. عندما وقف الجيشان وجهاً لوجه في ساحة القتال كان مع كلايف ثمانمئة من الأوروبيين ومدفعان، إلى جانب 2200 من الجنود المحليين، فيما أحضر سراج الدولة 35000 من الجنود المشاة، و15000 من الفرسان، و53 قطعة مدفعية، ووحدة مدفعية فرنسية. وفي الوقت نفسه أسهم الحلفاء في المعركة لصالحه بـ 5000 فرس، و7000 من الرجالة. عشية المعركة صوت عشرة من أصل 17 عضواً في مجلس الحرب البريطاني ضد الهجوم، وكان كلايف نفسه من بين معارضي الحرب، ولم يتراجع عن موقفه ذلك إلا بعد أن تلقى رسالة من مير جعفر تطمئنه إلى التمسك بالمعاهدة.

لم يكن سراج الدولة يتمتع بالكفاءة المطلوبة لقيادة الجيش على ساحات المعارك، وفي معظم ساعات النهار باتت المدافع تطلق قنابل متقطعة، إلى أن نزلت الأمطار بغزارة وبللت الذخيرة. كان مير جعفر يتفرّج على المعركة، وأبى أن يحرك جنوده حتى بعد أن طلب سراج الدولة إليه ذلك مراراً. وفي الوقت نفسه نشأ سوء فهم بين الوحدات التي قاتلت القوات الإنجليزية أدت إلى نتائج مأسوية. جاءت إليها الأوامر بالتوقف؛ لكنها ظنت أن القيادة تأمرها بالتراجع فولت أدبارها هاربة. وهكذا تسلم الإنجليز البنغال هدية من أحمق وخائن. وقد خسر روبرت كلايف أربعة من البريطانيين وخمسة عشر هندياً.

وعندما دخل كلايف العاصمة يوم 29 يونيو في حماية مئتين من الأوروبيين وثلاثمئة من الجنود المحليين كتب: "مدينة مرشد أباد في سعتها وعدد سكانها وثرائها مثل مدينة لندن؛ ولكن بفارق أن هناك أفراداً في مرشد أباد في حوزتهم ممتلكات أوفر بكثير من ممتلكات أي فرد في لندن". وكان البرتغاليون أيضاً قد وجدوا كلكتا أفخم كثيراً من لشبونة.

في 30 يوليو صدّق الإمبراطور عالمكير الثاني على توصية تقدم بها كلايف، وأقر مير جعفر نواب البنغال وبيهار. لم يكن ثمة أحد يشك في الجهة

الـتي تصدر الأوامر فعلاً. كان ميران، ابن مير جعفر قد قتل سراج الدولة، وبعد ثـلاث سـنوات لقـي حتفه بصاعقة. وقد كانت هذه الحكاية أعجوبة تحل أحجية مـن الأحاجـي المستعـصية، وعندما صارت معروفة في الأوساط العامة اتخذتها المجمـوعات المـسرحية المتجولة في البنغال فاتحة لعروضها المسرحية. أما مير جعفـر فقـد صـار معوزاً بعد صرفه مكافآت طائلة على ضباط الشركة من خزينته المثقلة بالأعباء، إذ إن الشركة أرغمته على منح رجالها 2,340,000 جنيه هدايا.

وكـان كلايـف على رأس قائمة المستفيدين، كما منح رتبة قائد ستة آلاف مـن جـنود الـرجالة وخمـسة آلاف مـن الفرسان، إلى جانب لقب زبدة الملك، نـصيب الدولـة، والكولونـيل شاهات جنك بهادور، وحصل أيضاً على أراضي واسعة شملت أربعاً وعشرين قرية، ما جعله أكبر إقطاعي من بين ملاك الأراضي في البـنغال. ولـدى حـساب مـا في حـوزته من ثروات وجد أنه يمتلك 400000 جنـيه؛ لكـن ذلـك لم يـسبب له أي إحراج، بل إنه ذكر نفسه في تصريح للجنة الـبرلمانية في إنكلترا "أن هناك أميراً من كبار الأمراء يعتمد على رضاي، ومدينة ثـرية تحت رحمتي، ويتسابق أغنى صيارفتها للفوز بابتسامتي... حضرة الرئيس، في هذه اللحظة أقف حائراً مما عليه أمري من تواضع".

لم يكـن الإمبراطور المغولي في دلهي أحسن حالاً من نائبه المهزوم سراج الدولـة في البنغال. ومثلما كان الإنجليز يسيطرون على مقادير الحكام في البنغال كـان المـراثا يسيطرون على شمال الهند. وأشارت البوادر كلها على أن أميراً من أمـراء المـراثا سيحل محل الإمبراطور المغولي في دلهي عاجلاً أم آجلاً، إلا أن آخـر حلقـة في مسلـسل الجهاد جاءت لتمنح الحكم للمسلمين مئة سنة أخرى، إلى أن أسقطته الطلقات المتفجرة من فوهات بنادق الإنجليز.

استـمد المراثا قوتهم من عبقرية زعيمهم شيفاجي (من مواليد عام 1630م) الـذي بدأ يكوّن مملكة له من خلال حصون بناها في سلسلة جبال غاتس الغربية

الوعرة شرق بومباي وغرب بيجابور في الدكن. وقد أحبط شيفاجي محاولة بيجابور لإخضاعه، وتمكّن من صدّ دلهي بمزيج من الدهاء والاستراتيجية والكفاءة العسكرية. وربما جاءت السياسات المعادية للهندوس والتي اتبعها معاصره المغولي أورانك زيب لتضفي على شيفاجي لوناً لم يكن يريده؛ إذ المعلوم عنه أنه لم يكن يتبنى أفكاراً طائفية. بيد أن انتصاراته على أورانك زيب خلقت لدى بعض المؤرخين في الأزمنة اللاحقة قناعات بأنه مثّل الهندوسية بمعاييرها النموذجية في وجه أورانك زيب.

بلغت المملكة التي رعاها شيفاجي مرحلة النضج عندما تعرض الحكم المغولي إلى حالة الانهيار والسقوط. بعد وفاة شيفاجي يوم 4 أبريل 1680م تضاءلت القوة المراثية بسبب انقسام المراثا على أنفسهم بشأن خلافته. ولم يتيسر لهم استعادة ذلك المجد إلا بعد تولي بالاجي فيشواناث منصب "بيشوا" (كبير الوزراء) في 17 نوفمبر 1713م. وبحلول عام 1719م كان بالاجي قد أصبح لاعباً أساسياً في السياسة الوطنية، لاسيما في وقت كان التاج في دلهي يتنقل من رأس مقطوع إلى آخر مشحون بالقلاقل تنقلاً متكرراً يبعث موجة إنذار بين الحكام ومن حكموهم معاً.

مع حلول عام 1737م بدأ المراثا يغيرون على ضواحي العاصمة دلهي. ولجأوا إلى الترقب والانتظار عندما جاء نادرشاه ودمر دلهي في 1739م. وحتى عام 1741م كان المراثا قد استولوا على الأراضي الخصبة في منطقة مالوا. وعندما ضموا الثروة إلى الوحدة أصبحوا سادة الهند بمعنى الكلمة. وفي الوقت نفسه أقاموا تحالفاً رخواً بين ثلاث أسر عظيمة: سينديا، وهولكار بونسليه، وغايكواد، فيما قاد بيشوا التحالف من بونا. وبحلول عام 1758م كان المراثا قد استولوا على لاهور، وواصلوا الزحف إلى أتوك الواقعة على ضفة نهر السند، وفي ديسمبر من السنة نفسها بسطوا سلطانهم على دلهي أيضاً، لكنهم أخذوا

الحيطة ولم يمسوا الإمبراطور بأذى. والواقع أن أميراً من أمراء الحرب الذين اشتد السباق بينهم بغية الوصول إلى سدة الحكم في ذلك الوقت لم يكن يثق بكفاءته للإطاحة بالمغول، الذين تحولوا إلى محض رمز للحكم لا غير، أو بالأحرى لم يكن وجود الإمبراطور المغولي على العرش يهمهم مثلما كان يهمهم أمر بعضهم بعضاً.

وفي 1760م بلغ المراثا قمة المجد، وبدا الانتصار عليهم مستحيلاً أو شبه مستحيل. وباستثناء مناطق البنغال الخاضعة للسيطرة الإنكليزية ومدراس وحيدر أباد وأواد وروهيلكاند في شمال الهند (وقعت هذه الثلاث الأخيرة تحت حكم المسلمين)؛ فإن البلاد كلها تحولت إلى سلطنة للمراثا. في بداية السنة الآنفة الذكر وبالتحديد يوم 24 يناير انتصر المراثا على قوات نظام حيدرآباد في حرب تاندولاجا، وفي أغسطس رجعوا إلى دلهي، وكانت البوادر كلها تشير إلى أن ما بقي من الحكم المغولي من القشور سيسقط آجلاً إن لم يكن عاجلاً وسيحل محله على عرش القلعة الحمراء ملك من المراثا (بيشوا). وفي الوقت نفسه بلغ اليأس من العقلاء والأعيان من بين المسلمين مبلغاً. لم تكن لديهم القدرة على إعادة توحيد الصفوف، ولا بناء أفكار عن ما يمكن عمله في ظل مثل تلك الظروف، إلا أنهم رأوا بأم أعينهم عصراً متقلباً وهم يذوقون مرارة الآلام المنبعثة عن الجروح.

في تلك اللحظات المشحونة بالكآبة لم يجد أحد أبرز علماء المسلمين حلاً سوى الجهاد. كان شاه ولي الله (1703- 1762م) ينتمي إلى صفوة العائلات المسلمة المنحدرة من سلالة الخليفة الراشد عمر الفاروق، والتي جاءت بها إلى الهند أسرة تركية الأصل من آسيا الوسطى. وكان والده عبد الرحيم متصوفاً ومؤرخاً وعالم دين ومن ذوي الرأي في البلاط الملكي، وشارك في تأليف "فتاوى عالمكيري" التي تضم جانباً من جوانب التاريخ زمن حكم الإمبراطور أورانك زيب، وأسس المدرسة الرحيمية في دلهي. حفظ شاه ولي الله القرآن

وهو في السابعة من عمره، وأكمل دراسة العلوم الدينية في الخامسة عشرة، وبعد وفاة والده تولى مهمة إدارة المدرسة الرحيمية وهو ما يزال في السابعة عشرة. ولدى سفره لأداء فريضة الحج عام 1730م كان شاه ولي الله قد اكتسب سمعة حميدة بوصفه عالم دين بارزاً، وله أكثر من مئة مؤلف من الكتب والرسائل.

حلل شاه ولي الله أسباب الانحطاط في زمنه على ضوء القرآن، ورأى أن النصر الذي وعد الله به يأتي جزاء للإيمان، فيما يكون السقوط عاقبة للتحلل. ولمعالجة العاهة دعا إلى العودة إلى مبادئ القرآن والسنة في أشكالها الأولية. وقد أورد إروين روزنتال في مؤلفه "الإسلام في الدولة القومية الحديثة" (Islam in the Modern National State, Cambridge University Press, Cambridge, 1965) ملاحظة مهمة حين ذكر أن جانباً مهماً من الجوانب التي يتميز بها عرضه للمعتقدات الإسلامية أنه نشأ أصلاً في بيئة إسلامية، بعيداً عن أي نفوذ أوروبي، وقبل عدة عقود من الثورة الفرنسية. ورأى محمد إقبال، أحد كبار الشعراء الهنود من القرن التاسع عشر ومنظّر حركة باكستان أن شاه ولي الله أول مسلم من مسلمي شبه القارة ذو روح جديدة. وثمة آخرون يعدّونه جسراً بين القديم والحديث.

دعا شاه ولي الله في مؤلفه الشهير "حجة الله البالغة" إلى ضرورة طرح القوانين الإسلامية الدينية مستندة إلى أدلة وحجج، ورأى أن الأفكار القرآنية تصلح لدحض الفكر الأوروبي، كما أنه وجه انتقاداً إلى الدوائر التي وجدت في تقليد أوروبا منجى لها، وألح على المسلمين بالعودة إلى البساطة والروح التي سادت زمن الرسول ﷺ وخليفتيه.

دعا شاه ولي الله ربه ثم توجه إلى أفغانستان. وبعث برسالة إلى "درة العصر" الملك الأفغاني أحمد شاه أبدالي الذي أقام مملكة له بعد عزلها عن

سـلطنة نـادر شـاه، ودعـاه لإنقـاذ الإسـلام في الهـند بالجهاد على المراثا. وقد أدرجـت هـذه الرسـالة في كـتاب "مـصادر التراث الهندي" (Sources of Indian Tradition, Viking, harmondsworth, 1991) للمحرر آينسلي تي. إيمبري:

> لـيس في هـذا الزمان ملك يقدر على تحطيم جيش الكفار، ويتمتع ببعد النظـر وتجـربة الحـروب؛ غـير جلالـة أحمد شاه الذي يملك القوة والوسائل. ومن هنا فإنه من واجب جلالته أن يقوم بحملة إلى الهند، ويكسر شوكة الكفرة مـن المـراثا والجـات، ويـنقذ الـضعفاء مـن المسلمين الذين سقطوا أسرى في أيـدي الكفـار. وإذا اسـتمرت قـوة الكفـر كمـا هـي علـيه (لا قدّر الله) سينسى المـسلمون الإيمان، ومع مرور الوقت لن يستطيعوا التمييز بين الإسلام والكفر. إنهـا فتـنة عظـيمة، والقـدرة على درئها يمكن أن تجتمع لجلالتكم (بعون الله) ومـن دون أحـد سواكم... فباسم الله عز وجل ندعوكم لبذل المجهود في سبيل الجهـاد ضـد كفرة هذه الأراضي، حتى يكون المولى العلي القدير شاهداً على أحـسن أجـر لـه في كـتاب أعمالـه، ويـأتي اسمكـم بين أسماء المجاهدين في سـبيله. ذلـك أن أعـداء الإسـلام بأعـداد لا تعـد ولا تحـصى يمكن أن يغلبهم ويدحـضهم أبطـال الإسـلام، وبـذا يـنجو المسلمون من أيدي الكفرة. فالنصر للإسـلام قـضاء محـتوم للأمـة بأكملـها، وأيـنما يكـون المـسلم فـإن (الملوك المجاهـدين المـسلمين) سـيحبونه كمـا يحبون أبناءهم وأخوتهم. وأينما يكون الكفرة المحاربون فإنهم سيجدونهم يزأرون كالأسود.

وقـال شـاه ولي الله إنـه مـن قـضاء الله وقدره أن يكون نصر الإسلام نصراً للأمـة الإسـلامية كافـة، وذلـك مـا أراده الله حـين اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

لعـل أحمد شاه أبدالي لم يهتم بأمر الجهاد قدر اهتمامه بالغنائم؛ إذ إنه لم يكـن سوى أحد الغزاة الذين رفعوا إجمالي الناتج الوطني لدولهم بنهب الثروات الهـندية مـن حين إلى آخر. وليس لدينا ما يدل على أن أبدالي أجاب على رسالة شـاه ولي الله؛ إلا أن هـذه الغزوة للهند جاءت وهو لا يفكر في أمر الغنائم. وقد

تحالف مع المملكتين الإسلاميتين الرئيسيتين في شمال الهند، أواد وروهيلكاند، وظهر في منطقة شمال دلهي. وقعت المواجهة في يناير عام 1761م ، في معركة بانيبات الثالثة، وكانت كارثة غير متوقعة بالنسبة للمراثا، ومعاكسة للمسار الذي سارت عليه الأمور في ذلك العصر.

حشد المراثا في عام 1760م أكبر جيش في التاريخ المراثي كله وأقواه. وبقي الطرفان يتناوشان هنا وهناك مدة شهرين ونصف أو ما قاربها، ونجح المسلمون في قطع خطوط الإمدادات، فواجه العدو نقصاً في التجهيزات، ومن ثم حسمت المعركة التي وقعت يوم 14 يناير لغير صالحه.

قاد ميسرة الجيش المراثي الجنرال المسلم إبراهيم خان غاردي الذي قاوم المغريات كلها، ورفض أن يحوّل الولاء باسم الدين. كانت الحروب التي وقعت في القرن الثامن عشر تخلو عامة من ظواهر التزمت الإسلامي والهندوسي، على خلاف ما تناقلته الأخبار إلى الأجيال اللاحقة؛ يقول إيان رايسايد الذي ترجم التواريخ المراثية لهذه الحرب: ما من شك في أن الديانات والاختلاف فيها من الأمور التي أثيرت عندما دعت الضرورات إليها؛ لكن المسلمين ما واجهوا صعوبة من نوع ما في الاستعانة بالهندوس في محاربة المسلمين أنفسهم، وما يصدق على المسلمين يصدق على الهندوس أيضاً. ولا يكاد المرء يجد جيشاً من الجيوش قوامه أتباع ديانة من دون أخرى على مدى تاريخ الحروب التي دارت خلال القرن الثامن عشر؛ إلا أنه لم يكن هناك من شك لدى الطرفين أن لكل منهما رهانات كبيرة على هذه الحرب الثالثة في بانيبات. ولو انتصر المراثا في هذه المعركة لعاد إلى عرش دلهي ملك هندوسي لأول مرة منذ هزيمة بريثوي راج في القرن الثاني عشر.

والغريب في الأمر أن إبراهيم خان غاردي هو الذي أوشك أن يمزق خط الخصم؛ لكن أبدالي فاقه استراتيجية، وانتظر إلى أن أنهكت قوى الجيش

المراثي، وفي وقت مبكّر من عصر ذلك اليوم شن هجوماً مضاداً بعد أن أمد عسكره بعشرة آلاف من المقاتلين الجدد. وفي لمح البصر ولى الجيش المراثي هارباً من ساحة القتال، وتبخر كما يتبخر الكافور، وتبخرت معه طموحات المراثا في حكم دلهي أيضاً. عزا أبدالي هذا الفتح إلى عون الله ونصرته؛ فكتب في رسالة وجهها إلى مادوسينج عاهل جايبور: فجأة بدأت رياح الفتح تهب بمشيئة الله تعالى، ومني الأشقياء من أهل الدكن بهزيمة ساحقة.

كانت معركة بانيبات الثالثة آخر جهاد في الهند انتصر فيه المسلمون، وفي الوقت نفسه كان هذا الجهاد من ناحية النتائج أقل نفعاً من سوابقه كلها. لم يكن أبدالي يطمع في تاج دلهي، فعاد إلى أفغانستان كما عاد المراثا إلى إماراتهم في الجنوب. وبالنسبة إلى الإمبراطور المغولي الغارق في سباته كان الفتح في معركة بانيبات الثالثة فتحاً مبتوراً. وبالنسبة للمراثا فإن الهزيمة كانت هزيمة تاريخية، ويصدق من يقول إن المسلمين خسروا إمبراطوريتهم، ولم يعثر الهندوس على إمبراطورية لهم. هذه هي المعضلة التي كانت تحتاج إلى حل. رأى شاه ولي الله أن أبدالي أنقذ العرش من أيدي مجموعة من الكفرة، فيما اكتشف ابنه شاه عزيز من بعد أن أبدالي أوجد فراغاً ملأته قوة أخرى.

في يوم من الأيام التي أعقبت غياب المراثا عن ميدان بانيبات وقع في جنوب الهند حادث آخر لم يكن أقل إثارة من أحداث بانيبات نفسها: أقدم كونت دي لالي، ابن أحد اليعاقبة الإيرلنديين، الحاكم العام لجميع المؤسسات الفرنسية في الهند والقائد العام للقوات الفرنسية، على تسليم بونديشيري إلى الإنجليز، ما جعل شركة الهند الشرقية تمتلك في الجنوب القوة نفسها التي حازت عليها في الشرق. يعود تاريخ الفتح البريطاني تقليدياً إلى انتصار الإنجليز في حرب بلاسي. والواقع أنه خلال السنوات التي تلت سنة 1757م كان الإنجليز ينتقون المناطق الهندية مثلما تقطف ثمار ناضجة من أشجار حديقة لا مالك لها ولا راعٍ.

وفي الخمسين سنة التالية كان الإنجليز قد فرضوا سيطرتهم على مستقبل الهند بعد مسلسل من الفتوحات المهمة مقابل خصوم فاقوا سراج الدولة أهلية وكفاءة إلى حد كبير. وبالاعتماد على سياسة متفوّقة ومستويات تدريب عالية أغلقوا جميع الخيارات أمام رجالات يحتلون مكانة القداسة في الأسطورة الوطنية؛ منهم حيدر علي وتيبو سلطان في الجنوب، وتشيت سينج وماهادجي سينديا في الشمال. وفي عام 1764م تمكن الإنجليز من تثبيت غلبتهم في الشرق بهزيمة التحالف الذي تكون من دلهي وأواد وإمارة البنغال العاصية في حرب بُكسار. إلا أن كبار خصوم الإنجليز كانوا في إمارة ميسور جنوب البلاد والمراثا في أماكن أخرى. وقد بعث خصمهم اللدود تيبو سلطان (عاهل ميسور) عام 1787م مندوباً له إلى القسطنطينية يستنجد بها في حربه على الإنجليز؛ لكن المعلومات التي كانت في حوزته عن قدرات الخليفة كانت أبعد ما تكون عن الحقيقة، وفي عام 1792م مني بهزيمة في معركة وسقط قتيلاً.

حارب المراثا الإنجليز مدة طويلة، وقد اعترف أرثر ولزلي الذي خدم في الهند حينذاك أن الانتصار عليهم في أساي كان أصعب بكثير من انتصاره على نابليون في معركة واترلو. في سبتمبر 1803م هزم جيش البنغال بقيادة الجنرال جيرارد ليك المراثا في باتبارغنج، ما أتاح للإنجليز دخول دلهي، وإحالة الإمبراطور المغولي إلى التقاعد. وعندما أوشكت الحرب الثانية بين الإنجليز والمراثا على نهايتها عام 1804م استطاع الحاكم العام ريتشارد ولزلي أن يتحدث عن إمبراطورية بدلاً من ممتلكات، وأصبح الإنجليز آنذاك بالفعل سادة الهند.

دوّت الصرخة المسموعة على امتداد العالم الإسلامي تدعو المسلمين إلى استعادة قوتهم وسطوتهم؛ لكي يتيسر لهم الدفاع عن دار الإسلام في وجه الشعوب المسيحية التي صارت تتعدى حدود البلاد الإسلامية. كان شاه عزيز في دلهي حين احتل جيرارد ليك عاصمة الإمبراطورية المغولية عام 1803م. وأصدر في تلك السنة فتوى بمعنى أن الكفرة قد استولوا على الحكم، وأن الهند لم تعد

دار الإسلام. واتخذ تلميذه سيد أحمد البريلوي خطوة أخرى؛ فانطلق في الجهاد الـذي أزعـج الحكـم الإنجليـزي طـويلاً بعـد وفـاة البريلوي. ثم جاء رجل أخذ يـتجول في القـرن التاسـع عـشر علـى امـتداد الأراضـي الـواقعة تحـت الحكـم العثماني، وهو يحمل رسالة مماثلة لرسالة البريلوي، ويشيع الأفكار التي استلهم منها الإخوان المسلمون في القرن العشرين.

- 10 -
إخفاق الصفقة!

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(سورة الرعد، الآية: 11)

عـندما أشـار الخلـيفة عبد الحميد الثاني على السيد جمال الدين الأفغاني بالـزواج نـصحاً لـه ومـساعدة، هـدّده الأخـير بأنه سوف يخصيه. لقد كان حتى صـلاح الـدين العظـيم يتمـتع بحـياة عائلـية عاديـة. ولكن هذه الحاجات التافهة والمبـتذلة مـن أمثال الجنس والعائلة هي أشياء مُسلية غير مقبولة لدى رجل نذر نفـسه لمهمـة وحـيدة تتمـثل في شـن جهـادٍ إسـلامي ضد قوة بريطانيا العظمى وإرادتهـا غـير المتعـبة، وهـي الدولـة التي كانت القوة العظمى في ذلك العهد، ومثلت في رأي الأفغاني مصدر الإمبريالية المسيحية.

لقد سمى الرجل نفسه الأفغاني؛ ولكنه كان شيعياً إيرانياً، وُلد بالقرب من مدينة همدان في أسد أباد. ويمكن أن يكون هذا أحد أسباب استيائه من الانقسام بين السنة والشيعة الذي يمنع وحدة المسلمين. وقد حاول الأفغاني قدر استطاعته إخفـاء أصـله الـشيعي لكون غالبية المسلمين من السنة. وُلد هذا المفكر الذي لا يقـرّ لـه قـرار في عام 1838م أو 1839م. وبعد الدراسة في أحد المعاهد اتجه إلى مديـنة قـندهار، وكانت إقامته في مكان محدد دائماً أمراً صعباً، بسبب مجادلاته

أو آرائه السياسية. واضطر إلى مغادرة أفغانستان إلى القسطنطينية. وفي عام 1871م كان في القاهرة حيث أكسبه انتقاده للخديوي إسماعيل وبريطانيا بعض التأييد والشعبية. وفي مدينة القاهرة أصبح محمد عبده مِن أتباع الأفغاني ومريديه.

مكث الأفغاني في القاهرة حتى عام 1879م حينما أصبح رجلاً لا يطاق بسبب الحساسية المصرية تجاه كلماته المتسمة بالحماسة المُفرطة، فانتقل إلى مدينة حيدر أباد في الهند، وشنً من هناك هجمة لاذعة من الانتقاد على رجل التعليم السير سيد أحمد خان، الذي كان يرغب في أن يقيم المسلمون علاقات صداقة مع البريطانيين. وفي عام 1884م سافر الأفغاني إلى باريس، حيث انضم إليه محمد عبده، وعاد في العام التالي إلى إيران جاهداً لإقناع الشاه نصر الدين بضرورة العمل على كسب الدعم الروسي ضدّ البريطانيين. وعندما أخفق الأفغاني في الحصول على تجاوب الشاه نصر الدين مع طلبه اتجه بنفسه إلى بطرسبرج ومكث هناك مدة سنتين. وعلى الرغم من أن ادعاء الأفغاني بمقابلة القيصر الروسي ألكسندر الثاني خلال هذه المدة لا يقوم على أساس من الواقع؛ فإنه نجح فعلاً في إقناع موسكو بضرورة السماح بطباعة القرآن الكريم والكتب الإسلامية ونشرها.

لقد ترك هذا الداعية المتجول وراءه عبر امتداد الإمبراطورية العثمانية وعواصم أوروبا وأفغانستان وفي قلب الإمبراطورية البريطانية دوامات قناعة احتفظت بقوتها ونفوذها بعد مدة طويلة من مغادرته. ويرى "ولفرد كانتول" أن جمال الدين الأفغاني يعد أول مفكر حدّد خطوط الصراع بين الإسلام والغرب المسيحي (Islam in Modern History, Princeton, NewJersey, 1957). ولاحظ نِكي كيدي أن أهمية الأفغاني لا تكمن في إبراز المشكلة بقدر ما تكمن في العثور على حل لها (An Islamic Response To Imperialism, University of California Press, Los Angeles, 1968).

لم تحـظ الوصفات والحلول المقترحة التي قدمها الأفغاني لعلاج المشكلة دائمـاً بـتعاطف فـوري؛ لكـن كانت تكتشف قوتها إثر سقوط البدائل، ولا تزال تـشكل أساسـاً للحـركات الإسـلامية الأصـولية الـتي تربط الألفية الثانية بالثالثة. والاقتباس المفضل لدى الأفغاني من القرآن الكريم كان ما ورد في الآية رقم11، مـن سـورة الـرعد، وهـي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. فـإذا كانت الحكـومات تمـيل إلى تفاهم أكثر من المطلوب ومستعدة لقبول تسوية مُذِلة فإنه يـتوجب علـى الـشعوب والجمـاهير الإسـلامية أن تـنهض بنفـسها، وتـتحدى الإمبريالية المسيحية ولو من دون موافقة من الحكام والمسؤولين.

كـان الأفغـاني علـى قناعة بأنه يمكن إيقاف الزحف الغربي ـ المسيحي من أفـريقيا إلى الهـند؛ بـل يمكـن قلـب اتجاهـه بتوحيد صفوف المسلمين جميعاً، وبالجهاد المدعوم بالعلم الحديث والتكنولوجيا والسلوك العقلاني. وأكّد ضرورة إحـياء العلـوم والتكنولوجـيا في التعلـيم الإسلامي، مُعرباً عن أسفه على تدهور وضعهما في العالم الإسلامي بعد العهد الذهبي لقوة العرب. وفنّد الأفغاني اتهام الغـرب بـأن القرآن معارض للحداثة وغير منسجم مع المزاج العلمي. وكما رأى آخـرون، أكّـد الأفغاني على أن المسلم في العصر الحديث يجب أن يحذو حذو الـسلف الـصالح ويـستمد قـوته مـن مـنهجهم، والـذين نجح جهادهم لإيمانهم الـشديد بالقـرآن والرسـول. كمـا أكـد الأفغـاني أنـه يمكن التوفيق بين التعايش والانسجام بين القومية والوحدة العالمية للمسلمين.

ليس من الضروري أن تتمتع بنوع استثنائي من البصيرة النافذة وقوة الإدراك الحسّي كي تدرك مدى تدهور وضع العالم الإسلامي في عهد الأفغاني. فقد كان هـناك انفجـار للغـضب والعاطفة سبق دفن الإمبراطورية المغولية رسمياً في عام 1857م، وذلـك عـندما رفـع المجـندون الهـنود في الجـيش الإنجليـزي، مـن المـسلمين والهـندوس، ولأسـباب مخـتلفة لـواء التمرد ضد الحكم البريطاني،

ونجحـوا في جـرّ عـدد مـن الأسـر الملكـية للانـضمام إلى قـضيتهم. ارتجـف الـبريطانيون أولاً، ثم تمكنوا من مواجهة الوضع، وكانت نقمتهم قاسية وشديدة ضـدّ المتمـردين. وخـلال فتـرة التمـرد المذكـور حمل البريطانيون الخليفة عبد المجـيد في القـسطنطينية علـى إصـدار مرسـوم يخطّئ تـسمية تمـرد المسلمين وعـصيانهم جهـاداً، ولم يكـن عبد المجيد في وضع يسمح له بمعارضة مصلحة حيوية مهمة لبريطانيا.

كانـت عملـية الإصلاح التي بدأتها الإمبراطورية العثمانية بإلهام من الغرب وتـأثير مـنه قـد أخفقت في تحقيق أهدافها المنشودة. سمع سليم الثالث (1807-1839م) حُلم نابليون حول القسطنطينية بصوت عال، وزعم أن الإجابة تكمن في تـشكيل جيش ذي طابع أوروبي. لذا شكل محمود الثاني جيشاً بالتجنيد الإلزامي تدرب على أيدي الأوروبيين وخسر اليونان والجزائر. كما أقدم محمود على كبح جمـاح العلمـاء والمـشايخ والحـد مـن نفـوذهم، وتعامـل بالتـساوي مع جميع المواطنين. قوبلت هذه التطورات بإشادة متواضعة من الأوروبيين أمام الجمهور، وبسخرية وازدراء في اجتماعاتهم الخاصة من جانب آخر.

ويحلـول عـام 1829م كانـت روسـيا قد استولت على مناطق تابعة للحكم العـثماني في القـوقاز (وهـي الأسمـاء الـتي اشـتهرت مـن جديـد مثل الشيشان وداغـستان)، وأعلـنت أنهـا حامـية المـسيحيين الأرثوذكسيين البالغ عددهم 12 ملـيوناً من سكان الإمبراطورية العثمانية المتقلصة. وكان لهذا التطور ردّ فعل غير مقـصود؛ فقد وجّه المسلمون من سكان روسيا القيصرية نداءً مضاداً إلى الخليفة طالبين منه أن يصبح ولي أمرهم، وهذا هو العمل نفسه الذي فعله المسلمون في الهـند إثـر وقائـع تمـرد الجـند في عـام 1857م. ولكن المسلمين لم يكونوا على جانـب الـصواب في طلـبهم الحماية من خليفتهم؛ لأن تركيا لم تكن قادرة على

حماية نفسها. وبحلول عام 1870م كانت روسيا قد نجحت في تحريض دول بلغاريا والبوسنة وصربيا ومونتينيغرو على التمرد ضدّ القسطنطينية.

أقنع الأفغاني عبد الحميد بأنه بالإسلام وحده وليس بالإصلاحات يستطيع الحفاظ على إمبراطوريته المتحطّمة، فحاول العمل على كسب تأييد رعاياه بدلاً من الأجانب، وأنشأ خط السكة الحديدية من دمشق إلى المدينة لتسهيل سفر الحجاج، وحاول زيادة مشاركة العرب في إدارة الإمبراطورية. ولكن ذلك كان قليلاً وغير كاف وجاء بعد فوات الأوان. كانت بريطانيا قد بدأت استخدام وعد استقلال العرب عن تركيا.

رأى الأفغاني أن الإسلام مهدَّد من قبل كل من لندن وموسكو، إلا أن بريطانيا هي الشيطان الأكبر. فهي لا تمتلك الوسائل للسيطرة على العالم فحسب، بل لديها الرغبة والإرادة القوية لإحكام هذه السيطرة. كانت قبضة بريطانيا على الهند محكمة ومطلقة، وكان نفوذها المتزايد في أفريقيا والشرق الأوسط دليلاً على شهيتها في هذا الخصوص. لذا لم يكن الأفغاني يريد أقلّ من إعلان الجهاد الشامل على بريطانيا، وكان على يقين بأن أي نداءٍ في هذا الخصوص سوف ينال الاستجابة من الجميع.

اكتشف الشاه نصر الدين من بلاد فارس قوة الأفغاني عندما منح شركة بريطانية امتياز التبغ في عام 1890م. فنشر الأفغاني كتيباً في طهران معادياً للإمبريالية الاقتصادية، ودعا الناس إلى الإطاحة بحكومتهم. وبتأثير من الأفغاني وتحريض منه أصدر الحاج ميرزا حسيني شيرازي فتوى ذكر فيها أن استخدام التبغ بأي شكل من الأشكال هو بمنزلة الحرب على إمام الزمان. وكانت النتيجة أن أُلغي حق الامتياز الممنوح للشركة البريطانية. ولكن الغضب الذي أطلق الأفغاني عنانه لم يهدأ؛ فاغتيل الشاه نصر الدين في مايو من 1896م على يد رجل يدعى ميرزا رضا، أحد أتباع الأفغاني. وفي يناير من العام 1896م طُرِد

الأفغـاني مـن الـبلاد، فاضطر إلى الانتقال إلى البصرة أو بغداد. ومن هناك اتجه الأفغاني إلى لندن المدينة التي كانت مكاناً مناسباً آنذاك، كما في الوقت الراهن، للتحريض على العصيان، حتى لو كان ضدّ بريطانيا ذاتها.

كـان الأفغـاني يـريد مهاجمـة القـوة البريطانية من قلب الحكم البريطاني، وهذا هو السبب الكامن وراء غضبه على زعماء من أمثال السير سيد أحمد خان، الـذي دعـا إلى الـصداقة بـين المـسلمين والمـسيحيين، واستشهد بآيات القرآن الكـريم تأيـيداً لمـوقفه وإثـباتاً لـه. كـان الأفغـاني في حالة من الصدمة الشديدة والاسـتياء الـبالغ بـسبب ما عده خيانة للقضية الإسلامية، وعد السير سيد أحمد خان دجالاً.

كتب الأفغاني مقالاً شديد اللهجة تحت عنوان: "المادّيون في الهند"، نُشر في 28 من أغسطس لعام 1884م وورد فيه أن "الإنجليز دخلوا الهند وعبثوا بعقول أمرائها وملوكها بطريقة تدفع العقلاء إلى الضحك والبكاء في آن واحد. أما السير سـيد... فقـد سـلك طريقاً آخر بهدف خدمة سادته الإنجليز، وبذر الخلاف بين المسلمين تمزيقاً لشملهم". واستطرد الأفغاني قائلاً:

> "فـرح الحكـام الإنجليز بمذهب السير سيد ومنهجه الذي رأوا فيه أفضل الوسـائل لإفـساد قلـوب المسلمين، وبدأوا يدعمونه ويكرمونه ويساعدونه في إنـشاء كلـية في عليكـرة، تدعـى الكلـية المحمدية، لتكون فخاً لاصطياد أبناء المـسلمين وتـربيتهم علـى أساس مبادئ هذا الرجل المدعو أحمد خان بهادر. لقـد حـرّر الـسير أحمـد خـان تفسيراً للقرآن الكريم يتضمن التحريف والتأويل والـتلاعب بوحـي الله عز وجل، وأنشأ مجلة باسم "تهذيب الأخلاق"، لم يكن يُنـشر فـيها مـن المقالات إلا ما كان يشوّش عقول المسلمين، ويخلق الخلاف فـيما بيـنهم، ويـزرع بـذور العـداوة فـيما بـين المسلمين في الهند والمسلمين الآخـرين ولاسيما العثمانيين. وقد أصبح هؤلاء المادّيون بمنزلة جيش لحكومة الإنجليـز في الهـند، وسـلّوا سـيوفهم لقطـع رقاب المسلمين، وهم يصرخون ويـبكون قـائلين: إنـنا نقتلكم رحمة بكم، وسعياً وراء تحسين وضعكم وإراحةِ

بالكم. وقد وجد الإنجليز في منهج السير سيد أحمد أفضل وسيلة لتحقيق هدفهم الأساسي المتمثل في إضعاف الإسلام والمسلمين".

كانت نهاية الأفغاني مثار جدل وخلاف؛ فقد تصادق في لندن مع رجل إنجليزي يدعى ولفريد بلنت. وفي عام 1892م دعاه ظهيره وولي أمره عبد الحميد إلى القسطنطينية، ولكن ساوره الشك بأن الأفغاني قد وقع في فخ عميل بريطاني، وجنده من أجل الترويج لخلافة عربية من النوع الذي عمد إلى إنشائه لورنس العرب بعد نحو عقدَين من الزمان. وهكذا فإن حياة زاخرة بقدر كبير من الحيوية والنشاط قد انتهت في نوع من الغم والظلام، ومات الأفغاني في عام 1897م مُصاباً بسرطان الذقن. وقال كيدي عن ذلك:

لم يكن مع الأفغاني عند وفاته أحد غير خادم مسيحي، ولم يكن لموته أي رد فعل يُذكر لا في الشرق ولا في الغرب. ولم يكن له أثر إلا بعد مدة من الوقت حين تناولت جماعة من الكُتاب المسلمين أيديولوجية الأفغاني الصارمة العنيدة المعادية للغرب، والداعية إلى وحدة إسلامية عالمية بالبحث والنقاش، وعندها بدأ الاهتمام من جديد بالأفغاني بدراسة أفكاره، وأخذ الرجل مكانه بوصفه بطلاً إسلامياً حديثاً... استهل الأفغاني عملية تحويل الإسلام جزئياً من عقيدة دينية عامة إلى أيديولوجية تُستخدَم سياسياً لتوحيد صفوف المسلمين في مقابل الغرب.

هجر محمد عبده فكرة الجهاد وعمل من أجل الإصلاح، وذلك بتطبيق مبادئ القرآن وفق المصطلح الحديث. بدأ تلميذه رشيد رضا بإصدار مجلة دورية باسم "المنار". وكان وريثه السياسي الأهم حسن البنّا الذي أنشأ جماعة الإخوان المسلمين في عام 1928م. وبظهور هذه الجماعة وبروز نشاطها، غاب المنهج اللاعنفي لمحمد عبده ورشيد رضا، وحل محله برنامج العمل الاجتماعي والسياسي وحتى العسكري عند الحاجة. وهكذا لم يمت تراث الأفغاني.

ربما كان بلنت عميلاً بريطانياً وربما لم يكن؛ ولكن البريطانيين كانوا دائماً في حالة من الحذر والانتباه، فهم يفهمون الجهاد وقد تعاملوا معه في الهند. والجهاد الذي كان قد بدأه شاه ولي الله ضدّ جماعة "المراثا" في عام 1761م واصله ابنه شاه عزيز ضدّ البريطانيين، ولعب فيه سيد أحمد البريلوي دوره المركزي بوصفه زعيماً متحمساً ومثيراً للعواطف.

وُلد البريلوي عام 1786م بمديرية راي بريلي في الأقاليم المتحدة، والتحق بحلقة شاه ولي الله الدراسية وعمره 20 سنة. توطدت هناك علاقة الصداقة مع إسماعيل حفيد شاه ولي الله. وفي عام 1822م عندما سافر المذكوران لأداء فريضة الحج كان قد ذاع صيتهما. وكانت قد صدرت عدة طبعات لكتاب "الصراط المستقيم" للبريلوي ولكتاب "تقوية الإيمان" لإسماعيل. وفي شبه الجزيرة العربية وجد البريلوي رماد نار ملأت قلبه دفئاً وحرارةً.

وُلد محمد بن عبد الوهاب في منطقه نجد في جزيرة العرب عام 1703م، وهو العام نفسه الذي وُلد فيه شاه ولي الله. وتأثر تفكيرهما بالوضع المؤلم نفسه، وعزا كلاهما الفساد إلى التأثر بالكفر والشرك الذي كان قد أفسد مبادئ الإسلام النقية. ودعا كلاهما إلى الجهاد، غير أن شاه ولي الله دعا إلى الجهاد ضد الكفر والتهديد الخارجي؛ بينما دعا محمد بن عبد الوهاب إلى الجهاد ضدّ الفساد الداخلي.

بدأ الوهابيون جهادهم باستهداف الأشجار والأضرحة، وقالوا إن تقديس الأشجار من آثار ما قبل الإسلام، وإن الأضرحة أصبحت مزارات، رغم منع تقديس الآثار والأولياء. لم تحظ دعوة محمد بن عبد الوهاب بالقبول والتأييد في مسقط رأسه، فلجأ في عام 1744م إلى مدينة تجارية تدعى الدرعية، التي كان يحكمها آنذاك محمد بن سعود. اعتنق محمد بن سعود هذه الدعوة، وحَظَر وسائل الترف المفسدة؛ مثل الحلي والذهب والحرير وحتى الأنواع المفسدة من

الموسيقى والرقص والشعر. استُكمل ذلك بالانتصار في ساحات القتال، ما زاد الدعوة المذكورة قوةً ونفوذاً. ولم يتوقف هذا التقدم بموت محمد بن عبد الوهاب في عام 1787م؛ فقد هزم الوهابيون شيخ مكة في عام 1791م، وفي عام 1797م وصلوا إلى بغداد.

وفي عام 1801م كان سعود بن عبد العزيز، حفيد محمد بن سعود، يقود جيشاً متكوناً من مئة ألف رجل، واجتاح مدينة كربلاء المقدسة عام 1802م. وفي عام 1803م استولى على مكة وهدم جميع المباني المقامة حول قبور أبطال الإسلام. وفي عام 1804م استولى الوهابيون على المدينة المنورة، وتناوشوا مع البريطانيين في الخليج. صُدم السلطان سليم الثاني عندما لم يُسمح لقافلة من الحجاج من القسطنطينية بأداء فريضة الحج؛ وذلك لأن عجز الخليفة عن توفير الأمن والسلامة للحجاج خبر غير سار بالتأكيد.

ولقمع هذا التمرد أرسل محمود الثاني في عام 1812م وحدة من الجيش من القاهرة بقيادة محمد علي باشا. سقطت الدرعية في عام 1819م، وقُبض على حاكمها عبد الله بن سعود الذي اقتيد إلى القسطنطينية ليُقطع رأسه هناك. لم يكن ذلك نهاية للقصة إذ إن آل سعود أعادوا سيطرتهم على شبه الجزيرة العربية بعد قرن من الزمان.

وجدت روح الدعوة الوهابية وطنها الثاني في الهند. رغم اختلاف المنطق الجدلي بين الحركة الوهابية وحركة شاه ولي الله؛ فإن البريطانيين كانوا مُقتنعين بتشابه جوهرهما. فالبريطانيون هم الذين شبهوا الجهاد الهندي بالجهاد الوهابي. كان البريلوي يوحي ظاهرياً بالهدوء والنبل، وتصيبه نوبات من الغشية. كان متوسط القامة، وذا لحية طويلة متدلِّية تلامس صدره. تركزت دعوته حول ثلاثة محاور رئيسية هي: توحيد الله، والمساواة بين البشر، وتلوّث الإسلام الهندي بسبب الاحتكاك مع الهندوسية الخرافية والوثنية.

كلفت الحكومة البريطانية وليام هنتر بدراسة وضع المسلمين بهدف التعرف على طبائعهم. فأعد تقريراً بعنوان "المسلمون الهنود"، نشر أول مرة في 1871م، ووصف فيه البريلوي بأنه محتال ومن قُطّاع الطرق. لكنه أضاف:

"لقد حرّك البريلوي بثقة مُلهَمة تقريباً تلك الغريزة الدينية التي ظلت هادئة مدة طويلة في أرواح أبناء بلده، وأصبحت مكسوة بأصناف خرافية خارجية تأصلت جذورها بسبب قرون من الاحتكاك بالهندوسية... لا يمكن إنكار حقيقة أن البريلوي مَرّ بأوقات في حياته وجد فيها روحه تتوق تماماً وبألم شديد إلى نجاة أبناء بلده، ويتوجه قلبه خالصاً إلى الله وحده".

أقنع البريلوي الطرائق الصوفية الثلاث الأساسية في الهند، الششتية والنقشبندية والقادرية، بضرورة الانضمام إلى حركته الرامية إلى إيقاظ الروح الدينية التي سماها الطريقة المحمدية. وأسس في عام 1821م قاعدةً في مدينة "بتنا" انطلق منها عدد هائل من الدعاة والمبلغين لينتشروا في المناطق الريفية في الهند. وعندما غادر للحج راكباً سفينة عبر نهر "غنغا" بهدف الوصول إلى ميناء مدينة كلكتا، وجد حشداً كبيراً وغامراً من الناس لتوديعه. ولدى عودته من الحج في أكتوبر للعام 1823م قوبل بحفاوة واستقبال يليق بمكانة الإمام. كان أتباعه قد بدأوا يدعونه "المهدي"، وأصبح رمزاً لخلاص المسلمين الذين فقدوا الثقة في ملوكهم ونُخبهم.

في عام 1824م زار البريلوي القبائل الأفغانية في المناطق المجاورة لمدينة بيشاور، واستمع إلى قصص قتلهم وتعذيبهم على أيدي السيخ، وتعهد البريلوي بالجهاد. وصدرت فتوى في هذا الخصوص في 21 من ديسمبر عام 1826م. أدهش المجاهدون الجميع ما عدا أنفسهم بالاستيلاء على بيشاور في عام 1830م. وقد سك البريلوي العملات باسمه، ونقش عليها: "أحمد العادل، المدافع عن الدين، الذي يتألق سيفه وينثر ببريقه الدمار بين الكفار". ولكن تألق سيف أحد الكفار كان أكثر حدة. فقد قبضت قوة من السيخ على البريلوي وقتلته حين كان يحاول الهروب إلى منطقة أواد الإسلامية الآمنة عام 1831م.

لم يكن البريطانيون مستائين تماماً من الجهاد الجاري داخل مملكة السيخ، وذلك انطلاقاً من سياستهم الثابتة الرامية إلى إضعاف عدو من دون تقوية صديق، إلا أنهم بدأوا يشعرون بالقلق بعدما طفح الكيل، وتسرّبت حمى الجهاد إلى منطقتهم بقنوات مختلفة. وتحوّل هذا القلق إلى جرس للإنذار عندما تمرّد بنغالي من قرية شاندبور بمنطقة باراسارات، اسمه نسار علي واشتهر باسم تيتو ميان. وكان التمرد ضد الإجراءات الاقتصادية القاسية لمُلاّك الأراضي الهندوس البنغاليين، الذين كانوا يشكلون مصدر الدخل الحكومي المضمون للحكام البريطانيين. استدعيت القوات المنتظمة لقمع التمرد المذكور، ومات تيتو ميان في معركة في عام 1831م.

نفخ الاستشهاد حياة جديدة في هذه الحركة، وكان التمرد معروفاً وسائداً في هذا الجوّ، تدفعه العاطفة فقط من دون أن يكون له قائد أو اتجاه محدد. كانت هناك عدة جماعات متفاوتة مبعثرة ومنتشرة في مختلف أنحاء الهند، ومثيرة لعواطف السخط والاستياء التي أدت إلى تفجير تمرد الجند الشهير عام 1857م. وثمة نشيد حرب لإحدى المجموعات، "رسالة الجهاد"، تمجّد الاستشهاد، وتوضح النوايا بجلاء لا غموض فيه: "انشروا الإسلام في أقاصي الهند، حتى لا يعلو صوت سوى صوت الله! الله!". أصبح شعر التهييج والإثارة متداولاً ومقبولاً في المدن.

كتب المولوي كرم علي من مدينة كانبور قصيدة شدد فيها على وجوب الجهاد ضد الكفار، كما توقّعت قصيدة كتبها المولوي نعمة الله ظهور ملك يحرر المسلمين من سيطرة النصرانيين (المسيحيين) "بقوة السيف في الجهاد". وأعلن المولوي محمد علي عن نجاح مهدي آخر بتفصيل دقيق: "ستطرد حتى رائحة الحكومة من رؤوسهم وعقولهم".

لم تكن المعارك والحروب كافية لردع النواة الصلبة، بل إن انهيار التمرد

(في عـام 1857م) لم يجبرها علـى الانحـناء، وإن نجـح في عـزلها. نُـشر كتيب بنيودلهـي باسـم "التفسير الجامع" في عام 1867م، ورد فيه أن أمام المسلمين في الهند خيارين: إما الجهاد وإما الهجرة من الهند، التي حوّلها المسيحيون إلى دار حرب. وقد وجد الذين حاولوا ردع المسلمين عن سلوك هذا الطريق وجدوا في فئة المنافقين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم:

> لـيكن معلوماً للجميع. البلد الذي يحكمه دين غير الإسلام لا يمكن فيه تطبيـق التعالـيم الدينـية لمحمـد. ويتوجب على المسلمين أن يوحدوا صفوفهم ويـشنوا الحرب على الكفار. وعلى الذين لا يستطيعون المشاركة في الحرب أن يهاجـروا إلى أي دولة من دول العقيدة الصادقة... أيها الأخوة! يجدر بنا البكاء على حالتنا، فرسول الله غاضب علينا لأننا نعيش في أرض الكفر. لمن نلجأ إذا كان رسول الله نفسه غير راض عنا؟

في عـام 1865م أبـدى الحـاكم في باتـنا قلقه قائلاً: "لقد نشروا الدعوة إلى الفتنة والعصيان في كل قرية من مديرياتنا ذات الكثافة السكانية علناً وتحت مرأى مـسؤولي الحكـومة ومـسمع مـنهم وفي ظـل حمايتهم، وشوّشوا أذهان السكان المسلمين، وأكسبوا الشرّ نفوذاً، وهو شر غير عادي بقدر ما هو أكيد". واعترف هنتر بأن "شبكة من المؤامرات قد انتشرت عبر مقاطعاتنا، وأن الجبال المكشوفة الـتي تـرتفع إلى مـا وراء البنجاب قد توحّدت بسلسلة مترابطة من مراكز الخيانة والمـستنقعات الاسـتوائية الـتي مـن خلالها يمتزج نهر غنغا بالبحر". وقد وصّف الجهاد بأنه مصدر خطر دائم على السلطة البريطانية في الهند.

اضـطرت بريطانيا ما بين العامين 1850 و1857م، قبل أحداث التمرد، إلى إرسـال 16 بعـثة عـسكرية تـتكون مـن 33000 مـن القـوات النظامـية لقمـع الاضطرابات. يقول هنتر:

> قـبل نحـو ثلاثـين عامـاً بـدا كأن تحالفاً من المتعصبين قد رسَّخ جذوره بقوة ومتانة في قلب جنوب الهند. يُخبرني السير بارتل فرير أن المنظمة الوهابية

آنـذاك كانـت تـضم في عُضويتها شقيق نظام (حاكم حيدر أباد)، الذي كان مِن المقـرر أن يعد ويربى لتولي مقاليد الحكم في حيدر أباد... وليس هؤلاء الخونة أنفـسهم الـذين يجـب أن نخـافهم ونكـون علـى حـذر منهم؛ بل هم الجمهور الميّال إلى إثـارة الفـتن في قلـب إمـبراطوريتنا. ولا أحـد يـستطيع إدراك مدى الـنجاح الذي يمكن أن تُحققه هذه الجماعة المتمردة بدعم من قبائل المسلمين مـن جهـة الغرب، وتحت قيادة زعيم يعرف طريقة توحيد الصفوف في شعوب آسيا باسم الجهاد.

كـان المـسلمون يمـثلون طبقة وصفتها الحكومات المتعاقبة بكونها مصدر خطر دائماً للإمبراطورية الهندية، وعندما قرع الطبل البريطاني بهدف إعلان نقل الـسلطة مـن "شركة الهند الشرقية" إلى النظام الملكي البريطاني الحاكم طلب من قارعيَ الطبول أن يرفعوا أصواتها في المناطق المجاورة للمسلمين. افترض القرار الـبريطاني، اسـتناداً إلى مسوغات معقولة لديه، أن المسلمين سيبقون خصومهم الأكثـر تـصميماً، لأنهـم يعانـون كـثيراً من النجاح البريطاني. في ستينيات القرن التاسـع عـشر أجريت في باتنا محاكمة قادة وهابيين مزعومين بتهمة التآمر. وعلى الـرغم مـن أنه لم يكن للمشاعر الوهابية أي علاقة بالحادث فقد سُجِّل أن سجيناً مـسلماً قَـتَل نائـب ملكـة بـريطانيا لورد مايو عندما كان في زيارة لجزر أندمان، وكان القاتل أفغانياً.

وكان مايو هو الذي أثار السؤال الذي طُلِب مِن وليام ويلسون هنتر الإجابة عنه. كان الدكتور هنتر عضواً في الخدمة المدنية في البنغال، وكان أول مدير عام لقـسم الإحـصاء، وأعد أول تقرير سنوي في عام 1871م بعنوان: "المسلمون في الهند: هل هم مفطورون بضمائرهـم علـى التمـرد علـى الملـك؟" The Indian Mussalmans: Are they bound in conscience to rebel against the King?. لم يكن هنتر بعيداً عن الانحياز؛ ولكن إجاباته عن السؤال تركت انطباعاً عميقاً لدى كـل من الحكومة والطبقة العليا والمثقفة من الهندوس، والذين يشار إليهم باسم

"بنغالي بابو" على سبيل السخرية والمضايقة. وصف هنتر الهندوس والمسلمين كعدوين لدودين، وذكر أن المسلمين يحملون ولاء لعناصر خارج البلاد من القسطنطينية إلى الصين. أما الهندوس فهم "مواطنون أصليون"، ويمتلكون من دون شك قوةً عقلية أعلى من المسلمين الذين يفوقون الهندوس من الناحية العرقية، في عهد ما قبل الحكم البريطاني على الأقل، بسبب جُرأتهم وتنظيمهم السياسي.

وعندما استفسر الدكتور هنتر من رجل دين مسلم عما إذا كان المسلمون مَفطورين بضمائرهم على التمرد على العاهل البريطاني؟ كانت الإجابة لا. وأعلنت المدارس الفكرية المنتمية إلى الحنفية والمالكية والشافعية بأن الإمبراطورية البريطانية تعد داراً للإسلام ما دام يسمح للمسلمين بتطبيق الشرع الإسلامي (المعروف بالأحوال الشخصية للمسلمين). وعندما يُسمح للمسلمين بالعيش وفقاً لشرعهم لا يهمهم إن كان الحكم والسلطة في أيدي المسيحيين أو غيرهم. أما الشيعة فكانت إجابتهم عمليةً وأكثر دهاء: فقد قالوا إن الجهاد لا يصلح إلا عندما يقود الجيش إسلامي إمام عادل، ويمتلك الكمية الكافية من الأسلحة والعدد الكافي من المحاربين من ذوي الخبرة المطلوبة، والضُباط من ذوي الرأي الصائب، مع مبلغ من المال يكفي لتمويل الحرب. وبما أنهم لا يعرفون من يمتلك الرأي الصائب والمال الكافي، فإن مسألة الجهاد غير مطروحة.

ثم تناول هنتر وزملاؤه في الخدمة المدنية سؤالاً آخر: كيف يمكن تقليل نفوذ الوهابيين المنحرفين لدى جمهور المسلمين؟

التعليم، أجاب جيمس أونيل الذي كان مسؤولاً عن الإجراءات القانونية ضد الوهابيين، وأضاف: "يرجع عندي سبب تزايد نفوذ عقيدة الوهابيين لدى جمهور المسلمين الفلاحين إلى قلة اهتمامنا بالتعليم". وعلق على الوضع إي.

سي. بيلي، وكيل وزارة الداخلية لحكومة الهند في عام 1870م قائلاً: "هل يبعث على الدهشة أن المسلمين عاشوا بمعزل عن النظام الذي مهما كان جيداً في نفسه إلا أنه لم يقدّم أي تنازل لمصالحهم، بل لم يحسب حساباً لاحتياجاتهم، وكان بطبيعته في تعارض محتوم مع مصالحهم، وفي خلاف مع تقاليدهم"؟ عَلموهم وهدئوا غضبهم واجعلوهم جزءاً من النظام.

في عام 1872م أجري أول إحصاء رسمي في الهند المحكومة من البريطانيين، وقسم السكان إلى أربع مجموعات هي: الآريين (البراهمة والراجبوت)، والمجموعة المختلطة، والسكان الأصليين والمسلمين، وهذا يعكس الوضع الاجتماعي في ذلك العهد. أما الإحصاء الرسمي الذي أجري في عام 1881م فأفاد أن عدد المسلمين في الهند كان أكثر من 50 مليوناً؛ أي ما يعادل خُمس مجموع سكان البلاد، كان 40% منهم يعيشون في مقاطعة البنغال، وكان هؤلاء المسلمون البنغاليون البالغ عددهم 20 مليوناً يمثلون 50% من مجموع عدد سكان المقاطعة، وعشرة ملايين من المسلمين كانوا يعيشون في مقاطعة البنجاب، بينما 14% منهم أو أقل من 6 ملايين مسلم يعيشون في المناطق الواقعة على ضواحي نهر "غنغا"، وهو الوضع الذي لم يطرأ عليه تغيّر يُذكر في الوقت الراهن من الناحية الإحصائية. ومن ناحية اللغة المتداولة لدى المسلمين فقد كانوا يتحدثون اللغة البنجابية في مقاطعة البنجاب، والبنغالية في مقاطعة البنغال. أما في مقاطعة بيهار والمقاطعات المتحدة فكانت نخبة المسلمين تستخدم اللغة الأردية، أما جمهور المسلمين فكانوا يتحدثون بلهجاتهم المحلية.

وبعد تدمير طبقة النبلاء القديمة عام 1857م والقضاء على رجال الدين إثر تمرّدهم الحماسي المفاجئ انتقلت زعامة المسلمين إلى ما يُسّمى طبقة الشرفاء، التي وصفها هنتر بالأجنبية المتغطرسة. وكان هناك بعض المصداقية في ربط طبقة الشرفاء بسكان دول آسيا الوسطى وفارس. وثمة قصة طريفة تتعلق بسيد محمود

النجل الأصغر لرجل التعليم الهندي المؤيد لبريطانيا السير سيد أحمد. كان سيد محمود جالساً في المكتب الهندي في لندن عام 1869م، ويحدق نظره في صور شبه عارية للسكان الأصليين في كتاب صدر حديثاً باسم "الشعب الهندي"، فاقترب منه رجل إنجليزي وسأله: هل أنت هندوستاني (هندي)؟ فالتفت إليه سيد محمود وقال: نعم، ولكن لستُ من "السكان الأصليين" مشيراً إلى قدوم أجداده إلى الهند من دولة أجنبية.

وكان لهذا السلوك والموقف أبعاد خطيرة بالنسبة إلى السياسة الديمقراطية التي ظهرت في القرن العشرين، وقد عزز ذلك الاتهامات المتكررة ضدّ المسلمين بأنهم يعيشون في الهند ولكنهم يحملون ولاءً لدول أجنبية. كما أن المحاولة العاطفية للمسلمين للاحتفاظ بالخليفة العثماني بوصفه راعياً لمكة والمدينة، والحركة التي قادها المهاتما غاندي من أجل شروط سلام أفضل إثرَ هزيمة تركيا زادتا الطين بلة. وفي وقت لاحق قدمت مطالبة الرابطة الإسلامية بإنشاء دولة منفصلة للمسلمين.

ولكن كان هناك نوع من التناقض أيضاً في موقف المسلمين بالهند. فغالباً ما أبدت طبقة الشرفاء من وسط الهند، ببشرتهم البيضاء وعيونهم اللوزية الجميلة، احتقاراً عنصرياً تجاه المسلمين الآخرين الذين كانوا لا يشبهون هؤلاء "الأجانب المتغطرسين". وكانوا ينظرون نظرةَ احتقار إلى المسلمين حديثي العهد بالإسلام من الطبقات الدنيا، والذين لم يكونوا يتمتعون ببنية جسمية مماثلة لفاتحي الهند. وقد أعدّ الدكتور جيمس وايز، الذي كان يعمل جرّاحاً مدنياً في دكا، بحثاً في عام 1870م عن المسلمين من سكان بنغال الشرقي؛ ذكر فيه أن الاختلاف الوحيد الكائن بين المسلمين والهندوس يتمثل في لحية المسلمين وطريقة لبسهم الإزار. فقد كان المسلمون يفضلون لبس إزار ذي ألوان متعددة يُسمى "لونغي" (فوطه)، أما الهندوس فكانوا يفضلون لبس إزار أبيض وعادي يدعى "دهوتي".

وقارن الدكتور جيمس بين خمسين مسلماً وهندوسياً من بين سُجناء في سجن دكا على أساس العمر وطول القامة والوزن ومقاس الصدر فلم يجد اختلافاً يُذكر بينهم. ولم يستطع أطفال المسلمين من الباتان والأتراك والشيوخ والسادات من سكان المناطق الواقعة على امتداد ضواحي نهر "غنغا" التعايش والانسجام مع أطفال المسلمين البنغاليين، لأن البنغاليين يشبهون بضعفهم وضآلتهم الهندوس أكثر من "المسلم الحقيقي" بحسب مفهومهم عنه. ولم تتوقف السخرية عند هذا الحد بل امتدت بحماقة لتصل إلى قلة الاحترام للغة جميلة مثل البنغالية، في حين أصبح المسؤولون والبيروقراطيون البنغاليون في الإمبراطورية البريطانية في كلكتا هدفاً للكاريكاتير. ومثل هذه العنصرية هي التي أدت إلى تقسيم باكستان وظهور دولة بنغلادش في عام 1971م.

ووقع رد فعل مضاد وغير متوقع على هذه المجموعة من الأمراض المتزامنة التي انتشرت إلى الآخرين أيضاً، وقد شاركت نخبة من الهندوس من كلكتا والبنغال والمثقفين ممن تخرجوا في "كلية بريزيدينسي" ومذكرة ماكولاي عن أثر اللغة الإنجليزية في الإمبراطورية، إلى جانب ملاك الأراضي الذين كانوا يستغلون الفلاحين؛ في ازدراء المسلمين الفلاحين وربطوه بنظام الطبقات الذي يشكل أحد الشرور التقليدية في الهند. فطبقة بهدرالوك التي لم تكن بينها وبين طبقة الشرفاء في جنوب الهند أي مشكلة وصفت المسلمين البنغاليين من حديثي العهد بالإسلام بأنهم "حثالة المجتمع الهندوسي". وكانت النتيجة أن أصبح البنغال منبع السياسة التي تسبب الخلاف والنزاع. يُنسب إلى معظم البنغاليين أنهم كانوا يقولون إنه عندما تصاب البنغال بالبرد تصاب الهند بالعطس، وعندما أصبح البنغاليون من طبقة بهدرالوك غير قادرين على تحمل منح الحقوق الدستورية والانتخابية للمناطق المأهولة بغالبية المسلمين لم تصب الهند بنوبة من العطس فحسب بل أصيبت بمرض تقسيم البلد.

لم يـؤد امتلاك المسلمين لزمام السلطة والحكم مئات السنوات إلى تحسين الوضـع المادي والاقتصادي للغالبية الساحقة من المسلمين، الذين كان مُعظمهم في مقاطعـات البـنجاب والبـنغال إما فلاحين فقراء أو عمالاً مدنيين اضطروا إلى العمـل في المـصانع الـبريطانية بـسبب قلـة رأس المـال لدى الصناعات الهندية التقلـيدية. وفي المـناطق الريفية كانت القوة الاقتصادية قد أصبحت حكراً بأيدي فـئة صـغيرة مـن الهـندوس بالملكـية وتجـارة إقـراض المال. (علماً بأن الفلاح الهندوسـي لم يكـن أحـسن حـالاً مـن الفـلاح المـسلم). وفي مقاطعات البنغال والبـنجاب، حـيث كانَ التماثل اللغوي والثقافي بين الهندوس والمسلمين أقوى ممـا هـو علـيه في المقاطعات المتحدة وبيهار، أثر هذا العامل الاقتصادي تأثيراً كـبيراً في نـشر فكـرة التقـسيم والترويج لها. حتى إن وضع المسلمين في ولايتي يـوبي وبـيهار لم يكن مختلفاً اختلافاً جذرياً، فقد كان على سبيل المثال 3% من المـسلمين مـتعلمين؛ إلا أن نخـبة المـسلمين كانت أكثر اقتراباً إلى مجتمعها من الناحية الثقافية والعاطفية مقارنة باقترابها من الهندوس.

بعـد إخفـاق الجهـاد، شـعر الـبريطانيون بارتياح أكثر في التعامل مع طبقة الشرفاء من المسلمين مقارنة بالتعامل مع العلماء ورجال الدين منهم، تماماً مثلما كـان الـبريطانيون يفـضلون الـتعامل مـع المحامين والمهنيين البارزين من الطبقة الوسـطى للهـندوس، وذلـك لـسهولة تعلـيم هذه العناصر لغة الطبقة الحاكمة، الإنجليزية، على أمل استيعابهم لاحقاً للعمل في إدارة الإمبراطورية.

بقـي أثـر الحـرب الـتي نـشأت بـين الهندوس والمسلمين في ظل الحكم البريطاني في الذهن، وأصبح المثقفون من المجتمعين كليهما وخارج إطار القوة ثـواراً بحـثاً عـن قضية. وقد دُرس تاريخ فترة التسعين سنة من 1857م إلى 1947م في أغلـب الأحيان من منظور النتيجة؛ بدلاً من البحث عن السبب؛ ومن منظور الدوافع الإيديولوجية في فترة ما بعد 1947م بالنسبة للهند وباكستان، وفي فترة ما

بعد 1971م بالنسبة لبنغلاديش، بدلاً من العملية التي أدت إلى هذا التقسيم الكبير. وبما أن التقسيم كان انتصاراً واضحاً للمسلمين الانفصاليين؛ فمن الطبيعي اقتفاء أثر تطور هذا الذهن الإسلامي بدءاً من وضع اليأس والقنوط السائد في مرحلة ما بعد الحكم المغولي، وانتهاءً إلى اللغة والسياسة المتعلقة بحركة إنشاء دولة باكستان.

هذا اتجاه يمكن استنتاجه من الشعر الأوردي، بدءاً من السخرية المدهشة للشاعر المغولي الأخير الشهير غالب، إلى هجاء هندي من الهند البريطانية، أكبر الله أبادي، إلى ألم وفكر مسلم يبحث عن إجابات، إقبال، وإلى قنوط اليساري الباكستاني، فيض، الذي وجد الإجابة هشة جوفاء. وفي حين لا يمكن ربط قصائد غالب بإطار محدد من الأحداث فإن جذور سخرية أكبر الله أبادي، الذي سخر من المسلمين بقدر ما سخر من البريطانيين، راسخة في الزمن. وفي حين شبه الأصوليون الشاعر محمد إقبال بأنه كبلنغ اللغة الأردية؛ فإنه عكس العواطف التي تجيش بها قلوب المسلمين في الهند.

تشكل قصيدة "شكوى"، وهي من أشهر قصائد إقبال، قصة عن الألم والكرب. وقد أصبحت نشيداً للمسلمين في شبه القارة الهندية بعد إلقائها في أحد الاجتماعات بمدينة لاهور في عام 1909م. كانت في الأساس رثاءً وتحديًا. يتساءل فيها الشاعر عن سبب تخلي الله عن المسلمين الذين ظلوا مخلصين له. لقد بدا للمرة الأولى منذ طلوع شمس الإسلام كأن الله قد تخلى عن المؤمنين على الرغم من بيعته معه. ويمكن إدراك معنى هذا الكرب والألم بالمقاطع الشعرية في قصيدته "شكوى" التي يعلِن فيها إقبال صرخة المسلمين، ويقول إن المسلمين تعوّدوا على القناعة والرضا وهم معروفون بهذه السمة المميزة، ولكنهم مضطرون لسرد قصة أشجانهم وهمومهم. ويقول: إذا حان وقت الصلاة وهم يقاتلون أعداء الإسلام فإنهم يتجهون من فورهم صوب القبلة،

ويـصطفون للـصلاة، ويقـوم في صـف واحـد العـبد والـسيد ليـتوبوا إلى الله ويستغفروه ويهتفوا به ويكبروه:

محمود مثل إياز كلاهما

لك بالعبادة تائباً مستغفرا

العبد والمولى على قدم التقى

هتفا بذكرك في الوجود وكبرّا

ولكن ما الجزاء لمثل هذا الولاء والإخلاص؟

هـناك أمـم أخـرى مـنها العاصـي ومـنها صـاحب العِـزّ، ومـنها المتكـبرّ المتغطـرس، ومـنها الغافل، ومنها الذكي البارع. وهناك مئات من الناس ممن لا يحب أن يُذكر اسم الله أمامه؛ ومع ذلك فإن رحمة الله وكرمه يشملان منازل غير المسلمين، أما المسلمون المساكين فليس من نصيبهم إلا البلايا والمحن.

لقـد خـسِر رجال الدين الإسلامي حربهم ضد البريطانيين في القرن التاسع عشر، واتجه المسلمون إلى وسائل أخرى من السياسة ومن التعليم بل من الشعر أحـياناً، كمـا يتـضح مـن شعر إقبال. هناك مظاهر عديدة لليأس، سوف يتحول بعضها إلى مظهر عنيف وغير طبيعي في نهاية الأمر.

- 11 -
الوتد والبوابة

كل شيء على ما يُرام هنا في السفارة بكابول (البرقية الأخيرة التي أرسلها الميجور بيار لويس نابليون غافنياري قبل يوم من وفاته في 2 سبتمبر 1879، إلى نائب ملكة بريطانيا في الهند وحاكمها آنذاك).

أول أمريكي تدخل في الشؤون الداخلية في أفغانستان كان واحداً من جماعة الكويكرز من بنسلفانيا يحمل اسماً واضحاً هو جوسيا هارلان. وعلى نحو إيليهو يال، جاء إلى الشرق مدفوعاً بجمع الثروة أولاً، فيما تأتي المغامرة كعلاوة. في عام 1823م، التحق جوسيا هارلان بالمدفعية البنغالية كمساعد طبيب جرّاح مع أنه لم يكن لديه أي خبرة طبية، وتوجّه إلى بورما للمشاركة في حرب هناك. وفي عام 1826م اتجه إلى الشمال نحو مدينة بنجابية صغيرة اسمها لودهيانا، وقد اجتذبه إليها ملك بلا مملكة. فقد خلع شاه شجاع، عن عرشه في كابول على يد دوست محمد خان، فلجأ إلى البريطانيين الذين يقدّرون البيادق على رقعة الشطرنج الهندية الواسعة. (التصارع والتنافس كان أمراً طبيعياً في أفغانستان؛ فدوست محمد، على سبيل المثال، كان له 72 من الأشقاء أو الأخوة غير الأشقاء؛ لم يكونوا يحسبون الشقيقات دائماً آنذاك).

زعم هارلان أنه تخفى بزي درويش بهدف التجسس في مدينة كابول لصالح شاه شجاع، فمنح لقب "مرافق الركاب الإمبراطوري". لم يكن اللقب إمبراطورياً، فأصبح كمرتزق دون تحيّز، مساعداً لدوست محمد الذي أرسله في حملة عسكرية تأديبية وناجحة إلى بُخارى. وعندما عاد إلى كابول في عام 1839م

عَلِم أن البريطانيين أرسلوا جيشاً كبيراً بهدف الإطاحة بحكم سيده الذي كان يصرف رواتبه؛ ففعل ما كان يتوقع من مغامر متعقل مثله أن يفعل، الفرار. وفي عام 1841م وجد مخرجاً من مدينة كابول وتركها كي يعيش في مدينة أقل اضطراباً هي سان فرانسيسكو.

كان البريطانيون أول صانعي الإمبراطورية منذ أشوكا الأكبر الذين يتوسّعون من ناحية الشرق، وكانت أوروبا قد جاءت إلى أفغانستان قبل نحو ألفي عام من البريطانيين مع الإسكندر الذي ترك وراءه مملكة أفغانية مقدونية بوذية مُزدهرة. وبعد نحو 15 قرناً من الزمان خضعت البلاد لسيطرة فاتح عالمي آخر هو جانغيزخان، الذي لم يترك وراءه إلا ذكرى الدمار والخراب في هرات، وهي واحة على مفترق أكثر الطرق التجارية ربحاً في العالم طوال ثلاثة آلاف سنة على الأقل. وبدأت جيوش المسلمين تمر عبر البلاد منذ منتصف القرن السابع وهي في طريقها باتجاه وادي الأكسس (سيحون). يقول الأفغان إنه بقيت كومة من الصخور بعد أن خلق الله العالَم فبنى بها أفغانستان.

نظرة إلى الخريطة توضح الحقيقة، وهي أن أفغانستان تعد بمنزلة الوتد والبوابة بالنسبة للهند، وقد أدرك هذه الحقيقة الغزنويون والغوريون من الأفغان الذين شنوا غارات على الهند، وحكموها منذ القرن الحادي عشر. وعندما أسس الملك المغولي بابر الإمبراطورية المغولية العظيمة توجه أولاً إلى كابول كي يضمن أمن هذه المدينة. أما حفيده أكبر، فيعد أيضاً ملكاً عظيماً، فقد اتخذ إجراءات وقائية أخرى؛ إذ بنى قلعة رائعة في مدينة أتوك، تُطِلّ على ملتقى نهر كابول المظلم والملوّث، ونهر الأندوس الصافي والمتألق، حيث يجتمع النهران في طريقهما إلى السهول، (علماً بأن المياه الدامسة المظلمة والصافية المتألقة تجريان معاً، وتقتسم النهر فيما بينهما مسافة تقرب من نصف الميل قبل اندماجهما معاً). كانت الهند في أمان من جهة الغرب ما دامت قلعة أتوك تحرس

المدخل إلى سهول البنجاب عن طريق مضيق خيبر. وينسب زوال قوة المغول إلى نادر شاه الذي كان أول من غزا الهند وتمكن من اختراق ذلك المضيق منذ عهد بابر.

يرجع تاريخ أفغانستان الحديث عامة إلى سلالة حاكمة أنشأها أحد جنرالات نادر شاه يدعى أحمد شاه أبدالي. في عام 1747م وفي اجتماع لويا جرغا لرؤساء القبائل استمر تسعة أيام انتخب أحمد شاه أبدالي زعيماً لعشيرة "درّاني"، بوضع العشب على عمامته تعهداً بالولاء له. حكَم الأبدالي من مدينة قندهار، ثم جاء ابنه تيمور شاه ونقل العاصمة إلى مدينة كابول في عام 1772م، وضمّ جميع مناطق أفغانستان إلى حُكمه في عام 1780م. وبفضل اتفاقية مع بُخارى جعل نهر الأكسس أو أمو داريا حدود الدولة في الشمال، بينما امتدت المناطق الشرقية للبلد إلى ما وراء الأندوس لتصل إلى بيشاور.

في النصف الثاني للقرن الثامن عشر كان البريطانيون قد تمكنوا من تحييد كل أمير وحاكم إقليمي مسلم يدعى "نواب" أو حاكم هندوسي يدعى "راجا" أو هزيمته، حتى صح لهم أن يدّعو بحق أنهم سادة الهند وحكامها. وكانت البنجاب هي المقاطعة الوحيدة التي بقيت خارج سيطرة البريطانيين، وذلك بفضل الحكم القوي للملك السيخي المدعو المهراجا رنجيت سنغ، الذي كان قد أدرك جيداً أن القوة إنما تنطلق من ماسورة بندقية منضبطة. ولكن البنجاب القوية خَدَمت بوصفها حاجزاً قوياً، وأصيبت بالتفتت والانهيار عندما دمّر ورثة المهراجا رنجيت سنغ في عقد من الزمان ما استغرق بناؤه جيلاً كاملاً.

بهزيمة الملوك والأمراء تغيرت طبيعة معارضة البريطانيين أيضاً، وتحولت إلى أمر غير عادي يتسم بالهدم والتخريب في مكان الهجوم والعدوان. وبدلاً من مواجهة جيوش رسمية تمثل دولة بدأ البريطانيون يواجهون جيوشاً وجماعات ملهمة من دون قادة معروفين، أو قادة ملهمين من دون جيوش معروفة. وتبنى

الجنود والفلاّحون قضايا أصبح زعماؤهم غير قادرين على إثارتها والعمل من أجلها، إما بسبب الضعف والهوان وإما بسبب الجبن. ومن أقوى هذه الحروب وأشهرها ما سماه البريطانيون "تمرّد الجند" عام 1857م، حينما استخدم الناس إشارات سرّية للتنسيق فيما بينهم، ورفعوا لواء التمرد ضد الحكم البريطاني، وأوشكوا على الإطاحة به والقضاء عليه. كان الهنود يمتلكون الحماسة والعاطفة، وكان البريطانيون يمتلكون الانضباط والتنظيم. وبعد المراحل الأولية من الموجة المدنيّة الابتدائية انهار التمرّد.

ومن أكثر التحديات انتشاراً في القرن التاسع عشر ما تمثّل في سلسلة من العمليات الجهادية، التي ما كان المسؤولون البريطانيون ينتهون من القضاء على خطر إحداها في الشرق مثلاً؛ حتى تنفجر عمليات أخرى في وسط خريطتهم الجغرافية السياسية المترامية الأطراف أو غربها. وشهد أكثر هذه العمليات الجهادية نجاحاً تحرير بيشاور من قبضه السيخ ولو لمدة قصيرة، بجهد من سيد أحمد البريلوي وبمساعدة من القبائل الأفغانية. وخلال فترة التمرد هذه التي امتدت نحو عشرين سنة واجه البريطانيون شراسة المجاهدين وقسوتهم حينما ارتكبوا خطأً فاحشاً بغزو أفغانستان. وعندما كان الأمير يتخلى عن المجاهد كان المجاهد يحارب بمفرده.

بذل البريطانيون جهدهم المستطاع من أجل تفهُّم مزاج المسلم الذي كانوا يتعاملون معه، ولكنهم لم يقدروا على إدراك هذا الحماس المتَّقد. كما أنهم عجزوا عن استيعاب قضية قد تتجاوز ملكاً أو بلداً ما. وهناك ملاحظة تتسم بالتبصر والإدراك حول الموضوع للكاتب برسيفال سبير في كتاب (The Nabobs: A Study of the Social life of the English in 18th century in India, Oxford University Press, 1963):

> من العوامل المهمة الافتراضات والمزاعم المتحيزة التي حملها كل طرف معه في المواجهة، والتي نشأت لدى البريطانيين بسبب تجربتهم السابقة

مـع الأفارقة في غرب أفريقيا وجزر الهند الغربية، ومع الهنود الحمر في أميركا ومـع المسلمين الأتـراك والعـرب في دول الـشرق وشمـال أفـريقيا. فقـد كان البريطانيون في تلك الأيام ينظرون إلى الأفريقي على أنه عبد وبربري بدائي، أو كمـن يُحـتمل أن يـتحول إلـيه، بيـنما كانوا ينظرون ببعض الاحترام إلى الهنود الحُمـر مـع أنهـم يعـدونهم مـن البدائـيين والفطريين. أما الأتراك والعرب فلم يكونـوا في نظـر الـبريطانيين مـثل الأفارقـة أو الهـنود الحمـر؛ ولكـنهم كانـوا منخـرطين في عـداء تقلـيدي مـنذ الحـروب الـصليبية، فكـان المـسلمون مـن الكفـار، واعتـبروا قـساة وغدّارين وماكرين، ولكنهم في الوقت نفسه شجعان. ألم يكـن المغـول وكثير من الهنود الآخرين مسلمين؟... وعندما بدا أن المغول فقدوا السلطة وأن المراثا لم يرثوها أصبح كل من المسلمين والهندوس خاضعاً لتقييم سياسي وثقافي.

كـان الـبريطانيون قلقين بشأن الحسد الأوروبي أكثر من قلقهم حول بروز أي قـوة هـندية وإحـيائها من جديد. فالهند كانت مطمع كل من القوى الأوروبية الكبرى الثلاث آنذاك، إنجلترا وفرنسا وروسيا. وقد سبق أن حصلت منافسة بين إنجلتـرا وفرنـسا بـشأن الهند، مُنيت فيها الأخيرة بالهزيمة إلا أنها شهدت إحياءً لآمالهـا في عهـد بونابـرت. وقد أثار نابليون أول اهتمام بريطاني في أفغانستان؛ فقـد كـان مـن المتوقع أن يسلك هذا الفاتح طريق الإسكندر، عبر بلاد فارس، وذلك بعدما وصل إلى مصر في عام 1798م مع 38000 جندي، و170 من العلماء والمثقفين.

وعلـى الرغم من أن هذه المخاوف تبددت إثر انتصار نلسون البحري على فرنـسا إلا أنهـا لم تـزل تمامـاً. وقـد زار المـسؤول الحكومـي الـبريطاني الـبارز مونستورات إلفنستون بيشاور في عام 1809م، بهدف كسب دعم الأفغان في حال غـزاها نابليون، بينما وقع تشارلز متكالف معاهدة مع رنجيت سنغ تضمن وقوف السيخ إلى جانب البريطانيين في حال وصول نابليون إلى بوّاباته الغربية. في مقابل ذلـك، ضـمن الـبريطانيون سـلامة الأراضي الإقليمية لمملكة السيخ. وقد التزم

البريطانيون بهذا التعهد إزاء رنجيت سنغ ما دام على قيد الحياة. وفي عام 1814م وقّع البريطانيون معاهدة مماثلة مع بلاد فارس لتوفير الدعم للفُرس في حال تعرضهم للاعتداء والاحتلال. وعندما تعرّض الفُرس فعلاً لخطر من روسيا المغامرة العدوانية توجهوا إلى البريطانيين طلباً لدعمهم الموعود؛ لكنهم وجدوا البريطانيين منشغلين بأمور أخرى وفي مكان آخر.

كان أول بريطانيين يعبران ممر خيبر رجلاً مُسناً يعمل سائس خيل يدعى وليام موركروفت، وشاباً يعمل محامياً يدعى جورج تريبك. وقد وصل المذكوران إلى هذا الممر الأسطوري عام 1824م وهما في طريقهما إلى مدينة بخارى، التي وصلا إليها في فبراير للعام 1825م مروراً بمدينة كابول، ما أثار الرعب والذعر في قلوب بعض الموظفين الحكوميين البريطانيين في مدينة كلكتا، والذين كانوا قد توقعوا وقوع كارثة لمثل هذا التهور. وهذه الرحلة الملحمية لوليام موركروفت رسمت طريقاً سارت عليه الإمبراطورية بعد أقل من 15 عاماً من وفاته، لتوضح أن الحكومة كانت أكثر تهوراً في هذا الخصوص مقارنة بالمغامر وليام موركروفت.

كانت شركة الهند الشرقية قد تعاقدت مع موركروفت المذكور براتب سنوي كبير قدره ثلاثون ألف روبية، وذلك لتأدية عمل مختلف تماماً هو تربية الخيول من النوع الجيد. ولكن هذا العمل كان رتيباً لا يليق بمزاجه العاصف. لقد جاء إلى الهند مديراً لمزرعة خيول، وعاش حياته الشخصية منسجماً مع هذا العمل أيضاً. ولم يكن الأمر يتعلّق بأن له زوجة تدعى ماري وتعيش في إنجلترا، وأخرى تدعى بوري خانم وتعيش في الهند، وولدت له طفلين، آن وريتشارد. فكان ذلك من الممارسات المعروفة في تلك الأيام، قبل أن تجلب أساطيل الصيد معها إلى الهند البريطانية نساء عازبات وقساوسة صارمين. وكان لدى الهنود من السكان المحليين الأصليين تعبير بارع وذكي يقول إن "بي بي (الزوجة

البيضاء) قد حلت محلها "بوبو" (كلمة هندية تستخدم للأخت). وكما هو معروف عن التورية فإن هذا ليس سيئاً على الإطلاق؛ فبينما كانت "بي بي" (الزوجة البيضاء المقيمة في إنجلترا) تستلم رسائل من زوجها المقيم في الهند، كانت "بوبو" تدير منزله وتعلمه اللغة الهندوستانية، وترعى حاجاته وتشاطره السرير.

كان موركروفت في الثانية والخمسين عندما غادر كلكتا في 1819م، وكان موقف الحكومة يتسم بازدواجية صريحة في هذا الخصوص؛ فقد سمحت له بالذهاب أينما يشاء ما دامت المسؤولية لا تقع عليها في حالة وقوع حادث أو خطأ. ويبدو أن مثل هذه السياسة القياسية إزاء الجواسيس لا تزال قائمة في الوقت الراهن. في 6 من مارس عام 1820م غادر موركروفت الهند البريطانية عابراً نهر سَتْلِج على متن جلود منتفخة للجواميس. ولم يظن أحد، ولا أكثر الأمراء الصغار سذاجة، أن الهدف من مجيء موركروفت كان الحصول على المني الأفضل (للحصان)، على الرغم من إصراره على هذه الذريعة. وقد تبين أن تقاريره المنتظمة إلى كلكتا تجسساً على أعلى مستوى. قوبل موركروفت بالترحيب والضيافة في مدينة بيشاور في ديسمبر عام 1823م قبل أن يتوجه إلى مدينة كابول في أفغانستان عبر ممر خيبر.

أرسل الجاسوس المذكور رسالة تقول: "إن وحدة من الفوج البريطاني تكفي للإطاحة بنظام دوست محمد، وإحلال حكومة المحمي البريطاني شاه شجاع في مكانه." وهكذا غدا موركروفت بطلاً آخر لتعبير ورد في القول المأثور عن روبرت كلايف: الوقوف بلا حراك يعني الموت. وقد دفعت هذه الفلسفة إلى تبني ما يدعى "السياسة الجريئة". وقد أوضح موركروفت أنها الطريقة الوحيدة لإحباط مساعي الروس. قابلهم في مدينة بخارى التي دخلها سيراً على الأقدام؛ لأن دخول المدينة من أبوابها الرئيسية وعلى متن الفرس غير مسموح به للكافر.

وكـان معجباً أيما إعجاب بما شاهده في المدينة من قلعة قديمة يبلغ عمرها أكثر مـن ألـف سـنة ومكتـبة كـبيرة، ونحـو 300 مـن المـدارس والحدائـق والأنهار والقـنوات، إلى جانـب الأسـواق الزاخـرة بالبـضائع الروسـية وبالعبيد الروس. (عندما استخدمت روسيا لاحقاً تجارة العبيد ذريعة للغزو، لم يستطع المسلمون إدراك حقـيقة هـذا الاتهـام؛ وقالـوا إن روسيا هي الأخرى تستعبد مواطنيها عبر القناة، فلماذا تشتكي وتتذمر من الاستعباد في مكان آخر؟).

لم يكـن الـتهديد الروسـي أمـراً خيالـياً حـتى ولـو استبعدت بعض أغرب التفـسيرات. فالتوجه الروسي نحو الجنوب له نصيب من التفسيرات غير ما يتعلق بالهيمـنة التقلـيدية، والـبحث عـن طـريق يوصـل إلى المـياه الدافـئة. ومـن بين التفسيرات المُقنعة في هذا الخصوص أن روسيا كانت في حاجة إلى فضاء مفتوح للـدفاع الاسـتراتيجي، إذ يمكن الدفاع عن الفضاء مثل الجدار. وهذا هو المبدأ الـذي أخـذ بالحـسبان لـدى إنـشاء معسكرات بريطانية في الهند، فقد كان هناك فضاء مفتوح أو ميدان أمام كل معسكر لضمان توافر مجال غير محدود للنار. ولم تكـن الـسيادة والأمـن منفـصلين عـن عنـصر الحرب الصليبية؛ فالقوزاق الذين تحـركوا تحـت رايـة إيفـان الـرهيب (أو العظـيم) واسـتولوا علـى مدينة "قازان" الإسـلامية الواقعة في أعلى نهر الفولغا عام 1552م، حرصوا على تحويل ديانات النـساء، وبـناء الكـنائس الـتي كانـت تعلن أجراسها النفوذ المتزايد لإمبراطورية مسيحية متشددة.

ولم يكن تفكير بطرس الأكبر مقتصراً على العالم الإسلامي، (فقد استولى علـى أسـتونيا ولاتفـيا وجزء من فنلندا في عام 1721م)؛ بل كان حُلمه الأساسي اسـترداد القـسطنطينية للعـالم النصراني. وقد انتهى أول هجوم شنه بطرس وسط آسـيا إلى كارثـة عندما ذبح جيش مكون من 3500 جندي في خيفا. ثم التفت إلى منطقة "القوقاز" التي هي سلسلة من الجبال الضخمة تفصل أوروبا عن آسيا على

امتداد 650 ميلاً من بحر قزوين إلى البحر الأسود. في عام 1722م دخلت روسيا منطقة داغستان، وفتحت بذلك ممراً لمنطقة القوقاز الإسلامية.

اكتسحت الجيوش الإسلامية في القرن السابع بلاد فارس وآسيا الوسطى، إلا أنها توقفت أمام هذه الجبال المرتفعة وهؤلاء الناس الأشداء؛ وكان الفُرس يظنون أن ملك الجِن يعيش في ثلوج هذه الجبال التي يصعب الوصول إليها واختراقها. إلا أن الإسلام وصل إلى هذه المنطقة بفضل المبلِّغين والدعاة من الصوفية، ولا سيما أتباع الطريقة النقشبندية. وكان الشيشانيون والقوقازيون والداغستانيون قد اعتنقوا الإسلام برضاهم، في حين بقيت جورجيا وأرمينيا على النصرانية.

في عام 1734م تقدمت روسيا شرقاً وغرباً، وألحقت هزيمة بالقازاق واستولت على القرم. وازدادت روسيا حدة في رؤيتها وصلاحيتها وثبات عزمها تحت راية كاثرين العظيمة التي أعلن أحد سفرائها بأن المستقبل لروسيا وأمريكا. وقد يكون هذا الإعلان صادقاً وصحيحاً بالنسبة إلى المستقبل البعيد؛ إلا أنه لم يكن كذلك في المستقبل القريب العاجل. فقد كان الأسد البريطاني لا يزال يحتفظ ببعض الحياة. وقد تحررت طاقات روسيا وبريطانيا من انشغالاتهما الأوروبية إثر هزيمة جيش نابليون الكبير والقوي المتكون من 600000 جندي عام 1812م، وانتصار ويلنغتون في واترلو، ما مكّنهما من الشروع ببناء الإمبراطورية على نحو غير مسبوق في التاريخ الأوروبي. أضاف القيصر الروسي ألكسندر الأول نحو 200000 ميل مربع إلى مملكته، بينما ذكر محلّلون بريطانيون مثل السير روبرت ويلسون، الذي كان مراقباً عسكرياً خلال احتراق موسكو، أن القيصر الروسي المذكور كان يعتزم الاستيلاء على القسطنطينية، ودخول الهند من طريق بلاد فارس.

كانت القوات الروسية تؤدي مهمتها على جانبي بحر قزوين، متخذة من أورِنبورغ قاعدة لعملياتها. وفي عام 1825 عبرت روسيا خطاً من الغرب إلى

الشرق، بدءاً من شمال قزوين إلى الأرال ثم بحيرة بلخاش. (وكان هذا التقدم الروسي هو الذي أقلق بلاد فارس). وبين عامي 1839-1840 ذاقت خيفا حلاوة انتصارها الأخير عندما تمكنت من صدّ نحو 5000 من القوزاق، و2000 من القرغيزيين بقيادة الجنرال في إيه بيروفسكي، لكن المثابرة والعزيمة لم تفترا. وفي 1865م كانت روسيا قد احتلت مدينة طشقند الثمينة. وبحلول عام 1868م كان الحكم الروسي قد امتد ليصل إلى مدينتي بخارى وسمرقند. وفي 1873م سقطت مدينة خيفا أيضاً في أيدي الروس، ولم يمض عقد آخر من الزمان حتى كانت روسيا على مسافة طلق ناري من مدينة هرات.

يبدو القرن من الزمان قصيراً إذا تخلّله كثير من التواريخ، إلا أن الكفاح لم يكن سهلاً، ولا كانت نتيجته محتومة. فقد سار التقدم الروسي تدريجياً، بدلاً من أن يكون اكتساحاً متواصلاً، ويرجع السبب في ذلك إلى أن المقاومة أتت من قوات غير منتظمة، واستمرت في رفع لواء الجهاد حتى في حالة استسلام أميرهم. ولكن لم يستسلم جميع الزعماء والأمراء بسهولة؛ فقد كان هناك رجال من أمثال نصر الله خان من مدينة بخارى، الذي كان يجمع في شخصه صفات مختلفة من المكر والخداع والثقة والذكاء إلى جانب طريقة تعذيب مرعب ومؤذ في السجن. وكان سجنه المفضل للكفار يدعى "سياه تشاه" (البئر السوداء)، الذي كان حفرة يبلغ عمقها 20 قدماً، وتوضع فيها مجموعة مختارة من السجناء كي يعيشوا فيها جنباً إلى جنب مع جرذان وحشرات مؤذية وجثث متعفنة. غير أن أشهر رايات الجهاد رفعت في القوقاز، راية جهادية تطّهرية سوداء صدّت الروس في حرب طويلة ضارية، بقيادة رجل أصبح بطلاً إسلامياً أسطورياً وعُرف باسم الإمام شامل.

يذكر المسلمون في القوقاز هذه الفترة باسم عصر الشريعة، والذي يقال عنه بحسب الاعتقاد السائد إنه لم تكن أي فتاة شيشانية تتزوج فتى إلا إذا كان قد تخطى نهراً بوثبة، وقفز فوق حبل محمول على ارتفاع الكتف، وقتل واحداً من

الـروس. ويـروى أن أول معـركة جهاديـة دارت بقيادة يسوعي من إيطاليا يدعى إلـياس منـصور، وكـان قـد اعتـنق الإسـلام وأرسـله السلطان العثماني لمحاربة الـروس. هُـزم هـذا الرجل في عام 1791م وألقي في السجن. ثم أحيا هذا الجهاد وغـذاه العلمـاء والمشايخ الذين كان من أبرزهم ملا محمد ياراغي، وكان عالماً صـوفياً، وتلمـيذه ومـريده غـازي مُـلا الذي كان من داغستان. وكانت رسالتهم متـشابهة؛ وهـي أن الجهـاد ضد الروس لا ينجح إلا إذا التزموا بالشريعة التزاماً كاملاً، وتخلوا عن عاداتهم وقوانينهم التقليدية.

وكـان ردهـم علـى حـروب قياصرة روسيا والكنيسة الأرثوذكسية الروسية الـصليبية يتمـثل في وحدة الصف وصفاء العقيدة. وفي عام 1899م قام غازي ملا بجـولة في المـنطقة بهدف نشر دعوته القائلة بأنه ما دام هناك روسي واحد بينهم فلـن يتقـبل الله منهم شيئاً من العبادات، لا التزامهم بالشريعة ولا دفع الزكاة ولا أداء الـصلاة، ولا حـتى أداء فريـضة الحـج. وأنـه مـا لم يطردوا كل روسي في منطقتهم فلن يصح نكاحهم، وسوف يعد أولادهم أولاد زنا. وأطلقوا عليه لقب "الإمـام" في اجـتماع عُقـد في جامـع غمـري حيث وجه غازي ملا رسمياً وعلناً دعـوته للجهـاد. نجـح غـازي مـلا وأتـباعه ومـريدوه في معـركتهم الأولى ضد الـروس، والـتي خاضـوها في الغابـات الواقعة جنوب مدينة غروزني. ولكن رد فعـل الروس كان حاداً، فاضطر غازي ملا للانسحاب إلى غمري. وتقول القصة إنـه عـندما استولى الروس على مدينة غمري وجدوا أن "غازي ملا قد مات وهو جـالس على المصلى برجليه المطويتين، واضعاً إحدى يديه على لحيته، ومشيراً باليد الأخرى إلى السماء.

اسـتطاع اثـنان فقـط مـن مـريديه وأتـباعه أن يـنجوا بنفسيهما من المعركة المذكـورة، كـان أحـدهما "شـامل" الذي وجد نفسه أمام أربعة من الجند، وهو واقـف علـى باب أحد المنازل بقامته الطويلة وبنيته القوية، وبدا كأنه توقف مدة

قصيرة لتمكين الجند من التصويب عليه؛ فوثب عليهم فجأة وقطع رؤوس ثلاثة منهم من الوراء، ولكنه أصيب هو الآخر بطعنة في صدره من الجندي الرابع، فأخرج الحربة من صدره بنفسه وقتل الرابع أيضاً، ثم قفز إلى ما وراء الجدار وغاب في الظلام. وهذه هي القصة التي يرويها الناس عن الإمام شامل ويذكرونه بها. ولد شامل عام 1796م في أسرة نبيلة بداغستان، وأصبح معروفاً بوصفه عالماً إسلامياً وهو لا يزال في أوائل العشرين من عمره، وحج في عام 1828م.

وبعد هزيمة مدينة غمري في عام 1829م قبله الناس إماماً للجهاد، فكون جيشاً متنقلاً يضم 6000 من أتباعه ومريديه، مقسَّماً إلى عدة وحدات، يتكون كل منها من 500 رجل يرأسها نائب للإمام. وعلى مدى عشر سنوات سبب هذا الجيش دماراً وخراباً للروس قبل أن يُحاصَر ويُهزَم في عام 1839م. وهرب شامل على الرغم من خسارته إحدى زوجاته وأحد أطفاله؛ لكي يعود من جديد في عام 1840م مع جيش جديد يرفع الرايات السوداء نفسها ويزحف نحو الانتصار نفسه. أعلن الروس أنهم سيمنحون وزن رأس شامل ذهباً لمن يأتي به مقطوعاً، واستمرت هذه المكافأة مقابل رأسه في ازدياد، لكن الروس لم ينجحوا في الجهود الرامية إلى إخضاع شامل أو التخلص منه إلا في عام 1858م؛ حين اضطر شامل للاستسلام بعد الصمود للمرة الأخيرة في يونيو من عام 1859م إثر تهديد الروس بذبح جميع أفراد أسرته إن لم يسلم نفسه لهم حياً. ونفي إلى ضواحي مدينة موسكو حيث عاش فيها حتى عام 1869م العام الذي سُمح له فيه بالسفر إلى مكة والمدينة. وخرجت الجماهير لاستقباله وهي تهتف له خلال سفره عبر تركيا إلى مكة والمدينة حيث توفي عام 1871م.

الأسطورة تحيا بطبيعة الحال. ويحيا الجهاد أيضاً في القوقاز.

وكما أن الأتباع والمريدين في القوقاز أوقعوا الروس في إشراكهم، فإن المجاهدين في أفغانستان صدّوا القوة الأوروبية الكبرى الأخرى في ذلك الوقت.

ففي عام 1833م عين البريطانيون جاسوساً في كابول سموه "محرر الأخبار"، وهو الأمر الذي كان من دون ريب أول مثال للانسجام بين وظيفتين مختلفتين. كان جندياً هارباً وجوّالاً اسمه تشارلز ماسون، يتقاضى راتباً شهرياً قدره 250 روبية مع اشتراط البريطانيين في كلكتا بالهند عليه بأنهم سيتبرأون منه في حال افتضح أمره. كان جاسوساً أميناً وجيداً، وأرسل تقريراً مفاده أن مدينة كابول (خلافاً لمدينة قندهار) متسامحة، دون طبقات، ومضيافة، وكان دوست محمد الذي كان محبباً عند شعبه يعامل الجميع بالعدل حتى الهندوس والمسيحيين الأرمنيين، ولم يكن يلجأ إلى السيف إلا في حال إخفاق الوسائل والاستراتيجيات الأخرى.

في عام 1832م حصل موظف بريطاني نشيط اسمه ألكسندر بورنز على إذن للسفر إلى بخارى بعد انتظار سنتين، وضع الرجل العمامة على رأسه ولبس الرداء، وحلق رأسه، وصبغ لحيته باللون الأسود، وأخذ يستخدم أصابعه للأكل، وسَمّى نفسه إسكندر. وعندما سأله دوست محمد لماذا تحمّل هذه الصعوبات إن لم يكن جاسوساً أجابه الرجل أن هدفه الوحيد كان تجنب تحديق الناس في وجهه، وقد كان هذا الجواب معقولاً ومقبولاً في الظاهر. في عام 1836م طلب الحاكم العام الجديد بالهند لورد أوكلند من بورنز أن يزور كابول وآسيا الوسطى ثانية متظاهراً بأنه يروج لتجارته. وكانت كلكتا قد قررت الاستيلاء على كل ما تستطيع الاستيلاء عليه على حدودها الغربية، والتحكم من بُعد بما لا تستطيع الاستيلاء عليه.

في عام 1844م استولى الجنرال السير تشارلز نابير على مقاطعة السند الواقعة جنوب البنجاب وأفغانستان بعد أن كان السيّاح قد اطلعوا على الطرق والشوارع وتفقدوها، وقد أصبحت برقيته التي حملت نبأ الانتصار تورية شهيرة؛ فقد اشتملت على جملة واحدة هي: "بكاوي!" أي اقترفتُ إثماً. أدت الحرب

التي وقعت بين الإنجليز والسيخ إثر وفاة رانجيت سنغ إلى ضم البنجاب إلى المناطق التي تحكمها بريطانيا في العقد نفسه وفي وقت مناسب كذلك، فقد كانت مقاطعة البنجاب هي التي وفرت الحماية للحكم البريطاني من تمرد الجند لعام 1857م. أما الهدف الثالث، وهو الاستيلاء على أفغانستان، فقد تبيّن أنه أكثر تعقيداً.

اشتد القلق بشأن روسيا عندما زوّدت الفُرس بجنود للهجوم على هرات في عام 1837م. واحتاج البريطانيون لرفع الحصار إلى ظهور اثنين من قواربهم المسلحة في الخليج العربي. وفي ديسمبر من عام 1837م حضر روسي إلى مدينة كابول حاملاً رسالة مزعومة من قيصر روسيا، تبين فيما بعد أنها ورقة مروّسة بدلاً من أن تكون رسالة لأنها لم تكن موقّعة. أدى بورنز الذي كان في كابول آنذاك عملاً جيداً عندما دعا النقيب إيفان فِكتوروفتش فِتكتيفتش والبالغ من العمر (30) عاماً إلى العشاء.

وعلى الرغم من أن زيارة النقيب لم تكن ذات أهمية تذكر في كابول؛ فإنها أصبحت الاستفزاز الذي ينتظره المسؤولون البريطانيون في كلكتا. فوجهوا إنذاراً نهائياً إلى دوست محمد في مارس من عام 1838م بشأن ضرورة الكف عن المراسلة والمكاتبة مع الروس والفُرس، وعدم استقبال أي موظف أو وكيل من عندهم بأي حال من الأحوال. وكانت إجابة الأفغان أن البريطانيين يطلبون كل شيء مقابل لا شيء. وفي إبريل استدعي بورنز كي يبلغ أمر التوجه إلى أفغانستان مرة ثالثة، ولكن مصحوباً بجيش هذه المرة. كما أنه رقي إلى رتبة مقدم وأكرِم بلقب فارس ولما يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره. كان وزير الخارجية البريطاني اللورد بالمرستون على قناعة بأن الهجوم على مدينة هرات إشارة إلى وجود تحالف روسي - فارسي قوي ضد الإمبراطورية البريطانية، وتقدم بتوصية بإحلال شاه شجاع الأكثر مرونة محل دوست محمد. ومن الواضح أن وزير

الخارجية البريطاني لم يكن على دراية بكنية شاه شجاع؛ وهي "شاه كم نصيب"، أي السلطان سيئ الحظ.

كان السير جون مكناغتن رئيس هذه البعثة، وقد لاحظت زائرة معاصرة اسمها إيميلي إيدن بحدّة أن السير جون يتحدث اللغة الفارسية أحسن من اللغة الإنجليزية، على الرغم من أنه يفضل اللغة السنسكرتية. في أكتوبر من عام 1838م صدر بيان سِملا" مُتهِماً أفغانستان بدعم الخطط الفارسية. حشد جيش الإندوس لغزو أفغانستان ضم 9500 رجل من البنغال وبومباي و6000 من المحاربين الآخرين (معظمهم من الهندوس)، تحت قيادة رمزية لشاه شجاع. وضم أيضاً 30000 جمل وعدداً كبيراً من الخراف يكفي للطعام مدة عشرة أسابيع، إلى جانب نحو 38000 من أتباع الجيش الآخرين من أمثال ناقلي الماء، (مثل غنغادين المخلص الوفي)، وحاملي النقالات والطبّاخين والعرّافين وعازفي الكمان والفتيات الراقصات، وكذلك الزوجات للأتقياء منهم.

شهد هذا الجيش عدة تطورات وهو في طريقه إلى كابول. حضر أوكلند بنفسه لمقابلة رنجيت سنغ "إلا أن الحاكم السيخي المذكور كان ذكياً ولم يسمح لهذا الجيش بالمرور عبر البنجاب، ما أدى إلى تحرك الجيش إلى الأمام بتقديم رشاوى للمرور عبر مقاطعة السند وممرّ بولان، كي يصل إلى مدينة قندهار التي توج شاه شجاع فيها أمام بضع مئات من الأفغان غير المبالين به. وفي مدينة غزني، أشار أحد المخبرين إلى إحدى البوابات التي لم تكن مُدعمة جيداً، فلغّمها الملازم هنري ديوراند من المهندسين البنغاليين. كانت هذه البوابة هي بوابة كابول. لم يخسر جيش الإندوس إلا 17 رجلاً من رجاله.

وهكذا سقطت مدينة كابول من دون مقاومة، كما تكرر ذلك مرات أخرى في عام 1879م وعام 1978م وعام 2001م. هرب دوست محمد إلى بخارى طالباً اللجوء هناك ونال ذلك. أما شاه شجاع وجيشه، الذي كان غالبيته من الهندوس، فقد استقروا كي يتمتعوا بحسن حظهم. احتل البريطانيون حصون

غـزني وقـندهار وجـلال أبـاد، واسـتولوا على كويتا وخيبر بهدف تأمين وسائل اتـصالهم، وبـدأوا يحلمـون بالـسيطرة علـى هـرات و"الـصين التـتارية" وحـتى "سـيبيريا"، بمـثابة هدايا مستقبلية يقدّمونها إلى الملكة فيكتوريا. نقل شاه شجاع أسـرته الـتي تضم مئات الزوجات وأتباعهن من الخدم والخادمات إلى قلعة بالا حـصار، وحـين طلـب الـبريطانيون الـسماح لهـم باسـتخدام هـذه القلعة موقعاً عـسكرياً لهـم رفض شاه شجاع هذا الطلب؛ خشية أن يختلس البريطانيون النظر إلى حـريمه وزوجاتـه مـن خـلال المتاريس والأسوار. ولم يُلح البريطانيون على طلـبهم علـى الـرغم من حاجتهم إليها. وكان يجدر بهم ذلك لأنهم يتعاملون مع سلطان سيّئ الحظ.

كانـت الحـياة سعيدة في كابول، وكان السير ألكسندر الذي غدا فارساً من عـشيرة دُرّاني مـن المحظـوطين بالتمـتع بهـذه الحـياة السعيدة، مفضّلاً الفتيات المحلـيات من ذوات العيون السوداء. كان هناك "البولو" والشمبانيا ونبيذ ماديرا، وسمك السلمون، فضلاً عن حفلات عشاء رائعة للضباط البريطانيين وزوجاتهم. توقـع اللورد بالمرستون في عام 1840م أن يجتمع المجنّدون الهنود والقوزاق في قلـب آسـيا، أفغانـستان، لتقريـر مـصير هـذه القـارة. أبلغـت كابـول كلكتا بأن أفغانـستان بلـد اسـتثنائي، وكـان هـذا هـو الـسبب وراء مجـيء رجـل مـصاب بالدزنـتاريا في التاسعة والخمسين من العمر هو اللواء وليام إلفِنستون إلى كابول في منتـصف 1841م ليتـسلم مهمـات القائد الأعلى الجديد. كان المذكور قد بنى لنفـسه مجـداً وشهرةً في "واترلو"، واستكان إليها منذ ذلك الحين. وكان الوضع في كابـول عاديـاً إلى درجـة أن الـبريطانيين قطعـوا الإعانـة المالـية (وهي تعبير متواضع آخر للرشوة) التي كانوا يقدمونها لقبيلة غِلزائي، التي أغلقت في المقابل ممر خيبر. بدت هذه المشكلة تافهة في كابول.

في الثاني من نوفمبر عام 1841م تجمَّع بعض الناس أمام قصر بورنز هاتفين

باسمه المستعار: إسكندر! إسكندر! وعندما ذهب إلى الحديقة لمقابلتهم قطعوه إرباً إرباً. لم يفعل البريطانيون شيئاً، ولم يكن يعرف أحد شيئاً عن هذا العصيان المسلح الذي لم يكن له زعيم ولا قائد. كان العصيان من غير زعيم ولكن لم يكن من دون إشارة. تلت هذا العصيان معركة استمرت حتى 23 من نوفمبر. وأخيراً ظهر الزعيم أكبر خان (نجل دوست محمد خان) مع مجموعة من الأوزبك. كان البريطانيون محاصَرين، وكانوا يرغبون في التفاوض بحثاً عن مخرج من الكارثة. عرض أكبر خان عليهم مَمَراً آمناً، مُبدياً غضبه مرة عندما قال لجماعة من المفاوضين الذين كان يقودهم مكناغتن: "أنتم ستستولون على بلدنا، أليس كذلك؟". قُتِل مكناغتن وسُمِح لبقية قوات النخبة في كابول بمغادرة المدينة في السادس من يناير لكي يقتلوا من قبل رجال قبيلة غِلزائي، وهم يسعون للوصول إلى قلعة مدينة جلال أباد. وكان الدكتور وليام برايدون الرجل الوحيد الذي بقي حياً من رجال الجيش المذكور، وتمكن من الوصول إلى القلعة في الثالث عشر من يناير. (برايدون معروف ببقائه على قيد الحياة في مثل هذه الظروف؛ فقد تمكن من النجاة بنفسه في أثناء الحصار الملحمي لمدينة لكناو خلال تمرد الجند الشهير).

فتح ما سُمِي جيش العقاب ممر خيبر بالقوة وأراح مدينة جلال أباد ، ثم توجه إلى مدينة كابول حيث انضم إليه جيش آخر من مدينة قندهار. كان هناك بعض مظاهر الغضب، وأُعدم بعض الناس شنقاً، ولكن النقمة في عمومها كانت سطحية وظاهرة. وأعيد لدوست محمد خان عرشه وحكمه، وكان بوسع البريطانيين أن يجنبوا أنفسهم هذا الإذلال الكبير في آسيا لو أنهم لم يزيحوه عن الحكم في المقام الأول.

عاش دوست محمد حتى عام 1863م، وكان نجله المفضل أكبر قد مات قبله. ونظراً إلى كثرة عدد الورثة نشب الخلاف بينهم لتوارث حكومة دوست

محمد خان، واستمر خمس سنوات تقريباً، حتى برز شير علي منتصراً على الآخرين. وكان أول من اهتم بالتحديث والتجديد، وفتح مدارس إنجليزية، وبدأت خدمات البريد لأول مرة في البلاد. وكان أول من اعتنى عملياً بدفع رواتب رجال الجيش في وقتها. كما سعى إلى إقامة علاقات صداقة مع البريطانيين، وسافر لحضور مجلس اللورد مايو في عام 1869م. وعندما قُتل مايو في جزر أندمان على يد سجين أفغاني، لم تُنسَب هذه الجريمة إلى كابول؛ بل عرض اللورد نورثبروك الذي خلف اللورد مايو خدمات القوات البريطانية على "شير علي" في حال أي تهديد روسي. وفي عام 1874م شكل بنيامين دزرائيلي حكومة حزب المحافظين في لندن، فعادت مدرسة الجرأة من جديد.

في عام 1875 عين إدوارد روبرت بُلور ليتون نائباً لملكة بريطانيا (في الهند)، على الرغم من تردده في السفر إلى الهند لأسباب صحية وطبية (كان مصاباً بالبواسير ما جعله يجلس مائلاً على عرش الحكم نائباً لملكة بريطانيا في الهند). زوّد اللورد سيلزبرى، وزير الدولة لشؤون الهند في ذلك الوقت، ليتون ببعض النصائح المعقولة قبل مغادرته إلى الهند: إذا كنت تثق بالطبيب فما من شيء معافى، وإذا كنت تثق بالقسيس فما من شيء بريء، وإذا كنت تثق بالجندي فما من شيء آمن. اختار اللورد ليتون أن يثق بالجنود، ولم يكن في حاجة إلى كثير من الجهود المقنعة للتوصل إلى رأي بأن الإمبراطورية في حاجة إلى أفغانستان، الأمر الذي تطلب على الأقل بقاء جيش في مدينة كويتا، وخطٍ للسكة الحديدية إلى خيبر، ومسؤولين سياسيين في مدن كابول وقندهار وهرات.

كانت حدود حكومات الملك أشوكا والملك أكبر قد امتدت إلى منطقة هندوكوش، ولم يكن الحكم البريطاني راضياً بأقل منها بالنسبة لحدود حكومته في هذه البلاد. بعث ليتون برسالة فظة إلى شير علي طالباً منه أن يتخلى عن التحكم في السياسة الخارجية لصالح مندوب بريطاني مقيم في كابول أو يستعد

لمواجهة النتائج. فرفض شير علي الاستجابة لهذا الطلب بحجة أنه إذا تنازل لصالح مندوب بريطاني مقيم في كابول فسيصعب عليه رفض مثل هذا الطلب إذا جاء من روسيا أيضاً. ثم كرر ليتون طلبه من شير علي بشأن الخضوع لمطالبه المذكورة وإلا فليستعد لنهاية حكمه، ولتقسيم أفغانستان إلى ثلاث مناطق. حذرت شخصيات معتدلة في لندن بأن أفغانستان الموزعة في ثلاث مناطق قد تشكل خطراً أكثر ثلاث مرات من خطرها الحالي، إلا أن ليتون كان قد اتخذ القرار.

كان لروسيا رجل يطالب بحكم كابول يدعى عبد الرحمن، بانتظار أن تميل الأمور لصالحه، فزادت الوضع حدة وتوتراً بإرسال بعثة عسكرية إلى كابول. أبرق ليتون إلى لندن بأن شير علي متوحش بقدر ما هو مجنون. أوقف شير علي مهمة بريطانية عسكرية استفزازية بممر خيبر، ليكتشف لاحقاً أنه لم يكن يملك أي دعم من روسيا. فخارت شجاعته لكن بعد فوات الأوان. في الساعة الثالثة فجراً في 21 من نوفمبر 1878م أرسل ليتون برقية إلى اللورد كرانبروك، وزير الدولة لشؤون الهند في لندن قال فيها: "قُضي الأمر". تحرك جيش يضم ثلاثين ألف جندي يلبسون زياً عسكرياً بلون كاكي هذه المرة؛ تحرك نصف هذا الجيش باتجاه ممر خيبر، ونحو 6500 منهم باتجاه وادي كرّام، ونحو 12000 منهم عبر ممر بولان.

وكالعادة سقطت كابول من دون أي معركة، وهرب شير علي لكي يموت في بلخ في 21 فبراير عام 1879م. فنصّب البريطانيون يعقوب خان، الذي كان والده يصفه بالتعيس، حاكماً لكابول في مارس 1879. استجاب يعقوب خان لكل طلب بريطاني بما فيه نقل السيطرة على ممرّ خيبر بإيجار سنوي قدره ستون ألف جنيه بريطاني، وذلك بتوقيع اتفاقية غنداماك. هنّأ ليتون نفسه بهذا الانتصار وأعلن الاحتفال.

كـان الرائد السير بيار لويس نابليون غافنياري يحمل جنسية إنجليزية مع أنه ولـد لأم إيـرلندية وأب فرنـسي. عندما دخل أفغانستان رئيساً لبعثة بريطانية تضم 81 عـضواً قوبل بترحيب ومأدبة طعام على شرفه انتهت بالشاي الروسي والقهوة المطعّمة بالأفيون. وفي كابول قوبل بتحية عسكرية اشتملت على 17 طلقة مدفع، ثم عزفت فرقة موسيقى الجيش أمامه نشيد "ليحرس الله الملكة". استقرّ غافنياري في مـنزل مجـاور لقلعـة بـالا حـصار. ثمـة خـلاف حـول دور يعقوب خان في الاضطراب الذي انفجر في سبتمبر؛ وإذا كان يقف وراءه فهذا يعني مهارة الرجل في الاحتفاظ بالسرية. في الثاني من سبتمبر أرسل غافنياري برقية إلى بيشاور عبر الخـط التلغـرافي المـركب حديثاً ذكر فيها أن "كل شيء على ما يرام في السفارة بكابول".

وفي الـصباح التالي أبلغ الجنود القادمون من هرات لمطالبة يعقوب خان بـرواتبهم أن عليهم الحصول على مستحقاتهم المالية من المسؤولين البريطانيين. كـان غافنـياري يتـناول الفطـور حيـنما حـضر الجـنود. تلا ذلك معركة دامت 8 ساعات، وأسفرت عن مقتل جميع أعضاء البعثة البريطانية.

في الخـامس مـن سـبتمبر أبلِـغ اللورد ليتون بهذه المجزرة فانفجر غضباً، وقـال إن كـل مـن كـان في تلك المجموعة مجرم، سواء كان جندياً أو مدنياً أو رجـل ديـن أو حـتى فلاحـاً. وتلـك إشـارة علـى أن الهجـوم لم يـشنه الجـنود المتمردون فحسب. استولى اللواء السير فريدرك روبرتس على كابول ثانية لصالح بـلاده في أكتوبـر، وتـنازل يعقـوب خان عن عرشه، وأعلن اللواء روبرتس عن مكافأة مالية لمن يدلي بمعلومات تتراوح ما بين 50 و120 روبية مقابل كل رأس، وفي النهاية أعدمت المحاكم العسكرية الموجودة آنذاك نحو 87 أفغانياً.

لم تنـتهِ القصة عند هذا الحدّ. فقد حاصر نحو عشرة آلاف من المجاهدين المعـسكر البريطاني في كابول، ما دفع الجنرال إلى إرسال برقية طلب تعزيزات.

وفي يناير تحرك عبد الرحمن حليف روسيا وأحد أحفاد دوست محمد من الشمال، فبعث ليتون، وهو الذي بدأ هذه المغامرة السيئة لصدّ روسيا، ببرقية إلى لندن يطلب فيها الاعتراف بعبد الرحمن، نظراً لأهمية وجود الحكم في يد أحد أبناء البلد. وافقت الملكة فيكتوريا في 22 من يوليو على هذا "الاعتراف" بعبد الرحمن.

لم يؤدّ ذلك أيضاً إلى نهاية القصة. ففي 27 يوليو ظهر جيش غير نظامي آخر ضمّ عشرين ألف مجاهد، ودمر فرقة عسكرية بريطانية أخرى بمنطقة مايواند تتكوّن من 2500 جندي، فيما كان جيش آخر يقوده أيوب خان (شقيق يعقوب خان) يحاصر الحامية البريطانية القوية في مدينة قندهار المتكونة من ثلاثة آلاف رجل. أصبح الجنرال روبرتس بطلاً عندما تحرك سريعاً من كابول ونجح في تحرير قندهار، وكان حكيماً حين أدرك أن الأفغان سيكونون أقل كرهاً للبريطانيين إذا قلّت مشاهدتهم لهم. وأشار على روسيا بالرأي نفسه حفاظاً على مصالحها. في عام 1907م اتفقت كل من بريطانيا وروسيا على الانسحاب من أفغانستان، وعدم التدخّل في شؤونها. وهكذا انتهت اللعبة الكبيرة، واستمر الوضع كذلك مدة سبعين عاماً قبل أن يستأنفها الروس من جديد.

احتفظ البريطانيون بخيبر، وادّعوا أنهم ما زالوا يُملون على كابول سياستها الخارجية؛ ولكن مثل هذه الأمور الدقيقة لم تكن لها أهمية تذكر بعد خروج الكفار من البلاد. بل إن هذا الوضع الشاذ اتضح في الحرب الأفغانية الثالثة، والتي كانت أول حرب بدأها الأفغان. لم تكن بريطانيا المرهقة ذات الجيش المستنزف كثيراً مستعدة لخوض المزيد من المعارك؛ فمنحت أفغانستان في عام 1919م ما يسمى الاستقلال. واستمرت أسرة دُرّاني في حكم أفغانستان حتى تسلم ظاهر شاه مقاليد الحكم في عام 1933م، والذي أطيح بنظامه إثر تمرد الضباط العسكريين ذوي التوجهات اليسارية، وحل محله أحد أقربائه السردار

محمد داود رئيساً لجمهورية أفغانستان في عام 1973م، بدعم حزب سياسي شيوعي يدعى "حزب برشام"، وكان بزعامة "بابراك كارمال".

وهكذا ظهر نشاط القيصرية الروسية مجدداً؛ ولكن جاء هذه المرة تحت غطاء اتحاد الجمهوريات الشيوعية السوفييتية. ولمقاومة هذا الخطر الروسي والشيوعي بدأ رئيس وزراء باكستان في دعم إنشاء حزب إسلامي صغير والترويج له، اضطر ثلاثة من زعمائه للخروج من أفغانستان واللجوء إلى مدينة بيشاور في باكستان؛ وهم قلب الدين حكمتيار وبرهان الدين رباني وأحمد شاه مسعود. وأصبح كل واحد من هؤلاء الزعماء الثلاثة نجماً دولياً خلال الجهاد الذي بدأ ضد غزو الاتحاد السوفييتي لأفغانستان في شتاء عام 1978م.

قتل داود على أيدي مؤيديه في أبريل 1978م، وأدى الطمع في السلطة والحكم إلى تقسيم حزب برشام إلى حزبين آخرين: حزب خلق (الشعب) وحزب برشام (العلم). وقد سقط نور محمد تراكي الذي كان قد خلف السردار داود في منصب رئيس الدولة هو الآخر قتيلاً على أيدي أصدقاء تحوّلوا إلى أعداء. تولى بعده حفيظ الله أمين مقاليد الحكم مدة وجيزة. استولت الوحدات العسكرية التابعة لجيش الاتحاد السوفييتي ومخابراته على كابول في الأسبوع الأخير من ديسمبر عام 1978م، ونصبت بابراك كارمال على كرسي الحكم الذي كان قد تحول إلى الحكم الشيوعي. وهكذا سقطت كابول مجدداً من دون أي معركة. وغدت الدولة التي لم تكن تحظى باهتمام الأمريكيين في الماضي، إما بسبب غرابتها وإما بسبب بُعد مسافتها، فجأة أساساً لانطلاق سياستها الانتهازية المستمرة دائماً في البحث عن فرص مواتية. قُتِل نحو مليون ونصف مليون من الأفغان، وكان العالم مختلفاً ومتغيراً جداً عندما انسحب السوفييت مهزومين عام 1989م.

يروي الصحفي الباكستاني أحمد رشيد مؤلف الكتاب الرائع "طالبان:

الإسـلام والنفط واللعبة الكبرى الجديدة في آسيا الوسطى" Taliban: Islam, Oil (and the New Great Game in Central Asia, I. B. Tauris, london, 2000) قـصة مأدبـة غـداء أقامتها رئيسة الوزراء بي نظير بوتو في أبريل من عام 1989م، وكان مـن بـين الـضيوف الجنرال حميد غل رئيس الاستخبارات الباكستانية التي كانت رائـدة الجهـد الباكـستاني ضد الاحتلال السوفييتي. (يجدر بالذكر هنا أن الجهاد كلمـة كانـت تحظى باحترام كبير في الغرب آنذاك، وكان أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكـي يتـسابقون لالـتقاط الصور مع الجهاديين من أمثال أحمد شاه مسعود. كـان الـزعماء الباكستانيون مثل الدكتاتور ضياء الحق يسخرون من أن السياسيين الأمـريكيين يهـرولون إلى حدود أفغانستان، ويضعون إحدى قدميهم على أرض أفغانـستان ويـصورون أنفـسهم، لكـي يعـودوا مهـرولين إلى دوائرهم الانتخابية ويقدمـوا أنفسهم بوصفهم أبطال الحرب. هذا ما سمعته من الجنرال ضياء خلال أحد الحوارات التي جرت بيني وبينه). سأل الصحفي رشيد الجنرال حميد غل، أقـوى الجنـرالات في عـام 1989م، عمـا إذا كـان قـد لعـب بالنار بدعم الجهاد وتـشجيعه؟ فأجابـه حمـيد غل: "نحن نجاهد، وهذا أول لواء إسلامي دولي في العـصر الحـديث؛ فالشيوعيون لديهم ألوية وفرق عسكرية دولية، والغرب لديه لـواء باسـم الـناتو، فلمـاذا لا يستطيع المسلمون توحيد صفوفهم وتشكيل جبهة مشتركة لهم؟" كان مثل هذا التفكير هو الذي حول الجهاد ضد الاتحاد السوفييتي إلى جهاد ذي مهمة أكبر.

استبعدت أمـريكا وجود تهديد في أعقاب ذلك باعتباره من النتائج القليلة الأثـر والأهمـية. وفي ملاحظـة معـروفة لدى الجميع أبداها زبغنيو بريجنسكي، مستشار الأمن القومي لجيمي كارتر، تساءل المذكور عما إذا كان بضعة مسلمين ثائـرين أكثر أهمية من هزيمة الاتحاد السوفييتي وتحرير أوروبا الشرقية. وكان من بـين هـؤلاء المـسلمين الثائرين أسامة بن لادن، الذي حضر أولاً إلى بيشاور في عـام 1980م. وفي عـام 1983م أنـشأ صـديق أسـامة، وربما راعيه أيضاً، عبد الله

عزام مكتب الخدمات الذي انطلقت منه شبكة أصبحت القاعدة فيما بعد.

في أغسطس من عام 1996م، أصدر أسامة بن لادن دعوته الأولى للجهاد ضد الولايات المتحدة الأمريكية لأسباب عديدة؛ كان من أهمها الوجود الأمريكي في السعودية، إذ بقي نحو 20000 من القوات الأمريكية على الأراضي السعودية، على الرغم من انتهاء الحرب ضد العراق. وذكر أسامة بن لادن في بيانه الصادر حول الموضوع أنه: "لا يمكن هدم جدران الذل والاضطهاد إلا بوابل من الرصاص والقذائف".

في فبراير عام 1998م، أصدر تنظيم القاعدة والمنظمات الأخرى المتحالفة معها بياناً رسمياً باسم "الجبهة الإسلامية الدولية للجهاد ضد اليهود والصليبيين" ورد فيه أن الولايات المتحدة الأمريكية تحتل منذ أكثر من سبع سنوات الأراضي الإسلامية في أقدس الأماكن، شبه الجزيرة العربية، وتنهب ثرواتها وتُملي على حكامها وتذل شعوبها وتروِّع جيرانها، وتحول قاعدتها بالجزيرة أساساً للهجوم على الشعوب الإسلامية المجاورة.

والحل هو "الحكم بأن قتل الأمريكيين وحلفائهم، من المدنيين والعسكريين، فرض عين على كل مسلم قادر على هذا العمل في أي دولة وبأي طريقة ممكنة".

انطلقت هذه الدعوة للجهاد من أفغانستان، ولكن لم يكن ممكناً شنّ هذا الجهاد من دون الدعم الذي حصل عليه من باكستان على صعيد الأفراد والمؤسسات. وقد برزت دولة باكستان في ظروف أكثر غرابة، بتقسيم الهند في أواخر أيام الحكم البريطاني لتكون وطناً للمسلمين. وما زالت المشاعر المتعلقة بولادة باكستان ترسم سياسة القوتين المجاورتين (الهند وباكستان) اللتين أصبحتا دولتين نوويتين الآن. إن الماضي لا يغادر الحاضر أبداً في شبه القارة الهندية.

- 12 -

تاريخ يعبّر عن الغضب، وجهاد بلا عنف

لم يكتف المسلمون بالنهب والسلب؛ ولكنهم دمروا المعابد وهدموا الأصنام واغتصبوا النساء. وبلغت الإهانة للديانات الأخرى والإهانة للإنسانية على أيديهم حداً لا يمكن تصوره. ولم يتمكنوا، حتى بعد أن أصبحوا ملوكاً، من أن يحرّروا أنفسهم من هذه الرغبات الكريهة. بل إن أكبر، الذي عُرف بالتسامح، لم يكن أفضل من الأباطرة ذوي السمعة الرديئة من أمثال أورانجزيب." (من خطاب لكاتب روائي بنغالي معروف: ساراشاندرا شاتوباديايا)

انقسمت الهند وأنشئت باكستان نتيجة تاريخ حافل بالغضب والسخط، وأدب مشحون بعواطف الثأر والانتقام. في مساء 12 يناير 2002 ظهر على التلفزيون برويز مشرف رئيس الدولة الرابع عشر والجنرال الثالث الذي استولى على مقاليد الحكم في انقلاب ليوجه خطاباً طال انتظاره. كان هناك ما يسوّغ هذا الانتظار. فقد أعلن الرئيس مشرف مخاطباً أمته وجيرانه والعالم كله بأن باكستان لن تتسامح مع المتطرّفين والإرهابيين من الآن فصاعداً، وأن الإرهابيين الذين أوجدوا دولة داخل الدولة في البلاد قد أصبحوا عناصر تشكل تهديداً للعالم. وقال يجب أن تدرك الأقلية الإرهابية أن الأوان قد حان لإنهاء جهادها، وقال إن باكستان غير مسؤولة عن شن الجهاد المسلح في العالم.

وفي خطاب جريء وصريح أعلن الرئيس مشرف أن الإرهاب الطائفي مستمر منذ سنوات، وأن الجميع قد سئمه، ولا يمكن أن يحتمل تفاقمه، وأن

الشعب الباكستاني المحب للسلام حريص على التخلص من ثقافة الكلاشنكوف والأسلحة، تلك الثقافة التي يشمئز منها الجميع، وقد حان يوم المحاسبة. فهل نريد أن تصبح باكستان دولة ثيوقراطية (دولة خاضعة لحكم رجال الدين)؟ وتابع قائلاً:

> إننا نعي بأننا في حاجة إلى تحرير المجتمع من التطرف، وهو أمر نعمل عليه منذ البداية... إن بعض المتطرفين الذين يلجأون إلى الاحتجاجات هم أناس يسعون إلى احتكار الدين، ويحاولون نشر صنف ابتدعوه من الدين. إنهم يظنون كأنّ الآخرين ليسوا مسلمين، إنهم أناس يعدون طالبان رمزاً للإسلام، وأن طالبان يقومون بالبعث الإسلامي، أو يمارسون أصفى شكل من أشكال الإسلام... إنني أريد أن أسأل هؤلاء المتطرفين: من هو المسؤول عن تضليل آلاف الباكستانيين والزج بهم في مذابح بأفغانستان؟... إن (بعض) المساجد يساء استخدامها، وذلك حين تستخدم لنشر الكراهية وإثارتها... إنني أود أن أخبركم بأنه قضي على عدد من الحلقات الإرهابية... إن سلطة الحكومة معرضة للتحدي. وأصبحت باكستان دولة ضعيفة يشكّك فيها بسيادة القانون...

لم يكن من السهل على رئيس باكستاني أن يلقي مثل هذا الخطاب. وكان من الممكن أن يلتزم الرئيس مشرف الصمت، غير أنه كان مختلفاً عن أسلافه، وكان لديه النزاهة للاعتراف بأن هذا السرطان قد بلغ مجرى الدم.

كيف أصبح وطن للمسلمين وطناً للإرهابيين؟ إن الأصوليين الذين لم يحصلوا على السلطة عندما أنشئت باكستان عملوا تدريجياً على خلق دولة موازية ذات هدفين: تعليم الناشئين وتلقينهم في مدارس يسيطرون عليها، وإعلان الجهاد على الأعداء: الهند وروسيا والولايات المتحدة، وضد حكومتهم نفسها من حين إلى آخر. وقد أصبحت أفغانستان الخاضعة لحكم الطالبان حليفة رسمية لهذه الدولة داخل الدولة. لكن الأهم من ذلك والأقل وضوحاً استخدامهم حكومة أو أخرى في سبيل حروبهم. وكانت الأموال تأتي مباشرة أو باسم التعليم الديني، ولم يكن أحد يسأل أين تذهب تلك الأموال.

كانت هناك جوانب أخرى ذات صلة بالأمن. فقد كان الجهاد ضد الاتحاد السوفييتي يحظى بالتمويل من الغرب ومعظم العالم الإسلامي، ولا تزال آثار الموارد القادمة لتلك الحرب بادية ومتمثلة في ثقافة الكلاشنكوف، تلك الثقافة التي أشار إليها الرئيس مشرف. وقد نأت الولايات المتحدة وبريطانيا بنفسيهما عن ذلك الجهاد، غير أن الدولة الموازية في باكستان تواصل حربها المقدسة ضد روسيا بدعمها الشيشانيين. أما الجهاد ضد أمريكا فقد انطلق في التسعينيات من القرن العشرين، وحظي بمن يدعمه. ونتيجة لنفوذ واشنطن أصبح من المستحيل أن يُسمع صوتٌ لا يتوافق معها بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001م؛ غير أن هذا النفوذ لا يستطيع أن يمنع تهامساً يعارضها.

يمكن أن يعتمد على باكستان دائماً في تقديم الدعم للجهاد ضد الهند؛ لأن ذلك هو حربها العلنية غير المعلنة. وقد استغل كثير من المنظمات المتطرفة هذا الوضع أو النوع من الموافقة لخدمة برنامج أوسع. وأصبح الجهاد ضد الهند، الذي يحظى بدعم الشعب والحكومة على نطاق واسع، عوناً حقيقياً للدولة داخل الدولة، كما أصبح غطاء للإرهابيين الذين نُشروا لحروب أخرى. إن غضب باكستان من الهند أوسع من مشكلة كشمير، ويحتاج إلى أن يفهم فهماً كاملاً. القضية الإرهابية تستطيع دائماً أن تجد حجّة تستخدمها، وقد أتاحت الهند مثل هذه الفرصة. فللغضب جذور ضاربة في العمق.

نشأ أدب الثأر والانتقام خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبلغ ذروته في مدينة كلكتا التي كانت عاصمة للحكومة البريطانية، إلى جانب كونها عاصمة الفكر الهندي. وقد أطال ضرب قوي من الفكر البحث في سؤال واحد: ما الخطأ الذي ارتكبه الهندوس؟ كيف سمحوا للمسلمين بالحكم في دلهي والبنغال، ليصبحوا بعد ذلك موظفين ومهنيين متعاونين مع البريطانيين، اشتهروا بلقب "بنغالي بابو".

من هو بنغالي بابو، سأل كاتب قدير أتقن كتابة النثر والقصص باللغة

البنغالية، وكان مفكراً يتمتع بنفوذ قوي في عصره، وهو بانكمشاندرا شاتوبادياي (1838- 1894). وكان جوابه على النحو الآتي:

" البابو مثل (الإله) فيشنو يضطجع دائماً على سرير أبدي، ومثل فيشنو أيضاً يتجسّد في عشرة أشكال: كاتب، ومدرس، وبراهمو، وسمسار، وطبيب، ومحام، وقاض، ومالك أرض، ورئيس تحرير صحيفة، وعاطل عن العمل. وأي بابو مثل فيشنو في كل شكل يدمر العفاريت المخيفة، فيدمر خادمه إذا كان هو كاتباً، وطالبه إذا كان مدرساً، والمسافرين الذين ليست لديهم تذاكر بوصفه ناظراً لمحطة للسكك الحديدية، والكاهن بوصفه براهمو، والتاجر الإنجليزي بوصفه سمساراً، والمريض بوصفه طبيباً، وموكله بوصفه محامياً، والمتقاضي عنده بوصفه قاضياً، ومستأجريه بوصفه مالك أرض، وكرام الناس بوصفه رئيس تحرير صحيفة، والسمك في البرك بوصفه عاطلاً...

ظهر أول تاريخ للهند باللغة البنغالية؛ "رجبالي" عام 1808م. وكان مؤلفه مرتيونجاي فيديالانكار مدرساً للغة السنسكريتية بكلية فورت وليام التابعة لشركة الهند الشرقية، وقد قدم تبريراً عقلانياً لهزيمة آخر إمبراطور هندوسي في دلهي، برثفيراج شوهان في عام 1162، وذلك بإيراد قصة مثيرة هي أن إحدى زوجتي والد برثفيراج كانت عفريتة أجبرت زوجها على أكل لحم بشري، ففزعت زوجته الثانية ولاذت بالفرار إلى أخيها، وأنجبت برثفيراج ، وهو يعاني من عقدة أوديب فأحب أمه حباً مصحوباً بالتحيز ضد أبيه، فأقدم على قتله وأطعم لحمه لإحدى وعشرين امرأة. غير أن لقتل الأب ثمناً. وذلك هو السبب في هزيمته على أيدي المسلمين الذين يراهم (الكاتب) شياطين وعفاريت جاؤوا من الخارج ليحكموا الهند.

أما الكاتب بانكيم فليس عنده وقت لمثل هذه الخرافات؛ إذ نراه يعرب عن تعجبه واستغرابه في مستهل سلسلة من المحاضرات أمام إخوانه البنغاليين في عام 1880 قائلاً: "ليس لنا تاريخ! يجب أن يكون لنا تاريخ". وأضاف يقول متفجعاً: "حتى الأوريون لهم تاريخ" (والأوريون هم سكان الولاية المجاورة

الـذين كان ينظر إليهم البابو البنغاليون نظرة ازدراء). رفض بانكيم التاريخ المبني علـى سجلات قصور الأمراء والأباطرة المسلمين، إذ إن "كل من يقبل شهادات هؤلاء المسلمين الكارهين للهندوس كتاريخ من دون أي انتقاد ليس بنغالياً". (لا يشمل الشعب البنغالي الذي يتصوره بانكيم المسلمين).

كـان بانكـيم يحـرص على أن يكون هناك تاريخ ملهم يبعث الهندوس من الفتور الذي يستحوذ عليهم نتيجة الهزائم المتتالية. وكان البريطانيون والمسلمون في نظـره غـزاة أجانـب على حد سواء، وإن كان البريطانيون أكثر تمدناً. ولذلك فقـد كانـت الوطنـية الهندية عنده مرادفة للوطنية الهندوسية، وقد اتضح اعتقاده هذا على أحسن وجه في أفضل قصيدة غنائية تعرف باسم "فاندي ماتارام"، وهي تـرنيمة الإلهـة دورغـا الـتي تحمـي الـوطن في مظهريها: مظهر اللطف والكرم، ومظهر التخريب، تغذيه بحبها وتطهره من الشياطين والعفاريت.

كـان بانكـيم يـريد حرباً مقدسة، حرباً مقدسة هندوسية وطنية، وقد حث على ذلك مراراً في رواياته؛ مثل رواية "آنندماث" التي هي قصة تدور حول نزاع بـين النسّاك مـن فئة ناغادا سنامي ونواب (أمير) مسلم في أثناء المجاعة في عام 1770م. وجـد الـريفيون الهـندوس الجـواب: "مـالم نطـرد هـؤلاء الأنغـال [المـسلمين]، فـسيلحق الدمار بالهندوس... متى سنهدم المساجد ونبني مكانها معابـد رادهامادهاف"؟ والعبارة التي تتكرر في هذه الرواية هي: "اقتلوا المسلمين المحتقرين".

وكتب المؤرخ تانيكا ساركار في مقال شهير (طبع في كتاب Making India Hindu, Oxford University Press, New Delhi, 1996) أخـذت مـنه تـرجمة نـصوص استخدمتها هنا: "لعل أهم طريقة خدم بها بانكيم، كجسر بين الإحيائية الهندوسـية للقـرن التاسع عشر، وسياسة العنف ضد المسلمين في وقت لاحق، كانـت بإعطـاء صورة مرئية قوية جداً للعنف الطائفي ومنحه مرتبة حرب مقدسة. لقـد رسـم صـورة خيالـية يـتعذر محوها. هذه الصورة مبنية على تخيله للسياسة الطائفـية بإثـارة العـنف ومشاعر الثأر في المجتمع، وذلك بمشهد جسد نسوي".

وكانت هذه الصورة الخيالية الممثلة لأم مغتصبة (أي الوطن الأم) مهيجة للعواطف على نحو مؤثر جداً.

بانكيم يفضل النساء شخصيات لرواياته؛ فهو يرى أن الرجال قد خذلوا الأمة وأذلوها، بينما حافظت النساء على طبعهن الأصلي بصلابتهن الباطنية. كانت نهضة البنغال في حاجة إلى عصورها المظلمة، وقد وجدت بغيتها هذه في حكم المسلمين. كانت في حاجة إلى ماضيها الذهبي فوجدته منقسماً، كان بعضه حقيقياً وبعضه تصورياً. قارن بانكيم البنغاليين بالأثينيين ؛ لأن البنغاليين كانوا قد فتحوا مرة سريلانكا وأندونيسيا. وعندما يدرس بانكيم ماضياً مجيداً كهذا ويتحدث عنه، ثم يجد حوله "بابو" البنغاليين المتخنثين؛ لا يجد السلوان إلا باللجوء إلى أسلوب الهجاء والاستهزاء. لم يكن التخنث تعليلاً كافياً، المراثا والسيخ، وهم من السكان الأصليين، هزموا البريطانيين في زمانهم.

وهو يعرب عن قلقه بأن الهندوس قد فقدوا الرغبة في الحرية، ويقول إن السلطة ليست قوة وحشية فحسب، فهي تأتي بالهمة والمغامرة والتماسك والإصرار والمثابرة. وحصل الأوروبيون على السلطة لأنهم عبدوا السلطة. أما الهندوس فقد أصبحوا مفتونين بالروحانية إلى حد أنهم فقدوا ذوق السلوك العملي. وقال إن الحل يكمن في الفهم الصحيح للهندوسية التي يعدها أعظم الديانات كلها؛ لأنها عملية وفلسفية تتسم بالحكمة والحصافة، ومجردة من الرياء والنفاق.

كره الإله كريشنا، وهو الشخصية الرئيسية في ملحمة ماهابهاراتا، الحرب غير أنه كان يدرك الحاجة إليها أيضاً، ولذلك عندما أقدم على الحرب أصبح لا يقهر. يقول بانكيم: "إن كريشنا هو المثل الأعلى الحقيقي للإنسان. وكريشنا كان نفسه رباً للبيت ودبلوماسياً ومقاتلاً وواضعاً للقانون وقديساً وداعياً مبلغاً، وهكذا فإنه كان يمثل مثلاً بشرياً أعلى للجميع..." ولا بد من العودة إلى هذا

المثل الأعلى والقدوة المثلى بتطهير الهندوسية من كل ما شابها من التقاليد البالية والأوهام. وما زال الذكاء أحسن مزية للبنغالي؛ ولكن انصرافه إلى هذا الذكاء انصرافاً مفرطاً قد جعله ينسى بنيته الجسدية، ما جعله عاجزاً واهناً. وهذا ما سمح للعتاة الأفظاظ بإخضاع الهندوس وتدمير المعابد واغتصاب النساء الهندوسيات. وهو يركز بصفة خاصة على زعمه الأخير المتكرر؛ أي الاغتصاب.

إن مثل هذا الازدراء للمسلمين قد عبر عنه أيضاً روائي آخر اسمه ساراشاندار شاتوباداياي، وهو من الروائيين البنغاليين الذين يتمتعون بالشعبية؛ فقد ألقى خطاباً في مؤتمر على مستوى مقاطعة البنغال عام 1926 (طبع في وقت لاحق)، بحث فيه ما أسماه المشكلة الحالية بين الهندوس والمسلمين. وكانت الفكرة الرئيسية لهذا الخطاب أن الاتحاد بين الهندوس والمسلمين، لاسيما ذلك الاتحاد الذي أقامه المهاتما غاندي، أكذوبة خطرة "إذ لا يتحقق الانتصار في معارك من أجل قضية زائفة". فلكل من الطائفتين طموحات سياسية يستحيل التوفيق بينها. وكان المسلمون يراؤون عندما طلبوا من الهندوس دعمهم لأهداف خاصة بهم. "والحقيقة هي أن المسلمين إذا قالوا إنهم يريدون الاتحاد مع الهندوس فليست هناك خدعة أكبر من ذلك. فقد جاء المسلمون إلى الهند لسلبها ونهبها وليس لإقامة مملكة فيها".

إن هذا التحليل ينطوي على التحامل ولا يتوافق مع الحقائق.

ويستطرد قائلاً:

"لم يكتف [المسلمون] بالنهب والسلب؛ ولكنهم دمروا المعابد وهدموا الأصنام... وبلغت الإهانة للديانات الأخرى والإهانة للإنسانية على أيديهم حداً لا يمكن تصوره. ولم يتمكنوا، حتى بعد أن أصبحوا ملوكاً، من أن يحرّروا أنفسهم من هذه الرغبات الكريهة. بل إن أكبر، الذي عُرف بالتسامح، لم يكن أفضل من الأباطرة ذوي السمعة الرديئة من أمثال أورانك زيب".

ويكمل قائلاً:

ولكن إذا كان جوهر المعرفة سعة الذهن وتثقيف القلب فليست هناك مقارنة بين الطائفتين... ولا يمكن تحقيق الوحدة إلا بين المتكافئين... لم تكن ألف سنة وقتاً كافياً ولن تكفي ألف سنة أخرى... الاتحاد بين الهندوس والمسلمين تعبير منمق... يجب علينا أن نقضي على هذا الوهم، ولن تجدينا محاولة تعيير المسلمين البنغاليين بتذكيرهم بأنهم كانوا هندوسيين قبل سبعة أجيال، لذا فإنهم يمتون إلينا بقرابة الدم، وقتل الإخوة للإخوة إثم؛ لذلك أظهروا قليلاً من الشفقة.

إن قلة الثقافة - في رأيه - قد جعلت المسلمين غير متمدنين ظالمين متعصِّبين مغتصبين للنساء، وليس هناك فرق بين المسلمين الأغنياء والفقراء؛ فهم من كلتا الطبقتين سواء في الهمجية تجاه الحضارة الراقية التي يشارك فيها الهندوس كلهم بغض النظر عن الثراء والفقر، والطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها. ويعتبر أن القسوة ترادف الإسلام:

"كل ما نفعله نحن (الهندوس الكسالى) هو إعداد فهارس لمواقفهم المبنية على الظلم والاضطهاد والعداء نحونا. وكل ما نقوله هو: إنكم قتلتمونا، وكسرتم أصنامنا، وخطفتم نساءنا. وقد كنتم في ذلك ظالمين جداً وسببتم لنا ألماً كبيراً. ولا نستطيع أن نواصل العيش على هذا النحو. هل نقول أكثر من ذلك أو نفعل شيئاً أكثر من ذلك"؟

واستطرد يقول:

"هندستان هي وطن الهندوس؛ لذلك يتحتم على الهندوس وحدهم أن يحرروا هذه البلاد من أغلال العبودية. والمسلمون ينظرون إلى تركيا والجزيرة العربية، والهند ليست في قلوبهم". وعلى خلاف ما يقوله غاندي لن تكون هناك وحدة بين الهندوس والمسلمين واعدة بالحرية. "إنني أسألكم هل يمكن تحرير بلادنا بالخداع؟ عندما يتقدم الهندوس ويتعهدون بتحرير بلادهم؛ فلن يهمنا كثيراً أن يقدم بضع عشرات من المسلمين دعمهم أم لا".

وقـد أورد أمثلة غربية دعماً لهذا الموقف. "عندما حاربت أميركا في سبيل استقلالها كانت غالبية سكانها تؤيّد البريطانيين، وكم من الإيرلنديين أيدوا حركة التحريـر الإيـرلندية؟ كمـا أن الحكـومة البلشفية التي تملك السلطة في روسيا لا يؤيدها الشعب ولا بنسبة 1%".

أعـيد تشكيل أحداث الماضي على نحو يتلاءم مع الاعتقادات؛ فاتخذ من الـصورة التي رسمت لسراج الدولة، "النواب المسلم" الذي هزمه كلايف محوراً دارت حـوله الانـتقادات اللاذعة. بينما سلكت المدرسة الوطنية العلمانية مسلكاً آخـر، فـتجاهلت مواقـف سراج الدولة غير المستساغة، وأعادت صياغة معركة بلاسي كحرب وطنية ضد البريطانيين. وقد رحب المؤرخون الهندوس الوطنيون بالنتـيجة وعـدّوها لحظـة تحريـر الهندوس من حكم المسلمين. ويصف المؤرخ جادونـاث سـاركار هـذا الحـدث في كـتابه "تاريخ البنغال: فترة حكم المسلمين 1200 - 757" The History of Bengal Vol 2. The Muslim Period, 1200-1757, Decca, 1948 كما يلي:

> في 23 يونـيو 1757م انـتهت القـرون الوسـطى للهـند، وبـدأ عـصرها الحـديث عـندما انتـصر كلايـف علـى الـنواب [سراج الدولة]... كانت الإدارة تنقـصها الأمانـة والكفـاءة، وجمـاهير الـشعب تعاني من الفقر المدقع والجهل والانحطـاط الخلقـي، في ظل طبقة صغيرة متغطرسة أنانية غير جديرة بالحكم. وكـان العـرش حافلاً بالمعتوهين المنغمسين في الشهوات... وكان وضع النساء أسـوأ من الرجال. حتى إن كبار الناس من الرعايا كانوا مضطرين إلى العيش في جـو مـن الإرهـاب المـستمر، وقد تفشى الفساد في الجيش وأوهنته الخيانات. وكـان صـفاء الحياة المنزلـية معرضـاً للخطـر نتـيجة انغمـاس أولي الأمـر في الملـذات بالقصر والأرستوقراطية، والأدب الخليع الذي نشأ تحت رعاية أمثال هؤلاء الناس الذين كانوا يتولون مقاليد الحكم.

وهكـذا يـستمر الكاتـب. ولـن يـستطيع أحد أن يكتب عن المسلمين بهذه الـشدة إلا إذا كـان يكـرههم كرهاً شديداً؛ فقد كتب جادوناث ساركار أن الهند

بـدأت تـشهد انتعاشاً اقتصادياً تحت حكم البريطانيين، وذلك على الرغم من أن هـنوداً آخـرين مـثل جواهرلال نهرو في كتاب "اكتشاف الهند" لاحظوا أن القائد الأعلى لقوات سراج الدولة في بلاسي كان هندوسياً. ووصفوا سياسة البريطانيين الخاصـة بإيرادات الدولة من الضرائب المفروضة على الأراضي بأنها كانت "نهباً محـضاً" و"سرقة صريحة"، ما أدى إلى مجاعة عام 1770م التي أودت بحياة ثلث سكان البنغال وبيهار. وقد كُرِّم ساركار بمنحه لقب فارس.

أمـا كتـاب تشارترجي الرائع "تقسيم البنغال: الطائفية الهندوسية والتقسيم" (Bengal Divided, Hindu Communalism and Partition 1932-47, Cambridge University Press, 1996) فإنـه يتـناول هـذا الـتاريخ بالتحليل في سياقه السياسي المعاصر:

> عـندما يـتحدث جادونـاث سـاركار عـن النهـضة بهذا الأسلوب فهو لا يمجد الحكم البريطاني، ويُبَسّط تاريخاً معقداً فحسب، بل يحرم المسلمين من مكانـتهم في تـاريخ البنغال الحديثة. وقد ورد في كتابه أن المسلمين حكموا في الفتـرة مـن 1200 إلى 1757، ولم يجلـبوا للبنغال خلال هذه المدة إلا الاستبداد والهمجـية الدامـية. وليـست لهـم أي مكانـة في العصر الحديث، عصر الثقافة والتـنور. البـنغال الحديـثة مـن صنع الطبقة العليا الهندوسية؛ فأفراد هذه الطبقة هـم الذين جعلوا البنغال ـ وإن كان ذلك بمساعدة نور استعاروه من البريطانيين ــ مركـز الحـضارة للهـند كمـا كانـت في ماضيها المجيد، ولذلك فإن البنغال تنتمـي إلـيهم بمـوجب الحقـوق. فالنهـضة مـن وجهة النظر هذه أصبحت رمزاً لـثقافة الطـبقة العلـيا الهندوسـية، وكـذلك للبـنغال الهندوسـية الـتي استُبعد المسلمون منها.

أراد حـزب المؤتمـر الـوطني الهـندي الـذي أنـشيء عـام 1885 أن يـوجه التـيارات الـسياسية المـتأرجحة، ويحصرها في سياسة أوسع وأكبر من أي طائفة محددة. فرد الحكم البريطاني بالانجذاب نحو الطوائف ذات النزعات السياسية.

وكانت إحدى عواقب ذلك أن أنشئت الرابطة الإسلامية لعموم الهند في 30 ديسمبر 1906 في دكا، وكان هدفها المعلن تعزيز الولاء للبريطانيين، وتدعيم الحقوق والمصالح السياسية لمسلمي الهند بتشكيل كتل انتخابية مستقلة. وقد لاحظ آغا خان، أول رئيس للرابطة، في خطاب موجه إلى المسؤول البريطاني دنلوب سميث، بأنه كان هناك مسلم بارز أظهر عداء شديداً لكل ما فعلته أنا وأصدقائي أو نحاول أن نفعله... وقال إن مبدأنا الذي يقتضي دوائر انتخابية مستقلة يقسم الأمة على نفسها. كان ذلك المسلم البارز محامياً في الثلاثين من العمر يدعى محمد علي جناح. وقد نالت الرابطة المكافأة في إصلاحات مورلي مِنتو عام 1909م، التي منحت المسلمين دوائر انتخابية مستقلة.

وكان التوتر الطائفي بين الهندوس والمسلمين قد نشأ فعلاً نتيجة تقسيم اللورد كورزون للبنغال العظيمة المترامية الأطراف في 16 أكتوبر 1905م. وكانت البنغال في ذلك الحين تضم بيهار وأوريسا، وكان عدد سكانها نحو 79 مليون نسمة. وقد أمكن إيجاد مسوغ من وجهة النظر الإدارية لتحجيم البنغال، غير أن المسلمين لم يعاملوا معاملة نزيهة. فقد قال لهم كبار المسؤولين الحكوميين إنهم يحررون من سيطرة الهندوس؛ لأنهم سيحصلون على أغلبية واضحة في البنغال الشرقية الجديدة التي سيبلغ عدد سكانها من المسلمين 18 مليون نسمة، ومن الهندوس 12 مليون نسمة. واستحوذت عواطف جياشة مدعومة بالخطابة المؤثرة على الطبقات ذات النفوذ من الطائفة الهندوسية، ما أحدث ما يشبه الانشقاق في حزب المؤتمر. لم يبال اللورد كورزون، الذي دبر هذا التقسيم، بذلك لأنه من عادة البنغاليين أن يصرخوا ويولولوا حتى يستقر الأمر فيقبلوه. غير أن التذمر الناشئ عن هذا الصراخ قد أثار أعصاب خلفائه وأقلقهم؛ فأعيد توحيد البنغال في 1911م. وجاءت هذه الخطوة محيرة للمسلمين الموالين فتساءلوا عن قيمة ولائهم.

إن الجسر الذي بناه زعماء المسلمين من أمثال السير سيد أحمد خان

للاتصال بالحكومة البريطانية بدأ يهتز. وفي 1910م نظم جناح مؤتمراً للوحدة في الله أباد، اتخذت الرابطة الإسلامية على أثره قراراً يؤيد تعاوناً أكبر مع حزب المؤتمر. وبدأ حزب المؤتمر والرابطة الإسلامية يعقدان دوراتهما في مدينة واحدة تسهيلاً لمشاركة كل منهما في اجتماع الآخر. ووقع الاثنان على "ميثاق" في ديسمبر 1916م في مدينة لكناو. فقبل حزب المؤتمر المطالبة بالدوائر الانتخابية المستقلة للمسلمين، وتخلى المسلمون في مقابل ذلك عن حقهم في التصويت في الدوائر الانتخابية المستقلة، وكذلك في الدوائر العامة. وكان ذلك تقدماً مثيراً للاهتمام. وحدث هذا في وقت كان نقطة تحول حاسمة عندما كان العالم قد تغير كما يفعل دورياً.

كان وليام نوكس دارسي (d'Arcy) قد حصل على ثروة ضخمة نتيجة استغلاله لحقول الذهب الاسترالية، ولم يكن قد استنفد طاقته بعد، فاستحصل في 8 مايو 1901م على وثيقة من شاه إيران مقابل عشرين ألف جنيه إسترليني، أعطاه بموجبها حقوقاً حصرية للتنقيب عن الغاز الطبيعي والإسفلت والبترول في أي مكان من الإمبراطورية الفارسية، وإنتاجه وبيعه. وهكذا اشترى أول امتياز من هذا النوع في المنطقة، وفي 1904م بدا هذا القدر من الاستثمار تافهاً. ومن ناحية ثانية قرر قائد البحرية البريطانية السير جون فيشر تحويل وقود البحرية من الفحم إلى النفط، وكانت إمداداته المؤكدة الوحيدة من حقل نفط صغير في بورنيو وحقل أكبر منه في بورما. وقد أقنع حكومته على معاملة النفط بوصفه أولوية من أولويات الدفاع، ووضع مزيد من الأموال تحت تصرف دارسي. وطلبت الحكومة من شركة بورما للنفط أن تصبح شريكة لدارسي.

وقبيل الفجر من يوم 26 مايو 1908م بالقرب من بلدة صغيرة جداً، بلدة مسجد السليمان، بدأت الآلات والأجهزة الخاصة بالنفط عملها. حصل دارسي على ما يساوي تسمعئة ألف جنيه من أسهم بورما. وفي عامي 1911م، 1913م

حصلت لندن على تعهدات من البحرين والكويت بعدم منح أي امتيازات من دون الموافقة البريطانية، وفي سنة 1914م، فيما الحرب على الأبواب، اشترت الحكومة البريطانية 51% من شركة بورما للنفط لتأمين النفط للبحرية بسعر مضمون. وأصبحت الصحارى فجأة ذات قيمة ضخمة تجذب الاهتمام.

وكانت تركيا منشغلة بمشكلاتها في الوقت الذي كانت فيه الخلافة مستمرة في الانحطاط من مرحلة الشيخوخة إلى الانقراض، وتميزت تسعينيات القرن التاسع عشر بالتمرد والعصيان. فشكل مصطفى كمال وآخرون لجنة الاتحاد والترقي في سالونيكا. وكان الحلف الإنجليزي الروسي الذي وقع في يونيو 1908م قد شوش السياسة الخارجية لتركيا، التي دأبت على حمل هاتين القوتين على المنافسة في التودد إليها. وفي يوليو لجأ بعض ضباط الجيش إلى الهضاب، وأعلن عبد الحميد الذي اعتراه اليأس الرقابة والانتخابات البرلمانية في فصل الخريف، غير أن ذلك لم ينقذه.

وفي عام 1909م عزل ثالوث أنور وطلعت وجمال باشا السلطان، وفي 29 أبريل رحل بالقطار إلى سالونيكا وذلك في الساعة 2.45 صباحاً، وأعدم كبير مخصييه شنقاً على جسر غلطة، وتربع على العرش أخوه رشاد الذي كان يقرض الشعر ويؤيد حركة تركيا الفتاة. وقد أولت الحكومة الجديدة اهتماماً خاصاً لتحسين العلاقات مع العرب، بل إنه كان هناك حديث عن دولة ملكية ثنائية تركية عربية على غرار الإمبراطورية النمساوية الهنغارية.

كان أحد القرارات التي اتخذها عبد الحميد في الفترة الأخيرة من حكمه تعيين الحسين بن علي، وهو من سلالة الرسول ﷺ من جهة ابنته فاطمة، أميراً لمكة المكرمة في 1908م. وكان هناك اضطراب في شبه الجزيرة العربية سببه عبد العزيز بن سعود، وهو سليل العائلة التي حكمت نجد وأتاحت للوهابيين مدة وجيزة من المجد. لم يكن الحسين بن علي يعرف أن ابن سعود على اتصال

بـبريطانيا بواسطة وليام هنري أرفين شكسبير. وقد وصف ابن سعود شكسبير بأنه أكـبر أوروبي عـرفه، غـير أنـه لم يكـن يعـرف عدداً كبيراً منهم في ذلك الحين. وكانـت لـندن في الـبداية فاتـرة نحو مثل هذا الإعجاب المتبادل، غير أن لحظة شكسبير جاءت في 1914م.

انـضمت تـركيا إلى الـدول المجـاورة لهـا (النمسا وهنغاريا وألمانيا) ضد بـريطانيا وفرنـسا وروسـيا، وفي يناير 1915م اعترف شكسبير بابن سعود بوصفه حاكمـاً مـستقلاً لـنجد، وعـرض علـيه حماية بريطانيا، فرفرفت الراية الخضراء الوهابـية. ومـات شكـسبير في أول هجـوم مشترك باء بالفشل. غير أن ابن سعود عـاش لـيحارب في يوم آخر. في يونيو 1916م وافقت حكومة جلالة الملك على تـزويده بألـف بندقـية مـوزر و200000 طلقـة من الذخيرة الحربية، وقرض قدره 20000 جنيه.

كـان جهاد تركيا قد أخفق بحلول 1918م، وقد أفزع تدمير القوة العسكرية للإسـلام في العـالم مسلمي الهند الذين كانوا متخوفين منذ بداية الحرب العالمية الأولى، وكانـوا مـصممين علـى أن يفعلوا شيئاً بهذا الخصوص، وإن لم يكونوا يعـرفون بالـضبط مـاذا يمكـنهم أن يفعلوا. كتب وزير الدولة لشؤون الهند آنذاك أوسـتن شـامبرلين إلى اللورد تشلموسفورد في 6 سبتمبر 1916م يقول: "إن طائفة المـسلمين في الهـند على ما أعتقد، هي الطائفة الوحيدة تحت الراية البريطانية، الـتي اعـتادت الـدعاء لعاهل أجنبي، ولا تدعو للملك (البريطاني)". وكان لقب الخليفة هوالمراد بالعاهل الأجنبي، وحاول البريطانيون إخماد العاطفة الإسلامية العامة بالتميز بين الخلافة والحكومة، والتأكيد للمسلمين بأنه لن يُشَنَّ أي هجوم علـى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولن يقع أي خلل في الحج. ولم يكن ذلك كافـياً لتطمـينهم. فبيـنما كان المسلمون يتلمسون رداً مؤثراً على الفتح المسيحي لأماكنهم المقدسة دخل موهانداس كارامشاند غاندي حياتهم.

كـان من الصعب الإبقاء على غاندي في الفقر (الذي اختاره)، وقد أصبح ذلـك في وقـت لاحـق مكلفـاً أيـضاً كمـا أشـارت الـشاعرة سروجني نائيدو في ملاحظة لاذعة تهكمية. فعندما غادر موهانداس كارامشاند غاندي كيب تاون إلى لـندن في 18 يولـيو 1914م بالدرجـة الثالـثة عاملـته الـشركة معاملة الشخصيات المهمة جداً. وكان الامتياز الوحيد الذي طلبه يتصل بالغذاء من الجوز والفواكه، فقد تقدّم من مرحلة النباتية (اقتصار الطعام على النبات)، إلى اقتصار طعامه على الجوز والفواكه.

سلك غاندي طريقاً دائرياً للوصول إلى الهند؛ لأنه كان يريد مقابلة ناصحه المخلـص عليـل الـصحة غـوبال كريـشنا غـوخالي الـذي كان يتماثل للشفاء في أوروبا. وقبل وصوله إلى إنجلترا بيومين أعلنت الحربُ في 4 أغسطس. واستقبل أعـيان الهـنود بطل كفاح جنوب أفريقيا استقبالاً يليق به، وأقيم حفل على شرفه في فـندق سيـسيل، وكـان أبـرز هـؤلاء مواطن من غوجرات ومحام سياسي هو (محمـد علـي جناح)، وكان من بين الذين اعتذروا عن الحضور نتيجة ارتباطات مـسبقة ملحـة اللـورد كـورزون، وكـيري هاردي، ورامسي مكدونالد، واللورد كريوي وزير الدولة لشؤون الهند. وأعرب جناح عن مشاعر جيّاشة تجاه غاندي، ونـصح غانـدي القـيادة الهـندية رداً علـى ذلك بأن يفكروا تفكيراً يتسم بالكرامة والجلالـة، وان يـؤدوا واجـبهم. وعـرض أن يعبئ هو الهنود في وحدة خدمات طبية لساحة القتال الأوروبية.

أمـا اللورد كريوي فقد كان متشككاً، وربما عن حكمة. فقبل الوصول إلى سـاحات القـتال في فرنـسا بمـدة طـويلة بـدأت هـذه الـوحدة الطبية كفاحاً ضد البريطانيين. وأعرب غاندي عن احتجاجه على تعيين الطلبة البريطانيين مسؤولين عن أقسام الهنود البالغين. ولم يمكن إنهاء هذا الجدل بالهدنة إلا بالمراسلة وعقد مؤتمر. ثم أصيب غاندي بذات الجنب في أثناء التدريب في العراء ببرد الخريف. ولم تكـن لـدى الحكومة رغبة شديدة في استضافة مريض من هذا النوع في أثناء

الحرب، ولاسيما أن غاندي قد رفض الاستماع إلى نصيحة طبيبه جيفراج ميهتا بضرورة تناول طعام أفضل. وكان غذاؤه في ذلك الحين الفول السوداني والموز (الناضج وغير الناضج) والليمون والطماطم والعنب، كما كان يتناول أحياناً زيت الزيتون. وحاولت الحكومة إقناعه بالمغادرة إلى الهند. فإذا لم تضع الحرب أوزارها، عندما يشفى، فإن السلطة الإمبراطورية ستجد من دون شك سبلاً يمكن بها الاستفادة من خدمة غاندي.

وقدم غوخالي نصيحة فيها شيء من الحدة. فقال لغاندي عندما تكون في الهند، أبق عينيك مفتوحتين وفمك مطبقاً، والتزم الصمت مدة سنة واحدة. وفي 19 ديسمبر غادر غاندي إلى بومباي مسافراً بالدرجة الثانية، وسمح للباخرة التي سافر فيها بالرسو في ميناء أبولو بندر في بومباي يوم 9 يناير 1915م، وكان ذلك شرفاً مخصصاً لأعضاء الأسرة الملكية ونواب الملك وذوي الصيت الذائع من أبناء البلاد.

إن أول أهم شيء فعله غاندي في الهند كان تبديله الملابس؛ فارتدى الدوطي (مئزر للرجال في الهند) وقميص كاثياوادي وعمامة، وكلها من إنتاج المصانع الهندية، وهكذا أصبح غاندي المهاتما.

والشيء المهم الثاني الذي فعله غاندي هو أنه أغضب جناحاً. فكما في لندن، فقد وقع الاختيار على جناح لإلقاء خطاب الترحيب في حفل أقيم لتكريمه، وقد أقامه هذه المرة رجال الأعمال من كوجرات. فبينما كان جناح يلقي خطابه قاطعه قائلاً إنه إذا كان كل الحضور هنا من غوجرات، فلماذا يتحدث جناح بالإنجليزية؟ وبعد ذلك باثنين وثلاثين عاماً أنشأ جناح دولة كانت لغتها الرسمية هي الأوردية؛ مع أنه لا يعرف كلمة واحدة من هذه اللغة.

في 3 يونيو 1915م، كرمت شخصيتان هنديتان بمناسبة عيد ميلاد الملك؛ فمنح رابندرانات طاغور لقب فارس، وحصل غاندي على ميدالية قيصر الهند. وفي ديسمبر حضر غاندي اجتماع حزب المؤتمر المنعقد في لكناو، حيث كان

جناح نجماً. التقى مندوب لحزب المؤتمر من شامباران بولاية بيهار، هو راجكومار شوكلا، بغاندي وناشده أن يذهب معه إلى شامباران "ليزيل وصمة النيلة". تأثر غاندي الذي لم يكن قد سمع عن شامباران بإصرار شوكلا، واتفق معه أن يصحبه إلى شامباران يوماً أو يومين.

وصل غاندي في صباح 9 أبريل 1917م إلى باتنا، عاصمة ولاية بيهار، قادما من كلكتا بالقطار، وذهب أولاً إلى بيت محام معروف هو راجندرا براساد. وكان صاحب البيت غير المطلع على الشرف يقضي إجازة على شاطئ البحر. وقد ألقى أحد الخدم نظرة على شوكلا وأخرى على غاندي وطردهما. وتذكر غاندي صديقاً له من باتنا من أيام دراسته في لندن، يسمى مظهر الحق. وجاء اللقاء مفاجأة سارة لمظهر الحق، فهيأ لصديقه أسباب الراحة.

وبدأ غاندي تحقيقه في حالة عمال النيلة. وفي 13 أبريل أمر غاندي بالمغادرة، لكنه رفض أن يغادر. وفي 16 أبريل تسلق بجهد صهوة فيل في وجه ريح غربية عاتية مشحونة بالغبار، وكان ذلك أيضاً في الساعة التاسعة صباحاً في آخر مرحلة من رحلته إلى شامباران، وجاءه ظهراً مفتش مساعد للشرطة ليصحبه إلى ضابط الشرطة الكبير. فركبا عربة يجرها ثوران قاصدين بلدة موتيهارى. بيد أن غاندي سُلم إليه وهو في طريقه أمر رسمي بمغادرة المديرية، ولكنه رفض الرضوخ لهذا الأمر. فهُدد باعتقاله بموجب المادة رقم 188 من قانون العقوبات الهندي.

اجتمع آلاف الفلاحين والقرويين في محكمة قاضي المديرية في 18 أبريل، وانكسرت الألواح الزجاجية والأبواب نتيجة الضغط، واستدعيت الشرطة المسلحة لإبقاء الناس في الخارج. وطلب محامي الحكومة من القاضي أن يؤجل النظر في القضية، وتدخل غاندي متسائلاً لماذا؟ كان غاندي يريد الاعتراف بالذنب: "إن نزعتي الغريزية بوصفي مواطناً متمسكاً بالقانون تستحثني ـ كما فعلت دائماً في الماضي ـ على أن امتثل للأمر الذي صدر إلي، ولكنني لن أفعل

ذلـك مـن دون أن أخالـف شعوري بالواجب نحو أولئك الذين أتيت إلى هنا من أجلـهم... لم استخف بالأمـر الـذي سـلم إلي؛ لأنـه يعـوزني الاحترام للسلطة القانونية، ولكن تلبية للقانون الأعلى، ألا وهو صوت الضمير".

لم يـتعجل القاضـي المتـردد الحذر؛ فقد كان حريصاً على فرصة لإطلاق سـراح غانـدي. وبدا غاندي هو الآخر مصمماً على أن يُدان فقال: "إنني لا أريد أن أضـيع وقـت المحكمة، وأنا أقر بأنني مذنب". فقال القاضي: "غادِر المديرية الآن ولا تعـد إلـيها تـسحب الدعـوى". وكان رد غاندي عليه أنه بعد قضائه مدة يحكـم علـيه بالـسجن في شامباران سيتخذ منها وطنه، فتحير القاضي، وقيل إن الحكـم سيصدر في الساعة الثالثة. وعندما حان الموعد أجّل القاضي الحكم مرة ثانـية. وفي 20 أبـريل نقـل القاضـي إلى غانـدي نـبأ يفـيد بـأن الحاكم المساعد للمقاطعة قد أصدر الحكم بسحب القضية.

رفع غاندي الرهان فخافت الحكومة. وتحدد المسار للعقود الثلاثة القادمة. أظهـر غانـدي لأول مرة الأسلحة التي سيستخدمها ضد الإمبراطورية البريطانية: جـسارة لا تعـرف الخـوف، وضـمير لا يضعف، واللاعنف. وصرح بأنه أوجد سلاحاً في شامباران يمكن أن تحرر به الهند.

في 6 فبرايـر 1919م قـدمت الحكـومة مـشروعي قانـونين في المجلـس التـشريعي الامبريالي بناء على توصيات لجنة ترأسها القاضي رولات. وقد سمي أحـدهما قانـون الجـرائم الفوضوية والثورية لعام 1919م. وأنشئت محاكم خاصة للمحاكمة السريعة من دون السماح بالاستئناف، وبذلك أصبحت سلطة النظر في الأدلـة بمـوجب قانـون الأدلـة الهـندي أيـضاً غير مقبولة إلى حد بعيد. وفي 18 مـارس 1919م أصبـح هـذا المـشروع قانـوناً، وأعلـن غانـدي العـصيان المدني للاحـتجاج علـيه، وقـرر الإضـراب عـن العمـل في عمـوم الهند في أبريل يوماً

واحداً. وهذا السلاح الجديد سمي "هارتال" (الإضراب عن العمل)؛ وهي كلمة من اللغة الهندية أصبحت جزءاً من المعجم الإنجليزي.

كان الحاكم المساعد لولاية البنجاب السير مايكل أودوير مصمماً على منع الناس من التأثر بفكر حزب المؤتمر، وقد أصدر في 10 أبريل أمراً باعتقال زعيمين محليين هندوسياً ومسلماً، وهما ساتيابال والدكتور سيف الدين كيشلو، بموجب قانون الدفاع عن الهند، فنظمت مسيرة احتجاجية أوقفت عند معبر السكك الحديدية. ولجأت الشرطة إلى إطلاق النار، ما أسفر عن مقتل عدد من البنجابيين. وأدى الغضب الناشئ عن ذلك إلى العنف؛ فقتل ستة من موظفي البنك الإنجليزي في مكاتبهم، وأحرقت المباني، وقطعت خطوط التلغراف. وأقيمت مراسم الدفن يوم 11 أبريل في جو ساده الهدوء. ووصل إلى المدينة في مساء اليوم نفسه العميد آر. أي إتش داير. وبدأت الاعتقالات في اليوم التالي، وفرض الحظر على جميع الاجتماعات.

وفي 12 أبريل أعلن المحتجون أنهم سيعقدون اجتماعاً في الساعة الرابعة والنصف مساء في جليانوالا باغ، وهذا المكان ساحة مكشوفة تقارب حجم ميدان ترافالغار، وتحيط به الجدران من جميع الجوانب تقريباً. ولم يبذل أي جهد لمنع عقد الاجتماع وسط مكان كان من المؤكد أن يختلط فيه الناس بأسر غير سياسية، ووصل العميد داير إلى هناك بعد أن بدأ الاجتماع. ومن دون أن يصدر أي إنذار أمر جنوده بإطلاق النار من مسافة مئة ياردة، واستمر إطلاق النار حتى انتهت الذخيرة. وفي ظرف عشر دقائق أطلقت 1650 طلقة نارية على الحشد الكثيف المحاصر، فسقط 379 صريعاً من الرجال والنساء، وبلغ عدد الجرحى مئتي نسمة. وعاد العميد القهقرى مع جنوده من حيث أتى، وقال في وقت لاحق إنه أدى واجبه. وفي 15 أبريل فرضت الحكومة على البنجاب الرقابة والأحكام العرفية.

لم يطلع غاندي على تفاصيل ما حدث في البنجاب؛ لكنه شعر بقلق شديد من أخبار العنف التي وصلته، فأوقف احتجاجه على مشروعي القانون اللذين قدمهما رولات. لم يسمح له بزيارة البنجاب، لكن تسربت تفاصيل المذابح. فأعاد طاغور لقبه في 30 مايو مستنكراً حادث جليانوالا باغ الذي وصفه بأنه همجية لا مثيل لها في تاريخ الحكومات المتحضرة، ما عدا استثناءات منافية للسلوك المدني في الماضي القريب أو البعيد.

كان عام 1919م نقطة تحول مهمة في الحركة الوطنية الفتية عندما تقارب الهندوس والمسلمون نتيجة السخط الذي تفاقم لأسباب مختلفة، فأصبحوا ينشدون هدفاً مشتركاً. ولم يكن بإمكان غاندي نفسه أن يطالب بشيء أكثر من ذلك. كان المسلمون قلقين من أن سلطة مسيحية ستسيطر لأول مرة في التاريخ على الأماكن المقدسة. عقد مؤتمر الخلافة لعموم الهند في 24 نوفمبر 1919م في دلهي لبحث "احتفالات السلام" للبريطانيين في نهاية الحرب الكبرى. وأصبح هذا المؤتمر عرضاً للأخوة بين الهندوس والمسلمين. فترأس غاندي هذا المؤتمر، وتحدث باللغة الأوردية. وقد عبّرت الجملة منه عن كل شيء:

> يجب ألا يستغرب الهندوس اجتماعهم على المنبر نفسه مع المسلمين بشأن أمر يخص المسلمين وحدهم ويؤثر عليهم. وعلى أي حال فإن المساعدة المخلصة وقت المحنة والضراء خير وسيلة لاختبار الصداقة. إذا أردنا أن نعيش أمة واحدة، سواء أكنا هندوساً أم بارسيين أم مسيحيين أم يهوداً، فإنه يجب أن تكون مصلحة أي منا مصلحة الجميع. ونحن نتحدث عن اتحاد الهندوس والمسلمين، وسيكون هذا التعبير فارغاً لا معنى له إذا بقي الهندوس بمعزل عن المسلمين في حين تتعرض فيه مصالحهم الرئيسية للخطر.

استجاب الزعماء المسلمون المتحمسون لهذه العواطف بوعدهم بالتخلي عن أكل لحم البقر (فقد كان ذبح البقر مشكلة مسببة للمتاعب في بلاد أغلبية سكانها من الهندوس). غير أن غاندي أصر على أن تعاون الهندوس سيكون غير

مـشروط "لأن المـساعدة المـشروطة مثل إسمنت مغشوش لا يُحكم التماسك".
ورد علـيه مـولانا عـبد الباري الذي كان يدافع عن قضية المسلمين بقوة وانتظام قـائلاً: "إذا نـسي المـسلمون تعـاون الهندوس فإن ذلك سيضر بكرامتهم ويشوه سمعتهم. وأنا أقول من جانبي إنه يجب أن نتوقف عن ذبح البقر بغض النظر عن تعـاون الهـندوس وعدمـه لأننا أبناء تراب واحد". وحث مولانا حسرت موهاني الـسريع الانفعـال غانـدي علـى أن يـؤدي عمـلاً مؤثراً ضد البريطانيين. وخاطبه قـائلاً: "أعطنا شيئاً أكثر سرعة" لطرد البريطانيين من الهند. ولم يستطع غاندي أن يجـد كلمة أوردية أو هندية تعبر عن فكرة "أكثر سرعة وعجلة" التي بدأت تخامر ذهنه. فاضطر إلى استعمال الكلمة الإنجليزية: عدم التعاون Non Cooperation.

في ينايـر 1920م قابـل نخـبة مـن زعمـاء الهـندوس والمـسلمين اللـورد تشلمـسفورد. عامـل نائـب الملـك الثائرين معاملة ماكرة بعرضه عليهم أن يمول زيـارة إلى لـندن. قبل مولانا محمد علي جوهر، الذي لم يكن يتجنب السفر إلى الخـارج، المـسؤولية المـشرفة لـزيارة لـندن، غير أن جميع توقعات وفد مولانا جوهر قد خابت في 17 مارس عندما تبين أن تركيا ستجرد من إمبراطوريتها، وأن القـوى الأوروبـية المنتـصرة سـتتولى الـسيطرة علـى الأماكن المقدسة. وكان رد الفعـل علـى ذلـك سـريعاً في الهـند، وتقـرر جعـل يوم 19 مارس يوماً للحداد القومي.

"ان الولاء الذي يبيع روحه لا يساوي شيئاً" هذه الكلمات تشكل لب القرار الـذي قدمـه غانـدي في 19 مـارس 1920م في اجتماع لجنة الخلافة في بومباى. وممـا جـاء فـيه أن الهـنود لـن يبـيعوا روحهـم للـبريطانيين. وأصر غاندي على اللاعـنف، ولكـنه أشـار بـسماحة ولـباقة إلى أنـه لـن يعتـرض طـريق الجهـاد المصحوب بالعنف من قبل المسلمين إذا أخفقت سياسة اللاعنف. ومن الممكن أن يكـون غانـدي قد توخى بذلك كسب ولاء المسلمين في تلك الآونة، غير أن خطابـه ذلـك في بومباي كان له تأثير انطوى على دلائل خير أكثر مما عرفه. ولم

يتمكن ذهن المسلمين من فهم أهمية اللاعنف؛ فلم يكن هناك سابقة للجهاد غير العنيف لتحرير الأماكن المقدسة. غير أن المسلمين قدموا دعمهم الكامل لاستراتيجية غاندي.

في أول أغسطس 1920م أعاد غاندي الميدالية الذهبية المسماة قيصر الهند إلى اللورد تشلمسفورد، ليس من دون سبب بل لألم شعر به واحتجاجاً على ما وصفه بتعريض "مواطني المسلمين للظلم والجور". فقد وقعت اتفاقية سيفر في 10 أغسطس؛ فسلم المضيقان إلى لجنة دولية، وقسم الأناضول الشرقي بين أرمينيا وكردستان. وكانت أزمير وتريس من نصيب اليونان. ووصف الخليفة هذا التقسيم بأنه ضربة قاضية لتركيا، وشعر المسلمون بألمه.

وافق حزب المؤتمر على برنامج غاندي في جلسته الخاصة التي عقدت في الفترة من 4- 9 سبتمبر بفارق صغير أي بنسبة 144 مقابل 132صوتاً، مما دل على الشكوك المتزايدة للهندوس بشأن الكفاح لتحرير الهند باسم الخليفة. وقال غاندي وهو يقدم قراره: إنه ليس قديساً أو ولياً، وليس دكتاتوراً؛ وإنما هو سياسي عملي. وفي هذه الجلسة للمؤتمر الوطني أيد جميع المسلمين غاندي باستثناء رجل كان يكره فكرة خلط الدين بالسياسة، وكان هذا المعارض الوحيد هو جناح. أما رابندرانات طاغور فكان يشك في قوة اللاتعاون، غير أن الناس نهضوا ثائرين ضد الحكم البريطاني نهضة كما في الحلم. اقتنع الفلاحون بأن حكم غاندي سيحل محل الحكم البريطاني في ظرف سنة واحدة، وأظهروا غضبهم على بؤسهم وتعاستهم في مزارع مختلفة. وتوقف الفلاحون في كثير من المناطق عن دفع الإيجار إلى أصحاب الممتلكات لأنهم رأوا أن الإيجار يتعارض مع حكم غاندي. وحاول غاندي أن يثنيهم عن هذه الانحرافات، غير أن بعض أتباعه الاشتراكيين لم يروا خطأً كبيراً في مثل هذا التعبير عن السخط على الأمور الاقتصادية. ولم يكن كل واحد متفقاً على أن اشتغال الهنود وعلى رأسهم غاندي بالنسج والغزل سيؤدي إلى تحرير بلادهم.

وفي ولاية كيرالا كان احتجاج المستأجرين من أجل حقوقهم قد بدأ منذ 1916م، بين الموبلا المسلمين المضطربين ومالكي الأراضي الهندوس بمعظمهم. وكان بعض زعماء حركة الخلافة، الذين ارتاحوا إلى تحوّل الجهاد إلى العنف، قد أضفوا على هذا الاحتجاج طابعاً دينياً. فوعدوا الناس بإنشاء دولة ذات مجد للمسلمين في حال نجاح احتجاجهم. هاجمت الشرطة مسجداً في تيرورانغادي في 29 أغسطس 1921م للبحث عن الأسلحة. وأعقب ذلك تمرد وعصيان، فهوجمت محطات الشرطة والمكاتب الحكومية وبيوت أصحاب الممتلكات. وأقام بعض المسلمين جمهوريات للخلافة، ما أثار قلق اللورد ريدنغ الذي أصبح نائباً للملك، وأعلم لندن بأن ما يجري هو في الواقع حرب حقيقية. غير أن هذه الحرب اتخذت طابع حرب ضد الهندوس أكثر منها ضد البريطانيين. فقتل مئات الهندوسيين وأجبر بعضهم على تغيير ديانتهم. وقمعت الحكومة التمرد بالقوة، فقتل 2237 متمرداً واعتقل 45404 أشخاص. وفي 20 نوفمبر وقع حادث عثر بعده على 66 جثة للسجناء من الموبلا في حافلة لنقل البضائع في السكة الحديدية.

ووجدت الصحف قصة أخرى لنشرها صباح الثامن من فبراير 1922م. ففي الخامس من فبراير خرج المتظاهرون في مسيرة بقرية تسمى شوري شورا في مديرية غوراكهبور في الأقاليم المتحدة. وبّخ أفراد الشرطة المناوبون بعض المتظاهرين التائهين وسخروا منهم، وضربوا زعيمهم بهاغوان أهير، وأطلقت النار على المتظاهرين الذين أحرقوا مخفر الشرطة ما أدى إلى احتراق 22 شرطياً.

علّق غاندي الحملة المنظمة التي كان يقودها على مستوى عموم الهند، وقال مسوغاً فعله: إن الشيطان قد استولى على مقاليد الأمور. لم يستطع جواهر لال نهرو والآخرون من زعماء المؤتمر المحتجزون، الشبان منهم والمسنون، الذين لم يكونوا على اتصال مباشر مع الشيطان، أن يصدقوا ما سمعوه. لم تكن

التفسيرات التي عرضها غاندي في وقت لاحق غير معقولة إلى هذا الحد، ولكنها لم تكن مقنعة أيضاً. واعتقلته الحكومة البريطانية، التي لم تجرؤ على القبض عليه من قبل، في 10 مارس وحكم عليه بالسجن مدة ست سنوات.

وفجأة عادت الهند إلى سباتها، وكأن ضوءاً غريباً قد أطفئ، ولم يقم أحد بالاحتجاج عندما سجن غاندي. ولم تشهد الهند مثل هذا الاتحاد حول قضية مشتركة بين الهندوس والمسلمين مرة أخرى بعد ذلك. وانطلاقاً من نقطة التحول هذه بدأوا يتجهون إلى جهات مختلفة.

وبعد نحو خمسة عشر عاماً اكتشف المسلمون من جديد زعيماً كانوا قد رفضوه عندما كانوا تحت نفوذ غاندي؛ وهو جناح.

- 13 -
الإسلام في خطر

> الرابطة الإسلامية أعطتكم غاية أظن أنها ستؤدي بكم إلى الأرض الموعودة التي سننشئ فيها دولتنا باكستان. فليقل الناس ما يشاؤون، وليتحدثوا كما يحبون. فسيضحك كثيراً من يضحك أخيراً. [من خطاب ألقاه جناح أمام اتحاد الطلبة المسلمين لعموم الهند في 26 سبتمبر 1941م].

كيف تمكن محام مسلم من أن ينشئ وحده باكستان، وهو لا يمارس مهنة المحاماة، ويدخن دون انقطاع، ويحب الشراب، ولا يعرف من مبادئ الإسلام إلا قليلاً، ولا يستطيع أن يتحدث بلغة غير اللغة الإنجليزية، ويفضل أن يرتدي بذلة بديعة الخياطة، وكان قد استقر به المقام تقريباً في إنجلترا، ووبخ رجال الدين مستخفاً بحلمهم بدولة إسلامية، وكره غاندي لسياسته المتسمة بالترانيم، وحلم أن يصبح أتاتوركاً هندياً؟ كان الغرض من إنشاء باكستان العثور على حل للمشكلات بين الهندوس والمسلمين. لماذا غرقت الهند وباكستان في مثل هذه الكراهية المريرة، ولماذا بدأتا حرباً أصبحت مدرسة للإرهاب؟

ولد محمد علي جناح قبل تسعة أسابيع من يوم ميلاده؛ فقد رأى النور في 20 أكتوبر 1875م، وسمي محمد علي جناح بهائي. وبعد لقائه الأول بالعالم الغربي في المدرسة العالية التبشيرية المسيحية الخاصة بالنخبة، بدا له عيد ميلاد المسيح يوماً أفضل لمولده؛ فبدل يوم مولده وصار 25 ديسمبر 1875م. وبدا له كذلك أن الاسم أيضاً مسرف في الدلالة على علاقته بموطن ولادته؛ فحذف من

آخره اللاحقة بهائي. وعندما دخل في جماعة المحامين في بيت لنكولن بلندن في 1893م تسلم شهادته باسم جناح.

كان جناح يهتم في أثناء دراسته في لندن بثلاثة أشياء: القانون الذي درسه، والمسرح الذي كان يختلف إليه، والسياسة التي كان يهواها. وكان جناح ممتازاً في كل ما اختاره للاهتمام به. والذين قللوا من تقدير إحساسه بالمسرح أو قوة خطبه المدروسة أو إدراكه اللحظة الصحيحة للتدخل، إنما كان ذلك على حسابهم.

كان جناح على اتصال مع كثير من الشخصيات في لندن؛ غير أن أهمهم وأكثرهم فائدة كان دادا بهائي ناوروجي الزرادشتي التاجر الباحث الذي أعد دراسة رائدة تحت عنوان "الفقر والحكم اللابريطاني في الهند". وقد أصبحت هذه الدراسة إثر طبعها بلندن في 1901م أساس النقد القومي. وكان دادا بهائي أول هندي ينتخب عضواً في مجلس العموم بوصفه عضواً في حزب الأحرار، من دائرة فنسبوري المركزية في 1902م. ووجه شكره إلى التعليم الإنجليزي لنجاحه، وكان دائماً مساعداً للطلبة الهنود في لندن. وقد عمل جناح كسكرتير له مدة قصيرة. والفكرة السائدة عن دادا بهائي في الهند هي أنه رجل عجوز، لأنه كان قد تجاوز الثمانين عندما قدم إلى كلكتا لرئاسة دورة المؤتمر الوطني في 1906م. وساعد جناح في إعداد الخطاب الرئاسي.

أصبح جناح، وهو في الثلاثين من عمره، من النخبة في الحركة الوطنية المتنامية، وكان خطه السياسي واضحاً وجذرياً. انتقد بشدة السير سيد أحمد خان المؤيد للحكومة البريطانية الذي كان قد قسم الهند فعلاً إلى أمتين في خطبه. كان للاعتقاد لديه الأولوية على الشهرة. فعارض تقسيم البنغال في 1905م، ووجه انتقاداً لاذعاً إلى كورزون لتقسيم الهندوس والمسلمين بجرة قلم يستخدمه نائب الملك. ورفض جناح أن يصبح عضواً في الرابطة الإسلامية

لعموم الهند، التي أنشئت في 31 ديسمبر 1906م في دكا. وحذر المسلمين من أن يقعوا ضحايا سياسة الإنجليز المعروفة: "فرق تسد"، ووصف مطالبة الرابطة بالدوائر الانتخابية المستقلة بأنها سامة وخطرة. وقد حالفه التوفيق والازدهار في مهنة المحاماة والحياة الشعبية. وفي عام 1910م أصبح أول عضو غير رسمي في المجلس التنفيذي لنائب الملك، ودافع بقوة عن غاندي الذي كان آنذاك في جنوب أفريقيا عندما عنّفه اللورد منتو واتهمه بأنه مثير للفتن. وقد جعل ذلك بعض المتشددين من الرابطة الإسلامية مثل مولانا حسرت موهاني يخاصمون جناحاً، إلى حد أنهم اتهموه بأنه عميل للهندوس إلى جانب نعته بكلمات شبيهة بالشتائم السياسية.

حظي جناح في البداية بإعجاب كبير داخل دوائر المؤتمر، حتى إن الشاعرة سروجني نائيدو أشادت به ووجدت مزاحه يبعث على البهجة، ويحمل من الجاذبية ما يتسم به الصبي، ومن الرقة ما تمتاز به المرأة، والرجل نفسه مفكر وعملي ومثالي عظيم.

تزامنت بداية الانحطاط في مسيرة جناح مع بروز غاندي، وقد ظهرت الخلافات بين طريقيهما المختلفين إلى غاية واحدة في دورة المؤتمر الوطني المنعقدة في مدينة ناغبور في 1919م. فقد نأى جناح، المحامي والدستوري، بنفسه عن فكرة الحركة التي طالبت بإعادة مكة والمدينة إلى الخلافة العثمانية وبنيتها. ورفض الهستيريا العاطفية الدينية الجماهيرية الزائفة. ولم يستطع أن يدرك حقاً كيف ستصبح الأماكن المقدسة أقل قداسة تحت الإدارة البريطانية؟ لم يكن جناح مسلماً صادقاً، بكل ما للكلمة من معنى، في حياته الشخصية. لذلك لم يستطع أن يدرك ما كان المسلمون الآخرون يشعرون به من الرهبة والاشمئزاز لاحتمال السيادة المسيحية على مكة والمدينة. فلم ينس المسلمون ما لم يعرفه جناح من أن الرسول محمداً ﷺ نفسه حذر من أنه يجب ألا تكون هناك ديانتان في جزيرة العرب.

لم يكـن غانـدي أيـضاً مهتماً بتعاليم الرسول، لكنه انتهز الفرصة كسياسي محنك لكسب ود المسلمين. ومن هنا فإن المسلمين الذين حضروا دورة المؤتمر الـوطني في مديـنة ناغـبور في 1919م أشـادوا بـرجل يعبد رام بدلاً من الله. وقد تـضايق جـناح مـن كثـرة ما وجه إليه من أسئلة، حتى إن مولانا شوكت علي قد هـدده بالقـتل، ولكن جناح ظل متمسكاً بموقفه. وأنذر غاندي بالأخطار الكامنة في خلط الدين بالسياسة، وخرج من المؤتمر الوطني ولم يعد إليه قط.

انـتقلت الـسياسة إلى المناهج الدستورية إثر الإخفاق المفاجئ لغاندي في 1922م، حـتى إن فـئة مـن رجال حزب المؤتمر ترأسها موتيلال نهرو قد شاركت في انتخابات 1923م. وكان جناح على عادته سيفاً مسلولاً في المجلس التشريعي المركـزي. وقصة مشادته الكلامية مع عضو المالية السير باسيل بلاكيت معروفة. فخـلال مناقـشة جـرت في ينايـر 1925م اتهـم جـناح السير باسيل بتقديم ميزانية تساعد بريطانيا أكثر مما تساعد الهند. نفى السير باسيل الاتهام، وطلب جناح منه أن يعـيد نفـيه بوضـع يده على القلب، وعندما فعل عضو المالية ذلك قال جناح موجهاً خطابه إلى رئيس المجلس: في هذه الحالة أستسمحك سيدي أن أقول إن عضو المالية المحترم ليس عنده قلب.

إن الشيء الوحيد الذي يذكر أن غاندي أنجزه في العشرينيات هو نشر سيرة ذاتـية كـشكولية، ضـمنها تجـارب مثيرة أجراها بصدق؛ فتكونت لدى قراء هذه الـسيرة فكـرة صـافية لامعـة عن حياته الجنسية غير الاعتيادية إلى أبعد حد. وقد بـذلت جهـود مـتجدّدة للتوصـل إلى اتفاقـية بـين الهـندوس والمـسلمين حـول إصـلاحات دستورية عام 1927م، غير أنها باءت بالإخفاق الذريع، وكل ما أنجز بفـضل هـذه الجهـود، إذا صح وصفه بالإنجاز، هو حدوث انشقاق في الرابطة الإسـلامية. ولا يذكـر الآن جهـد الحكومة لتقديم مشروع الدستور بواسطة لجنة سـايمون إلا أنـه أثـار مقاطعـة هذا الجهد. وفي 1928م بذل حزب المؤتمر نفسه

جهداً لوضع مشروع للدستور أخفق أيضاً وسط اتهامات من التناقض والازدواجية.

في 19 يونيو 1929م كتب جناح إلى رئيس الوزراء البريطاني الجديد رامزي مكدونالد من حزب العمال يحثه على عقد مؤتمر مائدة مستديرة، وقبل نائب الملك اللورد إروين الاقتراح في 31 اكتوبر، ولكن حزب المؤتمر تسبب في عرقلة هذا الأمر. فقد طالب بمنح الهند أولاً مرتبة الدومينيون(*). وفي نهاية العام نفسه زاد هذه المطالبة فطالب بالاستقلال الكامل. رأى جناح أن غاندي شخصية غير ملائمة للعصر الحديث، ودعا الله أن يوفق السيد غاندي. وكان يهتم دائماً باستعمال كلمة السيد (Mr.) لدى مخاطبته لزعماء حزب المؤتمر. دعي 58 مندوباً للمشاركة في مؤتمر المائدة المستديرة الذي افتتحه الملك جورج الخامس في 12 نوفمبر 1930م. وقال غاندي إنه لا قيمة لهذا المؤتمر من دون حزب المؤتمر الوطني.

اتضح جلياً بعد عشرة أسابيع من المحادثات أن المؤتمر لم يكن في الواقع ذا قيمة كبيرة، وتخلى جناح عن جهده، واشترى داراً فخمة كبيرة في هيمبستيد، وبدأ يمارس مهنة المحاماة، واستقر به المقام في لندن، حيث عاش مع شقيقته فاطمة وابنته دينا، واقتنى كلباً. وكانت زوجته الباريسية دوتي قد تزوجت منه وهي شابة وماتت وهي شابة. ولم يشاهد جناح يبكي على الملأ إلا مرة واحدة؛ وذلك عندما توفيت زوجته على الرغم من أنهما كانا قد تجافيا فعلاً.

اكتشف جناح في أثناء إقامته في لندن مصطفى كمال أتاتورك بفضل كتاب بعنوان (Grey wolf: An Intimate Study of a Dictator) بقلم إتش. سي. أرمسترونغ. وأعجب جناح بشخصية أتاتورك الذي أنقذ بلاده أولاً، ثم أدخل

(*) دولة مستقلة من دول الكومونولث البريطاني تعترف بالعاهل البريطاني رأساً للدولة ـ المترجم.

عليها الإصلاحات. وقال جناح لأخته إذا قدر له أن يحصل من السلطة على ما يتمتع به أتاتورك، فإنه سيغرّب المسلمين الهنود.

كان عطاء مؤتمر المائدة المستديرة الذي عقد في 7 سبتمبر 1931م أقل بكثير من وعوده، وكانت مشاركة غاندي فيه قد زادت من التوقعات والآمال المعقودة عليه؛ ولكنه استخدم زيارته إلى لندن مبدئياً لتوعية الشعب البريطاني بحركة استقلال الهند، وعرضها في صورتها النزيهة. فاختلط غاندي بالطبقة العاملة من الشعب، وأصبح نجماً لامعاً في الأوساط الإعلامية، لاسيما أنه كان يكتفي بارتداء مئزر يلزم لستر العورة في فصل الشتاء. وعندما قابل هذا الفقير نصف العريان الملكَ الذي كانت تزينه سترة أبدى الملك جورج الخامس ملاحظته قائلاً: يبدو أن زائره ليست لديه ملابس كافيه. ورد عليه غاندي بقوله: إن الملك يرتدي ما فيه الكفاية لكليهما.

انتهت المفاوضات في مؤتمر المائدة المستديرة إلى المستنقع الطائفي نفسه الذي آلت إليه محادثات سابقة من قبل. والتزم جناح الصمت في معظم الأوقات، وقيل إن سبب ذلك عدم المبالاة أو الضعف. وأصيب جناح بالصدمة عندما لم توجه إليه الدعوة لحضور الجولة الثالثة من مؤتمر المائدة المستديرة الثالث في نوفمبر- ديسمبر 1932م. كان يبحث عن إرضاء غروره، ولم يكن من الممكن أن يتحقق ذلك إلا في الهند. وقد لاح بصيص من الأمل في بومباي حيث انتخبه ناخبو دائرته الانتخابية المخصصة للمسلمين في غيابه عضواً بلا منازع في المجلس التشريعي المركزي. وفي يناير 1935م وصل إلى بومباي لخدمة ناخبيه. وكانت رحلته هذه مهمة مثل رحلة غاندي المهمة في الشهر نفسه قبل عشرين عاماً.

عاد جناح إلى الهند وصدره يجيش بعاطفة الثأر والانتقام، وكانت فرصته المتاحة لذلك تكمن في الاضطراب الذي أحدثته جهود الحكومة البريطانية من

أجل دستور جديد للهند. بدأت هذه العملية لجنة سايمون، وتوّجت بإعلان قانون حكومة الهند لعام 1935م. وبينما لم يكن البريطانيون يرغبون في أن يشاطرهم السلطة آخرون في دلهي؛ فقد سمحوا بتأليف حكومات مسؤولة في المقاطعات مع هيئة انتخابية أكبر بكثير (حيث بلغ عدد الناخبين 30 مليون نسمة في 1937م مقابل ستة ملايين ونصف من قبل).

وتخلل هذه العملية قرارات؛ فقد أعلن رامزي مكدونالد عن جائزة طائفية في 1932م، كان الغرض المنشود هو إقامة حكومات ممثلة في المقاطعات؛ ففصلت مقاعد في مجالسها التشريعية وفقاً للأهمية المتصوّرة (متميزة من الإحصاءات الديموغرافية) للطوائف المختلفة. وفصلت الدوائر الانتخابية وتلاعبوا بالنظام لضمان توازن يلائم الإمبراطورية. ففي البنغال على سبيل المثال حصل الأوروبيون على 25 مقعداً من بين 250 مقعداً مع أنهم كانوا يشكلون واحداً في المئة من السكان. وخصص للهندوس 80 مقعداً (70 مقعداً للطبقات العليا، و10 مقاعد للمنبوذين) بينما كانوا يشكلون 44% من السكان طبقاً لإحصاء 1931م. وخصص للمسلمين 119 مقعداً (بما في ذلك معقدان للنساء)، وكان تمثيلهم أيضاً أقل مما استحقوه وفقاً لنسبتهم، فقد كانوا يشكلون 54% من سكان البنغال.

وتركزت ردود الأفعال بين النخبة من الهندوس على حقيقة واحدة هي أن المقاعد المخصصة للمسلمين فاقت عدداً المقاعد المخصصة للهندوس بفارق كبير؛ بينما كان الهندوس يملكون 46 مقعداً في مجلس البنغال السابق مقابل 39 مقعداً للمسلمين. فأكثر ما يبعث على الخوف أن تحكم الأغلبية المسلمة البنغال. فمن ناحية كانوا يتفجّعون على "الانقلاب" على بلاسي. فالبريطانيون الذين أنقذوا الهندوس البنغاليين من المسلمين بالانتصار الذي حققه عليهم كلايف في معركة بلاسي يعيدون السلطة الآن مرة أخرى إلى البربريين أنفسهم. وصف بي. سي. شاترجي زعيم هندوسييها ذلك بالخيانة. أما الأصوات الأكثر اعتدالاً فقد

أكـدت ضـرورة مـراعاة المنزلة الرفيعة للثقافة الهندوسية البنغالية. وقدم مهراجا بـردوان عريـضة وقعهـا كـبار الشخـصيات في كلكـتا، أوضـحوا فيها قضيتهم؛ مـشيرين إلى أنهـم وإن كانوا أقلية من حيث العدد إلا أنهم متفوقون ثقافياً بشكل ساحق، فهم يشكلون نحو 64% من السكان المتعلمين (غير الأميين) وأما زعماء المؤتمر فقد أيدوا هذا المنطق، أو لجأوا إلى المراوغة.

بـدأت مؤشـرات انـسحاب المـسلمين من المؤتمر إثر الإجهاض المفاجئ للكفاح من أجل الخلافة. ويبدو أن ردود الأفعال والأساليب المنمقة المستخدمة في الخطـب والبـيانات في 1932م أكـدت شـكوك كـل مـسلم في حقيقة علمانية حزب المؤتمر في البنغال، وذهبوا إلى أنه حزب هندوسي يحتجب بحجاب رقيق لا يـصعب اسـتكناه وجهه الحقيقي من ورائه. وكان ميل أ. ك. فضل الحق، أكثر زعـيم للمـسلمين شـعبية في عـصره، إلى جناح عاملاً حاسماً. وقال فضل الحق متحدثاً إلى صحيفة "ستيتسمان" في 12 أكتوبر 1933م: "إنني مستعد لأن أشنقَ إذا لم أسـتطع أن أقـنع أي قـاض بأن هندوس البنغال يجسّدون الطائفية المبنية على الأنانية الشديدة".

ويـدأ جـناح يلـتقط مخـتلف الخيوط لقلق المسلمين وتذمرهم التي كانت منتـشرة في أنحـاء شبه القارة الهندية المترامية الأطراف لينسج منها رقعة واحدة. وجـاء اختـباره الأول في انـتخابات 1937م فأخفق فيه؛ إذ جاءت نتائج انتخابات مرشحي الرابطة الإسلامية مخيبة للآمال في مقاطعات البنغال والبنجاب والسند، والحـدود ذات الأغلبية للمسلمين. وانتصر حزب المؤتمر فائزاً بـ 711 مقعداً من بـين 1585 مقعـداً مخصـصة في المقاطعـات للهـندوس مـن الطـبقة الاجتماعية الوراثـية عـندهم، كمـا فـاز أيضاً بمعظم المقاعد المخصصة للمنبوذين. غير أن جـناحاً استطاع أن يجد شيئاً من السلوان في أنه إذا لم يصوت المسلمون لصالحه فـإنهم لم يـصوتوا كـذلك لحزب المؤتمر. ولم يستطع المؤتمر أن يكسب إلا 58

مقعـداً مـن بـين 482 مقعـداً المخصـصة للمسلمين، وفاز بـ 26 مقعداً من تلك المقاعـد. ربما لم يصبح جناح المتحدث الوحيد باسم المسلمين؛ إلا أنه استطاع أن يواصل تأكيده في كل مناسبة أن حزب المؤتمر لا يمثل إلا الهندوس.

ومن المشكلات التي واجهها جناح أن الرابطة الإسلامية كانت قد تضاءلت أهميتها؛ فلم يكن لها أثر يعتدّ به في مقاطعة مهمة مثل البنغال. أما الذين ارتبطوا بالـرابطة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً في وقت لاحق من أمثال التاجر حسن أصفهاني والـسياسي حـسين شـهيد سـهروردي؛ فـإنهم شـكلوا حزب المسلمين المتحد لانـتخابات 1937م بمـساعدة مـن حاكم دكا الذي كان يتمتع بنفوذ كبير، (وليس مـن المعروف على نطاق واسع أن أمراء دكا كانوا من أصل كشميري، واكتسبوا أموالهم بعملهم تجاراً للجلد).

اسـتغل جـناح هـزيمة 1937م اسـتغلالاً أحـسن مـن اسـتفادة المؤتمـر من انتـصاره؛ فـشكل زعماء المؤتمر الحكومات في المقاطعات، ولكنهم لم يدركوا أنـه قد يكون من التهور البدء في العمل، ولكن إدارة الحكومات مسببة للصداع. حرص جناح على أن يلتقط كل مثال لظلم حكومات المؤتمر الوطني للمسلمين، حقيقـياً كـان أم خيالياً، لتوسيع الشقة بين المسلمين وغاندي. وكان على صواب في اعـتقاده بـأن المـسلمين سيقتربون منه قدر ابتعادهم عن غاندي؛ لأن الرابطة الإسلامية هي المنبر القومي الوحيد الذي يمكنهم أن يرجعوا إليه لعرض قضيتهم في دلهـي. وقـضى جناح بذكاء ولباقة على كل هيئة بديلة قد تجذب المسلمين، واخـتار زعمـاء محلـيين وضـمهم إلى الـرابطة الإسـلامية الوطنـية بكل الشروط المطروحة من قبلهم. فكان بإمكانهم أن يواصلوا مسيرتهم كالسابق إلا أن عملهم سـيكون تحـت راية الرابطة الإسلامية. وفي عام 1938م انضم إلى الرابطة زعيمان قويان هما السير سكندر حياة خان من البنجاب وفضل الحق من البنغال.

وعلـى أي حـال فقـد كانـت بنى الحزبين فضفاضة. وأصر غاندي على أن

المؤتمر مظلة تقي كل من يسافر على الطريق نحو الوحدة والحرية. واتخذ جناح أيضاً من الرابطة الإسلامية مظلة مماثلة لكل من يريد السفر على الطريق الضيق نحو تحرر المسلمين الذي لم يزل غير واضح، غير أن جناحاً أضفى وضوحاً على قضيته بقوة الجدل. فعندما أعلن جواهرلال نهرو في أثناء الحملة الانتخابية في 1937م أن هناك قوتين فقط في الهند: البريطانيون والمؤتمر، وأن خصوم المؤتمر لا شأن لهم بالجماهير؛ رد عليه جناح من كلكتا بحدة انفعالية قائلاً: "أنا أرفض الاصطفاف مع المؤتمر". وقال: "إن هناك فريقاً ثالثاً في هذه البلاد، وهو المسلمون". ونهرو الذي كان قد بدأ حياته أيضاً بالاهتمام بالملابس والبذلات الأنيقة ثم استبدل بها ملابس من القماش القطني المنسوج محلياً أبدى احتقاره النابع من القلب لهذا الرجل الذي لم يكن يستطيع أن يتحدث بلغة محلية الأصل، وظل غير مبال بالقضايا الاقتصادية، وواصل استخدام الهستيريا الجماهيرية طعماً لشبكته. واتهم جناح بدوره نهرو بالغطرسة؛ ولكنه خلع بذلاته الغالية لبعض الوقت على الأقل، وبدأ يلبس معطفاً طويلاً يسمى "شيرواني" وطاقية. وكان ذلك يتماشى مع رسالته الجديدة: الإسلام في خطر.

وقد خصّب جناح عن وعي خوفاً في خافية الشعور الإسلامي لدى جماهير المسلمين، وهو الخوف من إجبارهم على العيش في دار الحرب (أو بلاد الكفر) التي لن يسمح لهم فيها بممارسة شعائرهم الدينية بحرية. وساوى جناح بلغة مقبولة، فيما استعمل معاونوه تعبيرات قاسية، بين الهند التي يحكمها المؤتمر، والهند الهندوسية. وبث الدعاة ورجال الدين دعاية مفادها أنه لن يسمح للمسلمين بأداء الصلوات علناً في مساجدهم أيام الجمعة، وتلاوة القرآن الكريم إذا تولى الهندوس السلطة، وكانت الدعاية مؤثرة.

استغل جناح تديَن غاندي، وحوّله بحذق وبراعة إلى سلاح ضد حزب المؤتمر. كان غاندي يحلم دائماً بإنشاء "رامراجيا" في الهند، أي الدولة المثالية التي كانت قائمة في عهد الإله راما. وكان ذلك أمراً يتمتع بالشعبية، إذ إنه يرمز

إلى المساواة والطعام لكل ريفي، وتصور للمثالية يستجيب له الهندوس. غير أن جناحاً حوله إلى تصور لدولة هندوسية مستبدة، وحوّل "رامراجيا" إلى كابوس للمسلمين. ولم يخف غاندي أبداً استياءه من مثل هذه التفسيرات الخاطئة؛ غير أن الحالة النفسانية للمسلمين بدأت تتكيف ضده بعد تشكيل حكومات حزب المؤتمر في 1937م.

إن أي مظلة تحتاج إلى يد قوية للإمساك بها للصمود أمام ضغط الرياح العاتية، ومالت مظلة المؤتمر عندما حاول هذا الحزب حماية الهند من حرب عالمية في الخارج وحرب مدنية في الداخل. ففي 3 سبتمبر 1939م أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، وأصبحت الهند، أحد أجزاء الإمبراطورية، طرفاً في الحرب بموجب قرار اتخذ في لندن. احتار حزب المؤتمر بشأن الطريقة التي يستخدم بها الحرب لصالح أهدافه، وطالب حكوماته التي ألفت إثر انتخابات 1937م بتقديم استقالتها. وأعلن جناح الاحتفال بيوم الخلاص، وناشد المسلمين أن يشكروا الله على ذلك.

وقدم جناح نفسه الشكر إلى ونستون تشرشل واعداً بدعم كامل للجهود الحربية من دولة إسلامية كان من المنتظر إنشاؤها. وكان البريطانيون شاكرين لزعيم هندي لم يكن مشوشاً ولا استغلالياً. ولم يتذبذب جناح حتى في الوقت الذي بدت فيه بريطانيا على حافة الهزيمة، ولاذ حزب المؤتمر بالنوم الذي لم توقظه منه الضجة الناشئة عن الورطة، ما أدى إلى عواقب مؤلمة.

قدم جناح اقتراحاً واحداً، وانتظر حتى أصبح الوقت مواتياً لتحويله إلى مطالبة. وكان الاقتراح قد طرح في لاهور، وهي مدينة يمكنها أن تدعي ادعاء شرعياً بأنها مولد كل من الهند الحديثة وباكستان. فقد طالب المؤتمر في 1929م بلاهور بحرية الهند، وفي 1940م طالبت الرابطة الإسلامية بباكستان في لاهور أيضاً.

لم يذكر اسم باكستان إطلاقاً في قرار الرابطة الإسلامية الخاص بباكستان، ذلك القرار الذي قدم في وقت متأخر من بعد ظهر 23مارس 1940م، واتخذ بالتصفيق في اليوم التالي. وسيكون من المعيب أن يتهم جناح بتعبير يعوزه الإتقان، ولكنه قد سمح به. وكان مشروع القرار من إعداد رئيسي وزراء البنجاب والبنغال سير سكندر حياة خان وأسد بنغال فضل الحق الذي ترأس لجنة مواضيع البحث. وفيما يلي الفقرة الثالثة من مشروع القرار:

> إن الرابطة الإسلامية لعموم الهند ترى في دور انعقادها هذا أنه لن يكون أي مشروع دستوري قابلاً للتطبيق إذا لم يوضع على المبادئ الأساسية الآتية: أن تعين حدود الوحدات المتجاورة جغرافياً بحيث تكون أجزاء من مناطق يجب أن تشكل، بما قد يستوجب إعادة التعديلات الإقليمية، على نحو يمكن أن تجمع المناطق التي يشكل فيها المسلمون الأغلبية، كما هو الحال في المنطقتين الشمالية الغربية والشرقية للهند، جمعاً يشكل دولاً مستقلة تكون فيها الوحدات المشكلة لها ذات حكم ذاتي وسيادة.

ماذا تعني هذه العبارة؟ دولة إسلامية واحدة أم أكثر؟ داخل الهند أم خارجها؟ من الجائز أن يكون هذا الغموض مقصوداً.

وكانت هناك إيماءات وملاحظات دلت على أن الزعيم البنغالي فضل الحق تعمد إدخال شك لإبقاء مجال لخلق دولة إسلامية مستقلة من البنغال الإسلامية في المستقبل، وهذا يعني أن لاهور كانت مكان ميلاد بنغلاديش أيضاً. وعلى أي حال فإنه لم يكن هناك غموض في ذهن جناح؛ فقد أوضح الأمر أمام رجال الإعلام الذين التفوا حوله في أثناء المحادثات الرسمية مع الحكومة والاجتماعات العامة. اجتمع جناح باللورد لينليثغاو في 27 يونيو بقصره في سيملا. وقد سجل في تقرير عن لقائه معه أن نائب الملك وعده بأنه لن تكون هناك أي خطة نهائية من دون موافقة مسبقة من الهند المسلمة (أي مسلمي الهند)، وأن القرار الخاص بباكستان قد أصبح عقيدة عمومية للهند المسلمة.

وفي خطاب ذي طابع خاص ألقاه في 26 ديسمبر 1941م قال جناح لاتحاد الطلبة المسلمين لعموم الهند: "إن الرابطة الإسلامية قد أعطتكم غاية أظن أنها ستؤدي بكم إلى الأرض الموعودة التي سننشئ فيها دولتنا باكستان. فليقل الناس ما يشاؤون، وليتحدثوا كما يحبون؛ فلا شك أن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً". وكان المراد واضحاً أن جناحاً سيضحك في نهاية المطاف، ولكن تلويحه بعدم التيقن قد كدر صفاء هذا الضحك.

كان جناح يعلم أن عليه أن ينتظر حتى يتحدد مجرى الحرب، وقد أزاحت هزيمة تشرشل في الانتخابات العامة التي أجريت في أعقاب الحرب آخر عقبة من طريق استقلال الهند. وكانت الحكومة البريطانية منقسمة فيما يتعلق بتحقيق حلم جناح. فبينما كان أنصاره مصممين على منح الجائزة لزعيم ظل موالياً مؤيداً لمجهودات الحرب، كانت هناك أيضاً فئة تتخوف من عواقب وخيمة هائلة سيسفر عنها تقسيم الهند. كان رأي اللورد ويفل نائب الملك الذي حكم الهند قبل آخر نواب الملك أنه لا يمكن تغيير الجغرافيا؛ ولكنه كان يتعامل مع أولئك الذين أرادوا صنع التاريخ.

كانت نتائج انتخابات 1945- 1946م واضحة لا غموض فيها؛ فقد اكتسح المؤتمر الدوائر الانتخابية العامة الهندوسية، وحصلت الرابطة الإسلامية على86,7% من مجموع أصوات المسلمين الذين أدلوا بها للمجلس التشريعي المركزي، وعلى 74,7% من أصواتهم في المقاطعات. وحصل المؤتمر على 1,3 % وعلى 67, 4% من أصوات المسلمين على التوالي. وكان جناح يقول في كثير من الأحيان إن الشيء الوحيد الذي يشترك فيه المسلمون والهندوس هو عبوديتهم للبريطانيين، وكأنه قد أثبت بذلك صحة قوله هذا. وفي 2 يونيو 1947م اتخذ البرلمان البريطاني قانون استقلال الهند؛ ذلك القانون الذي منح الدولتين الاستقلال.

ذكـر اللـورد مونتـباتن آخـر نـواب الملـك والحاكم العام الأول للهند في تقريره الشخصي رقم 17 في 17 أغسطس 1947م المرسل إلى لندن أنه اضطر إلى تغـيير موعد برنامج كراتشي للاحتفالات بالاستقلال من الغداء إلى العشاء؛ لأن جـناحاً كان قد نسي أن الشهر الجاري هو رمضان المقدس لدى المسلمين الذي يـصومون فيه. وجاء العيد بعد ميلاد باكستان بأربعة أيام. ولم يكن هناك إلا قليل يبـتهج به؛ إذ إن ملايين اللاجئين عبروا الحدود غير المعروفة من خلال مسالك مخـضبة بالـدماء، ووسـط كـراهية بلغـت ذروتهـا. كانت صحة جناح نفسها قد انهـارت. كـان مـرض الـسُل، إلى جانـب سـرطان الـرئتين الذي بقي سراً، قد أنهكـه، وكـاد يقـضي عليه، ولكن ذلك لم يمنعه من التدخين أو تعاطي الخمر. وقـد حـاول الـرجل الذي أراد تغريب المسلمين أن يضع طريقة للعمل لمستقبل بلاد أنشأها.

ارتجل جناح خطاباً عندما اجتمعت الجمعية التأسيسية أول مرة في كراتشي في 11 أغسطس وكان ذلك الخطاب مكتوباً في مكان ما من قلبه؛ فقال: "سأقول بـضعة أشـياء كما تخطر في بالي". وهذا ما خطر في باله: أنتم أحرار، أنتم أحرار في الـذهاب إلى معابـدكم، أنـتم أحـرار في الذهاب إلى مساجدكم، أو إلى أي مكـان للعـبادة في دولة باكستان هذه. يمكنكم أن تنتموا إلى أي ديانة أو طبقة أو عقيدة؛ لاشأن لشيء من ذلك في شؤون الدولة. ورفض جناح الحديث عن دولة إسـلامية واصـفاً ذلك بأنه هراء. ولكن ذلك لم يكن هراء عند الآخرين. فهاجمه مـولانا المـودودي، الـرأس المفكـر والمؤسس للجماعة الإسلامية التي كان لها بوصـفها حـزباً دينياً أثر فعّال في السياسة، لإغفاله القرآن. وألقى عالم ديني آخر له نفوذ كبير، وهو مولانا شبير أحمد عثماني، خطاباً في الجمعية التأسيسية حذّر فـيه النخـبة مـن أنهـم قد يريدون من رجال الدين أن يكرسوا اهتمامهم لإصلاح المجـتمع؛ بيـنما يتـرك هؤلاء أحراراً لإفساد المجتمع الإسلامي ليل نهار، ومن هنا فإنه لم يرَ أي ضرر إطلاقاً إذا طمح رجال الدين أيضاً إلى السلطة لإقامة دولة إسلامية بمعنى الكلمة.

نالـت الهـند اسـتقلالها في سـاعةٍ حـدَّدَها المـنجِّمون، ورفـض غانـدي الاحـتفال بـه. ولم يكـن في دلهـي؛ بـل كـان في كلكـتا يـسعى لاستعادة الهند المفقـودة. فتقـرر أن يـرحب وارثـه جواهر لال نهرو بموعد لقاء الهند مع القدر عندما دقت ساعة منتصف الليل.

وفي الـصباح وقـع عـنف لم يكـن لـه نظـير بـين الهـندوس والمسلمين، وأصبحت الهند وباكستان منفصلتين لا تنظر إحداهما إلى الأخرى، إلا من خلال سمـوم جدار من الدم الذي قسمهما. تألّم جناح من الفظاعات التي لم يتصورها قـط. وكان غاندي يائساً بلغ منه اليأس كل مبلغ، ولم يكن ليعيش طويلاً، لو لم يغتل.

حـصل ناثـورام فيـنايك غودسـي علـى مـسدس أوتوماتيكـي يحمل الرقم 606824 مـع سبع رصاصات، ووصل إلى مكانه الذي اختاره في الساعة الخامسة إلا عـشر دقائـق من مساء 30 يناير 1948م. لم يوقفه أحد عند باب "بيرلا بهافان" حيث كان يقيم غاندي في أثناء ذهابه إلى دلهي. بقي غاندي على قيد الحياة بعد إضـرابه عـن الطعـام حـتى الموت مرة أخرى أيضاً، غير أنه يبدو أن الموت كان يحلـق فـوق رأسـه، أو لعـل ذلـك كـان بـسبب تطاير الدماء في الجو. ولم يكن إضـرابه عـن الطعـام احـتجاجاً على جريمة بريطانية؛ بل كان ضد جرائم أولئك الـذين حـررهم. فقد رحب الهندوس والمسلمون باستقلالهم بالتذابح على نطاق واسع لم يكن له نظير في تاريخهم. وكان مبدأ اللاعنف قد أصبح مثيراً للسخرية. وفي 20 ينايـر اعـتقل لاجئ من باكستان في اجتماع الدعاء والتوسل الديني الذي كـان يهـتم بـه غانـدي، وبـيده قنـبلة يدوية، وكانت هذه القنبلة التي استهدفت غانـدي قد انفجرت على بعد 25 ياردة من غاندي من دون أن يصاب بأي ضرر. وبقـي غانـدي هادئـاً وقـوراً يـتطلع إلى العالم كله بوصفه رجلاً يؤمن بما تنبأ به أحـياناً بأنـه سـيعيش 125 سـنة أو 133 سـنة، وهـي مـدة الخدمة التي خصصها "شاستراز" لأولئك الذين يخدمون الإنسانية.

وفي الثاني والعشرين استعاد غاندي من حالته الصحية ما يكفي للمشي من دون الاستعانة بمساعد في المرج الأخضر، وفي هذا الأسبوع كان الصحفي البريطاني كنغسلي مارتن قد أجرى معه حواراً أصبح موضوعاً للبحث حول اللاعنف. وذات مرة قال رجل (وهو مليونير) من جنوب أفريقيا لغاندي: ليست المقاومة السلبية إلا حيلة؛ هل هناك طريق آخر يختاره الهنود ما داموا لا يملكون جيشاً؟ وكان غاندي ملك المقاومة السلبية ومع ذلك وبلا ريب لا يصح القول بأنه كان ضعيفاً. وأعرب كنغسلي مارتن عن استغرابه قائلاً: كيف يمكن العمل بمبدأ اللاعنف مع طاغية مثل هتلر؟. فضحك غاندي وقال مخادعاً أو بدهاء: إنه ليس رجلاً من الحكومة؛ لذلك فإنه لا يستطيع أن يتحمل المسؤولية عن العقلية التي تستخدمها الحكومات. وكان زميله مولانا آزاد أكثر توضيحاً كما ذكر غاندي؛ فقد نقل غاندي عن آزاد قوله: "عندما نحصل على السلطة لن نتمكن من الإبقاء عليها باللاعنف".

في يوم 28 جاءته زميلته في المؤتمر راجكُماري أمريت كور لتعرب عن قلقها حول سلامته؛ فكان جوابه: إذا قدر لي أن أموت برصاصة رجل مجنون فإنه يجب أن أفعل ذلك مبتسماً. وقبيل أن يأوي إلى فراشه للنوم يوم الخميس الموافق 29 من الشهر أنشد لحفيدته مانو بيتاً من الشعر الأوردي:

ربيع هذه الحديقة يدوم بضعة أيام.
ألق نظرة على مشهدها بضعة أيام.

استيقظ من نومه في الساعة الثالثة والنصف يوم الجمعة 30 يناير، وهذه هي الساعة التي كان يصحو فيها عادة للدعاء والعمل، وكان موعد التدليك في الساعة الثامنة. وبدا بعد الاستحمام أكثر نشاطاً واستبشاراً. وبدأ شغله الجديد وهو تعلم كتابة اللغة البنغالية، وتناول فطوره في التاسعة والنصف. وكان الفطور حليب غنم وخضراوات مطبوخة وغير مطبوخة وبرتقالاً ومزيجاً من الزنجبيل وعصير الليمون. ثم عمل على مشروع دستور لحزب المؤتمر استهدف إيجاد بنية

جديدة للمنظمة. وبعد قيلولته عند الظهر استقبل زواره. وكان بعض رجال الدين المسلمين قد سمعوا أنه ينوي أن يغادر المدينة، وكانوا قلقين بشأن سلامتهم في غيابه؛ فطمأنهم وانصرفوا، ثم طلب إحضار رسائله المهمة قائلاً: "يجب أن أرد عليها اليوم فقد لا أكون غداً".

وقابله وفد من اللاجئين من السند في باكستان بعد أن انتهى من رده على الرسائل، وحكى لهم قصة ما نصحه به لاجئ غاضب من أن عليه أن يتقاعد ويقضي بقية حياته في جبل الهملايا. وجاءه في الرابعة من بعد ظهر ذلك الشتاء رجل الهند الفولاذي وزير الداخلية سردار فالبهائي باتيل طلباً للنصح. وكان من المقرر أن يزوره نهرو وآزاد في المساء. كان غاندي يتفاوض مع كبار المسؤولين في قيادة المؤتمر من أجل التوافق فيما بينهم. وعند الخامسة أخرج الساعة من جيبه قائلاً لسردار باتيل: حان الوقت للاجتماع العام للدعاء.

شاهد ناثورام غودسي المهاتما وهو يغادر غرفته في الساعة الخامسة وعشر دقائق مائلاً على كتفي حفيدتيه مانو وأبها. انتظر قرب النقطة التي يصعد منها المهاتما بضع درجات إلى المنصة. استعد غودسي لاستخدام مسدسه الذي كان في جيبه، ومشى غاندي نحوه. وانتظر غودسي قليلاً وخطا خطوتين نحو المهاتما، وتوقف ملياً لفكرة خطرت بباله: قد تكون مانو قريبة منه جداً فتجرحها رصاصته، لذلك انتظر حتى صار على بعد ثلاث خطوات من هدفه. وضع المسدس بين يديه المتلاصقتين وانحنى على طريقة التحية لدى الهندوس قائلاً: "نامستي". (فسر غودسي سلوكه في أثناء محاكمته فيما بعد؛ بأنه كان إيماءة تكريم لما قدمه غاندي من الخدمة المفيدة والتضحية من أجل البلاد في حياته). خطا غودسي خطوة أخرى، ودفع مانو جانباً، وجذب زناد المسدس فخرجت منه ثلاث رصاصات؛ لأنه ضغط عليه بشدة. فترنح غاندي، ولكنه بقي على قدميه، وأعقبتها رصاصتان أخريان، وجرى على لسانه ذكر رام حيث قال

بـصوت مـسموع: "هي رام" وسقط، وتلطخ ثوبه الأبيض الذي كان يرتديه ببقعة من الدم. وهكذا دفع غاندي ثمن سعيه لتحقيق السلام مع المسلمين.

بـدأ جـناح، الـذي أنـشأ باكـستان، يتـساءل في نفـسه حول باكستان التي أوجـدها. يمكـنك أن تـسلم الـسلطة إلى فتيان من النادي كما فعل البريطانيون؛ ولكـنك لا تـستطيع أن تـضمن احـتفاظ هؤلاء الفتيان بهذه السلطة دوماً. وليس الـوطن حقـاً مقـصوراً علـى أولـئك الـذين تتوق أنفسهم إلى أن يلعبوا الغولف. فالثيوقراطيون سيحلمون أيضاً. وقد بدأ فعلاً صراع بين ما يمكن تسميته مجموعة جـناح والثيوقراطيين في باكستان. وبقيت قوى الصراع متعادلة متكافئة إلى ما قبل عهـد الجنـرال ضـياء الحـق الذي شنق أول زعيم باكستاني منتخب، وألقى بكل ثقلـه لـيدعم الثيوقـراطية على نطاق واسع، حتى في الوقت الذي كان يبتسم فيه ويكثـر من ابتساماته للزائرين القادمين من الولايات المتحدة. وبما أنه كان لضياء الحق أكثر من وجه فقد استطاع أن يتجه في أكثر من اتجاه.

- 14 -
إحياء جناح وعهد أسامة

"أطيعوني ما أطعت الله ورسوله؛ فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم"

[قول أبي بكر أول خلفاء المسلمين عندما وُلّي الخلافة]

هـل تُرهبون البطة بالنهر؟ [مثل كان يردده الحسن الصباح "شيخ الجبل" إذا قيل له إن حياته مهددة].

بعـد كابـول إسـلام آباد... طالبان! طالبان! [شعار رفعه حشد من رجال الـدين خارج المحكمة العليا في لاهور في 15 مايو 1994م، وكانوا قد احتشدوا بمناسبة انعقاد جلسة قضائية للنظر في طلب مراجعة حكم الإعدام الصادر بحق مسيحيين باكستانيين، هما سلامت ورحمت مسيح، وذلك بجريمة الإساءة إلى الرسول ﷺ].

كـيف حُـبك الجهاد في شبكة واحدة خارج نفوذ الحكومات، وتحوّل إلى حـرب علـى أمـريكا؟ ولمـاذا غـزت أمريكا وبريطانيا دولة أنقذوها من السيطرة الـسوفييتية في ثمانينـيات القـرن العـشرين؟ وكيف أصبحت باكستان ساحة لعب للمنظمات الإرهابية التي تشن حرباً مقدسة حيثما وجدت عدواً؟

لقد رأينا أن الجيوش الإسلامية بدأت تغزو الهند من أجل الغنيمة في بداية الأمر، في العقود الأولى من القرن الحادي عشر، أي قبل بدء الحروب الصليبية في غـرب آسـيا بقلـيل. وقـد أثارت ثروة الهند الشهية إلى المزيد. وفي منتصف القـرن الـثاني عشر أحكم المسلمون سيطرتهم على دلهي، ولم يغادروها إلا بعد

أن طردهم البريطانيون بالقوة بعد حرب مريرة دامية في 1857م. كانت الهند دائماً بلاداً ذات أكثرية هندوسية؛ ومع ذلك فإن الحكم الإسلامي استمر فيها، ولو كان مضطرباً وضعيفاً في بعض الأحيان، إلى حين قضت بريطانيا عليه.

تأرجح رد المسلمين بين الغضب والاضطراب. فالحركات الجهادية التي ثارت في القرن التاسع عشر والعشرين قمعها البريطانيون، وقد أُحْيِيَتْ روح الجهاد في أوائل القرن العشرين، لكنها اندمجت في الحركة الوطنية الأوسع بقيادة غاندي. وأقنع غاندي المسلمين بتجربة جهاد خال من العنف، وكانت تجربة فريدة من نوعها إلا أنها باءت بالإخفاق.

أخذت سياسة المسلمين منحى منفصلاً ثم توجهاً انفصالياً، وفي 1947م حصلت شريحة من المسلمين الهنود على وطن مستقل لهم سمّوه باكستان، وقامت باكستان منذ إنشائها بتحويل الجهاد إلى أداة من أدوات سياسة الدولة. كان يمكن أن تصبح باكستان دولة إسلامية ديموقراطية حديثة. فقد برزت من أنقاض الإمبراطورية المغولية من خلال طوق الاستعمار. المسلمون في المغرب وغرب آسيا لم يكونوا المجتمعات الوحيدة التي رُسمت مصائرها الحديثة في أوروبا، وإن كان ظهور اسرائيل قد أعطى غرب آسيا بروزاً دولياً أكبر بكثير.

غير أن حربين قد بدأتا بالتزامن؛ إحداهما في 1947م والأخرى في 1948م، ولم يتوقف أي منهما حتى الآن. وبينما تحوي المكتبات مواد وفيرة حول النزاعات في الشرق الأوسط، نجد أن الاهتمام بالآلام التي شهدتها القارة الهندية قليل نسبياً. هناك عاملان آخران يمكن أن يغيرا هذا الوضع. الأول هو أن الهند وباكستان لا تنذران الآن بإحداث الفوضى والدمار في المنطقة فحسب، بل لديهما القدرة على نشر سحب نووية فوق أغنى قطعة أرض في العالم، وهي الصحارى الغنية بالنفط. والعامل الآخر هو أن باكستان قد أصبحت جنة للإرهابيين الذين أنشأوا "دولة داخل دولة". ولم يُشِر أحد إلى ذلك بمثل وضوح

الرئيس الباكستاني الرابع عشر الجنرال برويز مشرف، الحاكم الباكستاني الأول الذي أظهر ميلاً صادقاً إلى مجابهة هذا الخطر. ففي خطابه الموجه إلى الشعب بتاريخ 12 يناير 2002م دعا إلى وضع نهاية لثقافة الجهاد التي أضرت بباكستان أكثر من إضرارها بأي بلد آخر. وطالب رجالَ الدين المتطرفين بالكفّ عن تحريض الشباب السذج على الاستشهاد، مؤكداً أن باكستان لم تأخذ على نفسها أن تتولى الجهاد في العالم، وأنه لن يسمح بأن يساء استخدام المساجد، وأن تصبح المدارس الدينية مدارس كراهية.

كما أكد أنه سيضع نهاية لثقافة الكلاشينكوف، ولن يسمح بتحويل باكستان إلى دولة ثيوقراطية. ووبخ رجال الدين الأصوليين الذين يدعون إلى الجهاد من داخل سياراتهم المريحة، وضرب مثلاً عن أصولي قتل أناساً بصفة شخصية انطلاقاً من نظريته بشأن الحرب المقدسة، وقال إن هؤلاء المتاجرين بالإسلام مثل "طالبان" وحلفاءها في باكستان يزعمون أنهم يقودون "صحوة إسلامية". لكنهم في واقع الأمر لم يحققوا شيئاً غير تحويل بلادهم إلى مستودع للعنف. وأعلن أنه مصمم على تفكيك هذه "الدولة داخل الدولة"، وبأنه لن يسمح لأحد بتنفيذ أي جهاد، بما في ذلك الجهاد في كشمير، انطلاقاً من الأرض الباكستانية، وأن ذلك العهد قد انقضى.

كان رد الفعل الأولي لرجال الدين المتشددين الهزء بالرئيس مشرف بوصفه رجلاً لا يعرف ما يتحدث عنه. لكن جنرالاً باكستانياً واحداً على الأقل قد حاول إنهاء ما بدأه جنرال آخر؛ فالجنرال ضياء الحق الذي استولى على السلطة في 1977م قد أسلم باكستان خلال العقد الذي تولى فيه الحكم، ولم يستطع أحد ممن خلفه أن يتحدى ما ورثه إلى حين مجيء مشرف، وقد يحتاج مشرف إلى مدة مماثلة على الأقل لإبطال ما حدث تحت ستار الجهاد ضد الاتحاد السوفييتي في أفغانستان.

لم تكترث أمريكا بإثارة أسئلة كثيرة حيال أصدقائها في حربها الأفغانية الأولى؛ لأن أفغانستان لم تكن إلا قاعدة لإطلاق صراع أوسع ضد الشيوعية والاتحاد السوفييتي، وسيتبين لنا في الأيام القادمة مدى تفهُّم أمريكا للقوى المؤثرة في حربها الأفغانية الثانية. لكن هذا الحدث جزء من نزاع عالمي أوسع، غير أن الأدوار قد انقلبت. فأمريكا هي الاتحاد السوفييتي هذه المرة. وطبيعة المعركة مختلفة. فأحد الجيشين يعمل في ساحة القتال، بينما يعمل الجيش الآخر في الظل. لم تتورّط أي حكومة في الهجمات الإرهابية التي وقعت في 11 سبتمبر 2001م، لكنها مع ذلك وقعت.

وينشأ بعض المفاهيم الخاطئة عن تعبير "الأصولية" الذي أصبح اختزالاً لكل المشكلات. فالأصولية في نظر معظم أهل الغرب مستودع كل شر، ولكن إذا كان المقصود بالأصولية الإيمان بالمعتقدات الأساسية للدين؛ فإن أكثر من تسعين في المئة من المسلمين أصوليون. وأي مصطلح آخر - مثل الإسلاميين - يبدو عرضة لسوء التفسير على حد سواء. وقد يكون الحل الأمثل استخدام كلمة "الأصولية" مع إيضاح ما لا تتضمنه.

قد لا يستاء معظم المسيحيين إذا سئلوا عما إذا كانوا يؤمنون حقاً بأن المسيح حوّل الماء إلى الخمر أو بعث "إلعازر" بعد موته. إلا أن المسلمين، على خلاف ذلك، لا يشكّون في أن ملائكة الله نصروا الرسول ﷺ في معركة بدر، ويؤمنون بأن الله حي ويتطلّعون إليه في كل ما يعملون. ولا يفهم المسلمون محاولة المساواة الضمنية بين الدين والإرهاب، التي كثيراً ما يفعلها المسيحيون الذين يبدو أن دينهم قد انعدم. وهناك حيرة من تهمة الكراهية كذلك. فالمسلمون لا "يكرهون" الغرب أو المسيحيين أكثر مما "يكرهون" البوذيين أو اليابانيين مثلاً أو أقل. غير أن ما يتملّكهم هو غضب عميق وقوي على الغرب المسيحي، غضب أثارته الإساءة إلى نبيهم، وغذته الحرب التي لا تهدأ، وتغذيه الآن

العوامل مثل وهن المسلمين واستكانتهم إزاء إسرائيل. إن إسرائيل تعد بديلاً لأمريكا، وليست هي البديل الوحيد؛ فالشارع الإسلامي مقتنع بأن معظم حكومات البلدان الإسلامية عملاء لأمريكا، وهذا ما يؤذي المسلمين أكثر، وذلك هو تفسيرهم الوحيد للتسامح الأمريكي مع الملوك والطغاة المسلمين.

لقد ظل الإصرار على الديموقراطية من أبرز عناصر السياسة الأمريكية التي أعلن عنها على أوسع نطاق منذ سقوط الاتحاد السوفييتي؛ فأين يختفي هذا الإصرار عندما يتعلق الأمر ببعض الأنظمة غير الديمقراطية؟ ربما تريد واشنطن الديموقراطية "الحرة والنزيهة" في ليبيا؛ لكنها لا تدعو إلى ذلك في مصر. وليس هناك أي معيار أكثر ازدواجية من ذلك. بيد أن غياب الديموقراطية يلاحظ في جميع دول العالم الإسلامي المعاصر، سواء أكانت تلك الدول مسايرة لواشنطن أم لا.

بل إن محمد علي جناح لم يستطع إحلال الديموقراطية في باكستان، فقد حبك دولة من خيوط السياسة البريطانية بإبر من الحديد؛ لكن تلك الإبر شكّلت في حرارة حركة للحقوق الديموقراطية. لقد بنيت فكرة باكستان على الادعاء بأن المسلمين لن ينالوا الإنصاف في ظل التفوق العددي للهندوس عليهم بنسبة ثلاثة مقابل واحد، وكان ذلك أساساً منطقياً فريداً لإقامة دولة جديدة، انتزعها جناح من القبضة البريطانية بيده الباردة الهادئة.

فماذا كان مصير الديموقراطية في باكستان؟ إن التجمع الوحيد للمسلمين في العالم الذي يتمتع بحرية ديموقراطية متواصلة ليس في باكستان بل في الهند. لا شك في أن المسلمين الذين اختاروا البقاء في الهند قد عانوا من مشكلات أكثر مما يستحقه أحد؛ فقد دفعوا ثمن ما فعله أسلافهم من جهة، وثمن نجاح الرابطة الإسلامية من جهة أخرى، لكنهم ما زالوا التجمع الإسلامي الوحيد الذي ينعم بحقوق ديموقراطية مضمونة. ولا يغيبنَّ عن البال أن المجتمع الإسلامي في

الهند يتألف من أكثر من 150 مليون نسمة في الوقت الحالي. وسيكون من الحماقة القول بأن الديموقراطية قد أزالت جميع شكاوى المسلمين الهنود، لأنها لم تزلها. بل ربما أضافت إلى هذه المشاكل، مثل حادثة تدمير المسجد البابري بطريقة غاشمة في 1992م. أضف إلى ذلك مشكلة الاضطرابات الطائفية التي هي في كثير من الأحوال اعتداءات وحشية يرتكبها الغوغائيون بموافقة من السلطات المحلية، كما حدث في ولاية غوجارات في 2002م.

ومع ذلك فإن الديموقراطية قد منحت المسلمين الهنود أداة ووسيلة لمعاقبة الحكومات والأحزاب السياسية التي تتجاهل مشاعرهم، أو تلك التي تخون مصالحهم. وبعد مرحلة العزلة التي أعقبت تقسيم البلاد في 1947م فإن المسلمين في الهند قد نهضوا بأنفسهم، وأصبحوا يشاركون بفعالية في بناء دولة حديثة. يمكن أن يقال إن وصول المسلمين إلى منصب رئيس الدولة في الهند لا يَعدو أن يكون رمزياً، نظراً لأن السلطة الحقيقية موضوعة في أيدي رئيس الوزراء. لكن منصب رئيس الوزراء ليس خارج متناول الأقليات في الهند الآن. هذا ما أراده جناح لباكستان: أن يأتي وقت يتجرد فيه المسلمون والهندوس من هويتهم الدينية فيما يتعلق بشؤون السياسة. لكن ذلك يحدث اليوم في الهند بدلاً من باكستان، ليس لأن الهنود أفضل من الباكستانيين؛ وإنما لأن لديهم نظاماً سياسياً أفضل. أما المسلمون في باكستان فلم يجربوا الإرادة الحرة إلا بطريقة عابرة ومدة قصيرة.

وحتى هذه التجربة القصيرة للديموقراطية هي أكثر مما تمتع به المسلمون في البلدان الأخرى. فالمغرب نظام ملكي، وتونس جربت راديكالية الحبيب بورقيبة المربكة نوعاً ما، وأصبحت الآن مقتنعة ـ أو غير مقتنعة ـ بسيادة حزب واحد. والجزائر بدأت تجربتها المستقلة بالأوتوقراطية الليبرالية للثوريين المنتصرين، ثم انزلقت إلى الديكتاتورية العسكرية مروراً بتجارب مخفقة في

الانـتخابات. أمـا الـسودان فقد تأرجح بين قانون الشريعة والزعماء العسكريين؛ مـثل العقـيد جعفـر النميري، ثم استقر على ديكتاتورية ملائمة أيديولوجياً. وأما ليـبيا ومـصر فقـد استـبدلتا الجيش بالملوك، وقد أعطى جمال عبد الناصر مصر أملاً، وأعطى معمر القذافي ليبياً كتاباً أخضر.

أمـا سـوريا والعـراق فإنهمـا بعثـيان إن بقـي لهـذه الكلمة معنى. وقد ظن المـسيحي الأرثوذكـسي الـشرقي ميـشيل عفلـق بـأن القومـية الاشتراكية العربية الإسـلامية سـتتحدى " الإسـلام التقليدي" الذي يتَّبعه الملوك والأمراء وسترهب أوروبـا بقـوتها المنبعثة. وكانت القومية العربية التي دعا إليها عفلق شاملة لجميع الطوائـف: الشيعة والسنة والدروز والمسيحيين؛ إلا أنها ركزت سلطة الدولة في يد حزب واحد، وتحول ذلك بالتدريج إلى سيادة أسرة واحدة. إن عفلق الداعي إلى المـساواة بـين البشر لم يتصور أنه سيتسبب في إحلال سلالات جديدة مكان الـسلالات الحاكمـة القديمـة، ومـن دون أن يكون للسلالات الجديدة امتياز أو تفـوق كـبير، والطوائـف الـتي حـاول عفلـق توحـيدها خاضت صراعات عنيفة عكرت صفو لبنان.

أما أفغانستان فإنها استبدلت ديكتاتوريين قساة بملك معتدل، وكان آخرهم "طالـبان" الـتي كـان أبـشع إرهابهـا ضـد الـشعب الأفغاني ولاسيما النساء. وفي بنجلاديش لطخ السفاكون العسكريون الأمل بالديموقراطية، وبعد كثير من سفك الـدماء والحكـم العـسكري انـصرفت إلى الانـتخابات النزيهـة مظهـرة بذلك أن الإسـلام في حـد ذاته لا يتعارض مع الديموقراطية. إن الديموقراطية لا تتعارض إلا مـع الحكام الذين حولوا الشعوب المسلمة إلى ألاعيب يلعبون بها. أما ماليزيا فإنهـا محكومة لحزب واحد في الواقع، وأندونيسيا لم تتمتع بالانتخابات إلا في الآونـة الأخـيرة. وبـروناي مـتاع أسـرة واحـدة. و لم تتمكن الدول الأفريقية من تحقيق ديموقراطية مستقرة لشعوبها بصرف النظر عن انتماءاتها الدينية أو القبلية.

الشعوب المسلمة في وسط آسيا قد حصلت على الاستقلال عن الاتحاد السوفييتي؛ لكنها لم تتخل حتى الآن عن انتخاب الزعماء بمعدل 99 في المئة من الأصوات. وألبانياً تبدو ضائعة. وتركيا التي ما زالت مترشحة لعضوية الاتحاد الأوروبي لديها ديموقراطية يحميها الجيش، إن لم يكن ذلك تضارباً.

أما إيران الشيعية فإن القوى الاستعمارية فرضت عليها الشاه، وداعب إيران حلم الاستقلال في أوائل الخمسينيات لتكتشف أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) لم توافق على ذلك. وعاد الشاه من المنفى بعد مدة قصيرة، وتسلط على البلاد إلى حين أن عبأ آية الله الخميني هذه الحضارة القديمة. وقد استطاعت التجربة الإيرانية البقاء على قيد الحياة؛ إلا أنه ليس هناك دليل يثبت أنها نجحت على النحو المنشود. خاضت إيران حرباً مدة ثماني سنوات، ليس ضد إسرائيل؛ وإنما ضد دولة إسلامية شقيقة هي العراق. وقال كل من إيران والعراق لشبابهما إنهم سيدخلون الجنة إذا ما لقوا حتفهم في هذه الحرب.

ما هي النتائج والآثار؟ إن رجل الشارع عندما يُحرم من المشاركة في شؤون بلاده فإنه يسعى إلى التعبير عن آرائه بطرائق أخرى. جميع المسلمين يعيشون في دائرتين: دائرة الوطن ودائرة الأخوة الإسلامية. والهوية الوطنية تتعايش مع الالتزام بدين عالمي، والاعتزاز بتاريخ فريد، والعواطف التي تتخطى الحدود الوطنية.

في وقت اليأس والقنوط تشتد الحاجة إلى بطل يلهم انتصار الإسلام على مستوى العالم، والوضع الراهن يشبه ما كان عليه الأمر قبل ألف عام؛ عندما استولى الصليبيون على القدس، وأنشأ المسيحيون دولاً قوية في قلب فلسطين، في الأرض التي تقوم فيها إسرائيل اليوم على وجه التقريب. والنهضة التي قادها نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي رفعت المسلمين من حالة الذل والهوان

في ذلك الوقت. أما اليوم فلا يرى في الأفق بطل مماثل، ويمكن لليأس أن يغدو مرتعاً للمنحرفين الذين يؤمنون بأنفسهم وتفسيرهم الخاص للدين.

يعد أسامة بن لادن مقلداً لرجل مشهور من القرن الحادي عشر هو الحسن بن الصباح "شيخ الجبل" الذي أعطى اللغة الإنجليزية كلمة (assassin)(*)، ولا يعرف عام ميلاده إلا أنه توفي عام 1124م. ولد الحسن بن الصباح في أسرة شيعية في مدينة قم بايران، وكان دائم السفر في شبابه وخدم كثيراً من السادة. وفي عام 1090م وجد في نهاية الأمر قاعدة لعقيدته المتشددة في قلعة "آلموت" المقامة على صخرة عالية وسط جبال "ألبُرز" فوق واد خصب، ولم يغادر هذا الجبل مدة 34 عاماً إلى أن قضى نحبه. ومن هناك قاد شبكة من الدعاة والإرهابيين الذين أصبحوا القوة الأكثر إثارة للرهبة في زمنهم.

طوال أكثر من مئة عام نشرت فرقة الحشاشين الرعب في قلوب كل من الصليبيين المسيحيين والأمراء العرب الذين سمحوا للمسيحيين بالانتصار، ووعد الحسن بن الصباح الشهداء في سبيله بالجنة وذلك باستخدام "الحشيش" على ما يظهر، وربما أطلق عليهم اسم الحشاشين لهذا السبب. وكانوا قد برعوا في استراتيجية العمليات الفدائية، وكانت سريتهم أسطورية إلى درجة أن سلطاناً مثل صلاح الدين الأيوبي كان يتخوف من أن ينضم حرسه الشخصي إلى فرقة الحشاشين، ويغتالوه بإيعاز من زعيمهم. وقد حاول الحشاشون اغتيال صلاح الدين مرتين، مرة في شتاء 1174/1175م عندما كان يحاصر مدينة حلب، ومرة أخرى في 22 مايو 1176م عندما هجموا عليه بالسكاكين متنكرين بزي جنوده. وكان صلاح الدين ينام بعد ذلك تحت حماية خاصة، ولا يسمح بالاقتراب منه إلا لمن كان يعرفهم شخصياً.

(*) الكلمة تعني اغتال، وهي تحريف لكلمة "الحشاشين"، وهم جماعة من الإسماعيلية نشطت في القرن الثاني عشر ـ المترجم.

وكلمـا سمـع "شـيخ الجـبل" عن تهديد حياته ضحك وقال: أتهددون بطة بالنهر؟

وأتـى الـنجاح الأكـبر لفـرقة الحـشاشين في لحظـة حاسمـة خـلال حملة ريتـشارد الثاني، وقد خطط لهذه العملية الفدائية بدقة ونفذت ببراعة. دخل اثنان مـن الحـشاشين معسكر المركيز كونراد دي مونتفرات، ملك القدس، في مدينة صـور وهما يرتديان ثياب الرهبان المسيحيين، وبعد كسب ثقته التامة اغتالاه في 28 أبـريل 1192م. وكانـت خطـورة هـذه الحادثـة في ذلك الوقت مثل حادثة 11 سـبتمبر 2001م في الـوقت الحاضـر. ورشّ الحـشاشون المِلـح علـى الجـرح "بالاعتراف" بأن ريتشارد الثاني هو الذي حرض على هذا القتل.

غـير أن حـركة الحـشاشين قـد ذبلـت عندما حافظ العرب على انتصارات صـلاح الـدين. فالمـسلمون لم يعودوا بحاجة إلى الإرهاب بعد اكتشافهم صلاح الـدين. وانجرفت الحركة إلى البدعة والهرطقة بطريقة مروعة، وتحولت إلى قوة هامـشية إلى أن قـضى علـيها هولاكـو، فطـواها النسيان (لكنها ازدهرت في طي النـسيان. فـزعيم الإسماعيلـيين في العـصر الحاضـر آغا خان سليل مباشر لشيخ الجبل).

قـد نجـد في ذلـك درسـاً للـوقت الحاضـر. عـندما دعا صلاح الدين إلى الجهـاد ضـد ريتـشارد الـثاني لقـي تجاوبـاً مـن أمـاكن بعيدة مثل الهند. وعامة المسلمين ما زالوا مستعدين للتجاوب؛ إلا أنه ليس هناك زعيم مثل صلاح الدين الـيوم. والحكـام الديكـتاتوريون مـثل صدام حسين يستغلون هذا الوضع لصرف غـضب المـسلمين عـن الأنظمـة الاستبدادية في العالم الإسلامي. ويعتقد معظم المـسلمين بأن الولايات المتحدة لا تستغني إلا عن أولئك الحكام الديكتاتوريين الـذين يدخلـون في شـجار مـع واشنطن. بعبارة أخرى فإن مصلحة واشنطن هي التي يجب أن تخدم دائماً وليس مصلحة أولئك الحكام أو شعوبهم.

في مايو 1932م تناول أمريكي وعميل (مستكشف) بريطاني طعام الغداء في مطعم سمبسون في ستراند. وكان الأمريكي فرانسيس ب. لوميس ـ وكيل وزارة الخارجية سابقاً في إدارة الرئيس تيودور روزفلت ومستشار الشؤون الخارجية لدى شركة ستاندرد للبترول بكاليفورنياً (Socal) ـ قد دعا إلى مأدبة الغداء البريطاني هاري سانت جون بريدجر فيلبي، العائد لتوه من السعودية التي كانت آنذاك تعاني بسبب تضاؤل الإيرادات. وبحسب قول فيلبي، الذي لم يعد جديراً بالثقة، فإن جميع الامتيازات البترولية للجزيرة العربية كانت في متناول من يملك مليون دولار.

في 1928م كانت مجموعة من الشركات البترولية الأمريكية والبريطانية والهولندية والفرنسية قد تقاسمت الامتيازات في الأجزاء المفتوحة من الإمبراطورية العثمانية، وتلك الشركات هي: شركة ستاندرد للبترول بنيويورك (موبيل Mobil حالياً)، وشركة ستاندرد للبترول بنيوجرسي (Exxon)، والشركة الإنجليزية الفارسية (British Petroleum)، وشركة شل الهولندية (Royal Dutch Shell)، والشركة الفرنسية للبترول. أما شركة سوكال (Socal) فإنها لم تكن من ضمن تلك المجموعة إلا أنها كانت قد بدأت الاستكشاف في البحرين، (ووُفقت إلى اكتشاف البترول في الأول من يونيو 1932م). وفي غضون عام من ذلك الغداء في 1932م اتفق على الشروط مع الحكومة السعودية، وهي تقديم قرض بـ 30000 جنيه بالعملة الذهبية، ومبلغ إضافي قدره 20000 جنيه يدفع خلال 18 شهراً، وإيجار سنوي بمبلغ 5000 جنيه. وقد دفعت سوكال 35000 جنيه ذهباً نقداً (على طاولة مدير الجمعية التجارية الهولندية) في 25 أغسطس 1933م لتكسب بذلك حق استكشاف منطقة تساوي أربعة أضعاف مساحة بريطانيا، كما كسبت حقوق المنطقة المحايدة في نجد والكويت مقابل مبلغ إضافي قدره 100000 جنيه.

وفي نهاية العام وصل الأمريكان إلى الأحساء حاملين معهم رافعات وعوارض وسيارات وشاحنات ومراوح كهربائية ومرشات ومراحيض. وكل ما حدث بعد ذلك معروف ومسجل في التاريخ. وبحلول مارس من عام 1938م بدأ الحقل رقم 7 في الدمام يضخ نحو أربعة آلاف برميل من النفط يومياً. وفي 18 فبراير 1943م أصدر الرئيس فرانكلين دينالو روزفلت الأمر التنفيذي رقم 8926 لوكيل وزارة الخارجية إدوارد ستيتينوس أوجز فيه موقف أمريكا بقوله "أقضي بموجب هذا الأمر بأن الدفاع عن المملكة العربية السعودية ضروري للدفاع عن الولايات المتحدة". وأتيحت أموال الإعارة والتأجير للحكومة، ونحيت بريطانيا عن الطريق تدريجياً، كما تم وضع القوات الأمريكية في الظهران، وهكذا ترسخ الاعتماد المتبادل بين واشنطن والرياض.

بعد أن فقدت بريطانيا تفوقها لصالح الولايات المتحدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية انتقل الغضب من القوة الاستعمارية الآفلة إلى القوة الاستعمارية الجديدة المتمثلة في أمريكا. وبعد ظهور إسرائيل إلى حيز الوجود أصبحت الديانات التوحيدية الثلاث، اليهودية والمسيحية و الإسلام، متورطة في هذا النزاع. وليس ذلك صراعاً للحضارات بقدر ما هو تنافس على النفوذ السياسي والقوة الاقتصادية والكبرياء الوطنية، تزيد من حدته الخلافات الدينية. وإن حزن المسلمين على مجدهم الغابر يتباين بشكل صارخ مع النهضة اليهودية بعد نحو ألفي سنة من المنفى.

لقد وجد مسلمو الهند غير المنقسمة في الثلاثينيات من القرن العشرين الزعيم الذي كانوا يتطلعون إليه ليكون لهم بمنزلة صلاح الدين الأيوبي، مع أن ذلك الزعيم ربما كان يكره تشبيهه بصلاح الدين. ففي سيرة محمد علي جناح التي ألفها ستانلي وولبرت بعنوان (Jinnah of Pakistan) ليس ثمة إشارة واحدة إلى صلاح الدين في الكتاب المكون من 421 صفحة. علماً أن كتاب وولبرت

يعد أشمل ترجمة لحياة الرجل الذي أسس دولة بحجة أن الأقلية المسلمة تحتاج إلى وطن مستقل. إن جناحاً لم يؤمن بالأبطال التقليديين للتاريخ الإسلامي، وإن كان له قدوة فهو مصطفى كمال أتاتورك الزعيم التركي الذي ألغى الخلافة الإسلامية.

متى أصبح المسلمون أقلية في الهند؟ هذا سؤال خطابي لأن المسلمين في الهند هم أقلية دائماً. لكن الهند، لاسيما بعد اعتناق كثير من الهندوس الإسلام في البنغال، كانت تحتضن أكبر تجمع للمسلمين في العالم أيضاً. وكان معظم هؤلاء المسلمين من أبناء الطبقات الهندوسية الدنيا المضطهدين على يد النظام الطبقي الهندوسي، والذين جذبتهم تعاليم الإسلام الداعية إلى المساواة بين البشر. لم يطالب المسلمون قط، في أي مرحلة من مراحل عيشهم الطويل في الهند، بمملكة إسلامية خالصة أو إقليم منفصل لهم؛ لأنهم لم يشعروا أنهم في حاجة إلى الحماية من الهندوس.

إذن في أي مرحلة من تاريخهم أصبحوا أقلية؟ لقد بدأت العملية بسقوط الإمبراطورية المغولية وزوال المهابة السابقة بعد هزيمة 1857م. فقد تغيرت لغة السلطة من الفارسية إلى الإنجليزية، وعُدلت أنظمة الحكم لتتوافق مع المصلحة البريطانية، وراجت أفكار جديدة مثل الانتخابات. ولم يكن من المفاجئ أن يساء فهم الانتخابات؛ إذ لم يكن لدى أحد فكرة واضحة عن مفهومها ومغزاها وتأثيرها ونتائجها.

غير أنه عندما نال جناح وطنه المنشود، أصبحت شخصيته مختلفة تماماً عما كانت عليه سابقاً. والكلمة التي ألقاها في افتتاح مجلس وضع الدستور نمت عن اضطرابه، فمع تأكيده أن التاريخ سيسوغ تقسيم الهند كان غير واثق من العاقبة. فقد قال: "إن فكرة الهند الموحدة لم يكن بالإمكان أن تنجح أبداً، وفي

رأيي قد تودي بنا إلى كارثة رهيبة. قد يكون هذا الرأي صحيحاً، وقد يكون غير صحيح، يبقى أن نرى ذلك".

وأكد جناح أمام مجلس وضع الدستور أن باكستان ستنجح إذا ما عمل قادتها لصالح الفقراء، وتجاوزوا خلافاتهم لضمان أن تكون لكل مواطن حقوق وامتيازات وواجبات متساوية "بصرف النظر عن الطائفة التي ينتمي إليها، وعن علاقاته الماضية معكم، وعن لونه أو طبقته أو عقيدته، وعن كل شيء آخر سوى أنه مواطن هذه الدولة أولاً وثانياً وأخيراً، وأن له حقوقاً وامتيازات وواجبات متساوية. لن يكون هناك حد للتقدم الذي ستحققونه، أنتم أحرار؛ لكم الحرية في الذهاب إلى معابدكم، ولكم الحرية في الذهاب إلى مساجدكم أو أي مكان آخر للعبادة في هذه الدولة الباكستانية. إن انتماءكم لأي دين أو طبقة أو عقيدة لا علاقة له بشؤون الدولة". وشدد على ذلك مراراً قائلاً: "إننا نبدأ بهذا المبدأ الأساسي؛ وهو أننا جميعاً مواطنون متساوون في دولة واحدة".

وقدم فكرة مدهشة بقوله: "أظن أنه ينبغي أن نضع ذلك أمامنا بوصفه هدفنا الأسمى، وستجدون مع مرور الوقت أن الهندوس لن يبقوا هندوساً، والمسلمين لن يبقوا مسلمين، ليس من الناحية الدينية لأن الدين يخص العقيدة الشخصية لكل فرد؛ وإنما من الناحية السياسية بصفتهم مواطني الدولة". لم يكن من المعقول صدور هذا الكلام عن جناح، إذ يمكن أن يقول غاندي الكلام نفسه.

كسب جناح الحجة في الهند قبل 1947م. ومأساة باكستان أنها خسرت الحجة بعد 1947م، ومن هنا بدأ انزلاق باكستان إلى الفوضى الإدارية والحكم الاستبدادي والديكتاتورية التي أسهمت في بروز منظمات أصولية.

طالب رجال الدين منذ البداية بإقامة حكومة إسلامية بحجة أن تأسيس باكستان كان بهدف إنقاذ الإسلام من الخطر، وأن هذا الهدف لن يتحقق إلا من

خلال نظام إسلامي. رفض جناح هذه الحجة، وازدرى فكرة تأسيس دولة ثيوقراطية؛ لكنه كان في صحة رديئة جداً، وكان يعاني من مرض عضال أودى بحياته في كراتشي بتاريخ 11سبتمبر 1948م. ودُفنت جثته التي كانت تزن 32 كيلوغراماً فقط في اليوم التالي، ولم يمض وقت طويل حتى دُفنت مبادئه أيضاً.

أكد "قرار أهداف الدستور" الذي طرحه وريثه رئيس الوزراء لياقت علي خان في 7 مارس 1949م أن سيادة باكستان وسلطتها العليا تعود إلى الله؛ إلاأن رؤية جناح هيمنت على القرار الذي اتخذ بعد خمسة أيام من النقاش. فقد نص على الديموقراطية واستقلال القضاء والحرية والمساواة وحقوق الأقليات، لكن لم تطبق أي من هذه المبادئ.

في 16 أكتوبر 1951م اغتيل لياقت علي خان على يد أفغاني اسمه سعيد خان الذي اكتُشف أنه كان عميلاً سابقاً للاستخبارات البريطانية، وفجر ذلك صراعاً على السلطة بين حفنة من المدنيين الذين ينبغي ألا نبجّلهم بتسميتهم زعماء.

عُين خواجه ناظم الدين، الذي كان قد أصبح حاكماً عاماً بعد وفاة جناح، رئيساً للوزراء، وارتقى وزير المالية غلام محمد الذي كان بيروقراطياً بنجابياً ليصبح رئيساً للدولة. وفي أبريل 1953 أقال الرئيس غلام محمد فجأة ومن دون أي إيضاح، حكومة ناظم الدين بعد أن حاز ناظم الأكثرية في المجلس، فعُين بنغالي آخر هو محمد علي بوغرا رئيساً للوزراء؛ إما لإرضاء البنغاليين أو الأمريكان أو الاثنين معاً. وحاول بوغرا تغيير القانون الذي منح الحاكم العام صلاحيات مطلقة لإقالة الحكومة؛ فرد غلام محمد على هذه المحاولة بإعلان حالة الطوارئ في 24 اكتوبر 1954م، وحلّ مجلس الوزراء ومجلس وضع الدستور. لكن بوغرا تنازل وقبل بحل مجلس وضع الدستور فأبقي وشُكلت أول

حكومة من الكفاءات، وهو المسمى الذي تستخدمه باكستان لوصف الحكومات الاستبدادية.

في أغسطس 1955م تولى وزير طموح، وهو إسكندر ميرزا، منصب الحاكم العام بدعم من الجيش، وعُين تشودري محمد علي الذي كان موظفاً مدنياً في منصب رئيس الوزراء. وفي النهاية أقر مشروع الدستور في 29 فبراير 1956م لتصبح باكستان بموجبه جمهورية إسلامية، وأعيدت تسمية الحاكم العام ليصبح رئيساً. وكانت باكستان الشرقية غير راضية؛ لأن الدستور منح الجناحين الشرقي والغربي مقاعد متساوية على الرغم من الأكثرية العددية للبنغاليين في البلاد. لم يكن كل المسلمين متساوين في الوطن الإسلامي.

تعاقب ثلاثة آخرون على منصب رئيس الوزراء من بينهم حسين سهراوردي الذي بدا جاداً حيال إجراء الانتخابات؛ لكن ميرزا بدد الآمال في 7 أكتوبر 1958م بإعلان الأحكام العرفية وتعليق الدستور. وبعد أيام من ذلك بدد الجيش آمال ميرزا نفسه، واستولى قائد الجيش محمد أيوب خان على السلطة بوصفه رئيساً منفذاً للأحكام العرفية، وبقي في هذا المنصب إلى حين أجبرته المظاهرات الشعبية على تسليم السلطة إلى الجنرال يحيى خان في مارس 1969م. وكان يحيى خان الزعيم الباكستاني الوحيد منذ 1947م الذي ضمن إجراء انتخابات حرة ونزيهة. ولو لم يفعل ذلك لربما كان أحسن؛ إذ إن الانتخابات أدت إلى الحرب وتقسيم آخر. وظهرت بنجلاديش إلى حيز الوجود لأن باكستان الغربية لم تعامل البنغاليين كمواطنين متساوين.

اتفقت باكستان على أمر واحد خلال مرحلة الاضطرابات السياسية التي مرت بها البلاد على مدى أكثر من خمسة عقود؛ وكان ذلك الأمر هو الجهاد ضد الهند من أجل كشمير. إن استراتيجية هذا الجهاد الممول والمنظم من أجهزة المخابرات قد بدأت خلال أسابيع من الاستقلال، وأصبحت نمطاً بقبول أوسع

بكثير. وشُنت حرب كشمير في وقت لم يكن هناك نزاع بين الهند وباكستان؛ إذ إن كشمير لم تكن جزءاً من الهند وقتذاك.

غادر البريطانيون في 15 أغسطس 1947م؛ لكن الهند احتفظت بالحاكم البريطاني الأخير اللورد مونتباتن بصفته أول حاكم عام لها، ورفض جناح اقتراحاً مماثلاً؛ إلا أن كثيراً من كبار المسؤولين والضباط البريطانيين قد بقوا في خدمة باكستان. وكان أحدهم السير جورج كننغهام، حاكم الإقليم الحدودي الشمالي الغربي، وهو إقليم قبلي يمتد عبر كشمير وأفغانستان. ذكر السير جورج في دفتر يومياته بتاريخ 17 أكتوبر 1947م ما يلي (نقلاً عن Brian Cloughley, A History of the Pakistan Army, Oxford University Press, Karachi, 1999):

> قال لي أحد الموظفين إن هناك حركة حقيقية في هزارا [منطقة في شمال وسط باكستان] لغرض الجهاد في كشمير. إنهم يجمعون البنادق ويعدون خطة محددة للحملة العسكرية، تهدف، على ما يبدو، للاستيلاء على الجزء الذي يقع فوق دوميل من وادي نهر جيلوم الرئيسي [في غرب كشمير]. وقد حذرتُ كل من استطعت بمن في ذلك الآفريديون والموهماند من مغبة المشاركة في أي عمل كهذا، إذا ما أدى ذلك إلى الحرب بين الهند وباكستان. ولستُ متأكداً ما إذا كان بالإمكان اتخاذ ذلك ذريعة للحرب في الوقت الحالي؛ إذ إن كشمير لم تنضم إلى أي من الدولتين.

وهنا يكمن جوهر المشكلة؛ لقد كانت كشمير ذات الغالبية المسلمة تحت حكم مهراجا هندوسي، هاري سينغ، يحلم بالاستقلال. ولم يكن ذلك الوجه غير العادي الوحيد للمشكلة. فزعيم المسلمين الأكثر شعبية في كشمير وهو الشيخ محمد عبد الله كان قد قاوم الاتجاه السائد، وعارض "الرابطة الإسلامية" التي قادت المطالبة بتأسيس باكستان. وقد قال الشيخ عبد الله في خطابه الأول أمام الجمهور بعد استقلال الهند والذي ألقاه في سريناغار يوم 4 أكتوبر 1947م: "إنني لم أؤمن بشعار باكستان قط، وظل إيماني الراسخ بأن هذا الشعار سيجلب

البؤس والشقاء". (لم تجر انتخابات في كشمير في 1945/1946م؛ لأنها كانت إمارة غير منضمة إلى الحكم البريطاني في الهند). وكان حاكم كشمير الهندوسي قد وقع اتفاقية مع الهند وباكستان تقضي بتجميد وضعها الراهن إلى حين التوصّل إلى قرار نهائي.

ومع ذلك فإن باكستان تدخلت في كشمير، ولم تكن استعدادات الجهاد سراً كما انكشف لاحقاً؛ يقول إتش. في. هودسون في كتابه (The Great Divide, Hutchinson, 1969): إن القائد العام للجيش الباكستاني الجنرال السير فرانك ميسيرفي قد نصح لياقت علي خان بعدم الإقدام على مثل هذه المغامرة. وكانت لدى جواهرلال نهرو فكرة واضحة جداً عما يدور. فقد كتب إلى وزير داخليته سردار باتيل بتاريخ 27 سبتمبر 1947م قائلاً: "إن كوادر الرابطة الإسلامية في البنجاب والإقليم الحدودي الشمالي الغربي يستعدون للدخول إلى كشمير بأعداد كبيرة، وإن قرب حلول الشتاء سيقطع كشمير عن سائر الهند. أظن أن استراتيجية باكستان هي التسلل إلى كشمير الآن، وتنفيذ عملية كبيرة عندما تصبح كشمير معزولة تقريباً بسبب الشتاء المقبل". وعلى الرغم من قلق نهرو فإنه لم يكن باستطاعة حكومته أن تفعل شيئاً من دون موافقة هاري سينغ.

انتهت حالة التردد عندما أغار نحو ستة آلاف من المسلحين من باكستان في ليلة 21 اكتوبر 1947م متوجهين إلى سريناغار، ولم يطلع هاري سينغ على الأزمة إلا في 24 أكتوبر عندما انطفأت الأنوار في قصره بسبب سقوط محطة توليد الكهرباء الواقعة في ماهورا. وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي اجتمعت لجنة دفاع الحكومة الهندية برئاسة الحاكم العام مونتباتن. لقد كان نهرو قلقاً حيال كشمير، وكان مونتباتن مضطرباً على حد سواء بشأن مصير البريطانيين المقيمين في وادي كشمير، والبالغ عددهم نحو ثلاثمائة. وعليه فقد صدرت الأوامر باتخاذ الاستعدادات لإرسال القوات الهندية جواً إلى سريناغار

بسرعة، وأُوفِدَ مبعوث إلى هاري سينغ لتوقيع معاهدة انضمام، إذ لم يكن بإمكان القوات الهندية التدخل من دون ذلك.

كان من المتعذر أن تصل القوات الهندية في الوقت المناسب لإنقاذ سريناغار، لكن المساعدة جاءت من الغزاة أنفسهم بشكل غير متوقع. فقد انشغل الغزاة الذين أرسلوا للجهاد بالاغتصاب والنهب، وكانت الحادثة الأكثر ترويعاً اغتصاب سبع راهبات مسيحيات في مستشفى سانت جوزف. وعندما هبطت الكتيبة الأولى للقوات الهندية في المطار يوم الاثنين 27 أكتوبر كان الغزاة خارج مدينة سريناغار حتى ذلك الوقت. واليوم قد اكتسب النزاع بُعداً نووياً.

الحكومات غير الديموقراطية التي تبحث عن الشرعية تأخذ المساعدة حيث تجدها، ولم يحكم باكستان مدة طويلة إلا رجلان كان كلاهما جنرالاً استولى على السلطة بانقلاب. الأول هو المارشال أيوب خان الذي كان يدمن الخمر، ولكنه لم يستطع أن يتجنب الإغراء بإرسال قوات غير نظامية إلى كشمير في 1965م على النمط المتبع نفسه في 1947م، وقد باء جهاده بالإخفاق كذلك. أما الجنرال الثاني فهو ضياء الحق الذي أطاح بأول رئيس وزراء باكستاني منتخب، وهو ذو الفقار علي بوتو ثم قتله، وقد حكم باكستان مدة 11 عاماً من يوليو 1977م إلى أغسطس 1988م. وإذا كانت وسائله مجردة من المبادئ الخلقية فإن فكرته الرئيسية كانت هي التقوى، وخلال سنوات حكمه تحركت باكستان نحو الثيوقراطية، وأصبح أسامة بن لادن مجاهداً للإسلام، وأقام الصداقة مع الملا عمر.

رغب ضياء الحق في تغيير التاريخ الذي تحتفل فيه باكستان باستقلالها كل عام وهو 14 أغسطس؛ إذ كان يرى أن هذا الحدث العظيم ينبغي أن يؤرخ بالتقويم الإسلامي، أي في 27 رمضان، لكن اقتراحه أهمل. وقد أشار إلى فكره بوضوح في خطابه الأول المتلفز إلى الشعب قائلاً إن باكستان أنشئت باسم

الإسـلام ولـن تبقى إلا إذا تمسكت بالإسلام. ورأى أن تطبيق "النظام الإسلامي" ضروري.

كـان ضـياء الحـق صـادقاً في تقـواه، وقد ولد في 12 أغسطس 1924م في أسـرة متواضـعة بمدينة جلندر الهندية، ولم يتخلّ أبداً عن القيم التي غرسها فيه أبـواه، رغـم دراسته في كلية سانت ستيفن بدلهي التي تعد مؤسسة بارزة لتعليم أبـناء الـوجهاء والأعـيان. ولم تـتغير آراؤه حـتى بعدما أصبح ضابطاً في الجيش الـبريطاني الهـندي، مـع أن الثكـنات تـشتهر بقـدرتها على جعل المرء إنجليزي المـزاج والـتوجُّه. وقـد ادعـى لاحقاً بأن ذاكرته التكوينية تحتفظ بمنظر أمّه وهي تكـافح لعـبور الحـدود إلى باكـستان بعـد التقـسيم، حاملـة معها كل ممتلكاتها الدنيوية.

عـندما بقـي ضـياء الحق في السلطة مدة أطول مما كان يتوقع، علق بعض زملائـه الـذين تحـرروا مـن سـحره أنه استغلّ الدين لمآربه. وكان هناك كثير من المـتملقين الـذين أصـروا علـى أنـه رجل قضاء وقدر. وإذا عدّ ضياء الحق نفسه رجل قضاء وقدر فربما لا نستطيع أن نلومه على ذلك.

في أغـسطس 1950م، بعـد زواجـه مـن ابنة عمه شفيقة، عين ضياء الحق ضـابطاً في سـلاح الفرسـان؛ فتـرك انطـباعاً قـوياً في نفوس الضباط الأعلى منه مـرتبة. وفي عـام 1969م أرسـل إلى الأردن، وبعـد عودته من الأردن عين قائداً للفـرقة المدرعـة الأولى. وفي 1976م كان بوتو يبحث عن جنرال يستطيع أن يثق فـيه؛ فوقـع اختياره على ضياء الحق الصالح التقي، وعينه قائداً للجيش متجاهلاً عـدداً مـن الجنـرالات الأكفـاء الآخرين. ويعد ذلك من الأمور التي تؤكد إيمان المـرء بالقـضاء والقـدر. وفي يولـيو 1977م استولى ضياء الحق على السلطة بعد التشاور مع السفير الأمريكي، وذلك عندما أساء بوتو إدارة انتخابات كان قد أمر بإجرائها.

كـان أول مـا وعـد بـه ضياء الحق إجراء انتخابات "حرة ونزيهة" بأسرع ما يمكـن، وكـان ذلك وعده الأخير أيضاً قبل وفاته في حادثة تحطم طائرة يكتنفها الغمـوض في أغـسطس 1988م. وهكـذا لم يـتمكن الـرجل الـذي دبر الانقلاب لإجراء انتخابات حرة من تنظيمها.

أعـدم ضـياء الحق بوتو بطريقة لايمكن وصفها إلا بالاغتيال القضائي. فقد تلاعب بالعملية القضائية ليعدم بوتو في الساعات الأولى من يوم 4 أبريل 1979م. وأصـبح ضـياء الحـق منبوذاً لدى الغرب والدول العربية التي كانت تكنّ احتراماً صـادقاً لـبوتو، وكانت تدعم بحماسةٍ خطته السرية لبناء ما سُمّي "قنبلة إسلامية" (باكـستان هـي الدولـة الإسـلامية الوحيدة التي تمتلك أسلحة نووية)، وأوقفت المساعدات الاقتصادية الأمريكية؛ غير أن صديق ضياء الحق وهو القضاء والقدر كان حليفه.

في 1979م خُلـع شـاه إيـران من عرشه بقوة الشارع الذي كان يقوده آية الله الخمـيني، مـا حـرم أمـريكا مـن أفضل أصدقائها في المنطقة. وبعد 23 يوماً من إعـدام بوتـو استولى على السلطة في كابول حزب الشعب الديموقراطي الأفغاني الموالي للاتحاد السوفييتي برئاسة نور محمد تراكي، وأدى ذلك إلى احتجاجات واسـعة النطاق أحدثت انقساماً في القيادة. وقُتل تراكي يوم 14 سبتمبر على أيدي أنـصار رئيس وزرائه حفيظ الله أمين. وفي مساء 27 ديسمبر انقطعت الكهرباء عن كابـول نتـيجة لعمـل تخـريبي، وبعد الساعة السابعة زحف نحو 5000 من جنود الاتحاد السوفييتي إلى القصر. وكان مرشحهم للحكم بابراك كارمل خارج كابول في تلـك اللـيلة. فقـد كان في دوشنبه عاصمة طاجكستان المجاورة بانتظار تلقي مكالمـة. وفي الـساعة الثالـثة قـبل الفجـر أعلن قيام حكومة جديدة، وكان أول قرارات كارمل استدعاء القوات السوفييتية التي كانت في كابول فعلاً.

وفي 31 ديـسمبر أقـرت اللجـنة المركـزية للحـزب الـشيوعي في الاتحـاد

السوفييتي وثيقة من إعداد أعضاء الحزب يوري أندروبوف، وأندريه جروميكو، وديمتري أوستينوف، وبوريس. بونوماريف، جاء فيها أن "أميناً" قد عوقب لبثه إشاعات مختلقة تشوه سمعة الاتحاد السوفييتي، وإقامته روابط سرية مع القائم بأعمال السفارة الأمريكية في كابول. وأعلنت الوثيقة انتصار الاتحاد السوفييتي في مغامرته في أفغانستان، وأن الجماهير الأفغانية أعربت عن ابتهاجها بإطاحة "أمين" الرديء السمعة. ومنذ تلك اللحظة أصبحت باكستان دولة تقف في الصف الأول في الحرب على الشيوعية.

كان ضياء الحق يمتلك مميزات الانتهازي الناجح. فقد رفض بازدراء عرض جيمي كارتر بتقديم معونة مالية بمبلغ 400 مليون دولار كونها زهيدة، وكان مصيباً في رأيه. فقد قدم الرئيس رونالد ريغان معونات بقيمة 2,3 مليار دولار على مدى ست سنوات، هذا علاوة على ما أغدقته الاستخبارات المركزية الأمريكية لتمويل الحرب التي أديرت من بيشاور. استغل ضياء الحق التغاضي الأمريكي لدفع البرنامج النووي الباكستاني؛ فقد ذكر تقرير فريق كارنيجي حول الحد من الانتشار النووي في جنوب آسيا الذي صدر في يوليو 1986م أن باكستان تملك مخزوناً احتياطياً كافياً لصنع ما بين قنبلة واحدة وأربع قنابل سنوياً، بينما تمتلك الهند القدرة على صنع ما بين 15- 30 قنبلة كل عام.

استخدم ضياء الحق سلطته المطلقة للدفع قدماً "بأسْلمة" باكستان، وقد طلب في أيامه الأوائل المساعدة من الجماعة الإسلامية، وهي منظمة دينية سياسية أسسها مولانا أبو الأعلى المودودي أحد أكثر المفكرين المسلمين نفوذاً وتأثيراً في القرن الماضي. ولعل الجماعة الإسلامية قد ضُللت لتظن أن ضياء الحق سيشاطرها السلطة. لم يكن لدى ضياء نية في ذلك: إذ كان عليه أن يتقاسم السلطة مع زملائه من الجنرالات، فأسند الوظائف الرئيسية إلى الجنرالات الذين كانوا يشاركونه آراءه. وكان أقوى المناصب بعد منصبه رئاسة جهاز الاستخبارات العسكرية الذي أنشأه بوتو.

أجبر ضياء الحق الأمريكان على تقديم تنازل في غاية من الأهمية؛ وهو أن جميع الأسلحة والتدريب والأموال المخصصة للحرب ضد الاتحاد السوفيتي ستقدم عن طريق الجيش الباكستاني فحسب، وأن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لن تفعل شيئاً بطريقة مستقلة. وكان لدى ضياء الحق وكالته الخاصة، جهاز الاستخبارات العسكرية.

بعد الغزو السوفيتي مباشرة عين ضياء الحق الفريق أختر عبد الرحمن خان رئيساً جديداً لجهاز الاستخبارات العسكرية، وكان الفريق أختر ضابطاً من طراز ضياء الحق نفسه، "تقياً ومحترفاً" ومزيناً بثلاثة صفوف من الأوسمة. ومُنح جهاز الاستخبارات العسكرية السيطرة على جميع الإمدادات العسكرية المقدمة إلى المجاهدين. وجاءت الأسلحة من أمريكا ومصر والسعودية وبريطانيا وفرنسا. وكان جهاز الاستخبارات العسكرية صاحب القرار في التصرف بهذه الأسلحة. كان الجنرال أختر في طائرة ضياء الحق يوم تحطمت، وكان قد رقي آنذاك إلى منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة، وهكذا مات المعلم ووريثه معاً.

أكمل ضياء الحق هذه العملية بمحاولات لسن قوانين لتطبيق الشريعة الإسلامية، إلا أن الحصول على التأييد الشعبي لتلك القوانين قوبل بصعوبات من ثلاثة جوانب؛ أولاً: ظهور خلافات قوية بين السنة والشيعة (مثلاً حول قوانين الزواج؛ فالشيعة لديهم نظام "المتعة" أو الزواج المؤقت الذي يمكن أن يكون ملائماً جداً للرجال). ثانياً: ظهور مقاومة شعبية لتطبيق الحدود الشرعية مثل الجلد، التي أصر عليها ضياء الحق. ثالثاً: الفساد وضعف فعالية النظام؛ فتنفيذ قانون الزكاة مثلاً أدى إلى شكاوى حول إدارة هذه الأموال وصرفها.

لكن ضياء الحق لم يبال بالمعارضة، وأقر قانوناً يحرّم الأكل والشرب في العلن خلال رمضان، ويقضي بمعاقبة المخالف بغرامة قدرها 500 روبية أو السجن مدة شهرين. لقد اهتم رجال الدين "بالطلبنة" أكثر من اهتمامهم بالمجتمع

إسلامياً؛ فطالبوا بإصدار مرسوم في إطار الأحكام العرفية يلزم الرجال بإعفاء اللحية والنساء بارتداء الحجاب، (وهو ما طبقته طالبان في أفغانستان لاحقاً). ورغبوا في إنشاء شرطة دينية تضمن محافظة الناس على الصلوات الخمس، كما شرعوا في بحث أمور مثل جواز التبرع بالدم في الإسلام من عدمه. غير أن ضياء الحق لم يقلق ولم ينزعج. فالبرنامج الذي أطلقه في فبراير 1979م أصبح قوياً في مايو 1981م، عندما أُنشئت المحكمة الشرعية الفدرالية وعُين العلماء قضاة لها. وفي أغسطس 1982م أنشئت هيئة استئناف تابعة للمحكمة العليا الفدرالية حول القانون الإسلامي، وعين ثلاثة من العلماء أعضاء في الهيئة.

أصبحت نزعة رجال الدين إلى الشوفينية الوحشية ظاهرة للعيان، وكان من المظاهر الرهيبة لذلك أن خادمة مكفوفة اسمها "صفية بيبي" حكم عليها بالجلد خمس عشرة جلدة؛ لأنها حملت بعد التعرض للاغتصاب عدة مرات، ولم يدن المغتصبون لانعدام الأدلة. وقد وصل نفوذ رجال الدين وانتشار المعاهد الدينية إلى مستويات غير مسبوقة في عهد ضياء الحق؛ إلا أن ذلك لم يكن كافياً في نظر رجال الدين. وربما دهش ضياء الحق بنفسه مما بدأ فيه. وأطلقت حملة إشاعات مفادها أن ضياء الحق ليس مسلماً صادقاً وصحيح العقيدة؛ وإنما هو من أتباع فرقة "القاديانية" التي تنكر أن محمداً خاتم النبيين. وقد اضطُر ضياء الحق إلى تفنيد هذه الإشاعة علناً؛ إلا أنه لم يكن هناك رجوع تام.

توضح سرعة عودة الجيش إلى ثكناته بعد وفاة ضياء الحق وقيام حكومة مدنية من خلال عملية ديموقراطية أن البلاد لم تكن مقتنعة بتوجهات ضياء الحق الدينية وديكتاتوريته. لكن مرحلة التلقين قد ولدت مجموعة كبيرة من الأصوليين الملتزمين الذين لم يكن من الممكن إبعادهم عن الحياة العامة للبلاد، كما لم يكن بإمكان أي حكومة مستقبلية استرداد المساحة التشريعية التي احتلها رجال الدين برعاية ضياء الحق. وبلغ الأمر إلى درجة أن بعض المتشددين جملوا

السلاح ضد خلف ضياء الحق بي نظير بوتو الليبرالية التي تلقت دراستها في جامعتي أكسفورد وهارفارد. ففي نوفمبر 1994م أعلنت جماعة تسمى حركة تطبيق الشريعة المحمدية الجهاد على بي نظير من قاعدتها في مالأكاند في الإقليم الحدودي الشمالي الغربي، وكان أعضاء هذه الجماعة يرتدون عمائم سوداء، (وهو اللون المفضل لعمائم الملا عمر أيضاً). وفي العام نفسه كشف عن مؤامرة في الجيش للإطاحة ببي نظير بوتو، وإعلان باكستان دولة إسلامية سنية. وكان الضباط الثلاثة الكبار المتورطون في المؤامرة اللواء ظهير الإسلام عباسي، والعميد مستنصر بالله، والكولونيل عنايت الله خان. وقد خطط هؤلاء الضباط جنباً إلى جنب مع بعض الضباط الصغار لاقتحام اجتماع لقيادات الجيش في 30 سبتمبر.

مارس ضياء الحق الازداوجية مع أمريكا بطريقة ناجحة. فمن جهة استخدم الدعم الأمريكي الذي كان يحتاج إليه للبقاء في الداخل والقتال في الخارج، ومن جهة أخرى شجع المتشددين الذين سرعان ما بدأوا يجابهون الغرب. وظهرت مؤشرات ذلك في 21 نوفمبر 1980م عندما أشعل الحريق في السفارة الأمريكية، بعد انتشار إشاعات مفادها أن القوات الأمريكية المتمركزة في السعودية قد اعتدت على الكعبة المشرفة في مكة. ولم يستطع ضياء الحق إخفاء سروره بذلك إلا بشق النفس. وبينما استخدمت أمريكا الإسلام ضد الشيوعية زرع ضياء الحق في البلاد بذور حرب ربما لم يقدّر عواقبها تقديراً تاماً.

لم تنتبه أمريكا إلى خطورة الأصوليين في باكستان إلا بعد تفجير مركز التجارة العالمي في 26 فبراير 1993م، وفي 19 نوفمبر 1994م هاجم انتحاري من تنظيم "الجهاد" السفارة المصرية في إسلام أباد، ما أسفر عن مقتل 18 شخصاً وإصابة 16 آخرين بجروح.

وكان من النتائج المشؤومة لسياسة ضياء الحق العنف ضد المسيحيين في

باكستان. لم يكن المسيحيون جزءاً من سياسة التقسيم، وكانوا يعيشون بحرية بعد 1947م؛ لكن صدى أحداث الماضي المرير بدأ يتكرر في السياسة المحلية بعد أن صرف المتشددون الإسلاميون اهتمامهم إلى الغرب المسيحي، وباتت قضية المسيحيين سلامت ومنظور ورحمت مسيح الذين اتهموا بالإساءة إلى الرسول محط اهتمام الرأي العام، لأن عقوبة مثل هذه الإساءة في باكستان هي الإعدام. وقد قتل الأصوليون منظوراً عند مغادرته المحكمة العليا في لاهور في 5 أبريل 1994م. وفي 15 مايو من العام نفسه تظاهر رجال الدين خارج المحكمة العليا في لاهور بينما كانت المحكمة تنظر في طلب مراجعة حكم الإعدام الصادر بحق سلامت ورحمت مسيح. نادت الشعارات التي رُفعت خارج المحكمة باسم جماعة لم تكن معروفة في باكستان حتى ذلك الوقت؛ وهي "طالبان" التي تعني الطلبة أو طلبة الدين. لقد حث الملالي "طالبان" على حماية الإسلام في باكستان الذي يتعرض الآن لإساءات المسيحيين؛ طالبين منهم أن يسيطروا على إسلام أباد بعد كابول.

كان أسامة بن لادن شاباً في الثانية والعشرين من عمره عندما غزا الاتحاد السوفييتي أفغانستان، وكان والده محمد قد هاجر من وطنه اليمن، وحصل على وظيفته الأولى في شركة أرامكو البترولية العملاقة بوصفه بنّاء. وعندما توفي محمد بن لادن في حادثة تحطم طائرة في 1966م، كان يملك أكبر شركة مقاولات خاصة في العالم، وربما أكبر عائلة في العالم كذلك. فقد أنجب 52 ابناً وبنتاً، وقدر لأحدهم أن ينال شهرة عالمية.

قدِم أسامة إلى باكستان في 1980م وأنشأ مكتباً له في بيشاور. نشأ أسامة تحت رعاية الجنرال أختر، وكانت المهمة الموكلة إليه إنشاء قوة هجومية إسلامية متنقلة تستطيع أن تضرب هدفاً في أي مكان.

كانت المنظمات الدينية مثل الجماعة الإسلامية وجهاز الاستخبارات

العسكرية تتطلع بالفعل إلى شن جهاد يحرر جميع الشعوب المسلمة الخاضعة للسيطرة السوفييتية في آسيا الوسطى بعد الانتصار في أفغانستان. وقد خلق ضياء الحق ما سمّاه برويز مشرف "دولة داخل دولة"؛ أي مجموعة من المؤسسات والأفراد المكلفين بتنفيذ أجندة خفية في كل من السياسة الدولية والمحلية. واستخدم أسامة أمواله الخاصة والدعم المؤسسي لإنشاء ما كان في الواقع جيشاً غير حكومي ينتمي معظم أعضائه إلى جنسيات عربية، إلى جانب مسلمين من جميع أنحاء العالم. لقد أثبت أسامة كفاءته العسكرية في أثناء مشاركته في القتال بين الفينة والفينة؛ إلا أن مساهمته الرئيسية كانت في مجال التنظيم والقيادة على الرغم من صغر سنه في ذلك الوقت. وفي أثناء إقامته في كراتشي كان أسامة يعمل من مسجد "بنوري"، وكان إمام ذلك المسجد الملا عمر.

خرج أسامة من التجربة الأفغانية بفكرة راسخة كان يرددها لكل من أصغى إليه؛ فحواها أن الجهاد يمكن أن يهزم أكبر الإمبراطوريات في العالم، حتى ولو كان عدد المجاهدين قليلاً وقدراتهم محدودة. وإذا استطاع الجهاد قهر الاتحاد السوفييتي؛ فإن الروح نفسها يمكن أن تحيي قوة المسلمين، وتجابه العدو الأقوى للإسلام المتمثل في أمريكا التي اغتصبت ثروة النفط التي وهبها الله للمسلمين. وعندما عاد أسامة إلى وطنه السعودية استقبله الشعب والحكومة استقبال الأبطال.

في الثاني من أغسطس 1990م احتل صدام حسين الكويت مقتنعاً بأنه يستطيع أن يرتكب هذه الوقاحة من غير أن يتعرض لعواقب وخيمة، وذلك لأن العرب دعموا حربه على إيران علناً، ودعمته أمريكا بتحفظ. وقد دعمه السعوديون بالمال، بينما شعرت أمريكا بالراحة عندما رأت انصراف طاقات آية الله الخميني من "الشيطان الأكبر" إلى صراع محلي. غير أن العالم لم يذعن لاحتلال صدام حسين للكويت ونهض ضده. عرض أسامة على حكومته بأنه

يستطيع حشد قوة من عشرة آلاف مجاهد على الأقل لمواجهة صدام حسين، مدعياً بأن هذه القوة ستكون كافية لإلحاق الهزيمة بالحرس الجمهوري العراقي، واحتج بأن الدفاع عن وطنه ينبغي أن يتولاه جيش إسلامي.

انتظر أسامة عدة أيام ظناً منه بأن عرضه تحت الدراسة؛ إلا أنه سمع في 8 أغسطس الإعلان المتضمن أن القوات الأمريكية ستحمي الثروة البترولية في السعودية، وأعطي أسامة تعهداً غير معلن بأن القوات الأمريكية ستغادر السعودية بعد تحرير الكويت. وعندما لم تغادر تلك القوات عبر أسامة عن استيائه علناً، ووجه اتهامات إلى الحكومة السعودية. أمر أسامة بمغادرة السعودية فغادرها، وتوقف أولاً في باكستان في طريقه إلى مأواه القديم أفغانستان، وقد آوى الدكتور حسن الترابي زعيم الجبهة الوطنية الإسلامية في السودان أسامة وحاشيته المؤلفة من مجاهدي أفغانستان في الخرطوم في 1991م، وأصبحت "القاعدة" أداة سياسة أسامة، بينما أسهمت فطنته التجارية في زيادة ثروته الشخصية خلال السنين التي قضاها في السودان.

بدأ أسامة ينظر إلى نفسه على أنه خليفة أو إمام جديد للمسلمين مهمته الحفاظ على المصالح الإسلامية في جميع أنحاء العالم، وكان حلفاؤه في هذه المهمة الجماعات الإسلامية، مثل الجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد في مصر التي كانت قد تآمرت لاغتيال أنور السادات. وتوسعت هذه الشبكة، واكتشفت الحكومات في الجزائر ومصر وتونس واليمن أن له يداً في مشكلاتها، وبدأ العالم يهتز بتفجيرات الإرهاب في أماكن لم يخطر على بال أنها ستكون هدفاً للتفجيرات.

كان الحادث الأكثر إثارة للمفاجأة الهجوم الذي وقع على مدخل المقر الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية (سي. آي. إيه) في لانجلي بفرجينيا. ففي يناير 1993م فتح رجل اسمه مير أيمال كامسي النار على اثنين من

موظفـي الـسي. آي. إيـه، وقـتلهما خارج البوابة الرئيسية لمقرها قبل أن يفر إلى باكـستان. وقد قُبض عليه ونقل إلى الولايات المتحدة في 17 يونيو 1995م. ووقع الهجـوم الأول علـى مركز التجارة العالمي في فبراير 1993م، فبحثت أمريكا عن الجناة في العراق؛ لأن هاجس صدام حسين كان يستحوذ عليها في ذلك الوقت، لكـن بحـثها كـان في غـير محلـه. فالعقل المدبر لذلك الهجوم كان باكستانياً من إقليم بلوشستان، وكان من المجاهدين المحنكين المنتمين إلى الجماعات السرية الخارجـة علـى القانـون في باكـستان. كـان اسمه رمزي أحمد يوسف، وقد قال لمعتقلـيه إنـه أراد أن يقـتل آلافـاً مـن الأمـريكيين من خلال إسقاط برجي مركز التجارة العالمي أحدهما على الآخر مثل أحجار لعبة الدومينو.

قبـيل ظهـر يـوم الجمعـة 26 مـن فبراير حطم انفجار قنبلة ثلاثة طوابق في مـرأب مركـز التجارة العالمي، وتسبب في اشتعال حريق، وأدى ذلك إلى مقتل سـتة وإصـابة نحـو سـبعمئة إنسان. وكان المخطّط يقضي بإحداث انفجار يُسقط أحـد الـبرجين علـى الآخـر بفعـل انتشار غاز السيانيد؛ إلا أن البرج لم يسقط، واحتـرق غـاز السيانيد في حرارة الانفجار. ووقع أول اعتقال في 5 مارس 1993م حـين قبضت الشرطة على مواطن أردني اسمه محمد صالح (26 عاماً) كان يعمل في شركة لتأجير الشاحنات؛ وذلك لأن شاحنة مقفلة عثر عليها في الحطام كانت من ممتلكات تلك الشركة. وكان ذلك بداية عملية بحث وتعقب استمرت عامين. وفي 20 فبراير 1995م اعتقلت باكستان رمزي يوسف البالغ من العمر 27 عاماً في منزل يملكه أسامة بن لادن، وسلمته إلى السلطات الأمريكية.

وقـد أديـن رجـل الـديـن المصـري الضريـر الشيـخ عمر عبد الرحمن في هـذه القـضية أيـضاً، إلا أن إدانـته كانـت بجـريمة التآمـر فقـط، وليس بجريمة المـشاركة في التنفـيذ الفعلي. وقَبل مكتب التحقيقات الفدرالي الأمريكي (FBI) بـأن عملـية التفجير لم تتلق دعماً أو رعاية من أي دولة، وكان ذلك مصدر يأس

لأولئك الذين رغبوا في تحريض الولايات المتحدة على شن عملية عسكرية ضد العراق.

ومـن المفارقات أن رمزي يوسف كان قد توجه من قاعدته في باكستان إلى الـولايات المـتحدة في سـبتمبر 1992م بجـواز سفر عراقي مزيف، وذلك لطلب اللجـوء الـسياسي هناك بوصفه معارضاً عراقياً، وكان ذلك خدعة ذكية إن كانت هـناك خدعـة. وبعـد الـتفجير ركب بهدوءٍ طائرة بمطار جون كنيدي للعودة إلى باكـستان، واسـتخدم هـذه المـرة جـواز سـفر مزيفاً آخر؛ لكنه حصل على هذا الجـواز مـن القنـصلية الباكـستانية في نـيويورك بطـريقة قانونية، وذلك بممارسة خدعـة ذكـية أخـرى. في 9 نوفمـبر 1992م أبلـغ رمزي يوسف شرطة نيوجرسي بفقده جواز سفره مدعياً بأن اسمه عبد الباسط محمود عبد الكريم، وأنه ولد في باكـستان، ونشأ في الكويت، ثم ذهب إلى القنصلية الباكستانية حاملاً معه صورة هـذا "الجـواز المفقـود"؛ فأصدرت له القنصلية وثيقة مؤقتة على أن يسوى الأمر عند عودته إلى الوطن، وعاد إلى الوطن ولكن بعد تفجير مركز التجارة العالمي. ومكـث في باكستان إلى حين أن ألقي القبض عليه في منزل لأسامة بن لادن كما أسلفنا.

تـوجه أسـامة بـن لادن أيضاً إلى الشرق للحصول على ملجأ، وذلك لأنه بحلـول عـام 1996م أصـبح من المتعذر على السودان مقاومة الضغوط الإقليمية والأمـريكية، فطلـب مـن أسـامة مغـادرة الـبلاد. وهـذه المرة وجد له ملجأ في أفغانـستان بفـضل حكـومة تـولت السلطة في كابول بمساعدة إسلام آباد، وكان صـديقه القـديم مـنذ كـان في كراتشي، الملا عمر، رأس السلطة العليا في تلك الحكومة التي عرفت بحكومة طالبان.

ولـد المـلا محمـد عمر أخوند زاده في منطقة مايواند بقندهار حيث يزرع الفلاحـون الأفيون لكسب الرزق، ويصفه من لقيه بأنه رجل طويل ونحيل وأنيق

إلى حد ما، يتحدث بصوت لا يكاد يُسمع وله لحية عريضة وعمامة سوداء. وكان قد جُرح ثلاث مرات في المعارك التي قادت "طالبان" إلى السلطة، ويفتخر بتلك الجروح.

في عام 1994م كانت بي نظير بوتو على رأس الحكم؛ إلا أنها لم تكن تتحكم في "الدولة الموازية" التي واصلت نهجها الخاص، والتي كانت تعدها شيئاً بغيضاً. ومع ذلك دعمت "طالبان" لأنها بعدائها للهند "الكافرة" كانت تخدم إحدى أهم مصالح السياسة الخارجية لباكستان. كما أن طالبان كانت في ظاهر الأمر الحل الوحيد للنزاعات الفصائلية العنيفة التي جعلت أفغانستان في حالة من الفوضى، وأدت إلى تدفق اللاجئين إلى باكستان وإيران باطراد. كان اللصوص وقطاع الطرق يسيطرون على الطرق العامة، وكانوا يأخذون الأموال من الشاحنات والمسافرين قسراً وعنوة.

وفي صيف 1994م احتجز اللصوص قافلة على الطريق المؤدي إلى قندهار، ولم يكن بإمكان الحكومة الباكستانية أن تتدخل مباشرة، وكان هناك طلبة أفغان في المعاهد الدينية أبدوا استعدادهم للتدخل، فأذن جهاز الاستخبارات الباكستانية لهم بذلك وزودهم بالأسلحة. وهكذا انطلق نحو 2000 طالب وأطلقوا سراح القافلة المحتجزة، وأنقذوا امرأتين من قبضة قائد محلي جشع خالقين بذلك أسطورة. ومضوا ليستولوا على قندهار ثاني أكبر مدن البلاد، وكان الطلاب نموذجاً يقتدى به في سلوكهم؛ فلم يقتلوا أحداً بدافع الانتقام، وأقاموا السلام في ظل قانون إسلامي هادف إلى الخير والنفع العام.

وسلحت باكستان هذه الحركة ومولها السعوديون. وبحلول فبراير 1995م وصلت الحركة إلى جوار كابول التي لم تسقط ولكن هرات سقطت. وظهرت في هرات الإشارة الأولى إلى ماكان آتياً؛ فقد شنق شاب مشتبه بقتله اثنين من أعضاء طالبان على رافعة، بينما تليت آيات القرآن من مكبرات الصوت. وفي

26 سبتمبر 1996م دخلت طالبان كابول، وكانوا في ذلك الوقت جماعة مختلفة جداً عن تلك التي دخلت قندهار في الأيام الأولى.

كان الرئيس الأفغاني الأخير الموالي للاتحاد السوفييتي نجيب الله قد لاذ بمكتب الأمم المتحدة منذ سقوطه في أبريل 1992م، فخصته طالبان على رؤوس الأشهاد قبل أن تقتله. أما القوى المعادية لطالبان فإن الهزيمة دفعتها إلى التحالف مع بعضها بعضاً بعد أن كانت في حالة تشتت وانقسام سابقاً؛ إلا أنها انحصرت في قاعدة صغيرة في شمال البلاد، ولذلك أطلق عليها اسم التحالف الشمالي.

خدمت طالبان باكستان من نواح مهمة فضلاً عن ضمان استقرار متزايد القسوة. فقد ظل من أهداف إسلام أباد الاستراتيجية الثابتة إنهاء الأزمة على حدودها مع كل من الهند وأفغانستان في وقت واحد. وبوجود طالبان في كابول فإنه لم يكن هناك ما يدعو باكستان للقلق حيال حدودها الغربية. كما أن طالبان أصبحت حليفة "الدولة داخل دولة" التي في باكستان، وكان ذلك أمراً مريحاً للحكومة القائمة في إسلام أباد؛ إذ كان بإمكانها إبعاد الإرهابيين والجماعات التي لم تتمكن من إيوائهم في باكستان لئلا تكون عرضة للانتقاد من أمريكا. وكان أسامة بن لادن يندرج ضمن هذه الفئة.

في البداية ترددّت أمريكا في إبداء كثير من القلق، وربما تأثرت هي الأخرى بالحجج القائلة بأن ذلك يخدم "المصلحة الكبرى"، ولاسيما الحجج المقدمة من اللوبي البترولي. لقد أشرنا فيما سبق إلى شركة سوكال (Socal) وكيفية دخولها إلى السعودية؛ وقد طرحت هذه الشركة فكرة مدّ خط أنابيب من آسيا الوسطى إلى المحيط الهندي يمر من خلال أفغانستان، وتضمن "طالبان" المنيعة أمنه وقابليته للحياة.

كما أن التردد الأمريكي في مطاردة الأعداء في المنطقة نبع جزئياً من الإحراج؛ لأن كثيراً من الوحوش كانوا من صنيع المارد الذي يدعى وكالة

المخابرات المركزية (سي. آي. إيه). وعندما ألمح روبرت فوكس مدير مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) في نيويورك عبر التلفاز في 1993م إلى أن بعض منفذي تفجير مركز التجارة العالمي تلقوا التدريب على أيدي وكالة السي. آي. ايه، وجد على طاولته أمراً بإعفائه من وظيفته خلال عدة أسابيع، غير أنه لم يكن بإمكان واشنطن أن تكون شديدة الحساسية للأبد.

في فبراير 1998م عقد اجتماع في أفغانستان ضم كلاً من أسامة بن لادن، وأيمن الظواهري (من تنظيم "الجهاد" المصري)، ورحمن خليل (من جماعة الأنصار الباكستانية)، والبنجلاديشي عبدالسلام محمد، والمغربي أبو ياسر أحمد طه؛ واتفق هؤلاء على تنسيق محاولاتهم من خلال جبهة كفاح إسلامية. ومن المتعذر تأكيد أن كل ما حدث في 1998م كانت له صلة مباشرة بذلك الاجتماع؛ إلا أننا نستطيع أن نشير إلى الأحداث، ونضيف بأن أسامة بن لادن لم يخجل قط من نسبة أي مهمة جهادية في أمريكا إلى نفسه.

وفي يونيو أعلن أسامة الحرب على أمريكا في حوار مع جون ميلر مراسل محطة إيه بي سي نيوز. وربما لا يمكن إعلان شيء بوسيلة أكثر وضوحاً من ذلك. أثار ذلك قلق السعوديين؛ فمارسوا الضغط على "طالبان" التابعة لهم لإقناع أسامة بضبط النفس. وقد شهدت السعودية بالفعل شيئاً من نفوذ أسامة. ففي 13 نوفمبر 1995م هوجم مكتب عسكري سعودي ـ أمريكي في الرياض، وأسفر الهجوم عن مقتل خمسة أمريكيين. وفي 25 يونيو 1996م ضربت شاحنة محملة بالمتفجرات مجمعاً سكنياً للجنود الأمريكيين في مدينة الخُبر، ما أدى إلى مصرع 19 وإصابة أكثر من 400 بجروح. غير أن الملا عمر أعلن بوضوح أن أسامة صديق "طالبان" وضيف عليها، ولن يسلم في أي حال من الأحوال.

في 7 أغسطس 1998م اقتحمت شاحنات محملة بالمتفجرات السفارتين الأمريكيتين في دار السلام بتنزانيا ونيروبي بكينيا، وقتل في نيروبي 247 بينهم 12

أمريكياً، بينما قتل عشرة في دار السلام. أمر الرئيس بيل كلينتون بقتل أسامة؛ فضربت صواريخ كروز مخيماته في مدينة خوست بأفغانستان، كما ضربت ما اكتشف أنه مصنع للأدوية بالقرب من الخرطوم وذلك في 20 أغسطس 1998م. وقد سميت الخطة الأمريكية "عملية النفوذ اللا محدود"؛ لكنها لم تتمكن من النفاذ إلى أي مكان. وانتشرت فرق الاستخبارات الأمريكية في كل أنحاء العالم بحثاً عن مفاتيح وأدلة توصلهم إلى الجناة. وكان من أوائل من قبض عليهم فلسطيني يحمل الجنسية الكينية، وهو محمد صادق عودة. ولم يُقبض عليه في فلسطين أو كينيا وإنما في باكستان.

إن ثقافة البنادق والمخدرات التي رعاها الجنرال ضياء الحق التهمت مصداقية باكستان وموثوقيتها، وأصبحت تهديداً دائماً لاستقرارها الداخلي. وقد صرحت رئيسة الوزراء بي نظير بوتو عشية زيارتها للولايات المتحدة في أبريل 1995م أن وجود باكستان بذاته مهدد بثقافة المخدرات والبنادق هذه، وكانت حياتها مهددة من غير شك. وكان ممن حاولوا اغتيالها رمزي أحمد يوسف الذي أخفق في محاولة تفجير منزلها في إسلام أباد. ولم يحقق رمزي نجاحاً كاملاً كذلك عندما فجر مركز التجارة العالمي.

قبيل صدور الحكم القضائي بحقه قال رمزي أحمد يوسف للقاضي الأمريكي الصارم الفظ: "نعم أنا إرهابي وأفتخر بذلك"، مضيفاً أن أمريكا هي التي جعلته إرهابياً. وقال للأمريكان: "أنتم أسوأ من الإرهابيين؛ أنتم جزارون وكذابون ومنافقون".

لقد حلم رمزي أحمد يوسف بإطاحة برجي مركز التجارة العالمي لكنه اعتُقل؛ ومع ذلك سقط البرجان بعد ثماني سنوات في 11 سبتمبر 2001م لأن حلم رمزي لم يُعتقل. إن طالبان والقاعدة والمنظمات الأخرى التي تحلم بحلم مماثل تستطيع أن تبقى من دون حكومة أو حتى من دون دولة لأن التجنيد

يحدث في العقل، وليس بإمكانك خوض معركة في العقل بالقوات الخاصة وصواريخ كروز فحسب.

في 7 أكتوبر 2001م ردت الولايات المتحدة على أحداث 11 سبتمبر بإعلانها الحرب على طالبان وأسامة بن لادن والإرهاب. وكانت هزيمة طالبان وأسامة تامة ولكن غير حاسمة.

الجهاد لا ينتهي أبداً؛ في الأسبوع الأخير من يناير 2002م أرسل الصحافي جون اف. برنز الحائز على جائزة بولتزر، الذي غطى في السابق التطهير العرقي في البوسنة بطريقة معمقة، تقريراً إخبارياً من بلدة أزاخل بالا في باكستان إلى صحيفة "النيويورك تايمز":

> لا يلاحظ في سلوك إعجاز خان حسين وحديثه ما ينم عن الآلام التي شهدها عندما كان متطوعاً في حرب أفغانستان. السيد خان، وهو صيدلي تلقى التعليم في الكلية، انضم إلى الجهاد مثل آلاف الباكستانيين الآخرين الذين عبروا إلى أفغانستان، وعمل ممرضاً بالقرب من كابول حيث كان يتردد إلى ساحات القتال ويلتقط الجثث وأعضاء الجثث. وذكر أن 41 من بين 43 شخصاً سافروا معه إلى أفغانستان على متن شاحنة قد قُتلوا. فهل تخلى السيد خان والمقاتلون الآخرون عن الجهاد بعد هزيمة طالبان والقاعدة؟
>
> السيد خان، على الأقل، أكد أنه لم يتخل عن الجهاد وقال: "إننا ذهبنا للجهاد والفرح يغمرنا وسأذهب مرة أخرى غداً". وأضاف: "لو اختارني الله للشهادة لكنت في الجنة آكل العسل والبطيخ والعنب، وأعيش مع الحور العين كما وُعد بذلك في القرآن. ولكن قدر لي أن أبقى على هذه الأرض وسط التعاسة والشقاء".

إن الهزيمة ليست إلا نكسة في الحرب المقدسة. ويستمرّ الجهاد.

لائحة مقترحة للقراءة

إن موضوعاً كالذي يطرحه هذا الكتاب غالباً ما يكون مثقلاً بنصوص لا تصلح، كما يقتضي الحس السليم، للقراءة قبل النوم. وهذه اللائحة مصمّمة لتقديم مزيد من المعلومات، وفي عدد كبير من الحالات، تسلّط الضوء على نحو ممتع على عدد لا حصر له من زوايا التاريخ الذي انتقلنا خلاله. وربما يسرّك أن تعلم، والفضل في ذلك يعود إلى البيئة التي تشجّع على إعادة طباعة الكتب، أن المكتبات الجيّدة قد تكون مكاناً مفيداً لإيجاد هذه الكتب. ثمة ثلاثة كتب أساسية لأي دراسة عن الإسلام: القرآن الكريم أهمها. استخدمت الترجمة الكلاسيكية التي أنجزها عبد الله يوسف علي كمرجع قياسي (*The Holy Quran: Text, Translation and Commentary*, Islamic Propagation Centre International, Amana Corporation, 1989). وهو يضمّ أيضاً فهرساً مفيداً جداً. العمل الأساسي الثاني هو أحاديث النبي محمد التي جمعت في أربعة صحاح رئيسية. وقد استخدمت صحيح البخاري. والثالث سيرة النبي التي وضعها ابن إسحاق وترجمها ألفرد غيلوم (*The Life of Muhammad*, Oxford, 1955). وقد رجعت إلى المصادر العربية بالإضافة إلى الإنجليزية عند بحث الأحداث الكبرى في الحقبة المبكّرة، وقد تمكّنت من ذلك بفضل الترجمات الممتازة المتاحة الآن. ثمة تجدّد ملحوظ للاهتمام بالمصادر الأولية، وقد استخدمت العديد من المؤسسات مواردها لإيصالها إلى جمهور واسع. ومن الأمثلة الممتازة على ذلك ترجمة "بابرنامة" و"جهانكير نامة"، وهما تاريخان عن بلاط اثنين من أعظم أباطرة المغول في الهند، أخرجهما معهد سميثونيان في 1996 و1999 بالتعاون مع أكسفورد يونيفرسيتي برس. غير أنني استخدمت الترجمات التقليدية الصادرة عن بيفردجز في الربع الأول من القرن العشرين.

A Viceroy's India: Leaves from Lord Curzon's Notebook, Introduced by Elizabeth Longford; Sidgwick & Jackson, London, 1984.

Afnan, Soheil M. *Avicenna: His Life and Works*, George Allen & Unwin, London, 1958.

Aga Khan, H.H. *The Memoires of Aga Khan*, Simon and Schuster, New York, 1954.

Ahmad, S. Hasan, *Iqbal, His Political Ideas at the Crossroads*, Printwell, Aligarh, 1979.

Ahmad, Aijaz. *Lineages of the Present: Political Essays*, Tulika Print Communication Services, Delhi, 1996.

Ahmad, Aziz. *Studies in Islamic Culture in the Indian Environment*, Oxford University Press, Delhi, 1969.

Ahmed, Rafiuddin. *The Bengal Muslims, 1871-1906: A Quest for Identity*, Oxford University Press, Delhi, 1981.

Ajami, Fouad. *The Dream Palace of The Arabs: A Generation's Odyssey*, Vintage Books, New York, 1998.

Akbar, M.J. *India: The Siege Within - Challenges to a Nation's Unity*, Penguin, London, 1985.

Akbar, M.J. *Nehru: The Making of India*, Viking, London, 1988.

Akhund, Iqbal. *Memories of a Bystander: A Life in Diplomacy*, Oxford University Press, Karachi, 1997.

Al-Biruni, *Al-Biruni's India: An Account*, tr. E. Sachau, Chand, Delhi, 1964.

Alam, Asadollah. *The Shah and I*, LB. Tauris, London, 1991.

Albuquerque, A. *Commentaries of Alfonso de Albuquerque*, tr., W. de G. Birch, 4 Vols. London, 875-84.

Ali, Chaudhri Muhammad. *The Emergence of Pakistan*, Columbia University Press, New York, 1967.

Allami, Abu'l-Fazl. *The Ain-i-Akbari. Vol. I*, Oriental Books Reprint Corporation, New Delhi, 1977.

Allen, Charles. *Soldier Sahibs, The men who made the North West Frontier*. Abacus, London, 2000.

Anderson, Walter K. and Damle, Shridhar D. *The Brotherhood in Saffron: The Rashtriya Swayamsevak Sangh and Hindu Revivalism*, Vistaar Publications, Delhi, 1987.

Anwar, Raja. *The Terrorist Prince: The Life and Death of Murtaza Bhutto*, Vanguard Books, Lahore, 1988.

Arberry, A.J. *Sufism*, London, 1950.

Armstrong, Karen. *Muhammad: A Western Attempt to Understand Islam*, Victor Gollanz, London, 1991.

Armstrong, Karen. *A History of Jerusalem: One City, Three Faiths*, Harper Collins, London, 1997.

Armstrong, Karen. *Holy War*, Macmillan, London, 1988.

Athar Abbas, Saiyid. Shah *Abdul Aziz: Puritanism, Sectarian Polemics and Jihad*, Marifat Publishing House, Canberra, 1980.

Attar, Farid al-Din. *Muslim Saints and Mystics*, tr. A.J. Arberry, Routledge and Kegan Paul, London, 1966.

Battuta, Ibn. *Travels in Asia and Africa 1325-1354*, Routledge and Kegan Paul, London, 1984.

Baxter, Craig. *The Jana Sangh: A Biography of a Political Party,* University of Pennsylvania, Philadelphia, 1969.

Beha ed Din. *The Life of Saladin,* Committee of the Palestine Exploration Fund, London, 1897.

Bibliotheca Indica: A Collection of Oriental Works; The Tabakat-i- Akbari (Or A History of India from the Early Mussalman Invasions to the thirty-sixth year of the reign of Akbar) of Khwajah Nizamuddin Ahmad, tr. B. De, Asiatic Society, Calcutta, 1913.

Biddulph, John. *Tribes of Hindoo Kush,* Ali Kamran Publishers, Lahore, 1986.

Brown, Judith M. *Gandhi's Rise to Power: Indian Politics 1915-1922,* Cambridge University Press with Blackie India, 1972.

Burnes, Alexander. *Cabool, Being a personal narrative of a journey to, and residence in that city, in the years 1836, 7 and 8,* Munshiram Manoharlal Publishers Private Limited, New Delhi, 2001.

Burton, Richard F. *Pilgrimage to Al-Madinah and Mecca,* Tylston and Edwards, London.

Busbecq, Ogier de. *Turkish Letters.* Sickle Moon Books, London, 2001.

Busteed, H.E. *Echoes from Old Calcutta: Reminiscences of the days of Warren Hastings, Francis and Impey,* Rupa, Delhi, 2000.

Cantwell Smith, Wilfred. *Modern Islam in India; A Social Analysis,* V. Gollancz, London, 1943.

Cantwell Smith, Wilfred. *Islam in Modern History,* Princeton University Press, 1957.

Chagla, M.C. *Roses in December: An Autobiography,* Bharatiya Vidya Bhavan, Bombay, 1974.

Chand, Tara. *History of the Freedom Movement in India,* Government of India Publications Division, Delhi, 1977.

Chandler, David, (general editor) *The Oxford Illustrated History of the British Army,* Oxford University Press, Oxford, 1994.

Chatterjee, Joya. *Bengal Divided: Hindu Communalism and Partition, 1932-1947,* Cambridge University Press, 1996.

Chatterjee, Partha. *The Nation and its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories,* Oxford University Press, New Delhi, 1993. Chatterjee, Partha. *Nationalist Thought and the Colonial World,*

Oxford University Press, New Delhi, 1986.

Chatterji, Bankim Chandra. *Anandamath,* tr. and adapted from original Bengali by Basanta Koomar Roy, Orient Paperbacks, New Delhi, 1992.

Chaudhuri, Nirad C. *Clive of India: A Political and Psychological Essay,* Barrie & Jenkins, London, 1975.

Ciardi, John. *The Inferno: Dante's Immortal Drama of a Journey Through Hell,* Mentor, New York, 1982.

Cloughley, Brian. *A History of the Pakistan Army: Wars and Insurrections,* Oxford University Press, Karachi, 1999.

Cooley, John K.E. *Unholy Wars: Afghanistan, America and International Terrorism,* Penguin, 2000.

Currie, P.M. *The Shrine and Cult of Muin al-din Chishti of Ajmer,* Oxford University Press, Bombay, 1989.

Daniel, Norman. *Islam and the West: The Making of an Image,* The University Press, Edinburgh, 1958.

Dupree, Louis. *Afghanistan,* Princeton University Press, 1980.

Eden, Emily. *Up the Country: Letters from India.* Curzon Press, London and Dublin, 1978.

Elst, Koenraad. *Ayodhya and After: Issues Before Hindu Society,* Voice of India, Delhi, 1991.

Embree, Ainslee T., Hay, Stephen, ed. *Sources of Indian Tradition - Volumes I and II,* Viking, Delhi, 1988, 1991.

Ferrier, R.W. *A Journey to Persia: Jean Chardin's Portrait of* a *Seventeenth Century,* I.B. Tauris, London, 1996.

Fisher, Michael H. *A Clash of Cultures: Awadh, the British and the Mughals,* Manohar, Delhi, 1987.

Fletcher, Richard. *Moorish Spain,* Phoenix Giant, London, 1992.

Friedman, Thomas L. *From Beirut to Jerusalem,* Anchor Books, Doubleday, New York, 1990.

Fyzee, Asaf A.A. *Outlines of Muhammadan Law,* London, 1949.

Gabrieli, Francesco. *Arab Historians of the Crusades,* Dorset Press, New York, 1989.

Garrett, John. *A Classical Dictionary of Islam,* Rupa, Delhi, 2000.

Geertz, Clifford. *Islam Observed: Religious Development in Morocco and Indonesia,* The University of Chicago Press, Chicago, 1968.

Gerald of Wales. *Opera,* J.S. Brewer, ed. Longman and Company, London, 1861.

Ghazals of Ghalib: Versions from Urdu. ed. Ahmad, Aijaz, Oxford University Press, Delhi, 1994.

Gibb, H.A.R., and H. Bowen. *Islamic Society and the West,* London, 1957 Gibb, H.A.R. *Modern Trends in Islam,* London, 1945.

Gibbon, Edward. *Decline and Fall of the Roman Empire,* Seven Volumes. AMS Press, New York, 1974.

Glubb, John Baggot. *The Great Arab Conquests,* Prentice Hall Inc., Englewood Cliffs, New Jersey, 1963.

Godse, Nathuram. *Why I assassinated Mahatma Gandhi,* Surya Bharti Prakashan, 1993.

Golwalkar, M.S. *Bunch of Thoughts,* Jagarana Prakashana, Bangalore, 1966.

Gommans, Jos J.L. *The Rise of the Indo-Afghan Empire, c. 1710- 1780,* Oxford University Press, Delhi, 1995.

Goodwin, Goodfrey. *Islamic Spain: Architectural Guides for Travellers,* Penguin, London, 1990.

Gopal, Sarvepalli. *Anatomy of a Confrontation: The Babri Masjid- Ram Janmabhumi,* Viking, 1991.

Gopal, Sarvepalli. *Jawaharlal Nehru: A Biography,* Oxford University Press, 1984.

Gordon, Stewart. *Marathas, Marauders, and State Formation in Eighteenth- Century India,* Oxford University Press, 1994.

Guillaume, Alfred. *Islam.* Penguin, London, 1954.

Guillaume, Alfred. *The Life of Muhammad,* Oxford, 1955.

Gupta, Narayani. *Delhi between two Empires 1803-1931,* Oxford University Press, Delhi, 1981.

Habib, John S., *Ibn Saud's Warriors of Islam: The Ikhwan ofNajd and their Role in the Creation of the Saudi Kingdom,* 1910-1930, E.J. Brill, Leiden 1978. Humanities Press/ New Jersey, 1978.

Hall, Richard. *Empires of the Monsoon,* Harper Collins, London, 1998.

Harrison, Selig S. *India: The Most Dangerous Decades,* Oxford University Press, 1960.

Harvey, Robert. *Clive: The Life and Death of a British Emperor,* Hodder and Stoughton, London, 1998.

Hasan, Mushirul. *Nationalism and Communal Politics in India,* Manohar, New Pelhi, 1991.

Heber, Bishop, R. *Narrative of a Journey through the Upper Provinces of India,* John Murray, London, 1849.

Henderson, Michael. *Experiment with Untruth: India Under Emergency,* Macmillan, New Delhi, 1977.

Hersh, Seymour M. *The Samson Option: Israel's Nuclear Arsenal and American Foreign Policy,* Random House, New York, 1991.

Hersh, Seymour M. *Kissinger, The Price of Power,* Faber and Faber, London, 1983.

Herzog, Chaim. *The Arab-Israeli Wars,* Arms and Armour Press, London, 1982.

Hiro, Dilip. *Islamic Fundamentalism,* Paladin, London, 1988.

Hitti, Philip K. *History of the Arabs,* Macmillan, London, 1937.

Hobsbawm, Eric. *The Age of Empire, 1875-1914,* Random House, New York, 1989.

Holden, David and Johns, Richard. *The House of Saud,* Sidgwick and Jackson, London, 1981.

Holt, P.M. *The Age of the Crusades,* Longman, London, 1986.

Hopkirk, Peter. *The Great Game,* John Murray, London, 1970.

Hopkirk, Peter. *Setting the East Ablaze,* John Murray, London, 1970.

Hunter, W.W. *The Indian Mussalmans.* Lahore, 1968, repeat from the 1871 edition.

Huntington, Samuel P. *The Clash of Civilizations and the Remaking of the New World Order,* Simon and Schuster, New York, 1966.

Hyam, Ronald. *Empire and Sexuality: The British Experience,* Manchester University Press, 1992.

Ibn Jubayr. *The Travels of Ibn Jubayr,* tr. R.J.C. Broadhurst, Jonathan Cape, London, 1952.

Ibn Khaldun, *The Muqaddimah: An Introduction to History,* tr. F. Rosenthal, ed. and abridged by J. Dawood, London, 1978.

Iqbal, Mohammad. *The Reconstruction of Religious Thought in Islam,* Javid Iqbal, Ashraf Press, Lahore, 1951.

Irving, Washington. *Tales of the Alhambra,* Ediciones Miguel Sanchez, Granada, 1994.

Islam and Revolution. Iman Khomeini's Writings and Declarations: Tr. and annotated by Hamid Algar, KPI Ltd, England, 1985.

Jackson S.J., Paul. tr. *Sharafuddin Maneri: The Hundred Letters,* Better Yourself Books, Bombay, 1985.

Jaffrelot, Christopher. *The Hindu Nationalist Movement and Indian Politics 1925 to the 1990s,* Penguin, Delhi, 1993.

Jalal, Ayesha. *The State of Martial Rule. The Origins of Pakistan's Political Economy of Defence,* Vanguard, Lahore, 1991. Jalal, Ayesha. *The Sole Spokesman. Jinnah, the Muslim League and the Demand for Pakistan,* Cambridge University Press, 1985.

Juvaini, Ata-Malik. *Genghis Khan: The History of the World Conqueror,* tr. and ed. J.A. Boyle, University of Washington Press, Seattle, 1997.

Kabir, Humayun. *Muslim Politics 1906-47 and Other Essays,* Firma K.L. Mukhopadhyay, Calcutta, 1969.

Kaye, John William. *Lives of Indian Officers,* A. Strahan and Co., Ludgate Hill, Bell and Daldy, York Street, Covent Garden, 1867.

Keay, John. *India: A History,* Harper Collins, London, 2000.

Keay, John. *The Gilgit Game,* Oxford University Press, Karachi, 1993.

Keay, John. *The Honourable Company - A History of the East India Company,* Harper Collins, 1991.

Keddie, Nikki. *An Islamic Response to Imperialism,* University of California Press, 1968.

Khan, M. Ayub. *Friends not Masters, A Political Biography,* Oxford University Press, London, 1967.

Khan, Roeded. *Pakistan - A Dream Gone Sour,* Oxford University Press, Karachi, London, 1998.

Khan, Sultan M. *Memories and Reflections of a Pakistani Diplomat,* The Centre for Pakistan studies, London, 1997.

Lawrence, T.E. *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph,* Anchor Books, Doubleday, 1991.

Lelyveld, David. *Aligarh's First Generation,* Princeton University Press, 1977.

Lewis, Bernard. *The Political Language of Islam,* The University of Chicago Press, Chicago and London, 1988.

Lewis, Bernard. *The Middle East: History of Civilisation,* Weidenfeld and Nicolson, 1995.

Lewis, Bernard. *Islam and the West,* Oxford University Press. New York, 1993.

Lewis, Bernard. *The Jews of Islam,* Princeton University Press, 1984.

Lewis, Bernard. *The Assassins,* Saqi Books, London, 1985.

Lichtenstadter, Use. *Introduction to Classical Arabic Literature,* Twayne Publishers Inc., New York, 1974.

Lings, Martin. *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources,* George Allen and Unwin, London, 1982.

Maalouf, Amin. *The Crusades Through Arab Eyes,* tr. John Tothschild, Al Saqi Books, London, 1984. Maalouf, Amin. *Samarkand,* tr. Russell Harris, Abacus, London 1994.

MacMunn, George. *The Martial Races of India,* Mittal Publications, Delhi, 1979.

Making India Hindu: Religion, Community, and the Politics ofDemocracy in India, ed. David Ludden, Oxford University Press, Delhi, 1996.

Mansel, Philip. *Constantinople: City of the World's Desire 1453- 1924,* Penguin, London, 1995.

Manucci, Niccolao. *A Pepys of Mogul India 1653-1708,* Srishti Publishers and Distributors, Delhi, 1999.

Mason, Philip. *Skinner of Skinner's Horse,* Clarion Books, Delhi, 1979. Mason, Philip. *A Matter of Honour: An Account of the Indian Army and its Officers and Men,* Penguin, London, 1974.

Masselos, Jim. *Indian Nationalism,* Sterling, Delhi, 1985.

Memoirs of Lt. Gen. Gul Hassan Khan, Oxford University Press, Karachi, 1993.

Metcalf, Barbara Daly. *Islamic Revival in British India: Deoband, 1860-1900,* Princeton, 1982.

Meyer, Karl E. and Blair Brysac, Shareen. *Tournament of Shadows: The Great Game and the Race for Empire in Central Asia, A* Cornelia and Michael Bessie Book, Washington, 1999.

Miles, Jack. *Christ: A Crisis in the Life of God,* Random House, London, 2001.

Minault, Gail. *The Khilafat Movement: Religious Symbolism and Political Mobilization in India,* Columbia University Press, New York, 1982.

Moon, Penderel. *The British Conquest and Dominion of India,* Gerald Duckworth, London, 1989.

Morris, James. *Heaven's Command: An Imperial Progress; Pax Brittanica; Farewell the Trumpets: An Imperial Retreat* (Trilogy), Penguin, London, 1979.

Mottahedeh, Roy. *The Mantel of the Prophet. Religion and Politics in Iran,* Penguin, London, 1987.

Muhammad, Iqbal. *Reconstruction of Religious Thought in Islam,* London, 1934.

Muhammad, Iqbal. *The Secrets of the Self: Allama Iqbal's Asrar-i- Khudi,* Introduction by Reynold A. Nicholson, Lahore, 1955.

Muhammad Iqbal: *Shikwa and Jawab-i-Shikwa; Complaint and Answer: Iqbal's dialogue with Allah,* tr. Khushwant Singh, Oxford University Press, Delhi, 1981.

Mujeeb, M. *The Indian Muslims,* Allen and Unwin, London, 1967. Mukhopadhyay, Tarun Kumar. *Hicky's Bengal Gazette, Contemporary Life and Events,* Subarnarekha, Calcutta, 1998.

Nasr, Seyyed Hossein. *Ideals and Realities of Islam,* London, 1966. Nasr, Seyyed Hossein. *Islamic Art and Spirituality,* Oxford University Press, 1990.

Nehru, Jawaharlal. *Discovery of India,* Signet Press, Calcutta, 1946.

Newby, Eric. *A Short Walk in the Hindu Kush,* Picador, London, 1974.

Niazi, A.A.K. *The Betrayal of East Pakistan,* Oxford University Press, Karachi, 1998.

Nicholson, Reynold A. *The Mystics of Islam,* Arkana, 1989.

Page, David. *Pakistan: Past and Present,* Stacey International, London, 1977.

Page, David. *Prelude to Partition: The Indian Muslims and the Imperial System of Control, 1920-1930,* Manohar, New Delhi, 1982.

Palmer, Alan. *The Decline and Fall of the Ottoman Empire,* John Murray, London, 1992.

Panikker, K.M. *Malabar and the Portuguese,* Bombay, 1929.

Parrinder, Geoffrey. *Jesus in the Quran,* Oneworld Publications, England, 1965.

Pirzada, Syed Sharifuddin (ed). *Foundations of Pakistan: All India Muslim League Documents,* National Publishing House, Karachi, 1969.

Potter, David C. *India's Political Administrators: From ICS to IAS*, Oxford University Press, Delhi, 1996.

Prasad, Bimal. *The Foundation of Muslim Nationalism, Pathway to India's Partition, Volume I; A Nation within Islam: Pathway to India's Partition Volume II.* Manohar, Delhi, 1999 and 2000.

Raeside, Ian. *The Decade of Panipat (1751-56)*, tr. from Marathi, Popular Prakashan, Bombay, 1984.

Rashid, Ahmed. *Taliban: Islam, Oil and the New Great Game in Central Asia*, LB. Tauris, London, 2000.

Reif, Stefan C. *A Jewish Archive from Old Cairo*, Curzon Press, Surrey, 2000.

Reston Jr., James. *Warriors of God: Richard the Lionheart and Saladin in the Third Crusade*, Faber and Faber, 2001.

Rodinson, Maxime. *Mohammed*, tr. Anne Carter, Penguin, London, 1971.

Rodinson, Maxime. *Islam and Capitalism*. Penguin, London, 1997.

Rosabi, Morris. *Khubilai Khan: His Life and Times*, University of California Press, Berkeley, Los Angeles, 1998.

Rosenthal, Erwin. *Islam in the Modern National State*, Cambridge University Press, 1965.

Runciman, Steven. *History of the Crusades*, Cambridge University Press, 1951.

Russell, Ralph and Islam, Khurshidul. *Ghalib: Life and Letters*, Oxford University Press, Delhi, 1994.

Ruthven, Malise. *Islam in the World*, Penguin, London, 1984.

Said, Edward W. *Orientalism: Western Concepts of the Orient*, Penguin, 1995.

Salik, S. *Witness to Surrender*, Oxford University Press, Karachi, 1978.

Sampson, Anthony. *The Seven Sisters: The Great Oil Companies and the World They Made*, Hodder and Stoughton, London, 1975.

Sanyal, Usha. *Devotional Islam and Politics in British India: Ahmad Riza Khan and his Movement* 1870-1920, Oxford University Press, Delhi, 1996.

Sarkar, Jadunath. *The History of Bengal.* Vol. 2. *The Muslim Period 1200-1757*, ed., Dacca, 1948.

Saunders, J.J. *The History of Mogul Conquests*, Routledge and Kegan Paul Limited, London, 1971.

Segev, Tom. *One Palestine, Complete: Jews and Arabs under the British Mandate*, Little, Brown and Company, London, 2000.

Sengupta, Nitish. *History of the Bengali-Speaking People*, UBS Publishers' Distributors Limited, Delhi, 2001.

Sharar, Abdul Halim. *Lucknow: The Last Phase of an Oriental Culture*, tr. and ed. E.S. Harcourt and Fakir Hussain, Paul Elek, London, 1975.

Sharma, Dasharatha. ed. *Rajasthan Through the Ages, Vol. I*. Rajasthan State Archives, 1966.

Singh, Khushwant. *A History of the Sikhs, 2 Volumes*, Oxford University Press, Delhi, 1977.

Sleeman, W.H. *Rambles and Recollections of an Indian Official*, London, 1844.

Spear, Percival. The *Nabobs*, Curzon Press, London and Dublin, 1980.

Stein, Aurel. *On Alexander's Track of the Indus*, Phoenix Press, London, 2001.

Stephens, Ian. *Pakistan: Old Country, New Nation*, Pelican, Great Britain, 1964.

Studdert-Kennedy, Gerald. *Providence & the Raj: Imperial Mission and Missionary Imperialism,* Sage Publications, Delhi, 1998.

Talbot, Ian. *Pakistan: A Modern History,* Hurst and Company, London, 1998.

Tendulkar, D.G. *Mahatma: The Life of Mohandas Karamchand Gandhi,* 8 Volumes, Government of India Publications Division, Delhi, 1951.

The Days of John Company: Selection from Calcutta Gazette 1824-1832, Das Gupta, Anil Chandra, ed. West Bengal Government Press, Calcutta, 1959.

Tod, Colonel James. *Annals and Antiquities of Rajasthan or The Central and Western Rajput States of India,* ed. W. Crooke, reprint, Oxford University Press, London, 1920.

Trench, Charles Chenevix. *Viceroy's Agent,* Jonathan Cape, London, 1987.

Troll, Christian. *Sayyid Ahmad Khan: A Restatement of Muslim Theology,* New Delhi, 1978.

Tuker, F.I.S. Wh/7e *Memory Serves,* Cassell, London, 1950.

Verrier, Anthony. *Francis Younghusband and the Great Game,* Jonathan Cape, London, 1991.

Viceroy's Personal Reports. In the series *India, The Transfer of Power,* HMSO, London, 1980, 1981, 1983.

Waliullah, Shah. Shah *Waliullah ke Siyasi Maktubat,* ed. Khaliq Ahmad Nizami, Delhi, 1969.

Watt, W. Montgomery. *Islam and the Integration of Society,* Routledge and Kegan Paul, London, 1961.

Weir, Alison. *Eleanor of Aquitaine,* Pimlico, London, 2000.

Willey, Peter. *The Castles of the Assassins,* Craven Street Book, George G. Harrap, London, 1963.

Winius, George D. and Vink, Marcus P.M. *The Merchant Warrior Pacified. The VOC (the Dutch East India Company) and its Changing Political Economy in India,* Oxford University Press, Delhi, 1994.

Wink, Andre. *Al-Hind: The Making of the Indo-Islamic World, Volume I, Early Medieval India and the Expansion of Islam. Seventh to Eleventh Centuries,* Oxford University Press, Delhi, 1990.

Wolpert, Stanley. *Jinnah of Pakistan,* Oxford University Press, New York, 1984.

Younghusband, Francis. *The British Invasion of Tibet,* The Stationary Office, London, 1999.

Zakaria, Rafiq. *The Man Who Divided India,* Popular Prakashan, Mumbai, 2001.

Zakaria, Rafiq. *Muhammad and the Quran,* Penguin, Delhi, 1991.

Zakaria, Rafiq. *The Struggle Within Islam,* Viking, Delhi, 1988.